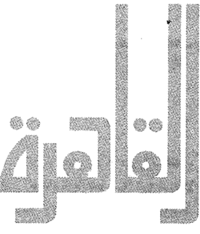


مجلة الفكر والفن المعاصر

القاهرة

العدد (١١٩) أكتوبر ١٩٩٢

لوحة الغلاف الأول :
«الزنجية»
لوحة قص ولصق
للفنان هنرى ماتيس .



مجلة الفكر والفن المعاصر

شهرية تصدر يوم ١٥ من كل شهر . الناشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب



العدد (١١٩) أكتوبر ١٩٩٢

الثمن فى مصر : جنيه واحد :

الثمن فى الخارج :

الكويت ٧٥٠ فلسا — قطر ١٠ ريالات — البحرين ١٠٠٠ فلس — سوريا ٦٠ ليرة — لبنان ٢٠٠٠ ليرة — الأردن ٧٥٠ فلسا — السعودية ١٠ ريال — السودان ٢٣٥ ق — تونس ٢٢٥٠ مليم — الجزائر ١٤ دينار — المغرب ٣٠ درهم — اليمن ٥٠ ريال — ليبيا ٨٠ دينار — الإمارات ١٠ دراهم — سلطنة عمان ١٠٠٠ بيزه — غزة والضفة والقدس ١٢٥ سنت — لندن ٢٠٠ بنس — الولايات المتحدة ١٠ دولار .

الإشتراكات فى مصر :

عن سنة (١٢ عددا) ١٢ جنيها مصريا شاملا البريد .

الإشتراكات من الخارج :

عن سنه (١٢) عددا ١٤ دولارا للأفراد ، ٢٨,٧ دولارا للهيئات مضافا إليها مصاريف البريد (البلاد العربية ٦ دولارات - امريكا وأوربا ١٨ دولارا) .

العنوان : مجلة القاهرة - جمهورية مصر العربية - القاهرة- ١١١٧ كورنيش النيل - فاكس 754213 . ت / ٧٤٩٤٥٥



من المحــــــــــــــــــــرر

لم نكن نتوقع في أية لحظة أن الطريق أمامنا مفروش بالزهور . كنا ندرى أننا نحيا في « واقع » مليء بمختلف دواعي الاحباط وعناصر اليأس وحوافز اللامبالاة ، وأن الحركة الثقافية في بلادنا تعاني ويلات موروثة وأخرى مستجدة أفرزتها المتغيرات السلبية داخل الحدود وخراجها على السواء .

ولكنا كنّا ندرى في الوقت نفسه أن « الواقع » أكثر تركيبا من ظواهره المرئية للعين المجردة ، وان خفاياه أكثر تعقيدا من الرؤية المبسطة ، وأن كوامن التحدى ودوافع المقاومة لا تقل إغراء عن مبررات الاستسلام .

وقد اخترنا،كغيرنا من المقاتلين ضد ظلمة اليأس ، أن نراهن على الواقع الخفيّ عن الأنظار ، واقعنا المصرى والعربى المتعطش إلى الرؤى الجديدة والأفكار المغايرة والمشاريع المختلفة . هذا العطش الذى يتجلى في الانتاج الثقافي والاستهلاك على السواء ، وفي الإبداع والتلقى معاً ، في الارسال والاستقبال .

وكنا نقول دائماً في هيئة تحرير « القاهرة » من داخلها وخارجها إن « المشروع » الذى اعددنا أنفسنا لانجازه ، ليس مشروعا نهائيا أو تصوراً كاملاً لا يتطلب سوى التنفيذ أو التطبيق . وإنما هو مشروع قائم أولاً وأخيراً على الحوار ، فهو دائماً قيد التشكل والتكامل ، لا يعبر عنه صوت واحد أو مجموعة من الاصوات ، بل تصوغه في كل عدد هذه الأقلام والاجتهادات الجسورة التى تشاركنا بناء المشروع يداً بيد . وتصوغه رسائل القراء اليومية التى تقدح الذهن بالاقتراحات والنقد . مشروع « القاهرة » إذن ليس مشروعاً منتهياً أو عدة أعداد وإنما هو مشروع مستمر في الافصاح عن رؤاه طالما ظل قائماً على الحوار بين تجليات العقل العربى والإبداع العربى ، وبيننا وبين العالم . وطالما بقيت شعلة التحدى للظلام المحيط . تجد من يحملها فكراً وابداعاً وتواصلاً .

ولكن استمرارية المشروع تعنى وجوده أولاً . وهنا لا بأس من التكرار بأن « القاهرة » ليست كشكولاً جميلا من الأفكار المتناثرة والإبداعات المتفرقة التى لا يربط بينها سوى « الجودة » مثلا ، أو « التنوع » مثلا ، أو حتى « الاتجاه » أو « الجيل » . كلاّ ، فلسنا ارشيفا لامعاً عنوانه « من كل بستان زهرة » ، ولسنا في المقابل مجلة أدبية أو فلسفية أو سياسية . مشروعنا ببساطة أن تكون « القاهرة » منبراً للعقل المصرى والعربى المعاصر في حواره مع نفسه والآخرين . لذلك لم يكن تبويب المجلة من « مواجهات » و « فصول وغايات » و « مراجعات » و « ايقاعات ورؤى » و « اشارات وتنبيهات » من قبيل الاستعارة التراثية أو من قبيل المصادفات . وإنما كنا نعنى دلالة الالفاظ وما تحتويه من معان دقيقة ، عمودها الفقرى هو الحوار حول القضايا المطروحة بالحاح على وطننا وعصرنا بمواجهة الحاضر ، ومراجعة السائد وغايات المستقبل والرؤى القادرة على الوصل بين المجهول والمعلوم والتنبيه إلى ما يجرى من حولنا في الدنيا بأسرها .

وقد يجد هذا المشروع خصوماً كثيرين ، وهو يواجه بالفعل تحديات عديدة ، ولكن رهاننا هو الواقع الأكثر تعقيدا من مظاهر اليأس ، وأن مشروعنا لا نملكه وحدنا ، وأنه يتكامل ويتآخى مع غيره بمواصلة المقاومة ■

أكتوبر .. بين

قد عاش الشعب المصرى والأمة العربية كلها فى حالة حرب مستمرة منذ عام ١٩٤٨ . وحالة الحرب هى ما يسبق الحرب وما يلحق بها . والعدو واحد طيلة هذه العقود الأربعة ونصف العقد . حتى الحرب الأهلية اللبنانية لم تكن «إسرائيل» بعيدة عنها بل فى القلب منها . وأيضا حرب الخليج الأولى والثانية كانت «إسرائيل» هناك إما أنها تغذى إيران بالسلاح والمعلومات ، وإما أنها تغذى العراق بأدوات التضليل وشعارات الخديعة .

حرب مستمرة عاشها واكتوى بنارها أكثر من جيل عربى فى التاريخ المعاصر . ولم تكن النيران دائماً هى نيران الأسلحة ، وإنما كانت فى كثير من الأحيان نيران المعانى والأفكار والقيم .

عشنا زمناً طويلاً ، وبعضنا لا يزال ، على أن الأرض كلها أرضنا ورفضنا التقسيم واتهمنا الذين وافقوا عليه بالمروق . وفى ضوء هذا المعنى كانت هويتنا كعرب ونظام حياتنا وأحلام مستقبلنا وأسلوب معيشتنا وطرائق تفكيرنا لها مدلول ارتضيناه وسلمنا به وأرضعنا به أطفالنا . ولكن الزمن كان أقوى من الرضاعة ، فبعد عشرين عاماً من « النكبة » كما أسميناها ، كانت « النكسة » كما دعوناها . وإذا بنا نتنازل عن « رفض التقسيم » وننادى « بإزالة آثار العدوان » من الضفة الغربية وقطاع غزة . كان ذلك ثمن الهزيمة ، وفى ضوء هذا المعنى تغيرت مفاهيم الهوية ، وأسلوب الحياة ، وأحلام المستقبل ، وأنماط التفكير .

ومع ذلك فإن المفاهيم الجديدة كالمفاهيم القديمة لم تنسجم مع الواقع فالحقيقة هى أن « إسرائيل » ما كانت فى الماضى ترضى بالتقسيم ولا أصبحت فى الحاضر قادرة على السلام . إنها مجتمع عسكرى لا يعيش بغير الحرب ، تفرضها فرضا حين يتجنبها الآخرون . لذلك أقبلت حرب أكتوبر وهى تطمح لأن تكون « آخرالحروب » وعاش الجيل الجديد محاصراً بفكرة السلام والرخاء والحرية . ولكن ما حدث فى لبنان والأراضى المحتلة (الضفة والقطاع) من همجية إسرائيلية انتزعت أحلام السلام انتزاعاً . وجعلتنا دوماً فى حالة حرب . وهى « حالة » بما تشتمل عليه من مقدمات ونتائج . ومن ثم فهى الحالة التى خيمت على المثقفين تفكيرا وتحركا وأملت عليهم مواقف فى الثقافة والحياة ما كانوا يمارسونها لولا « الحرب » المستمرة . وهى حالة متغيرة من جيل إلى جيل . أزعم أنها تركت أعمق الأثر على الكتابة العربية ومشاريع التنمية وأساليب الحكم والقوام الاجتماعى .

وسوف أضرب هنا مثلاً واحداً هو حرب أكتوبر والثقافة المصرية . ولست بحاجة إلى القول إن « الثقافة » التى أعنيها هى أنماط الفكر ومعايير السلوك . أى أننى أقصد العمق الاجتماعى للفعل الثقافى .

وأول ما يخطر على البال فى هذا السياق أن المثقفين المصريين لعبوا دورا هاماً فى اتخاذ قرار الحرب . منذ هزيمة ١٩٦٧ إلى أكتوبر ١٩٧٣ وما بعدها . وهذه النقطة بالرغم من أهميتها إلاّ أن نصيبها من الدراسة كان ومازال إلى اليوم ضئيلاً . فحرب أكتوبر تستوقف الباحثين عادة إما عند أعتاب « الثقافة » التى أفرزتها الحرب كعملية قتالية ، أى تلك المقالات والقصص والأناشيد والمسرحيات والأغانى التى « واكبت » العمليات العسكرية ، وإما أنها تتجاوز هذه الاعتاب إلى « تسجيل » انتصارات الأيام الأولى ، بدءا من العبور إلى شرق القناة وانتهاء بفك الحصار عن الجيش الثالث وتصفية ثغرة الدفرسوار تصفية سلمية عن طريق المفاوضات .

وهناك ثقافة أخرى تنتسب إلى حرب أكتوبر ، لا علاقة لها بالأدب والفن غالبا ، وإنما لها علاقة بالمتغيرات السياسية التى وقعت فى مصر ومحيطها العربى غداة الحرب .

ولكنى سأختار مدخلاً مغايراً للمداخل الثلاثة السابقة ، لأن مواكبة الحرب وتسجيلها رغم أهميتها البالغة ، إلاّ أنها تظل فى مكانها فوق السطح

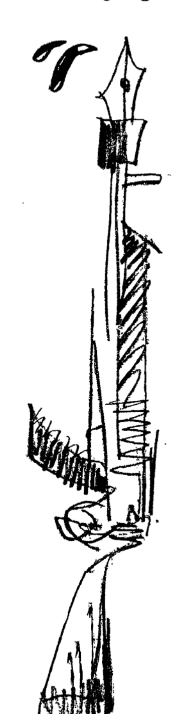
المثقفين والحرب

الساخن أو البارد للأحداث أقرب ما تكون إلى الديكور الإعلامي والتوجيه الحماسي في الشطر الأول - وأشبه ما تكون إلى العمل الأرشيفي في الشطر الثاني .

لذلك أفضل أن يكون « البعد الثقافي » لحرب أكتوبر هو البعد الذي يقترب في مصر بالدور الهام للمثقفين المصريين عشية وغداة الحرب . وهو دور لا ينعزل لحظة واحدة عن دور المثقفين العرب عامة ، والمثقفين السوريين على وجه الخصوص . ولا ينعزل عن الدور الذي لعبه الجيشان والشعبان المصري والسوري جنبا إلى جنب مع بقية شعوب الأمة العربية .

ولكنني أحصر كلامي هنا بمدلول حالة الحرب وانعكاسها على مثقفي مصر ، كنموذج على تغير المفاهيم من مرحلة إلى أخرى .

إن الحرب لم ولن تكون عملاً عسكرياً أو سياسياً فقط . بل هي عمل فكري واجتماعي وثقافي طول الوقت ، سواء في صفوف الخطوط الأمامية أم في صفوف الخطوط الخلفية . وهذا العمل الاجتماعي - الثقافي لا يولد ، بطبيعة الحال ، خلال أيام الحرب ، وإنما هو عملية تاريخية سابقة على الحرب وتالية لها . والحرب بنتائجها وأحداثها تضيف إلى هذه العملية التاريخية وعيا جديداً إلى الثقافة القومية .



إن الطفل الذي ولد عام ١٩٥٣ هو الجندي الذي حارب عام ١٩٧٣ ، ولابد أن ثقافة العشرين عاماً هي التي حفرت أخاديد الوعي في عقله ووجدانه وحتى جسده ، فالثقافة ليست ما قرأ في الكتب والصحف أو ما سمّع من الإذاعة وما شاهد في التليفزيون فحسب ، وإنما الثقافة هي أسلوب الحياة التي عاشها من علاقات اجتماعية وقيم .

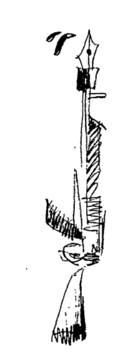
ولم تكن مصر قد شاهدت أية مظاهرات منذ عام ١٩٥٤ ، حين اضطربت البلاد عام ١٩٦٨ اضطرابا طلابيا - عماليا مشهودا في فبراير ونوفمبر من ذلك العام . وكان السبب المباشر - وهو أحكام الطيران - مجرد مناسبة للخروج الكبير مرتين في سنة واحدة من جانب الفئة التي تدين لثورة يوليو بالوجود . فهؤلاء الطلاب من أبناء العمال والفلاحين وصغار الموظفين ، أبناء الضباط والجنود وصغار التجار ، هم الذين فازوا من بين أجيال مصر الحديثة بمجانية التعليم في كل المراحل . ولكن ها هي مظاهراتهم تدشن « حرب الاستنزاف » وتفرض « بيان ٣٠ مارس » ، أي أنها تطالب دون التواء بالتحرير جنبا إلى جنب مع الديمقراطية .

كان الطلاب في هذا التحرك وكلاء الطبقات الاجتماعية المحرومة من التنظيمات والمنابر المستقلة . وقد أوقفت

حرب الاستنزاف والافراج عن بعض المعتقلين وإعادة محاكمة بعض المسئولين هذا التحرك لمدة عامين ، ثم كانت أحداث سبتمبر ١٩٧٠ فى مصر والاردن ، سبباً آخر فى مد حالة الهدوء عاماً آخر . ولكن عام ١٩٧٢ كان التجديد الارقى لانتفاضة ١٩٦٨ .

وقد شمل التحرك هذه المرة كل فئات المجتمع الثقافى ، إلى الاتحادات والنقابات المهنية ، وفى مقدمتها نقابة الصحفيين ونقابة المحامين ونقابة المهندسين وتجمعات الكتاب والفنانين ، إلى جانب النقابات العمالية وهيئات التدريس فى الجامعات . لقد تحالف هؤلاء وغيرهم مع الحركة الطلابية التى اصدرت العديد من البيانات . ومن تحليل مضمون هذه البيانات وما اصدره الكتاب والفنانون والنقابات الأخرى من نداءات وتوصيات ومناشدات اتخذت أشكال المؤتمرات والاعتصامات والإضرابات الجزئية او الرمزية او الكاملة ، فإننا نستخلص من هذا التنوع العريض والمكثف فى ان « الفكر » الذى ساد ذلك العام المجيد ، هو :

أن الحركة الثقافية المصرية فى جملتها كانت حركة الثقافة الوطنية التى اتسعت لأعرض جبهة لم تعرف البلاد مثيلا لها إلاّ عام ١٩٥٦.والفرق هو ان جبهة السويس - إن جاز التعبير - قد شملت السلطة الحاكمة آنذاك فى مواجهة العدوان الخارجى . أما الجبهة الجديدة التى ضمت تقريبا اليمين واليسار والوسط ، بدءاً من بيان توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ولويس عوض ولطفى الخولى وغيرهم من اتجاهات واجيال المثقفين المعاصرين إلى بيان الادباء والفنانين من جيل الستينيات المعتصمين فى دار نقابة الصحفيين ، . فقد كان شعارها « إعداد الدولة



للحرب » و « الديمقراطية » هذا الشعار المزدوج هو نفسه مضمون بيانات الحركة الطلابية التى صادمتها السلطة باعتقال قياداتها وحبس الكثير من الرموز العمالية والتحقيق مع العديد من النقابات المهنية . ولكن الشارع الشعبى فى مجمله كان متضامنا . بحيث تولد مناخ « التعبئة » دون مجهود من الحكم . وفى بداية العام الجديد ١٩٧٣ كان الهاجس الوطنى العام هو الحرب من أجل التحرير . وكان شعار الدولة بعد هزيمة ١٩٦٧ هو إزالة آثار العدوان ، فكان هو نفسه « الفكر الوطنى » المشترك بين مختلف الطبقات الاجتماعية المصرية . وهو الشعار الذى يعنى فى الوقت نفسه « تحرير سيناء » ولكن هذا التحرير قد ارتبط فى المخيلة الوطنية أيضاً بتثبيت ما ورثناه عن المرحلة السابقة من مكاسب وتطهير بلادنا من تركة الخسائر . والمقصود بالمكاسب هو الاجراءات الاجتماعية المعروفة بالتمصير والتأميم والإصلاح الزراعى ، والمقصود بالخسائر هو فقدان التعددية وغياب حرية الفكر والتعبير والتنظيم المستقل . لم يكن هناك تنازل فى الفكر الوطنى عن هذا الارتباط العضوى بين تحرير سيناء وبين كلٍ من العدالة والديمقراطية .

وفى هذا الإطار كان المثقف المصرى « مثقفاً شاملاً » إن جاز التوصيف لهذه البنية الفكرية الاجتماعية التى أخرجت المثقف من العزلة البيروقراطية أو العزلة الأكاديمية أو الولاء السلطوى إلى حركة الشارع غير المنظم حزبيا أى أنه لم تكن هناك أية امكانيات لحالة المثقف العضوى الذى تكلم عنه جرامشى ، ذلك الكادر الحزبى المنظم الذى يرتبط عمله بالصيغة الجماعية الشعبية . لم تكن الامكانيات فى بلدان العالم المتخلف ، ومن بينها مصر ، متوافرة لاستقبال هذا النوع من المثقفين العضويين . لم تكن هناك الحريات الديموقراطية والأحزاب والمؤسسات الراسخة البنيان فى الأرض الاجتماعية . ولذلك نشأ نوع جديد من المثقفين ، اقترح تسميته بالمثقف الشامل حيث يصبح ممكنا للطالب أو الكاتب أو الفنان أو المهنى أو الموظف أن يصبح جزءاً من حركة عامة تخلق أطرها التنظيمية الخاصة كاللجان الوطنية ، وترتبط عميقا بغايات المرحلة التى تعبر عنها من خلال التوكيل غير المكتوب عن التحالف الوطنى الواسع .

هكذا تحولت الحركة الطلابية والاتحادات العمالية والنقابات المهنية إلى تنظيمات بديلة للأحزاب الغائبة أو المغيّبة . وهكذا ايضا تحولت المسارح والسينما والأغانى وبعض الصحف والمجلات وبعض الجامعات والنقابات إلى منابر بديلة للمنابر الغائبة أو المغيّبة . وأضحى الطالب أو الكاتب أو المحامى أو المهندس ، « سياسياً » من طراز جديد ، يكتب وينشر وينظم ويخطب ويدرس الواقع المتغير ويتخذ المواقف التى من شأنها « الرقابة » على دائرة صنع القرار ، هذا النمط الذى حبلت به وولدته ظروف ما قبل الحرب

هو « المثقف الشامل » الذى وجّه تطور الأحداث فى الطريق إلى الحرب .

ولكن الطريق لم يكن معبّدا تماماً إلى الحرب ، فقد سارع الذين فاجأتهم « الجبهة الوطنية للمثقفين » باعتبارها الممثل الشرعى للتحالف الشعبى - الوطنى الواسع ، إلى اجهاض هذا التحرك الوليد ، بحبس الطلاب والعمال ، وفصل الكتّاب والمهنيين وأساتذة الجامعات من الاتحاد الاشتراكى تمهيدا لفصلهم من اعمالهم . وقد أحدثت هذه الاجراءات شرخاً فى جبهة المثقفين الوطنية عشية حرب اكتوبر ، ولكن حركة «المثقف الشامل» كانت قد أدت دورها الوطنى سواء على صعيد التعبئة الجماهيرية أو على صعيد الوعى الشعبى العام بمغزى الحرب .

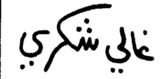
ولذلك فإنه بالرغم من إقصاء رموز المقاومة الوطنية للعدو عن منابرهم ، فإن مجرد الأعلان عن بدء القتال بدد أية مشاعر سلبية أو انفعالات ، والتف المثقفون المصريون جميعا باختلاف اتجاهاتهم وأجيالهم ، حول « الحرب » لم يتوقف أحد عند مسألتى الإقصاء المفتعل قبل الحرب ولا العفو بعدها . وإنما أصبح الجميع فى قلب المشهد . وكان هناك أولا وأخيراً هذه السيمفونية التاريخية التى تعزفها القوات المسلحة المصرية بمهارة واقتدار ورؤية تاريخية . كان هذا الجيل من الضباط والجنود الذى يصنع التاريخ . ولم يكن جيلا عسكريا فقط ، بل كان جيلاً ثقافيا بكل معانى الكلمة وظلالها . لقد نشأ هذا الجيل وتربى فى إطار الحركة الوطنية بكل ما احتوته من قيم ومعايير . وكان الوعى الرئيسى لهذا الجيل العظيم هو تحرير الأرض واستقلال الارادة . وبالرغم من السلبيات الفادحة الثمن لبرامج التربية والتعليم والإعلام ، فقد تمكنت مؤسسات الدولة الوطنية فى الخمسينيات والستينيات من إتاحة الفرصة أمام أبناء الطبقات الشعبية وبناتها من تعويض الحرمان الثقافى الطويل الأمد ، بتأسيس « القطاع العام » فى مختلف مجالات الثقافة ، الأمر الذى غيّر من موضوعات وهموم وقضايا ورجال ونساء وأساليب عرض وتأليف وإخراج وتمثيل الأعمال التى شحنت أجيالاً بقيم التحرير والتنمية والاستقلال .

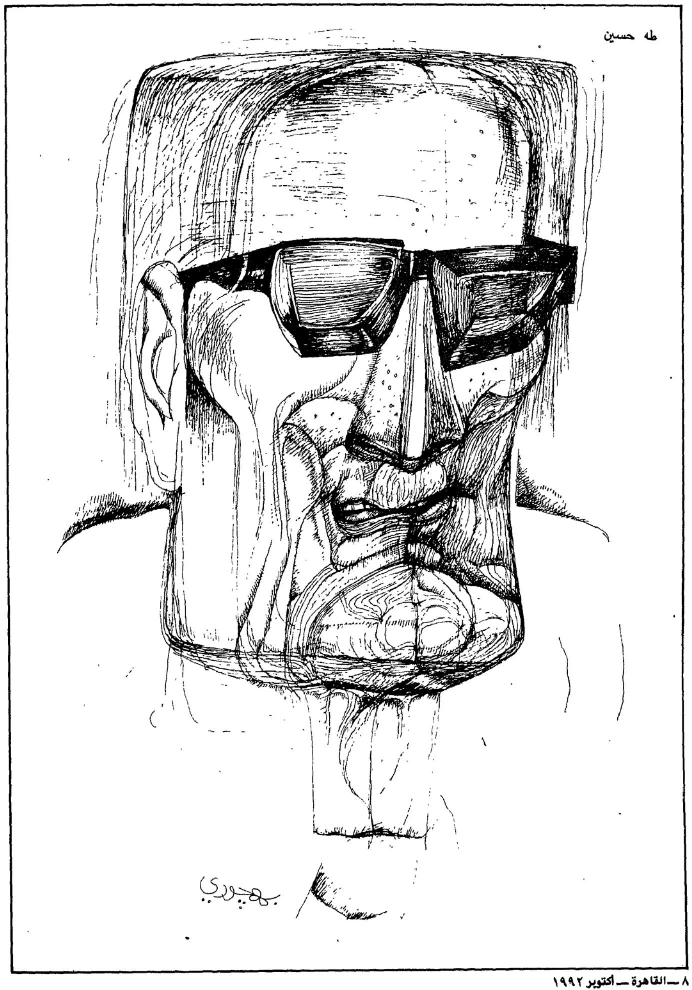
وتدلنا الأعمال الأدبية والفنية التى تناولت المقاتل المصرى فى حرب ١٩٧٣ على أن الشجاعة والبسالة والإقدام على أرض المعركة لم تكن مجرد بطولات فردية ، بل كانت تحركها مجموعات من الأفكار والقيم حول مصر والوطن العربى والصهيونية والغرب والنهضة . هذه المقومات الخمس يمكن الاستدلال عليها من الينابيع التالية : رسائل ويوميات بعض الجنود والضباط والمتطوعين ، والحوارات المسجلة مع بعضهم الآخر ، ونوعية الأفلام والمسرحيات والأغانى التى تركت آثارها فيهم ، والأدب الذى كتبه الجنود أو الضباط انفسهم ، والأدب الذى كتبه من أتيحت لهم الفرصة من الأدباء لمعايشة الحرب عن كثب .

إن الحصاد الأكبر لحرب اكتوبر متعدد المستويات أولها المستوى العسكرى الرفيع الذى يعنى أننا نتمتع بالعقل الاستراتيجى الكبير ، كما نتمتع بالأداء الميدانى العظيم . وهناك مستويات أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية . ولكنى اختار من بينها المستوى الثقافى فأقول أن الحرب قد اسهمت فى تحديد ملامح الوجدان المصرى - العربى ، بحيث اصبحت علامة فارقة بين عصرين فى تصوّر الهوية الوطنية - القومية ، ومفهوم العداء والتحالف، ومفهوم التنمية . وقد انعكست هذه المفاهيم والتصورات على قيمة « العمل » وقيمة « الفرد » ومعنى « النهضة » .

إن تحديد هذه الضوابط والمعايير ، يعود الفضل فيها لحرب أكتوبر ، وهو فضل ثقافى فى المقام الأول . أما انعكاس النتائج السياسية والاقتصادية للحرب (الثروة النفطية ، الانفتاح ، كامب ديفيد) على الثقافة المصرية فقد كان مزدوج الدلالة : فوق السطح كان هناك المستفيدون ممن كانوا دائماً خارج النشاط الوطنى العام . فهؤلاء هم الذين استولوا مرة أخرى على السلطة الثقافية .

أما تحت السطح فقد كان الإبداع المصرى وما يزال مزدهراً فى الإنتاج الروائى والقصصى والشعرى . وهو الانتاج الذى استمر من الستينيات إلى السبعينيات ، ولكنه فى الثمانينيات بدأ يرى النور ويثبت حضوره ، فى ظل مساحة الديمقراطية التى فرضت - بعد ثمانية أعوام من حرب اكتوبر - الاعتراف بفاعليته ، بالرغم من أن رموزه هم أنفسهم أبناء هذه الحرب وجنودها الأوفياء .. والأهم أن « المثقف الشامل » كان قد ولد من سنوات الحرب الطويلة وفى أتونها وبقى مخلصا فى فكره وسلوكه لتحرير الأرض والديمقراطية والنهضة .




طه حسين

المواجهات

النهضـــــــــة العــــــــربيـــة ..

محاولة لرصد جهود المتصدين لمشروع النهضة يرى أن الجدل الطويل حول قضية « الأصالة والمعاصرة » غير مجد فى أغلبه .

توجيه بأن ينشغل المهتمون بالنهضة الجديدة بعمل إيجابى لقراءة التراث قراءة عصرية لنفهم بدقة عوامل الإزدهار الذى عرفه أسلافنا ، وعوامل التردى التى أدت إلى تخلفنا .

اسماعيل صبرى عبد الله

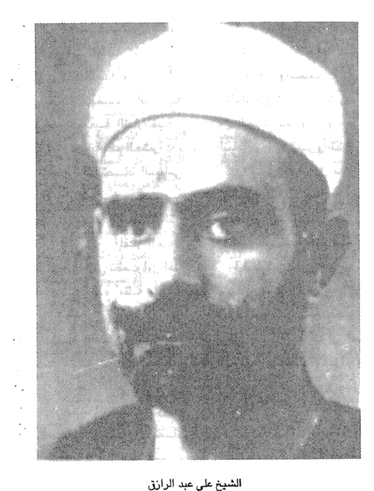
● استاذ الاقتصاد السياسى ، رئيس منتدى العالم الثالث ، ورئيس الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية ، وصاحب « فى مواجهة اسرائيل » ١٩٦٧ و«تنظيم القطاع العام » و «فى التنمية العربية » ، واحدث أعماله « مصر التى نريدها » ١٩٩٢ .

فقد اختفى مفهوم النهضة من الخطاب العام والخاص خلال العقود الخمسة التى تلت الحرب العالمية الثانية والتى شهدت حصول كل اقطار العرب ـ باستثناء فلسطين ـ على الاستقلال السياسى . وظهرت فى بوتقة الاهتمام مفاهيم الأمن والتسلح والتقدم والتنمية ... إلخ . وربما كان التطور العالمى لمفهوم التنمية ليشمل كل أوضاع الانسان والمجتمع قد أدى إلى تقارب بينها وبين ما اسماه اصحابه النهضة . ولكن اهل الحكم واصحاب الاقتصاد الأكاديمى والعملى لم يستوعبوا كل مكونات التنمية ، ولهذا اعتقد فى حيوية قضية النهضة لأن اطراد النمو الاقتصادى ذاته يحتاج إلى نهضة حقيقية .

وترفض بعض التيارات السياسية مفهوم النهضة ضمن اطار رفض كل ما كان غربى الأصل والمنشأ . والواقع غير ذلك تماما . فما أسماه المفكرون العرب النهضة ترجمة للتعبير الأوروبى الذى يعنى حرفيا الميلاد الجديد والذى يشكل بداية التقدم الغربى . وقد أسمى بذلك الاسم لأن الأوروبيين اعتدوا كل الاعتداد بالصورة التى صوروا بها مجد اليونان والرومان قبل ميلاد المسيح بقرون أربعة وبعده بقرون أربعة أخرى . ورأوا فى ما اسموه العصور الوسطى (من القرن الخامس إلى الخامس عشر) فترة تدهور وتفكك وانتكاس وانكفاء أوروبا على نفسها وتعرضها لموجات هجرة آسيوية قضت على الامبراطورية الرومانية الغربية ، ولغزوات عربية وتركية سقطت أمامها الامبراطورية الرومانية الشرقية . كما انتشر الجهل حتى بالموروث العلمى عن القدماء وذاعت الشعوذة وأعمال السحر وما إليها مما يخالف العقل البشرى .

وأجمع مفكرو أوروبا منذ القرن الرابع عشر على أن سيطرة الكنيسة الكاثوليكية وما ساد ممارساتها من تعصب وأمور طقوسية خاوية وفساد فى اشكال متعددة هى السبب الأول والأساسى لظلمة العصور الوسطى . وكانت تعاليم الكنيسة فى ذلك الزمان تشيع فى الناس أن الفقراء أحباب الله لأن الثراء مفسدة ، وأن الدنيا دار الشقاء ولا سعادة للانسان الصالح إلا فى الآخرة ، ولم يكن من المتصور أن ينادى هؤلاء المفكرون بمجرد العودة للتراث اليونانى ـ الرومانى لأن الزمان لايسير القهقرى أبدا . ولهذا اجتهدوا فى تصور أوروبا جديدة تتخلص من أوهام العصور المظلمة وتجعل من سعادة الانسان فى هذه الحياة الدنيا مركز اهتماماتها وابداعاتها ، ومن ثم اطلق على ما أنتجته فترة النهضة « اسم الانسانوية » Humanism والتى خلفت لنا تعبير « العلوم الانسانية » المرادف لتعبير العلوم الاجتماعية . وقد بدأ فكر النهضة فى ايطاليا ، وقد واكبه ابتداء من ألمانيا تيار الاصلاح الدينى الذى هو الأصل المشترك للكنائس البروتستانية

المعالم الرئيسية ـ الأزمة ـ والمستقبل



الشيخ على عبد الرازق

الكثيرة وكان من اهم تعاليم الاصلاح الدينى رفض مفهوم معصومية البابا ودينية السلطة (أو حق الملوك الالهى فى السلطة) . وفى نفس الوقت قال الاصلاحيون إن الثراء نعمة من الله ، ومن ثم كان قرينة على فضل الثرى الذى من واجبه الدينى أن يحافظ على تلك النعمة وأن ينميها . وكان هذا القول رفضا لتمجيد الفقير وفى الوقت ذاته ادانة لطبقة النبلاء التى تبدد مواردها فى استهلاك بذخى . وبالحض على الثراء مع الادخار وفرت البروتستانية الأساس الدينى للتراكم الراسمالى . كما كانت دعوة النهضويين استحفازا للعقل البشرى ليعمل على فك أسرار الطبيعة والمجتمع مما وفر التراكم المعرفى المطلوب للتقدم .

واذا نظرنا بموضوعية إلى التراث العربى لابد ان نقربأن التقدم العلمى فى بلاد العرب بلغ ذروته فى القرن الرابع الهجرى ثم تلته قرون كثيرة قفل فيها باب الاجتهاد بأوسع معانيه (وليس فقط فى الفقه) وبلغت غاية جهد المثقفين كتابة الحواشى والهوامش على كتب السلف ومحاولة محاكاتهم من حيث الشكل فى الشعر والنثر . ولهذا كانت ضرورة حركة النهضة العربية التى بدأت منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادى . والتى يمكن ايجاز أهم معالمها فيما يلى :

١ ـ الاهتمام البارز بالعلم والبحث العلمى والتعليم مع أولوية كبيرة

للـريـاضـة والعلـوم الطبيعيـة والطب والهندسة والفلك . وكلها تقـوم عـلى مدارك العقل .

٢ ـ إثراء اللغة العـربية بمفـردات جديدة كثيـرة نحتت لتقابـل المسميات الأجنبيـة لمفاهيم العلـوم الحـديثـة . وتخليص النثـر العـربي من التصنـع (مثل السجع والجنـاس والطباق ..) ومن الألفـاظ غير العـربية (التـركيـة أساسا ولكن أيضا أوروبية أحيانا) . وكذلك صك أسماء عربية لما يصطنعه الانسـان من أدوات حديثـة وعـادات مستحدثة . وكان انشاء أول مجمع للغة العربية في ١٩٣٠ احـدى ثمرات هـذا الجهـد الذي حـافظ على لغـة القـرآن الكريم واللغة القومية المشتركة بين كل العـرب عبر تعـدد اللهجات القطـريـة والمحلية . ولعبت حركة التأليف والنشر والترجمة دورا مركزيا في هذا المقـام . كما كانت الصحافة أقرب وسيلة لتعميم العربية السليمة بين الناس .

٣ ـ وإزاء سيطـرة القـوى الاستعمارية والأجنبية على معظم أرض العرب ، عرف عصر النهضة نشأة قطاع أهلي ضخم ومتعدد الأغـراض يسـانـد بقوة حركة النهضة . ويكفي أن نـذكـر بـأن أكبـرالمستشفيـات في مصر حتى أواسط الستينيات كـانت ممـولـة من الجمعيات الأهلية : مستشفى الجمعية الخيـريـة ، المستشفـى القبطـي ، مستشفى المواساة .. الخ . كما كـانت المدارس الأهلية تتيـح فرصـة التعليم لأعداد من الشباب تزيد أضعـافا عن خريجي المدارس الحكـومية . وكـانت الجامعة المصرية الأولى (على مستوى الوطن العربي) قائمة على تبرعات من الناس .

٤ ـ تـعـدد الاهتمـام بـأوضـاع المجتمعـات الغربيـة بحثا عن أسبـاب تقدمها ورغبة في تعريف القارىء العربي بهـا . ابتداء من كتـاب رفاعـة رافـع « تلخيص الابريز » إلى ترجمة مؤلفات أوجست كونت وجوستاف لوبون في علم الاجتمـاع إلى التـأليف في الاقتصـاد باللغة العربية .

٥ ـ نشأة عدد كبيـر من الجمعيات العلميـة التي احتضنت جهـود البحث وأصدرت الدوريات العلمية . نسوق من مصر مثالا في هذا الصدد من جمعيات نشـأت في فتـرة النهضـة : الجمعيـة الجغـرافيـة الجمعيـة التـاريخيـة ، جمعية الكيمياء جمعية علم الحشرات . الجمعية المصرية للاقتصـاد السياسي والإحصـاء والتشـريـع ، جمـعيـة المهنـدسين والجمعيـة الطبيـة (التي انشـأت دار الحكمـة ، المقـر الحـالي للنقابات الطبية ، والتي نظمت أول لقاء للأطباء العرب) . وهذه أمثلـة وليست حصرا .

٦ ـ الاهتمـام بالفنـون لتطويـرهـا (جمعية محبي الفنون ومعهد الموسيقى العـربيـة) ولادخـال الجـديـد منهـا (المسرح ثم السينما وكـذلك الـرواية بـالمعنى الحـديث) وبـدء الاهتمـام بالموسيقى البوليفونيـة (التي نخطىء ونسميها الغربية) .

٧ ـ دراسة التاريخ العربي في ضوء مـا بلغه علم التـاريخ في أوروبـا ، بـل وكذلك الاهتمام بدراسة الأدب العربي عـلى أساس من منهـج وضعي ومقارن لا يأخذ بما جاء في كتب تـاريخ الأدب العـربي القديمـة كأنـه « تنـزيـل من التنزيل » وهنا تبرز دراسات طه حسين وأحمد أمين والعقاد بشكل واضح .

٨ ـ العناية بالثقافـة العامـة وكثرة الدوريات التي ظهرت في هذا المجال في مصر والشام بالذات . ونخص بالـذكـر هنا مجلة المقتطف التي اختصت بنشر الثقـافـة العلميـة طوال ثمـانيـة عقـود أو يـزيد ، وكـذلك تنظيم المحـاضرات العـامة في أمـاكن متعددة أهمهـا دور الجمعيات الأهلية .

٩ ـ التصـدي بقدر مـا هـو متـاح لقضايا سياسية هامة . وكلنا نذكر كتاب عـلي عبد الـرازق « الخلافـة وأصـول الحكم » وما لحق بمؤلفه من عقوبات . وإلى جـانب الاهتمـام العـام بقضيـة الاستقـلال والتخلص مـن السيطـرة العثمانية أو الأوروبية نشرت كتب كثيرة عن الحياة الدستورية وأهميـة التمثيل النيابي وحرية الفكر والتعبير .

١٠ ـ ظهر أيضا في هذه الفترة تيار الاصلاح الديني بدءا من جمال الدين الأفغـاني وصـولا إلى تطـويـر التعليم الأزهري ليشمل العلوم الحديثة .

١١ ـ كـان من أهم سمـات تلـك النهضة طبيعتها العروبية الأصلية حيث شارك فيها عـرب من أقطار متعـددة . ويكفي مثلا على ذلـك أن أصحاب دار الهـلال وأصحاب الأهـرام وأصحـاب المقطم والمقتطف وفـود عـلى مصر من الشام .

١٢ ـ وأخيرا ، وليس ذلك أقل الأمور أهميـة ، تبنت حركـة النهضة قضيـة تحـرير المـرأة وإتاحـة فـرص التعليم والعمل لها .

تلك بعض المعالم الرئيسية لحـركة النهضـة العربيـة حتى عشية الحـرب العالمية الثانية . ومـا ذكرتـه لا يعطي قطعـا نظـرة شـاملـة وتحليليـة لتلـك الحـركة . ولـذلك فـانني أدعو شبـاب الباحثين إلى الاهتمام بها والتـأليف في معـالمهـا وحصر أسمـاء البـارزين من دعـاتها ومفكريها . فنحن في حـاجـة شديدة لا ستدعاء هذا الماضي القـريب لأسباب كثيرة أهمها ما أسمية « أزمة النهضة » في العقود الأخيرة .

الأزمة :

يمكن أن نكتفى بظاهرة أساسية نافية لمفاهيم النهضة . وأعتقد أننا هنا لن نختلف كثيرا حول حقيقة الانصراف الجماهيرى عن أمور السياسة . فاهتمام الناس فى بلادنا - وبصفة خاصة الشباب - ينصرف إلى الرغبة فى الهجرة إلى الخارج ، أو يتجسد فى حالة الافتتان بكل ما هو سائد فى الغرب ، أو يغذى دعاة السلفية الذين يبحثون عن حلول لقضايا الحاضر والمستقبل فى العودة إلى ماض انقضت عليه ألف سنة ، أو تركيز كل جهد الانسان فيما يحقق له نفعا ماديا مباشرا وغض النظر عما عدا ذلك .

وعن هذه الأزمة أقول انها بدأت بعد تحقيق الاستقلال السياسى . وأعرف أن قولى هذا يصدم الكثيرين . ولكن ما أقول ليس عفويا ، ولكنه ثمرة تفكير طويل . وأضيف قبل تفصيل رأيى اننى بالقطع لست ممن يرجعون كل قصور أو عجز أوتردٍ إلى النظم الحاكمة وحدها لأن فى هذا اختزالا شديدا للأمور واهمالا لنقد المجتمع كله وتهوينا من مسئولية المثقفين بنوع خاص . ونقطة البداية الحقيقية هى أن الاستقلال كان يعنى أن السلطة فى المجتمع المستقل تصبح فى يد بعض أفراد وفئات ذلك المجتمع بعد أن كانت كل صور الحكم تنتهى إلى قرار الدولة الأجنبية المسيطرة . كذلك لابد من أن نسلم بأن السلطة السياسية فى اى مجتمع أمر يستدعى بطبيعته الصراع الاجتماعى والسياسى والاقتصادى من أجل الامساك بها . والديموقراطية توفر أساليب هذا الصراع وتحول دون انحداره فى أعمال العنف . فاحترام حقوق الانسان الأساسية ، والتعددية السياسية ، وامكان تداول السلطة عن طريق الانتخاب الحر الأمين تغنى عن استخدام العنف والقهر فيما عدا حالات فردية تمثل خروجا عن الدستور والقانون . ولكن حصول أقطارنا على الاستقلال لم يصطحب فى الواقع بأى توجه ديموقراطى واضح ومثابر . بل غلب على الحكم فئات راغبة - بغض النظر عن النوايا - فى السلطة المطلقة والدائمة . ومن ثم اندفع الناس فى أغلبهم إلى عدم التفكير فى تغيير الحكام ، وفى أقليتهم إلى دعاوى انقلابية تستند إلى القوة وتستخدم القوات المسلحة أو اجزاء منها فى الوثوب على السلطة على أساس فساد ولاة الأمر وضرورة احلال غيرهم محلهم بنفس الأساليب العنيفة التى اعتمدها الحكام المراد تغييرهم . وحتى الاحزاب التى كانت فى المعارضة تنعى اهدار حقوق الانسان وقواعد الحكم الديمقراطى ، كانت فى معظم الأحوال تنسى كل هذا الحديث عندما تمسك بزمام الأمور . وجدت نظم الحكم المتعاقبة مثقفين يدافعون عنها باسم القومية أو الاشتراكيه أو التمسك بالدين . فى حين انخرط بعضهم فى نشاط سياسى لا ترضى عنه السلطة ودفعوا الثمن من أرزاق قطعت وحرية شخصية اغتالتها السجون بل بلغ الثمن فى حالات ليست قليلة إلى فقدان الحياة ذاتها . ولما كان من طبيعة السلطة أن تفسد وكانت السلطة المطلقة فسادا مطلقا وفق تعبير نهرو الشهير عمدت الفئات الحاكمة إلى فرض بيروقراطيتها ورقابة أجهزتها الأمنية على كل مظاهر حياة المجتمع . وعملت على صبغ الدراسات فى العلوم الاجتماعية بالصبغة التى ترضيها ووجدت من الأكاديميين من يرضى بالعمل فى اتجاه تمجيد السلطة ، فى حين هاجر البعض منهم وفضلت الأغلبية عدم الاقتراب من أى شىء تعده الدولة غير مرغوب فيه . وربما كان أخطر ما فعلته السلطة المطلقة هو الرقابة الذاتية التى يمارسها الكاتب لينجو من بطش الأجهزة . ومن الطبيعى أن فرض ايديولوجية السلطة على المجتمع كله يعنى مباشرة التضييق على المشتغلين بالعلوم الاجتماعية وفى مقدمتها التاريخ والاقتصاد والاجتماع . ومن ناحية أخرى زيف الحكام وعى الناس عن طريق استخدام مناهج التعليم التى تبعد الشباب منذ البداية عن المعرفة العلمية وتجعلهم ينظرون إلى الواقع الراهن على أنه نابع من تاريخ القطر وأنه يخدم الأهداف العليا فى الحرية والمساواة وتحقيق الآمال القومية . أما العلوم الطبيعية والرياضية فقد عانت من فقدان رعاية المجتمع لها والاهتمام بتدبير حياة كريمة للمشتغلين بها ، ومن ثم كثرت الهجرة من بينهم وتدنى مستوى التعليم وافتقد الجهد الرصين فى البحث العلمى بفقدان الطلب الاجتماعى على منتجاته . وهكذا مات التيار النهضوى وكبت النشاط الأهلى وتوارت مؤسسات المجتمع المدنى تحت عباءة النظام الحاكم وأصبح التزلف للحكام ومتابعة تغيير أهوائهم الوسيلة الغالبة فى مجال الترقى والأمل فى شغل موقع مسئولية عامة . وعملت الفئات الحاكمة على شغل الرأى العام بقضايا مصيرية هامة (الاشتراكيه ، الوحدة القومية ، التضامن الاسلامى .. إلخ) دون اشتراك الجماهير فى أعمال محددة تخدم تلك الأهداف التى يتخذها الحكام أساسا لمشروعية مشكوك فيها مع التصرف العملى الذى لا يخدم شيئا منها . لقد تضخم الحديث عن الأمن القومى على حساب اهمال واهدار أمن المواطن . وباسم الأمن القومى ارتكبت

افظع الجرائم لأن المعنى الحقيقى للامن القومى لدى الحكام كان يتركيز فى امن النظام أو أمن الحاكم الفرد ، ومن ثم كان اى نقد لأى قرار حكومى يعد تهديدا للأمن القومى . وحصلت أجهزة الامن والدفاع على أكبر نصيب من الانفاق العام على حساب التعليم والبحث العلمى والصحة والأنشطة الثقافية الجادة التى لاتعد ضمن « المهرجانات الفنية » التى ينظمها الحكام وأتباعهم . بل لقد ظهر من المثقفين من كنا نسميهم « كتبة التقارير » الذين كانوا فى الواقع جواسيس على زملائهم بغض النظر عن واقع أن بعضهم كتب لأنه توهم ذلك ضرورة لمصلحة الوطن فى زمن اختلطت فيه الأمور وتراجعت قيم كثيرة ، وضاق الحكام كل الضيق بالجمعيات العلمية وشجعوا أحيانا انشاء النقابات المهنية بديلا عنها . والنقابة كما هو معروف تعنى بالمصالح المادية والأدبية لأعضائها وليس بالبحث العلمى . كما أن وجود ـ أو اختفاء ـ نقابة معينة كان من صنع الدولة تصدر به قوانين أو قرارات وطبقت النقابات المهنية مبدأ اكراه كل من يمارس المهنة على الانضمام إليها بغض النظر عن مكانة بعض الأفراد ذوى المؤهلات الأكاديمية الكبيرة . ومن ثم كان من الضرورى أن يصدر قانون بانشاء النقابة ومنحها سلطة فرض العضوية واقتضاء الرسوم ممن يريدون ممارستها ، كذلك كان لأوضاع التنافس بين حكام الأقطار العربية افتقاد التكوين العلمى فى مراكز متميزة يعجز معظم الأقطار عن تمويلها على انفراد ، وتعددت مجامع اللغة العربية ، ولم يفكر أحد فى انشاء أكاديمية علوم عربية وأصبحت الاتحادات المهنية العربية مسرحا للتنافس بين أنصار هذا النظام أو ذاك ، وغلب على نشاطها اتخاذ المواقف السياسية التى تريدها الدولة صاحبة النفوذ الأكبر فيها ومن يوالونها . وبقى للمثقفين من أمر السياسة مهاجمة الاستعمار الغربى . وهذه المواجهة أمر حميد وواجب ، ولكن المرفوض أن تتخذ سبيلا للهروب من مخاطبة هموم الجماهير المباشرة كاستمرار الأمية وتدنى مستوى معيشة الناس فى فئات الدخل العليا ، واتساع نطاق البطالة وتردى مستويات التعليم وقصور خدمات الصحة والاضرار بأحوال البيئة الطبيعية وتراجع العقلانية فى الفكر والجدية فى الفعل . وتزايد الجهل والشعوذة وتضخم الفساد فى جنبات المجتمع . وأخطر من ذلك أن التركيز على أن كل ما حل بنا من ضيم نتيجة مؤامرة استعمارية صهيونية مستمرة فهذا القول عرف أصحابه أو لم يعرفوا يتستر على جرائم بعض الحكام .

وكان من الطبيعى فى هذه الأحوال أن تختفى النهضة كمفهوم وممارسة من المجتمعات العربية . وكان لابد أن تزعج هذه الأوضاع بعض المثقفين . فركز الماركسيون فى غالبيتهم على مقولة أن الأزمة ترجع لطبيعة الحكم الطبقية وأن حلها بالتالى يكون بتبنى مطلب الاشتراكية والنضال من أجله . وقد أوضح انهيار الإتحاد السوفيتى أن التغيير الطبقى فى طبيعة السلطة ليس حلا كافيا بذاته ، وأن افتقاد الممارسات الديموقراطية وعزل الجماهير عن المشاركة فى صنع القرار والرقابة على تنفيذه . وتجدد أشخاص الحكام دون انتظار الموت حلا لتلك القضية ، أمور لعبت دورا حاسما فى أزمة الاتحاد السوفيتى وانهياره ومازالت تثير القضايا الخلافية الكبيرة بين الجمهوريات التى استقلت ، وأن فرص التجديد السلمى تتهددها الحروب فى أكثر من موقع . وذهب فريق آخر من المثقفين إلى استدعاء ما أسموه عصر التنوير متناسين أن ذلك اسم يطلق فى أوروبا على القرن الثامن عشر أى أنه كان آخر مرحلة فى تيار النهضة الأوربية حين أصبح الصدام المباشر مع السلطة المطلقة فى مقدمة اهتمامات الطبقات الوسطى . كما أن الكتاب والمفكرين الذين يشيرون اليهم من يتحدثون عن عصر التنوير اختاروا لأنفسهم اسم النهضة وعلى أية حال ليس فى تاريخ البشرية عودة إلى ماض حتى لو كان قريبا . ومن ثم كانت دعوتى لنهضة عربية جديدة أو ثانية . كما أبرز البعض أهمية المجتمع المدنى ومؤسساته كما لو كان هذا المفهوم جديدا لم نسمع به من قبل ولا حاولنا ممارسته . وهذا كلام غير دقيق فقد سبق أن عرفنا هذه المؤسسات التى ألغتها حكومات عصر الاستقلال أو أخضعتها لبيروقراطيتها . ويبدو فى بعض ما كتب فى هذا الشأن أن الكتاب يرون فى فكرة المجتمع المدنى ومؤسساته بديلا عن الديموقراطية السياسية ، أو على الأقل مرحلة لابد منها الوصول إلى الديموقراطية . وفى تقديرى المتواضع أنه لو رفعت الدولة يدها عن النقابات العمالية والمهنية وأطلقت حق تكوين الجمعيات من كل القيود الحكومية لازدهرت مؤسسات المجتمع المدنى . وبعبارة أخرى لايجوز الفصل بين المجتمع المدنى والمجتمع السياسى والديموقراطية وحدها اطار التقدم والنشاط والتأثير المتبادل وظهور رأى عام قوى ينحاز لكل ما يفيد غالبية الناس ويمكن علميا وعمليا تنفيذه .

النهضة العربية الثانية :

ومع اختفاء مفهوم النهضة ظهر فى ظل حكومات ما بعد الاستقلال السياسى مفهوم التنمية . واقتصر هذا المفهوم لدى أصحاب القرار السياسى ومعظم الاقتصاديين فى الخمسينيات والستينيات على السعى لزيادة الانتاج السلعى والخدمى وبناء وحدات انتاج كبيرة أو صغيرة على حسب الظروف . وكان لعبد الناصر فضل ادراك ضرورة اعادة توزيع الأصول الانتاجية والدخل القومى كجزء من عملية التنمية ذاتها واستهداف الارتفاع بمستوى معيشة غالبية المواطنين فعلا وليس بالخطب الرنانة وحدها ولا بالاجراءات الهوجاء التى تتغير بتغير اهواء الحكام أو أشخاصهم . ولكن وقائع تجارب أقطار العالم الثالث ومنه بلاد العرب حملت عددا متزايدا من الاقتصاديين على تطوير مفهوم التنمية نفسه . واتضح الآن أن التنمية الحقيقية الشاملة والمطردة تقوم على أسس من النمو الكيفى للانتاج فى اطار عماده الاعتماد على النفس ومشاركة الجماهير وضرورة الاهتمام بأوضاع غالبية السكان (التنمية البشرية) ومراعاة العدل الاجتماعى والتعامل الرشيد مع البيئة الطبيعية . ومازال مفهوم التنمية الشاملة هذا غريبا عن اهتمام صانعى القرار وصانعى الرأى العام . وأرى شخصيا أن التنمية بهذا المعنى الحديث لا تغنى عن مفهوم النهضة ، بل تستدعيه ومن هنا كانت الدعوة لنهضة عربية جديدة .

فالنهضة قضية مجتمع يريد تجديد نفسه فى كل مناحى الحياة ومنها أساليب الفكر والتعبير والفعل وكل ما يتيح المزيد من المعارف والمهارات .

بل انى أضيف انه اذا كان من المتصور أن ينجح أحد الأقطار العربية فى تحقيق تنمية مستقلة ، فان الحفاظ على الهوية الحضارية تقتضى جهدا على مستوى الأمة العربية كلها . فنحن أمة ذات حضارة . ولكن دراسة التاريخ الانسانى كله تثبت أمرين على أعلى قدر من الأهمية : الأول قد سبقت الاشارة إليه وهو أن الحاضر مخالف للماضى كما أن المستقبل مغاير للحاضر والثانى ، أن الحضارة التى تتوقف عن افراز المعارف والمهارات تزداد تخلفا يوما بعد يوم . وما أكثر الحضارات التى اندثرت فى مختلف أجزاء كوكبنا . ومن هنا نرى أن



احمد امين

النهضة تعنى فى التحليل الأخير استعادة قدرة الحضارة العربية على انتاج المعارف والمهارات بحيث تتعامل مع الحضارات الأخرى تعاملا متكافئا جوهره الأخذ والعطاء . وقد كان ذلك المحتوى الفعلى للنهضة العربية الأولى وان لم يستخدم مفكروها عبارات ومفاهيم عصرنا الحالى . وحتى نتفق على أهمية النهضة المطلوبة لابد من التعرض إلى أبرز أوجه النشاط النهضوى .

واعتقد شخصيا أن أهم احتياجات النهضة هو التصدى بكل همة ووسيلة إلى تحقيق تقدم جذرى فى الثقافة العلمية المرتبطة بعلوم الطبيعة والحياة والرياضيات . ولا يكفى هنا الارتقاء بمستوى التدريس والبحث فى المعاهد والمؤسسات المتخصصة ، بل نعمل إلى جانب ذلك على نشر المعرفة العلمية بين الناس . وهذا أمر فى مقدورنا دون حاجة إلى عشرات المليارات من الدولارات . وبدونه لن يشيع فى المجتمعات العربية استخدام العقل فى التفكير والعقلانية فى التصرف ، بل نظل متعلقين بما وراء العقل ونتعلق بهذا الوهم أو ذاك . لقد تعلمت فى الصبا أن تقدم أوروبا بدأ بالثورة الصناعية فى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر وواقع الأمر أن التقدم بدأ منذ القرن الخامس عشر وغيّر مفاهيم الفلسفة واكتشف التفسير القريب لظواهر الطبيعة وأطلق الابداع فى الآداب والفنون . وفى هذا العام الذى تحتفل فيه أوروبا وأمريكا برحلة كولومبوس بمناسبة مرور ٥٠٠ عام عليها يمكن أن نذكر أنه بدون معرفة كروية الارض وتملك البوصلة بفضل علماء عصر النهضة لما سعى كولومبوس إلى الوصول إلى الصين بالملاحة غربا

واعتقد اننى لست فى حاجة فى مقامنا هذا لابراز أهمية تملك العرب لأحدث تطورات العلوم الأساسية ، وليس مجرد الحديث العابر عن العلم والتكنولوجيا . وما أريد أن ابرزه فى هذا الصدد هو أن القدرات العلمية والتكنولوجيا ليست ميزة خلقية فى اهل الغرب ، كما انها ليست سلعا تباع وتشترى وفقا لآليات السوق الكفيلة بتعظيم ربح المنتج ومنفعة المستهلك . وفى المقابل لا يمكن أن يتعارض مسعى أمتنا للعلم فى أحدث تطوراته مع تراثنا ، ولا يجوز أن تثور بشأنه ما سمى « قضية الأصالة والمعاصرة » فالرياضيات والعلوم الأساسية يمكن أن تتاح لكل إنسان يبذل الجهد اللازم لذلك دون أن يتعرض لخيار بين بصريات ابن الهيثم واستخدامات الليزر .

ويجب أن يشغل جهد المتصدين للنهضة الجديدة ضرورة القراءة العصرية للتراث . فليس صحيحا أن كل ما كتبه السلف صحيح وسليم . بل أن عصور الانحطاط خلفت لنا الكثير من الترهات والأوهام والشعوذة . ولكن فى المقابل لا يجوز مطلقا أن نلقى تراثنا بجملة وراءنا ظهريا ، ولا يمكن مثل هذا النفى عمليا . وبدل الجدل الطويل حول الأصالة والمعاصرة يجب أن ندرس ونحلل تاريخنا وتاريخ المعارف والمهارات فى اقطارنا وأن نفهم بدقة عوامل الازدهار الذى عرفه أسلافنا فى القرون الهجرية الأربعة الأولى ، وكذلك عوامل التردى التى أدت لتخلفنا فى الوقت الذى بدأت فيه النهضة فى اوروبا . وكثيرا ما يضيق المرء بترديد البعض فى مثابرة على أن العرب علموا اوروبا وأن عمر الحضارة فى مصر سبعة آلاف عام .. فهذا كله لغو لا غناء فيه . وكل ما يستفاد منه هو أنه فى وسع الانسان العربى لو صحت أن يعدو على طريق المعرفة عدوا . لقد كانت « اسلاميات » أحمد أمين نموذجا ممتازا فى هذا الشأن ولا نعرف أحدا تقفى هذا الأثر .

وعلينا فى الوقت ذاته (فلست أرتب الأمور على أساس من الأولوية) أن ننقذ اللغة العربية من التفتت والضياع . إن اللغة اداة التفكير والتعبير ومرآة الحضارة . وقد اهتم بها مفكرو النهضة الأولى . ولكن هذا الاهتمام تراجع حتى اصبحت الكتابة العربية السليمة نادرة فى الكتب والصحف وفى الاذاعة والتليفزيون وفى الخطب العامة ومناقشات البرلمان ومحاضرات أساتذة الجامعات والندوات العلمية . لقد كان أهل النهضة الأولى فخورين بلغتهم ونقلوا إلى العربية مفاهيم ومسميات لم نكن نعرفها واثبتوا أنها لغة صالحة لنقل المعرفة فى العلوم المختلفة ولغة الناس تعتمد أولا على السمع وثانيا على الكتابة . فاذا كان ما يسمعه المواطن العادى أو يقرؤه ـ اذا لم يكن اميا ـ كلاما كئيبا مختلا غير محدد المعانى ويشيع فيه الفاظ اجنبية رغم وجود مقابلها العربى فان معدلات تدهور اللغة ستتزايد واذا كان المعلم أو استاذ الجامعة لا ينطق أو يكتب بلغة سليمة فان من يصل من تلاميذه إلى مكانة المعلم ستكون لغته بالضرورة أشد ركاكة . ولن افيض هنا فى شرح أبعاد تمزيق اللغة القومية ولا فى وسائل حماية أهم ما تستند إليه دعوة القومية العربية . واكتفى هنا بتجديد الدعوة إلى مجمع موحد للغة العربية يشرف على اصدار معاجم متفاوتة الحجم والعمق تيسر لمن يريد سلامة تعبيره الرجوع إلى المعجم فى بيته او محل عمله . وكلنا يعرف أن الطبقات العليا فى مجتمعات الغرب تعد من أهم مظاهر رقيها حسن استخدام اللغة القومية الذى يميزهم عن العامة من الناس . ولكن من الواضح أن حرص بعض فئات المجتمع الثرية على محاكاة الغرب لم تصل إلى مستوى القيم الثقافية .

كذلك يجب علينا أن ندرس مجتمعاتنا دراسة دقيقة ومحققة وتلمس مظاهر وأبعاد الحرمان وتفهم العادات والتقاليد المتغيرة . فانه لابد من التخلى عن عادة الترفع عن العامة أو الاكتفاء بالحديث المتكرر عن الشعب والجماهير والعمال والفلاحين ورجال الأعمال كمفاهيم مجردة والتوجه نحو البحث عن الموجود والملموس فيها . وتلك مهمة شاقة . فالعلوم الاجتماعية المعاصرة نمت فى ظل الرأسمالية الغربية واتخذت من مجتمعاتها المحددة موضوعا للدراسة التى تؤدى إلى استخدام ادوات بحث معينة والتى تريد تعميم ما تصل إليه من نتائج على العالم كله . وما يخالف هذه النظريات متخلف يجب تقويمه ليأخذ مكانه « الطبيعى » الذى تجاوزه نموذج المجتمع الغربى . ولهذا يقع على المشتغلين بالعلوم الاجتماعية فى بلدان العالم الثالث بالاضافة إلى معرفة ما وصل إليه أضرابهم فى الغرب عبء البحث والتحليل فى الظواهر التى تبدو مخالفة لنتائج نظرية المباريات أو نظرية القرار أو قوى السوق . ولا فرار من هذا الجهد الاضافى وضرورة ابداع وتطوير أدوات بحث جديدة لفهم هذا الواقع المخالف قبل الحكم عليه بالتخلف . وأضرب هنا مثلا واضحا واحدا . لقد ابتدع المشتغلون بعلم الاجتماع أسلوب الاستبيان وأدى هذه بدوره إلى انتشار عمليات استطلاع الرأى العام حتى فى القضايا

السياسية . وكان هذا طبيعيا فى مجتمعات ديموقراطية لا يخشى فيها المواطن البطش لو أبدى رأيا مخالفا لما هو سائد . فكيف نفترض عندنا مع غياب الديموقراطية صحة ما نحصل عليه من اجابات على أسئلة الاستبيان ؟ ونحن فى أشد الحاجة إلى معرفة صحيحة للواقع الاجتماعى والاقتصادى والايديولوجى فى مختلف فئات المجتمع وفى كل المواطن وإلا سنبقى فى واد وشعوبنا فى واد آخر وسنجادل بعضنا بعضا أشد الجدل فى قضايا يحيط بها الوهم نتناولها بمعرفة انطباعية فحسب إن لم يكن بدون معرفة الواقع اصلا .

وعلينا أن نذكر أننا أمة شابة بمعنى أن أكثر من ثلثى الأمة العربية لاتتجاوز سنهم الثلاثين عاما . وهذا الشباب يعانى من الفجوة بين الأجيال عناء شديدا . كما أنه يحمل جيلنا مسئولية ما يعانيه من احباط وحرمان وامتهان وافتقاد للمثل العليا المعبئة للجهود والحافزة على العمل بجد والمحملة بآمال فى مستقبل أفضل . وهو لذلك أرض خصبة لاتجاهات التطرف والعنف ورفض العقل ولتعاطى المخدرات وانتشار الاجرام ، كما أن اخفاق حكومات ما بعد الاستقلال فى أداء الوظيفة التاريخية التى لعبتها الدولة الوطنية فى الغرب وما انتاب الحكم من اضطهاد الناس وفساد فى الأرض ، يؤدى إلى احياء النزعات الطائفية والقبلية والاقليمية كأطر اجتماعية توفر للشباب فرصا لم توفرها له الدولة . ويكفى أن نشير اشارة عابرة إلى الحرب الأهلية فى لبنان التى استمرت خمسة عشر عاما . وأحداث الصومال المأساوية التى أودت مع الجفاف والأوبئة إلى القضاء على حوالى ربع سكان هذا البلد وفقا لما صرح به ممثلو هيئات المساعدة الدولية ، وإلى السودان . ولن أشير إلى أقطار أخرى تفاديا للجدل .

وفى نفس الإطار أقول إن مكانة المرأة فى أى مجتمع محدد اساسى لدرجة تقدمه . ونذكر هنا لعدد من حكومات ما بعد الاستقلال أنها فتحت أبواب التعليم أمام المرأة وأتاحت لها فرص عمل فى معظم المواقع . ولكننا الآن نشهد ردة فى هذا الصدد لايجوز السكوت عليها . وقد ذكرناً أن الدعوة لتحرير المرأة كانت من معالم النهضة الأولى . ■



مشـــــروع النهضـــــة ..

تحليل لإشكالية التعارض بين الأنا والآخر (العالم الإسلامى وأوربا المسيحية) يرى أن هذا التعارض قد تبلور مع انكشاف الطابع الإستعمارى لأوربا السياسية فى علاقتها بالعالم العربى ، الأمر الذى جعل الحاجة تصبح قوية للتوفيق والتفتيش داخل التراث عن مبررات لقبول ما هو صالح فى منتج الغرب العقلى والفكرى على أيدى مدرسة الإصلاح .

نصر حامد أبو زيد

أستاذ البلاغة بكلية الآداب جامعة القاهرة وصاحب « مفهوم النص ـ دراسة فى علوم القرآن » و « فلسفة التأويل » و «الإمام الشافعى » .

فلا أحد يملك أن ينكر أن مشروع النهضة الذى تولدت ملامحه مع مطالع القرن التاسع عشر فى عالمنا العربى قد أعتمد على معادلة طرفاها : التراث العربى الإسلامى ، الذى تم توحيده بجوهر الإسلام وذاتيته المطلقة من جهة ، وبين التراث الأوروبى الغربى الذى تم تركيزه فى الكشوف العلمية وثمارها التكنولوجية من جهة أخرى . وكان التوفيق بين طرفى المعادلة هو أساس مشروع النهضة ، سواء تحركت المعادلة فى اتجاه الإسلام بوصفه أساسا مرجعيا لتقبل الوافد الغربى ، أو تحركت فى اتجاه الوافد الغربى لجعله معيارا لسلامة فهم الإسلام ولمشروعية تأويله . فى كلتا الحركتين ثمة حضور غالب لأحد طرفى المعادلة ، وثمة جهد دائب للتوفيق بين الطرفين .

ولا أحد يستطيع أن ينكر كذلك أن صياغة المعادلة على هذا النحو ـ الذى ما زال مستمرا بدرجات متفاوتة حتى الآن ـ يجد تفسيره فى طبيعة اللقاء التصادمى الأول بين الدولة الإسلامية ـ ممثلة فى الإمبراطورية العثمانية ـ وبين القوة الأوروبية الناهضة والنامية ، والساعية إلى الاستحواذ على تركة الرجل المريض .

ومن الخطأ التاريخى أن يؤرخ لهذا الصدام بحملة بونابرت على مصر (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) ، إلا إذا كنا نؤرخ للقاء مصر الأول بأوروبا ، هذا مع تسليمنا بأن حملة نابليون تمثل أحد المفاصل الرئيسية فى هذا الصدام . ومن شأن أى لقاء تصادمى أن يؤدى إلى رد فعل ، لأن المهزوم عادة ، إما أن يتبع المنتصر ويميل إلى تقليد الغالب بحسب أطروحة ابن خلدون ، وإما أن يميل إلى التقوقع داخل الذات والاحتماء وراء أسوار هوية حقيقية أو متوهمة . لكن الذى حدث أن رد الفعل الإسلامى / العربى لم يقع فى دائرة هذا الطرف أو ذاك ، ربما لأن أوروبا المسيحية ـ هكذا تم توصيفها ـ لم تكن جديدة تماما بالنسبة للذاكرة الإسلامية . لقد كانت ثمة سوابق للقاءات عقلية وفكرية انسربت تأثيراتها فى التراث المتواصل حتى لحظة التصادم .

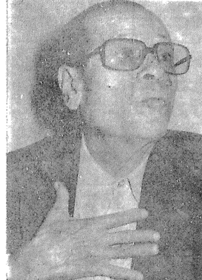
كانت « القوة » العسكرية ـ المزودة بترسانة التكنولوجيا التى أبدعها العلم ـ هى الجانب « المدهش » والمسبب للصدمة . ولم يكن أيسر على العقل المسلم / العربى من الاقتناع بضرورة « التزود » بهذه القوة التى تصور أنها محايدة . لا تعارض إذن بين الإسلام ـ علامة الهوية وشارتها فى مواجهة العالم المسيحى الذى قدم نفسه كذلك منذ الحروب الصليبية ـ وبين « استيراد » الأسلحة وتكنولوجيا الحرب . وبسبب من « عدم التعارض » هذا تم إرسال البعثات إلى أوروبا ـ وإلى فرنسا بصفة خاصة ـ لنقل ثمار العقل الأوروبى فى مجال التكنولوجيا . وإذا أخذنا الطهطاوى مثالا على ذلك اللقاء

بين التوفيق والتلفيق

غير التصادمى الأول لوجدنا أن ما كان يشغل الشيخ فى الأساس هو محاولة « الاستيعاب » العقلية لكل ما يلفت عقله أو وجدانه . لم ينشغل رفاعة طويلا بالتعارض بقدر ما سعى إلى « التصالح » . هناك أشياء فى تلك الحضارة لا يقبلها الإسلام دون شك ، مثل الحريات المتاحة للمرأة فى مراقصة الرجال والاختلاط بهم ، لكن تلك أشياء تهون إلى جانب إنجاز تعليم المرأة وخروجها للعمل مثل الرجل وتحملها للمسئولية . فضلا عن القوانين التى تساوى بين البشر على أساس من الحرية والمساواة والإخاء ، ناهيك عن النظافة والاهتمام بالصحة العامة للمواطنين .. إلخ .

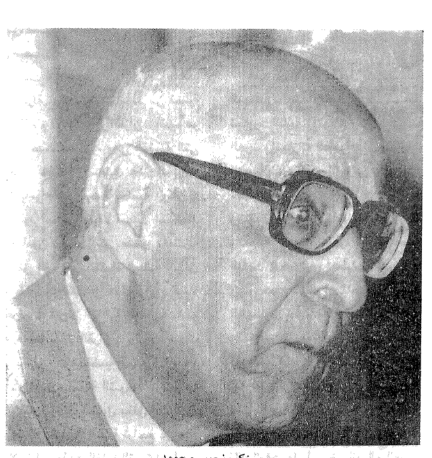
وعلينا الا ننسى فى هذا السياق أن حملة بونابرت قد أخفقت فى تحقيق أهدافها السياسية فى الاستيلاء على مصر واحتلالها . وأن إحساس الشعب المصرى بالانتصار على الحملة ، بل وفى فرض حاكم اختاره زعماؤه على الباب العالى الذى خضع لمطالب ممثلى الشعب المصرى بتعيين محمد على واليا على مصر ـ كل ذلك يفسر لنا تحرر رفاعة الطهطاوى من عقد النقص الذى تلازم المهزوم عادة فى تعامله مع عدوه .

لقد كانت الهزيمة واقعة عامة حالة إسلامية اساسا ، وليست حالة مصرية تحديدا . هكذا ظلت أوروبا حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا تمثل الخصم المتفوق لا العدو المنتصر . فى



نجيب محفوظ

عباس محمود العقاد



زكى نجيب محمود

هذا السياق نفسه كان محمد على يواصل انتصاراته فى الشام والجزيرة العربية مناهضا الباب العالى ذاته بالأسلحة التى استوردها من أوروبا . من هنا منشأ « عدم التعارض » الذى ظل محاثيا لمشروع النهضة فى كتابات رفاعة الطهطاوى ، وربما فى كتابات معاصريه .

(٢)

فى تقديرنا أن « التعارض » بين الأنا والآخر ، أو بين « الإسلام » و« أوروبا المسيحية » بدأ يتبلور مع انكشاف الطابع الاستعمارى الإمبريالى لأوروبا السياسية فى علاقتها بالعالم العربى والإسلامى ، وبعد أن كان الخصم المتفوق » يحتفظ بالمسافة التى تبعده عن الأنا ، وتسمح لها من ثم بادراكه ادراكا مكتملا أو شبه مكتمل ، واقترب من حدود تهديد الذات بالاحتلال المباشر للأرض . تحول « الخصم المتفوق » إلى خطر ماثل ، وإلى عدو قاهر ، هكذا تم إطفاء مصابيح الديمقراطية الوليدة التى أراد إسماعيل إقامتها ، وتم القضاء على كثير من المؤسسات المدنية الجديدة . وكان نفى رفاعة الطهطاوى إلى السودان علامة فارقة تحدد بادية عصر « التعارض » وانتهاء عصر التصالح إلى الأبد .

ومع تبلور « التعارض » نشأت الحاجة إلى « التوفيق » ، وبدأ التفتيش داخل تراث الذات ـ الإسلامى بصفة خاصة ـ عن مبررات لقبول ما هو صالح فقط من منتجات الغرب العقلية والفكرية من جهة ، والاجتماعية والسياسية من جهة أخرى . وكان هذا « التوفيق » هو محور انجاز التيار الإصلاحى الذى مثله بالأساس جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده . كان منطق « الإصلاح » أنه : « لا يفل الحديد إلا الحديد » وأن علينا أن نناهض الغرب ونقاومه مستعينين بأسلحته المادية والفكرية . إن الهدف الأساسى هو المقاومة مع الحفاظ على هوية الذات خشية أن تذوب . من هنا قدم محمد عبده قراءته لعلم الكلام فى « رسالة التوحيد » ، كما بدأ تفسيره للقرآن بهدف نفى الأسطورة والخرافة وتأكيد الطابع العقلى للوحى . وفى نفس الوقت بدات ردوده على رينان فى هجومه على الثقافة العربية الإسلامية .

ومن المهم أن نلاحظ أن محور نشاط محمد عبده ، سواء فى قراءته لعلم الكلام أو فى تفسيره ، كان محاولة نفى الضار واستبقاء الصالح فى هذا التراث . لذلك أختار من المعتزلة موقفهم من قضية « العدل » وفى القلب منها « خلق الافعال » أنها من العبد وليست من الله . لكنه تمسك بالموقف الأشعرى من قضية طبيعة الذات الإلهية وصفاتها ، واقر أنها صفات زائدة ليست هى عين الذات كما ذهب المعتزلة . وله موقف متردد من قضية « الكلام الإلهى » أو القرآن أقديم هو أم محدث مخلوق ، وهى القضية التى أثارت خلافا واسعا فى عصر الخليفة العباسى المأمون بصفة خاصة . وكان له مردود سياسى عنيفاً ، حيث اضطهد المأمون ـ الذى تبنى منظور المعتزلة بخلق القرآن ـ علماء السنة الذين رفضوا الموافقة على هذا الراى ، فيما عرف فى تاريخ الثقافة العربية باسم « محنة خلق القرآن » . تردد محمد عبده إزاء هذه القضية فاختار فى الطبعة الأولى من « رسالة التوحيد » الموقف الاعتزالى وهو القول بخلق القرآن . ولكنه فى الطبعة الثانية تراجع عن هذا الاختيار وحذفت الفقرة التى تدل عليه ، بناء على نصيحة من الشيخ الشنقيطى فيما يروى .

أما فى تفسيره للقرآن فقد قام الشيخ بتأويل كل ما ورد فى القرآن عن الجن والشياطين بأنها القوى النفسية والغرائز المحركة للشهوات . هذا فضلاً عن تأويله للطير الأبابيل فى سورة « الفيل » بأنه مرض الطاعون . هكذا نرى أن الشيخ يتحرك مرة فى اتجاه التراث الإسلامى جاعلا منه الأصل ومعيار القيمة ، ويتحرك مرة أخرى فى اتجاه « العقل الغربى الرافض للأساطير والمعجزات . ولكن باعث الحركة فى الحالتين هو البحث عن « النافع » هنا أو هناك . بل إن جمع الشيخ بين عقيدة « العدل » عند المعتزلة وعقيدة « التوحيد » عند الأشاعرة أعتمدت على هذا المحرك الأساسى : البحث عن النافع فى التراث الذى يمكن أن يلتقى مع النافع فى نتاج الحضارة الأوروبية .

غنى عن البيان القول إن معادلة النهضة ـ عند الأفغانى وعبده ـ قد تجاوزت ثنائية الإسلام/كتكنولوجيا الغرب وإنجازاته العلمية ، إلى ، التراث الإسلامى/ الفكر الغربى ، أى أنه حدث تحول من مجال المنافع المادية وانتقال إلى مجال المنافع الفكرية والعقلية . لكن ظل مفهوم « المنفعة » هو الباعث الجوهرى لعمليات التوفيق . وليس معنى ذلك أن المعادلة عند الطهطاوى كانت خالية تماما من العقلى والفكرى ، بل معناه أن العقلى والفكرى كان مفسرا للعلمى والتكنولوجى ، وكان ثمة أفتراض لإمكانية نقل المادى دون التورط فى التعرض لعدوى الفكرى والعقلى . ولعل أوروبا كانت حريصة فى ذلك الوقت على أن يظل العالم العربى

الإسلامى رهين هذا الانفصام ، وذلك ليظل محتفظا بالدور الذى كانت تريده أوروبا : دور السوق المفتوحة لمنتجات الغرب ، دون أن يتجاوز ذلك إلى دور المشارك فى إنتاج العلم والتكنولوجيا ، وهو الدور الذى يستلزم الاستيعاب الفكرى والعقلى .

الدليل على ذلك أن محاولات إسماعيل لنقل المؤسسات الغربية ، ومن أهمها الديمقراطية ، للحياة السياسية المصرية جوابه لا بالرفض فقط ، بل بالسعى للقضاء على هذه التجربة الوليدة بإغراق مصر فى الديون وتوريطها اقتصاديا حتى انتهى الأمر إلى الاحتلال الكامل (١٨٨٢) ، وعلينا الا ننسى فى هذا السياق أن أوروبا فى منتصف القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين كانت أوروبا الاستعمارية الإمبريالية ، فى حين أن أوروبا التى أراد العقل العربى التوفيق بينها وبين العقل الإسلامى كانت أوروبا القرن الثامن عشر ، أوروبا عصر الأنوار . وفى حين تصور العقل العربى انه يتعامل مع أوروبا واحدة كلية ذات جوهر غير تاريخى اسمه التقدم لم يستطع أن يفسر بشكل تاريخى هذا التعارض بين السياسة والفكر من جانب أوروبا ـ بل إن العقل العربى وقع هو ذاته فى ازدواجية متعارضة بين من ينشدون الاندراج فى سياق الثقافة الأوربية – وهم ينظرون إلى أوربا عصر الأنوار – وبين من ينشدون الانسلاخ عن الشيطان الأوروبى والاحتماء بالهوية الإسلامية ، وهم فى الواقع ، ينظرون إلى أوروبا الاستعمارية ، أوروبا منتصف القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، أوروبا المتأهبة بجيوشها وأساطيلها لابتلاع العالم الإسلامى عامة والعربى بصفة خاصة .



طه حسين

(٣)

هذه الازدواجية فى النظر إلى أوروبا وفى استيعابها إزدادت تعقيدا وتركيبا حين حاول العقل العربى « التوفيق » بين أوروبا والتراث الإسلامى ، ذلك أن التراث الإسلامى العقلانى المؤهل للتواصل مع فلسفة الأنوار ، هو بالأساس التراث الرشدى والمعتزلى على مستوى الفلسفة واللاهوت ، والتراث العلمى التجريبى المتمثل فى إنجازات الرازى وابن الهيثم وابن النفيس .. إلخ ، وهذا التراث ذاته هو الذى انتقل عبر الأندلس إلى أوروبا فى عصر النهضة وأفادت منه فى صياغة معادلة نهضتها لكن هذا التراث ذاته . فى سياق تاريخ الحضارة الإسلامية ـ كان تراثا مهمشا ، تم حصاره وتهميشه داخل دائرة ضيقة من الصفوة لحساب تراث آخر امتزجت فيه الحنبلية والأشعرية والصوفية . وهذا التراث هو الذى كتبت له السيادة والسيطرة والهيمنة التى قوت شوكتها الهيمنة التركية العثمانية على مقدرات العالم الإسلامى .

من هنا نفهم تردد الشيخ محمد عبده بين « عدل » المعتزلة ، و « توحيد » الأشاعرة من جهة ، بل ونفهم هذا التردد إزاء مسألة « خلق القرآن » وهى مسألة ذات أهمية قصوى فى طريق فتح باب التأويل والاجتهاد على أساس لاهوتى وفلسفى فى آن واحد . وهذه نقطة سنعود لها بعد استعراض مظاهر التردد فى خطاب النهضة . هذا التردد فى الاختيار من عناصر التراث يعكس عدم الوعى بتاريخية التراث من جهة ، وعدم إدراك أن « تعددية » هذا التراث جزء من تعددية المنظومات الفكرية والعقلية المعبرة عن مصالح ورؤى واتجاهات من جهة أخرى . التعامل مع

التراث العربى الإسلامى بوصفه كلا جوهريا موحدا يمثل نوعا من الانعكاس لازدواجية التعامل مع أوروبا بوصفها كلا جوهريا موحدا . إنه فى الحالتين انعدام الوعى التاريخى بالظاهرة ، سواء كانت تلك الظاهرة أوروبا أو كانت التراث العربى الإسلامى .

هذا التردد نجده فى منهجية طه حسين الديكارتية التى حاول تطبيقها على الشعر الجاهلى . والقراءة المتعمقة للكتاب تكشف عن حضور منهجين متجاورين لم يتم التركيب منهما : منهج الشك الديكارتى المتمثل فى أطروحة أن الشعر الجاهلى لا يعكس الحياة الجاهلية بحيويتها وثرائها وعنفوانها كما يعكسها القرآن مثلا . ولنلاحظ هنا أن القرآن يمثل بالنسبة لطه حسين « مرجعية تاريخية » للحياة الجاهلية . وهناك منهج علماء الحديث فى نقد الرواية كما يتمثل فى نقد محمد بن سلام الجمحى للشعر الجاهلى . وقد ظل هذان المنهجان فى حالة تجاور سكونى مما أعطى مبرراً لمهاجمى طه حسين إلى إدعاء أنه نقل عن « مرجليوث » من جهة ، وإلى أنه لم يقل جديدا عما قاله ابن سلام الجمحى من جهة أخرى .

لكن التناقض الحقيقى فى منهج طه حسين - النابع من التردد المشار إليه - نجده فى مسألة اعتبار القرآن « مرجعا تاريخيا » بالنسبة للحياة الجاهلية ، وإنكار نفس المرجعية بالنسبة لقصص الأنبياء . وهذا الإنكار الأخير كان هو القشة التى قصمت ظهر البعير بالنسبة للكتاب وبالنسبة لطه حسين الذى سرعان ما تراجع عن هذا الانكار وحذف ما يدل عليه من الكتاب فى طبعته الثانية التى صدرت بعنوان « فى الأدب الجاهلى » .

وقبل أن نمضى فى تحليل منهجية طه حسين علينا أن نلاحظ هنا أن معادلة التوفيق كما مَثَّلها محمد عبده قد تحركت قليلا عند طه حسين ، فلم يعد « الغرب » بالنسبة له أفكارا تحتاج لإيجاد مثيل لها يوافقها من التراث الإسلامى ، بل تحول إلى « أداة » منهجية لتحليل التراث وفهمه ونقده . وقد ظل هذا التحول فى استيعاب الغرب ماثلا فى الفكر العربى الحديث بمستوياته وتجلياته النوعية المختلفة حتى سقوط معادلة النهضة ذاتها سقوطا نهائيا فى منتصف الستينيات . نقول إن معادلة النهضة التوفيقية فى أساسها تحركت قليلا مع منهجية طه حسين - نكرر قليلا - ولم تمض إلى غاياتها المرجوة . وتعليلنا لذلك - دون انكار للتفسير الاقتصادى الاجتماعى الخاص بنشأة الطبقة وبطبيعة تكوينها الهجينى .. إلخ - إن إنجاز التوفيق السابق عليه - محمد عبده تحديدا - لم يكن حاسما فى مجال القضايا الشائكة الحساسة ، خاصة قضية « خلق القرآن » .

ما الذى جعل من تلك القضية تحديدا مسألة على هذه الدرجة من الحساسية التى لا تقل عن مسألة « التشكيك » فى المرجعية التاريخية للنصوص الدينية ! حتى أن كلتا المسألتين تم استبعادهما من « رسالة التوحيد » ومن « فى الشعر الجاهلى » على التوالى ؟! إن المسألتين فى الحقيقة مترابطتان على مستوى المفاهيم وعلى مستوى المنهج ، لدرجة أن حسم أولاهما يفضى منطقيا إلى حسم الثانية ، وربما كان من شأن هذا الحسم أن يفضى بدوره إلى الانتقال خطوة هامة فى طريق تجاوز الثنائية والازدواجية فى مشروع النهضة إلى نوع من التركيبية الإبداعية . إن مسألة « خلق القرآن » كما طرحها المعتزلة تعنى فى التحليل الفلسفى أن الوحى واقعة تاريخية ترتبط أساسا بالبُعد الإنسانى من ثنائية الله والإنسان أو المطلق والمحدود . الوحى فى هذا الفهم تحقيق « لمصالح » الإنسان على الأرض ، لأنه خطاب للإنسان بلغته . وإذا مضينا فى التحليل الفلسفى إلى غايته - التى ربما غابت عن المعتزلة - نصل إلى أن الخطاب الإلهى خطاب تاريخى . وبما هو تاريخى فإن معناه لا يتحقق إلا من خلال التأويل الإنسانى ، أنه لا يتضمن معنى مفارقا جوهريا ثابتا له إطلاقية المطلق وقداسة الإله . على العكس من ذلك يقضى مفهوم « قدم الكلام الإلهى وأزليته » ، المفهوم الذى تمسك به محمد عبده ضمنا ، إلى تثبيت المعنى الدينى بما هو معنى مفارق أزلى قديم قدم الذات الإلهية .

ورغم أن « لو » أداة شرط غير تاريخية ، فلا مناص أمامنا من استخدامها لنقول : ربما لو حسم محمد عبده الإشكالية باختيار « الخلق » ، كما اختار « العدل » لتمكن طه حسين من تجاوز حالة التردد بين الاعتداد بالمرجعية التاريخية للنص القرآنى وبين إنكار هذه المرجعية . ولربما استطاع أن يتجاوز الوضع الثنائى الازدواجى إلى تركيبية إبداعية على مستوى المنهج وعلى مستوى النتائج . لكن هذه الـ « لو » التى تعبر عن التمنى ، وهذه الـ « ربما » التى تعبر عن الأمانى الضائعة لا يجدى كلاهما فى تحقيق وعينا نحن - جيل سقوط معادلة النهضة التوفيقية - بضرورة تجاوز هذه المعادلة . لكن السؤال الآن : هل كان بمقدور محمد عبده الانحياز إلى الخلق » - خلق القرآن - كما انحاز إلى خلق الأفعال

التى هى محور مقولة « العدل » الاعتزالية ؟! والإجابة عن هذا السؤال تكشف عن عجز المعادلة ذاتها ، العجز النابع عن التردد بين طرفين على أساس « النفع » المباشر . لم يكن ثمة ما يمنع من اختيار « خلق الأفعال » لالتقائه مع مفهوم « الإرادة الحرة » للإنسان كما صاغها الفكر الغربى ، لكن كان من المستحيل التخلى عن « التوحيد » الأشعرى لحساب « التوحيد » الاعتزالى لما يؤدى إليه هذا الأخير من تعطيل الصفات الإلهية عن الفعالية فى التدخل الدائم فى العالمين الطبيعى والاجتماعى . ومفهوم « التعطيل » هذا يفضى فى ذهن عبده إلى « الإلحاد » الذى كان يخشاه عبده من أوروبا هكذا احتفظ عبده ـ من داخل التراث ـ بين فكرتين متناقضتين : حرية الإرادة الإنسانية من جهة ، والتداخل الدائم لله فى صنع العالم ـ بما فيه الإنسان ـ وفى تشكيله من جهة أخرى . التفسير المباشر لهذا التناقض ازدواجية فهم أوروبا ، والتردد بين «التعلم » منها ومناهضتها فى الوقت نفسه .

هذا التردد ـ الذى هو نتيجة لانعدام الوعى التاريخى بكل من طرفى المعادلة ـ ظل محايثا لخطاب النهضة ، لكنه كان ينتهى دائما للتضاد مع مفهوم النهضة ذاته . وكما انحسم تردد طه حسين فى بذرة مشروعه الأول « فى الشعر الجاهلى » انحسم فى مشروعه كله لصالح التراث والإسلاميات . وانحسم على مستوى الناقد الأدبى لمناهضة مظاهر الحداثة فى الشعر . ونفس الأمر حدث مع عباس محمود العقاد ، وخالد محمد خالد الذى أستمعنا إلى خطابه خلال أزمة الخليج يكرس الوجود الأمريكى فى المنطقة استنادا إلى مرجعية التراث والدين . وإذا كان على عبد الرازق رفض إعادة طبع كتابه « الإسلام وأصول الحكم » خاصة بعد انتهاء الظروف التى أدت إلى المصادرة والمنع ، رفض نجيب محفوظ إعادة طبع روايته « أولاد حارتنا » بل هدد جريدة « المساء » القاهرية باللجوء إلى القضاء إذا نشرت هذه الرواية .

ليس التردد هنا عيبا فى الأفراد من حيث هم ذوات مفكرة ، ولكنه خلل فى المعادلة ذاتها نابع من عدم الوعى بطرفيها وعيا تاريخيا يمكن من إحداث « التوفيق » الحقيقى بينهما . لكن الوعى التاريخى بطرفى المعادلة وحده ليس كافيا ، فلابد من تضام ذلك مع الوعى التاريخى بمكونات الواقع بما يتضمنه على مستوى الوعى والفكر والسلوك والممارسة من عناصر تراثية ومن عناصر تأثر بالغرب تسربت كلها إلى نسيج الواقع وشكلت خصوصيته التاريخية ، إضافة إلى حقائق الوجود الطبيعى الجغرافى والوجود الاجتماعى الثابتة والمتغيرة ، لكن الطبقة لأسباب ليس هنا مجال مناقشتها لم تحقق هذا الوعى ، بالإضافة إلى أنها كانت تخوض معركة النهضة وسط عوامل كثيرة محبطة من التآمر الاستعمارى الصهيونى من جهة ، وعناصر الثورة المضادة التابعة فى قلب المشروع والكامنة فيه من جهة أخرى ، من أجل ذلك كان الدافع المسيطر فى عملية « التوفيق » هو الدافع النفعى المباشر الذى حول التوفيق إلى « تلفيق » يحتفظ للطرفين بتمايزهما بحيث إذا أمكن إسقاط أحد طرفى المعادلة احتفظ الطرف الآخر بكل قوته وجبروته ، وظل ممارسا لفعاليته ، وهذا ما نلمسه الآن من الانحسار بين طرفين : التبعية الكاملة للغرب اقتصاديا وسياسيا وفكريا بالشروط الاستعمارية الإمبريالية من جهة ، والسلفية الرجعية الكاملة من جهة أخرى . ورغم التناقض الظاهرى بين الطرفين فإن كلا منهما يفضى إلى الآخر بوسيلته الخاصة ، تفضى التبعية إلى الديكتاتورية والاستغلال ومحاصرة الإنسان باسم التغريب والحداثة وتفضى السلفية إلى نفس النتائج ولكن باسم الدين والتراث وتحقيق الهوية الخاصة .

(٤)

هذا « التلفيق » المردود إلى النقص فى وعى الطبقة ، الناتج من طبيعة تكوينها الهش والجنينى ، لا يزال يحتاج إلى مزيد من التعمق فى التفسير ، خروجا من هشاشة التفسير الواحد الجاهز الذى يفسر كل شىء ، لكنه فى الحقيقة قد يؤدى إلى تفسير لا شىء حين يساء فهمه ويساء بالتالى استخدامه . إن وعى الطبقة ليس إلا محصلة لتفاعل عناصر ثلاثة : حقائق وجودها الاجتماعى وشروطه أولا ، ممارساتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى حركتها ثانيا ، وتراثها الفكرى والعقلى الذى تستمده من ماضيها ثالثا . وقد تم تحليل العنصر الأول تحليلا كافيا فى كتابات كثيرة ، وتم الاقتراب من العنصر الثانى اقترابا ليس كافيا لكن العنصر الثالث لا يزال غائبا من محاولات التفسير والفهم ، وهو العنصر الذى نود هنا الاقتراب منه اقترابا استكشافيا . لكننا نود قبل ذلك إلقاء مزيد من الضوء على العنصر الثانى الخاص بالممارسة السياسية للصفوة الفكرية أو الانتلجنسيا صاحبة مشروع معادلة النهضة التلفيقى .

مع التسليم بأن معادلة النهضة التى اسس قواعدها رفاعة الطهطاوى لم تنشأ منفصلة عن المشروع السياسى لإقامة الدولة الحديثة الذى أسسه محمد على ، فإن إحد مقاتل معادلة النهضة كان ذلك الحرص الدائم ـ من جانب رجال الحكم ومن جانب الأنتلجنسيا ايضا ـ على التطابق بين « السياسى » و « الفكرى » . أو بعبارة اخرى يمكن القول إن تحويل المشروع السياسى إلى مشروع فكرى يدخل « الفكر » فى دائرة التبرير بالقدر الذى يتباعد به عن مهمته الأساسية ، وهى التحليل والتفسير ، والعكس صحيح ايضا حين يتبنى السياسى مشروعا فكريا ، ويطلب من المفكر معاونته فى تحقيق المشروع على أرض الواقع الاجتماعى الاقتصادى سياسيا . فى كلتا الحالتين تدخل الممارسة داخل دائرة التبرير ، حيث يبرر الفكرى الغايات النفعية المباشرة للسياسى فى الحالة الأولى ، ويبرر السياسى الوسائل بالغايات فى الحالة الثانية . هل نحتاج هنا إلى تأكيد حقيقة أن الفعالية الفكرية نوع من ممارسة السياسة ، ولكن بآليات الفكر ، وأن الفعالية السياسية نوع من ممارسة الفكر ولكن بآليات السياسة ؟! ومع ذلك يظل هناك اختلاف نوعى من حيث الآليات ، إذ تنشغل السياسة ـ رغم أساسها الفكرى ، باليومى والمتغير والمباشر فى خضم انشغالها باتخاذ القرارات ، فى حين ينشغل الفكر ـ رغم دلالاته السياسية ـ بالجوهرى والثابت والحقيقى الذى تقترب من حدود العلم .

والذى حدث فى تاريخنا الحديث ـ وربما الوسيط كما سنشير فى الفقرة التالية ـ أن التداخل بين السياسى والفكرى قد أزال الحدود الفاصلة والمميزة لكل منهما . لنتذكر مع غالى شكرى هذه الملاحظات الخمس التى تؤكد ذلك التداخل وتنبع منه فى نفس الوقت . الملاحظة الأولى « إن الرواد الأوائل للنهضة فى معادلتها التوفيقية وفى مختلف مراحل حياتها وموتها ، كانوا دائما من رجال الدين وأئمته » . الملاحظة الثانية « إن علماء الدين يمَّمُوا بوجوههم شطر الغرب وأساسا فرنسا » . الملاحظة الثالثة : « أن هؤلاء الرواد قالوا بوضوح وحسم بأن الإسلام ليس ضد العلم والأخذ عن الآخرين » ، والملاحظة الرابعة : « أنهم حين قالوا بذلك التوفيق بين طرفى معادلة النهضة ، فإنهم اقيلوا من الأزهر وصودرت كتبهم ، وانهم تراجعوا خطوة أو خطوات ـ سواء بالصمت أو بالرضا » . الملاحظة الخامسة : « أنه رغم العقاب الدينى أو الحكومى .. فإن النظام الاجتماعى والدولة قد أخذا واقعيا بتنفيذ معادلة النهضة التوفيقية فى الدستور والقانون وهياكل الحكم كالأحزاب والبرلمان والتشريع الاجتماعى كحرية المرأة وتكوين النقابات » (الخروج على النص ، الحلقة الرابعة ، مجلة الوطن العربى ، ١٩/٦/٩٢) .

وهناك سؤالان تثيرهما تلك الملاحظات الخمس الهامة جدا : السؤال الأول : أيهما كان الأصل فى صياغة معادلة النهضة . المشروع السياسى لمحمد على أم الرؤية الفكرية للطهطاوى ؟ ولاشك فى أن الإجابة عن هذا السؤال ـ بأن الأصل هو السياسى كما هو معروف من الوقائع التاريخية ـ تفضى إلى السؤال الثانى : لماذا يحدث « العقاب » الدينى أو الاجتماعى أو السياسى ، خاصة إذا كانت « الدولة » تنهض فى الواقع فى تأسيس مشروعيتها على أساس من إنجازات مفكريها ؟! وبعبارة أخرى فى صياغة السؤال : ما منشأ التعارض الذى يحدث بين السياسى والفكرى فيؤدى إلى التضحية بالمفكر ذاته ، إن لم تحدث التضحية بالفكر ؟! وقبل أن نجيب عن هذا السؤال نستعرض مظاهر التعارض المتواترة فى تاريخنا الحديث : نفى رفاعة الطهطاوى إلى السودان ووقف النشاط الحيوى المتمثل فى الترجمة إلى أجل غير مسمى فى عصر الخديو عباس الأول ، نفى محمد عبده بعد فشل الثورة العرابية ، وإبعاده من دون قرار رسمى ـ بعد عودته من العمل بالأزهر خاصة فى مجال الفتوى للتدريس فى دار العلوم والعكوف على تطوير التعليم ، أزمة كتاب « فى الشعر الجاهلى » وإبعاد طه حسين من الجامعة ، وكذلك فصل على عبد الرازق من هيئة كبار العلماء ومن القضاء الشرعى بعد نشر « الإسلام وأصول الحكم » ، الأمر الذى تكرر مع خالد محمد خالد . إلغاء رسالة الدكتوراة « الفن القصصى فى القرآن » لمحمد أحمد خلف الله وحرمان مشرفها أمين الخولى من الإشراف على رسائل علمية فى الموضوعات المتصلة بالدين ، وحين نصل إلى التاريخ القريب جدا جداً نشير إلى الاستدعاءات المتتالية من مباحث أمن الدولة للتحقيق مع كتاب ومفكرين « تنويريين » بشأن بعض الأفكار التى جاءت فى كتبهم ، والتى رأى الأزهر أو أحد من رجاله انها تتناقض مع بعض المبادىء الإسلامية . المصادرة الغريبة لكتب المستشار محمد سعيد العشماوى ، وهو أحد المثقفين الذين لا يمكن حسابهم على المعارضة السياسية بأى معنى من المعانى ، تطول

القائمة التى تعكس تناقض جهاز الدولة السياسى فى تعامله مع المثقف الذى لا يتناقض جذريا مع مشروعات الدولة وتوجهاتها . ولا تفسير لذلك التناقض إلا بالتعارض الطبيعى الذى يمكن أن ينشأ بين الفكر من حيث هو فكر ، أى من حيث هو فعالية نوعية مستقلة عن الفعالية السياسية وإن تضمنتها ، وبين السياسة من حيث هى فعالية ذات طبيعة نوعية مغايرة رغم أعتمادها على الفكرى . بالإضافة إلى ما سبق يصعب أن يقال فى حالة « الدولة » فى الواقع العربى الحديث والمعاصر أن لها مشروعا فكريا ثابتا يتمتع باستمرارية سياسية . هناك مشروع اجتماعى ، أعنى فى وعى الجماعة وفى ضميرها ، قد تقترب منه الدولة - بما هى جهاز طبقى - وقد تتباعد عنه ، وفى ظل غياب آليات مدنية ديمقراطية لانتقال السلطة أو تداولها يترجرج المشروع الاجتماعى غيابا وحضورا ، يلتقى أو يتقاطع أو يتناقض مع مشروعات الدولة ، طبقا لعلاقة الطبقة بغيرها من الطبقات الداخلية من جهة ، وطبقا لعلاقاتها بمثيلاتها الخارجية من جهة ثانية .

ولأن معادلة النهضة الفكرية تولدت فى رحم المشروع السياسى ، ظل المفكر تابعا للسياسى رغم كل مظاهر التناقض بل والصراع الدموى أحيانا . وبسبّب من ذلك التلازم العضوى ، ومن عجز المفكر - لأسباب كثيرة - عن قطع « الحبل السرى » الواصل بين إنتاج الفكر وبين ممارسة السياسة ، ظلت معادلة النهضة فى إطار « التلفيق » النفعى البراجماتى المباشر . أى ظلت ممارسة سياسية عينها على اليومى والمتغير والمباشر ولم تتحرك داخل حدود الفكرى - الثابت والجوهرى والعلمى - إلا قليلا . وكثيرا ما تم التراجع عن هذا القليل بسبب عدم تأسيسه معرفيا . لذلك كله كثيرا ما يتراجع الفكر ، وقد يتراجع المفكر ويرتد والشواهد كثيرة - مع تراجع المشروع السياسى ، ويزدهر مع ازدهاره ، ولعل هذا يفسر ازدهار الستينيات على جميع المستويات ، حيث التقى المشروع الاجتماعى بمشروع الدولة الوطنية ، كما يفسر أيضا الانهيار العظيم حين تناقض مشروع الدولة - السبعينيات والثمانينيات - مع المشروع الاجتماعى ، فانهارت كل مظاهر ازدهار الستينات .

وفى المأزق الحالى الذى يعانيه مشروع الدولة ، بين ضغط الجماعات السلفية وتطرفها من جهة ، وضغط ما يسمى بالنظام العالمى الجديد من جهة أخرى ، وذلك كله فى ظل حالة التشرذم والتشظى العربية ، وتراجع كل مشروعات العدل الاجتماعى لحساب سيطرة المشروع الفردى فى سياق ازدهار الانفتاح الاقتصادى المعتمد على السمسرة أساسا ، تعددت المشروعات الطائفية لا الفكرية ، ولأن الخطر الجاثم من هذه الطائفية أقسى من إمكانيات الدولة وحدها ، بدأ النظام السياسى يتوجه إلى المثقفين والمفكرين طالبا منهم العون ، أعنى من أولئك الذين تناقض معهم إلى حد النفى والسجن والفصل والحصار فى أحسن الأحوال . وتظل الخشية قائمة من ان يكون توجه النظام السياسى للفكر والثقافة - طالبا العون والمساعدة - مجرد توجه نفعى للخروج من أزمته الحالية الخانقة . لكن الخشية الأشد والأخطر والأقسى أن تكون استجابة المثقفين والمفكرين مرتهنة - بوعى أو بدون وعى - بالشروط النفعية البراجماتية للنظام السياسى .

ومساهمة فى منع الوقوع فى المحظور - والوقوع فيه يعنى السقوط الأبدى الذى يفتح الباب أمام المجهول - يجب أن نتنبه جميعا إلى ما يكرره غالى شكرى من أن « معادلة النهضة قد سقطت نهائياً » ، أعنى تلك المعادلة التوفيقية التى انتهت إلى التلفيق فأعادتنا إلى « السلفية » التى حافظت المعادلة على تجذرها بالالتفاف حولها دون مواجهتها . لقد انتهت التلفيقية وسقطت ، لكن الدولة ممثلة فى نظامها السياسى لا تزال حريصة عليها . وإذا كان مطلوبا من الفكر والثقافة حماية الدولة والدفاع عن نظامها السياسى فإن إعادة إنتاج فكر النهضة ، حتى فى أرقى أشكاله ثورية ، سيكون هو السلوك الغالب على خطاب الصفوة . سيتصور البعض إن إعادة إنتاج فكر النهضة بمعادلته التلفيقية كفيل بالقضاء على عوامل الركود الفكرى والثقافى ، وقد يحدث ذلك بالفعل لبعض الوقت ، لكنه سيكون بمثابة حقن المخدر المزيلة للألم لبعض الوقت ، والتى يزول أثرها تدريجيا مع التعود . إن خطاب النهضة وفكر النهضة صار تراثا يخضع للفهم والتفسير والتحليل ، لا لإعادة إنتاجه وتسويقه على طريقة الانفتاح الاقتصادى . إن إعادة خطاب النهضة يفضى إلى نمط جديد وغريب من السلفية ، وإذا كانت السلفية الدينية تستمد تراثها القريب من حسن البنا ورشيد رضا وتستمد تراثها البعيد من الحنابلة والأشاعرة والصوفية ، فإن السلفية التنويرية ستستمد تراثها القريب من الطهطاوى والأفغانى ومحمد عبده وطه حسين ... إلخ ، فى حين تستمد تراثها البعيد من المعتزلة وابن

رشد . وفى الحالتين نحن داخل نطاق السلفية وإن تعددت الصفات المضافة إليها .

لقد آن الأوان أن يعى المفكر والمثقف العربى أن الحاجة إلى قطع « الحبل السرى » الواصل بين السياسى والفكرى باتت قضية « تكون أو لا تكون » ، وذلك بالطبع دون إنكار أن ممارسة الفكر هى فى عمقها ممارسة للسياسة ، وأن ممارسة السياسة لا تنفك عن قاعدة فكرية صريحة أو مضمرة . إن للفكر آلياته وأهدافه وللسياسة آلياتها وأهدافها ومن الخطر أن يتنازل الأول عن آلياته ليكون فى خدمة الثانى ، حتى فى حالة تبنى الدولة لمشروع فكرى محدد الملامح أيديولوجيا ، فواجب المفكر المنتمى إلى تلك الإيديولوجيا الا يتنازل عن استقلاله ليبرر السلوك السياسى .

إن المفكر - أيا كان انتماؤه بشرط أن يظل مفكرا - حارس للقيم ومدافع عنها ، ومكانه الدائم فى صف المعارضة بمعناها الإيجابى . والذى أقصده بالمعنى الإيجابى للمعارضة يستبعد المعنى السلبى الذى يفرض على المفكر المعارض أن ينتج أفكاره فى سياق التعليق ورد الفعل المباشر على أطروحات السياسى . إن المفكر يظل مرتهنا بمشروع السلطة السياسية ، ولو كان فى صفوف المعارضة السياسية ، طالما ظلت آليات إنتاجه للمعرفة تخضع لآليات السلوك السياسى . وعلى العكس من ذلك المعارضة الإيجابية للفكر ، التى تتمسك بآليات الفكر وبقوانين إنتاجه ومنها كون الفكر فى جوهره ممارسة سياسية .

(٥)

إن الارتباط - غير المشروع - بين الفكرى والسياسى فى تاريخنا العقلى لم يبدأ مع مشروع محمد على السياسى فى بداية القرن التاسع عشر . وكذلك لم تكن « التلفيقية » سمة لمعادلة النهضة التى ارتبطت بمشروع محمد على السياسى فقط ، بقدر ما هى سمة إيديولوجية يمكن تلمس مظاهرها وتجلياتها على طول التاريخ العربى الإسلامى بصفة خاصة . ويبدو أن ثمة علاقة جديرة بالكشف عنها بين الظاهرتين المشار إليهما ، وقد ألمحنا إلى جانب من هذه العلاقة حين قلنا إن تداخل آليات إنتاج الفكر بآليات الممارسة السياسية إلى حد التطابق يفضى إلى نوع من البراجماتية الفكرية . ولاشك أن « التلفيقية » تعد الآلية الأساسية فى السلوك البراجماتى ، ذلك أن « الحقيقة » فى هذا السلوك تكون كذلك ، أى تكون حقيقة لأنها نافعة . فى حين أن المنطق الفكرى - المبنى على آليات إنتاج المعرفة - يقوم على أساس أن « الحقيقة » نافعة ، لأنها كذلك - أى لأنها « حقيقة » وليس لأى علة خارج كونها حقيقة . وحين يتم هذا الربط بين « الحقيقة » و « المنفعة » على أساس أن الثانية هى الأصل ، والأولى مترتبة عليها ، تظل عمليات اكتشاف الحقيقة - بالمعنى البراجماتى - (أى عمليات إنتاج الفكر) تعتمد على التزييف المتواصل ، التزييف الذى يربط بين أشياء لا رابط بينهما ، ويستنتج من المقدمات ما لاتتضمنه بأى حال من الأحوال ، وتلك كلها عمليات ذهنية يمثل « التلفيق » لحمتها وسداها . ليس معنى ذلك أن البحث عن « الحقيقة » - طبقا لآليات التفكير الحق - بحث عن حقيقة ثابتة جوهرية متعالية قائمة « هناك » فى المطلق . بل نحن فى إطار الحديث عن « الحقيقة » النسبية بالنسبة لتطور الوعى فى سياق اجتماعى ثقافى محدد يصوغ رؤية للعالم تحدد إطار المعرفى بنفس القدر الذى يساهم به المعرفى فى تطوير تلك الرؤية وتحريكها . إن الفارق بين القانون العلمى - أو الحقيقة العلمية فى العلوم الطبيعية - وبين الحقيقة فى العلوم الإنسانية ليس فارقا بين « العلم » و « الأيديولوجيا » ، بل هو فى الأساس فارق بين « حقائق » تجريبية يمكن التثبت من صدقها أو كذبها بصرف النظر عن المكان والزمان وبين « الحقيقة الثقافية ، التى تكون صادقة وصحيحة فى سياق وضع اجتماعى إنسانى محدد بسياق تاريخى متميز .

هذا التداخل بين السياسى والفكرى إلى حد التطابق أحيانا ، وما يفضى إليه من تلفيقية - تسمى « توفيقية » على سبيل التحسين - له حضور ملموس فى تاريخنا العقلى والثقافى . وذلك منذ تحول الدين - الإسلام بصفة خاصة - إلى أرض المعركة التى يدور فيها الصراع الاقتصادى والاجتماعى ، ومن ثم السياسى ، وهى المعركة التى لا تزال دائرة حتى الآن على نفس الأرض ، أرض تأويل النصوص الدينية لتنطق بهذا الموقف أو ذاك ، ولا شك أن المشروع الإسلامى - الذى يمكن استنباطه من النصوص والمواقف والممارسات فى حياة مؤسسة الأول - مشروع عربى إنسانى . ومن المؤكد أنه مشروع ضد طائفية القبيلة . وضد عصبية العرق والدم ، ولو كان عربيا . إنه مشروع عربى ثقافى إنسانى حضارى ، وبقدر إدراك هذه الحقيقة كان المشروع يتقدم ، وبقدر اغفالها كان المشروع يتعثر . وتاريخ العثرات فى السياق التاريخى للإسلام هو فى الحقيقة تاريخ إغفال تلك الحقيقة .

حين رفعت قريش ـ فى حوار السقيفة ـ مبدأ : « الخلافة فى قريش » ، ورفضت رفضا تاما « تداول السلطة » ـ منا أمير ومنكم أمير ـ كما رفضت « المشاركة » فيها ـ منا الوزراء ومنكم الأمراء ـ سجلت العثرة الأولى فى تاريخ المشروع . تلك حروب الردة النابعة من الرغبة فى عدم الخضوع لسلطة قريش ، بكل ما يرتبط بذلك فى ذهن العربى من ذل وعار ، بل وتفاقمت ظاهرة الأنبياء ، الداعين إلى خضوع الآخرين ـ القبائل الأخرى ـ لحكم قبائلهم ، ومنذ ذلك التاريخ ظل الخلاف على السلطة السياسية ـ التى توحدت بالسلطة الدينية ـ مثار النزاع ومحرك العثرات المتتالية : لنتذكر عثمان بن عفان وخلاف عامة المسلمين معه ورفعه لمبدأ الحكم الثيوقراطى جليا واضحا حين قال : « لا أخلع قميصا ألبسنيه الله » يقصد الخلافة التى حصل عليها من خلال لجنة الشورى التى كونها عمر بن الخطاب ، والتى كان كل واحد من أعضاء اللجنة الستة مؤهلا ليكون خليفة المسلمين .

الصراع بين على ومعاوية كان صراعا حول السلطة السياسية ، لكن القرآن كان من أهم أدوات الصراع بين الطرفين ، وكذلك كان القرآن بالنسبة للخلاف بين على والخارجين عليه الرافضين للتحكيم . ولم يجد فى هذا الصراع رغبة على بن ابى طالب فى استبعاد « النصوص الدينية » من مجال الصراع ، وحين نقول « القرآن » نقصد التأويل والتأويل المضاد ، وهى ظاهرة من أبرز ظواهر « الفكر » فى تلك العصور . وبعبارة اخرى كان « الفكرى » الدينى تابعا للسياسى تبعية تكاد تكون تامة . وحين انحسم الصراع سياسيا ، استمر الصراع الفكرى قائما على نفس الأساس النفعى البراجماتية ، رغم استقلاله النسبى عن السلوك السياسى المباشر ، لكن النفعية البراجماتية اتخذت شكلا آخر هو شكل الفعل ورد الفعل ، أو الفكرة ونقيضها ، ثم « التوفيق » بين الطرفين ، أو بالأحرى « التلفيق » بينهما بطريقة لا تحل التعارض . وكثيرا ما كانت التلفيقية تكشف عن انحياز واضح لأحد الطرفين ، هو الطرف المؤسس للسياسى تأسيسا مباشرا فى أغلب الأحوال .

حين رفع مفكرو النظام الأموى مقولة « الجبر » تبريرا لمظالمهم « إنما نأتى أعمالنا بقدر الله » كان رد الفعل الفكرى المباشر « كل شىء بقضاء وقدر إلا المعاصى » وهى استجابة الحسن البصرى . وتطور الأمر إلى تضاد بين « الجبرية » و« القدرية » أو نفاة القدر وهم المعتزلة الأوائل . وفى سياق هذا الصراع كان ثمة صراع آخر يدور بين اهل « الرأى » وأهل « الحديث » ، وهو صراع حول مدى « مرجعية » النصوص الدينية الثانوية ، أحاديث النبى وأفعاله وتقريراته وموافقاته . ومن البديهى أن « النصية » منهج فكرى ملائم تماما لأهداف أى سلطة سياسية ، وذلك بقدرتها الدائمة على تجنيد مزيفى النصوص الناطقة ، دائما بتوجهاتها وأهدافها : لذلك تركزت المعركة الفكرية بين أهل الرأى ، وأهل الحديث من الفقهاء حول محورين : الأول مدى ارتباط النص الثانوى بالنص الأول الأصلى ، القرآن ، واشترطوا لذلك أن يكون الأول تابعا للثانى ونابعا منه شرعا أو تعليقا ـ بالتخصيص أو التحديد ـ وهذا يعنى الا يكون ثمة اى شبهة تناقض بين الثانى والأول ، المحور الثانى أنهم اشترطوا لمشروعية مرجعية النص الثانوى أن يكون متواتر النقل أو مشهورا ، أى أنهم رفضوا النصّ الذى يرويه مجموعة قليلة من الرواة ، وهو ، ما أطلق عليه اسم « حديث الآحاد » .

الحل الوسط « التلفيقى » لخلاف أهل الرأى وأهل الحديث قدمه الإمام الشافعى ، لكنه حل يمثل انحيازا واضحا لأهل « الحديث » . على صعيد محور الخلاف الأول انجز الشافعى مسألة استقلالية السنة بالتشريع ، وبذلك جعل النصّ الثانوى مساويا للنص الأول الأساس فى قوة الالتزام التشريعى ، وعلى صعيد محور الخلاف الثانى وضع مجموعة من الضوابط لقبول أحاديث الآحاد ، وكلها ضوابط تتصل بالرواية ، أى من التحقق من اتصال سلسلة السند وصدق الرواة ، وذلك دون أن يدخل فى « الدراية » ، أى فى مدى « معقولية » مضمون النصّ . وهكذا يكون الشافعى قد كرّس « النصيَّة » ، وحدّد لفترة طويلة ـ ما نزال نعيش آثارها حتى الآن ـ اسبقية سلطة النصوص على سلطة العقل والخبرة الإنسانية . والحل الوسط الذى قدمه الشافعى على مستوى علم أصول الفقه قدمه الأشعرى على مستوى علم العقائد ، أو علم أصول الدين . ومن أهم انجازاته التلفيقية مقولة « الكسب » لحل التعارض بين « الجبرية » و« القدرية » ، وهى مقولة تنحاز فى التحليل الأخير إلى « الجبرية » من باب خلفى .

لكن اخطر انجازات الأشاعرة التلفيقية ارتبطت بقضية « الكلام الالهى » بين « القدم » و« الخلق » ،

حيث انتهوا ، إلى أن للكلام جانبين ، جانب القدم من حيث هو صفة قديمة من صفات الذات الإلهية مرتبطة بالعلم ، وجانب الحدوث أو « الخلق » من حيث هو أصوات منطوقة تحاكى الكلام القديم . وبارتباط الكلام الإلهى بالعلم اكتسب صفة الأزلية ، وتحدد معناه فى منطقة عالم الملكوت التى يجب أن يسعى الإنسان للاتصال بها بحثا عن المعنى الدينى للكلام الإلهى فى أزلية وإطلاق . وهكذا أتاح الأشعرى الفرصة لأبى حامد الغزالى لكى يثب وثبته الأخيرة للربط بين الحنبلية والأشعرية والتصوف من جهة ، والربط بين ذلك كله وبين الشافعية منهجا فى التفكير الفقهى من جهة أخرى .

وقبل أن نكشف عن أبعاد المشروع التلفيقى الذى قدمه الغزالى فى القرن الخامس الهجرى نتوقف أمام التداخل بين السياسى والفكرى الذى ظل ماثلا فى خضم ذلك الصراع الفكرى . وهذه المرة سيحاول السياسى تبنى مشروع الفكر ، والسياسى المقصود هنا هو الخليفة المأمون ذو النزعة الأرسطية ، العقلانى الذى وجد فى « الاعتزال » التعبير الدينى تلك النزعة . لكن المأمون لم يكتف بتشجيع مفكرى المعتزلة ورعايتهم ، بل اراد أن ينشر افكارهم بسلاح قوة السلطة السياسية وهيبتها . فأرسل إلى ولاته فى الأمصار ان يجمعوا فقهاءهم ومفكريهم ويختبروهم حول مسألة « خلق القرآن » ويفرضوا رأى المعتزلة عليهم . وهكذا ارتكب المعتزلة خطيئة كبرى ـ من منظور نسقهم الفكرى . حيث وافقوا على « جبر » الناس على قبول افكارهم ، وهم ـ أى المعتزلة ـ أعداء « الجبر » الدينى

هذه الخطيئة الكبرى حولت « ابن حنبل » إلى شهيد كسب تعاطف جماهير المسلمين الذين انتصروا للسنة والسلفية ضد عَسْف المأمون والمعتزلة . وهكذا أدى الانصياع إلى مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » إلى القضاء على الغاية ذاتها ، ذلك لأن الأفكار مهما كانت عظيمة وهامة وفى صف الناس تحتاج إلى اقتناع الناس بها ، أى إلى أن تتحول إلى معرفة شائعة متاحة للبشر جميعا ، تحتاج إلى أن تخرج من ضيق النخبة أو الصفوة إلى أتساع الثقافة العامة ، وهذه نقطة سنعود لها فى فقرتنا الأخيرة من هذا البحث .

هذا الموقف التبريرى من جانب المعتزلة يختلف مثلا عن موقف الأمام مالك حين عرض عليه الخليفة العباسى أن ينشر كتابه « الموطأ » بين الناس ويحملهم عليه ، فقد قال له : لا تفعل ياأمير المؤمنين فقد سبقت للناس مرويات واجتهادات ، فأخذ كل مصر بما وصل إليهم . أى أن الامام مالك رفض « فرض » كتابه واجتهاداته على الناس بالقوة ، وهو الذى منع الخليفة من ذلك وقد افضت تلك التبريرية من جانب المعتزلة إلى معاداة الناس لأفكارهم ، الأمر الذى ساهم فى سرعة انتصار السلفية والقضاء على الأعتزال ، خاصة حين تقدم الأشعرى بحلوله الوسطية ، المنحازة إلى السلفية كما سبقت الإشارة .

الإمام الغزالى صاغ « تعددية » الاجتهادات والرؤى فى منظومة فكرية واحدة تجمع بين الحار والبارد وبين الرطب واليابس . فقد جمعت عقلانية الا شاعرة وغنوصية الاشراف الفلسفى كما جمعت بين فقه الشافعى والتأويل الصوفى . والرجل الذى وجه للفلسفة العقلية اقسى الضربات فى « تهافت الفلاسفة » ، هو نفس الرجل الذى وجه للباطنية ـ الشيعة ـ أقسى النقد من منظور العقل . لكنه فى جميع الحالات كان يبرر الواقع أكثر مما يفسره ، والقارىء لخاتمة « الرد على الباطنية » يدرك أن الإمام الذى دافع عن سلطة العقل ضدا لسلطة الإمام فى الفكر الشيعى ، يعود فى خطابه للخليفة العباسى الذى كلفه بتأليف الكتاب لكى ينسب إليه كل الصفات التى ينسبها الشيعة إلى الإمام . لذلك تعرض الرجل لأزمة روحية عميقة ألجمت لسانه عن النطق ، أزمة حللها فى « المنقذ من الضلال » فى عبارة دالة حيث يقول إنه أدرك أن كل ما قام به من عمل فكرى وتعليمى لم يكن مقصودا به وجه الله . من حقنا أن نستنتج أن الإمام قد أكتشف أنه كان يمارس الفكر خدمة لأغراض تقع خارج الحقيقة الفكرية . ولم يكن أمام الغزالى ـ فى سياق الواقع الاجتماعى الثقافى ـ سوى الهرب ، فى المكان إلى بيت المقدس ، وفى الفكر إلى « التصوف » . إنها ليست أزمة مفكر بل أزمة فكر وثقافة وأمة .

قد يبدو غريبا أن نقول إن الغزالى ـ المتصوف السنى كما يقال ـ قد مهد السبيل أمام ابن عربى المتصوف الأندلسى لكى يقدم مشروعه الفكرى الشامل . وإذا كان الغزالى قد ضمن مشروعه كل نتاج الثقافة الإسلامية ، بما انسرب إليها بطريقة التأثير والتأثر من ثقافات سابقة عليها ومعاصرة لها ، فإن مشروع ابن عربى تضمن ـ بحكم الوضع الأندلسى ـ كل الثقافات الدينية . لقد أراد ابن عربى أن يقدم مشروعا إنسانيا يتسع لكل الأديان ، ولكن من داخل عباءة الإسلام . وكما اعتمد مشروع الغزالى على التلفيق ،

كذلك اعتمد مشروع ابن عربى . وكما أصطدم الغزالى بالفلسفة العقلية اصطدم بها ابن عربى ، والفارق بين اصطدام ابن عربى وبين اصطدام الغزالى هو الفارق بين عصر عنفوان الاتجاهات العقلية فى زمن الغزالى وبين عصر الخفوت فى عصر ابن عربى . لذلك عبر ابن عربى عن ذلك الصدام فى لقائه الذى وصفه ابن رشد فى كتابه « الفتوحات المكية » حيث يسأل ابن رشد الشيخ ابن عربى الفتى عن حال « اليقين الصوفى » هل يماثل اليقين العقلى أم يخالفه ؟ وفى إجابة ابن عربى واستجابة ابن رشد ما يكشف عن ذلك الإحساس بالتفوق والانتصار من جانب ابن عربى .

علينا ألا ننسى فى هذا السياق أن ابن رشد الذى أحرقت كتبه الفلسفية بعد وفاته كان فى حياته « قاضى قرطبة » أى كان يمثل المثقف المرضى عنه من جانب السلطة السياسية ، إنه رفاعة طهطاوى اول ، لكن نفيه حدث بعد أن غادر الحياة .

ومثل ابن رشد كان الغزالى مشرفا عاما على المدرسة النظامية ، أكبر مؤسسة تعليمية وبحثية فى العصر . وإذا كان ابن عربى لم يمارس دورا سياسيا بارزا فإن كتاباته فى هذا الجانب تكشف عن « تبريرى » من الطراز الأول حين يقرر أن مظالم الولاة سيتحملون مسئولياتها أمام الله وحدهم ، أما عدلهم فسينال الرعية كما ينالهم بسببه رضى الله . وينصح الرعية بناء على ذلك أن تكتفى من الولاة بعدلهم تاركة أمر حسابهم على مظالمهم لله وحده يوم الحساب . وهذا الموقف التبريرى لم يكن موقف ابن عربى وحده بل صاغه الفكر الفقهى صياغات مختلفة وإن اتحدت فى الغاية والنتيجة . اعتصم الفقهاء بمبدأ « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » ليقولوا إن الخروج على الولاة - ولو كانوا ظلمة فسقة فجرة - يؤدى إلى فتن ومفاسد أخطر من تلك الناتجة عن ظلم الولاة وفسقهم . كانت هناك بالطبع استثناءات قليلة من هذا الإجماع ، لكنه الاستثناء الذى يمثل الهامش المؤطر للمتن ، أى الاستثناء الذى يؤكد القاعدة .

هل يمكن القول بعد هذا الاستعراض بأن التداخل بين السياسى والفكرى ، بما يفضى إليه من « تلفيقية » وتبريرية ، تتمتع بعمق ثقافى وفكرى فى الذاكرة العربية يتجاوز حدود تكوّن الطبقة الوسطى ، بما أحاط بهذا التكوّن من ظروف وملابسات ؟! وهل يمكن - بناء على ذلك - افتراض أن هذا التراث يمثل أحد عناصر التكوين الهش والهجينى لتلك الطبقة ، بمعنى أن الفكرى التراثى ربما هو جزء من نسيج الذاكرة - له تأثيره على الاقتصادى / الاجتماعى من منظور أن البنى - التحتية والفوقية - تتفاعل فى جدلية معقدة ، تتجاوز مسألة أولية الاقتصادى / الاجتماعى على الثقافى الفكرى ؟!

ربما تصح مسألة « الأولية » فى شكلها البسيط وفى فهمها الساذج فى حالات التكون الجنينى المعزق فى البدائية للتشكلات الاجتماعية فى تاريخ البشرية . لكن بعد أن انتقل الواقع البشرى من مرحلة التاريخ الطبيعى إلى مرحلة التاريخ الاجتماعى يصعب تصور تلك الأولية فى شكلها البسيط والساذج . إن سيادة الذهنية التلفيقية التبريرية على مجمل نشاط العقل العربى حتى الآن يمثل فى حد ذاته دليلا يناقض هذه الأولية ، بما أن المجتمعات العربية قد حدث فيها تحولات اقتصادية اجتماعية لا يمكن أنكارها . ورغم ذلك فإن تلك التحولات لم تحدث قطيعة مع تلك الذهنية التى لا تزال ماثلة حتى هذه اللحظة .

ويكفى تدليلا على ذلك كتابات زكى نجيب محمود وكذلك حسن حنفى حيث يسعى كلاهما لضم المتناقضات على أساس « النافع » و « الصالح » بل إن محاولة أخيرة ، لإعادة قراءة النصّ الدينى يعتمد فى قراءتها العصرية على مبدأ « المنفعة » أساسا ، أنها قراءة الكاتب السورى محمد شحرور فى كتابه : (القرآن والكتاب : محاولة قراءة عصرية ، دار الأهالى دمشق ، ١٩٩٠) . ويبقى السؤال مفتوحا لمزيد من الاجتهاد والاضاءة .

(٦)

بقيت نقطة هامة وأخيرة ربما تساعدنا على فهم سبب إخفاق مشروع النهضة بمعادلته ، « التوفيقية » ، التى افضت به إلى التلفيقية فى التحليل الأخير ، أى افضت به إلى إلغاء التوفيقية ذاتها والانحياز الكامل لهذا الطرف أو ذاك من أطراف المعادلة

وسواء كنا نتحدث عن المظهر السياسى - مُنذ محمد على إلى جمال عبد الناصر - أو عن المظهر الفكرى - منذ رفاعة الطهطاوى إلى حسن حنفى - لمعادلة النهضة ، فنحن فى إطار مشروعات نخبوية تستبعد الجماهير - صاحبة المصلحة فى تحقيق المعادلة - استبعادا تاما من مجال اهتمامها ، اعنى من مجال المشاركة الفعلية فى صياغة المشروع أو فى تحقيقه ، الأمر الذى يفضى إلى تقدم الجماهير - فى

لحظات الانكسار لحماية المشروع من السقوط النهائى . لم تشارك الجماهير فى أىّ من هذه المراحل ، ومن ثم لم يجد المشروع - فى لحظات اصطدامه بالخارج الساعى إلى السيطرة والهيمنة - من يحميه ويدافع عنه .

كان « التعليم » هو محور اهتمام النخبة ، سواء السياسية أو الفكرية ، لكن التعليم كان بالنسبة للنخبة السياسية محدودا بهدف خدمة المشروع السياسى من تخريج المهنيين والخبراء فى المجالات العملية المختلفة وكان يمثل بالنسبة للمفكرين وعاء للتنوير العقلى وتحقيق الاستنارة المفضية إلى تحديث المجتمع . وفى لحظات الانكسار كان أول معول يوجه إلى هدم التعليم وإغلاق المجلات ومصادرة الصحف وتضييق نشاط المفكر إلى أبعد مدى . ورغم أهمية المشروع الذى تقدم به طه حسين فى « مستقبل الثقافة فى مصر » بل وأهمية « المرشد الأمين بتعليم البنات والبنين » لرفاعة الطهطاوى ، فقد كان تحقيق أى مشروع من هذين مرتهنا بالارادة الحرة المطلقة لشخص الحاكم . والدليل على ذلك تأكيد محمد عبده لأهمية دور المستبد العادل فى تحقيق الاستنارة وتحديث المجتمع انطلاقا من تنفيذ مخطط تعليمى يحقق هذه الأهداف .

إن تحليل خطاب النهضة - من هذه الزاوية - يؤكد أن كل مشروعات المفكر التنويرى كانت تنتظر قيام النخبة الحاكمة بتبنيها وتنفيذها على أرض الواقع . بمعنى أن عدم الانفصال وعدم قطع « الحبل السرى » بين السياسة والفكر قد وجد واحدا من تجلياته فى وضع المشروعات على الورق وانتظار المستبد العادل الذى يتنبه لأهمية تلك المشروعات ، فيقوم - مستندا إلى سلطته وسلطانه . بتنفيذها على أرض الواقع . بل لعلنا نجد حالة « الانتظار » تلك معبرا عنها على مستوى الخطاب الشعرى فى الخمسينات والستينات بصفة خاصة ، وهو أمر أشار إليه جابر عصفور فى بعض دراساته عن شعر هذه الفترة وما بعدها ، خاصة تلك التى نشرت فى مجلة إبداع فى إصدارها الجديد .

إنها حالة « المثقف » المنتج للثقافة - والأدب والفن - والمغترب عن نتاجه فى الوقت نفسه ، لأنه ينتجه تحت وصاية سلطة ، قد يتجاوب معها فيتوقع منها الاستجابة لخطابه ، وقد يتعارض معها ، فيكون اصطدامه بها « مفسرا » كافيا ، و « مبررا » فى الوقت نفسه لعزلته عن الجماهير وانفصاله عن المساهمة فى تحديث وعيها .

لقد أثبتت التجربة أن « التعليم » وإصدار « صحيفة » أو « مجلة » ، أو المساهمة فى نشاط حزبى محاصر - كما هو الحال الآن فى العالم العربى - ليس كافيا ، رغم أهمية التعليم والصحيفة والمجلة والحزب . إنه ليس كافيا فى سياق الشروط الراهنة التى تجعل من السهل تغيير نظام التعليم ، ومن السهل إغلاق الصحيفة وإلغاء تصريح إصدار المجلة ، ومحاصرة نشاط الحزب . ومعنى ذلك أنه لابد من تغيير الشروط الراهنة ، وعلى رأسها الخروج من عنق الزجاجة المتمثل فى حكم النخب العسكرية أو القبلية أو الطائفية المستندة إلى حقوق الوراثة المرتكزة على مبدأى « القوة » و « القهر » ، لا البوليسية وحدها ، بل وسائل القهر الثقافية المتمثلة فى السيطرة التامة على التعليم - خاصة الجامعات - وفى السيطرة التامة على أجهزة الإعلام من إذاعة مسموعة ومرئية ومن صحافة إعلامية متخصصة .

لابد من كسر احتكار السلطة ، واحتكار ما يمثل أدوات صنع الوعى وصياغة الذاكرة على مستوى كل شعب من الشعوب العربية ، وعلى مستوى الأمة كلها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالنضال من أجل إقرار التعددية وممارستها على مستوى الفكر وعلى مستوى المجتمع وعلى مستوى السياسة . إنها الديمقراطية بمعناها الشامل ، ديمقراطية العقل ، وديمقراطية الحياة المتمثل فى حق البشر المتساوى فى المشاركة فى جنى ثمار الناتج القومى ، وديمقراطية السياسة المتمثلة فى حق تداول السلطة وحق المشاركة فيها عبر المؤسسات الاجتماعية والثقافية والسياسية .

وعلينا أن نتفق جميعا - دون تبرير - أن التعددية تعنى حق « الجميع » دون استثناء . وهذا التأكيد ضرورى فى سياق التوترات السياسية الناشئة عن أن « الجميع » ينادى بالديمقراطية ويغنى لها ، لكن « البعض » سرعان ما يتنكر لها إذا أثبتت أن الجماهير - طبقا لمستوى وعيها الراهن - اختارت غيره

إن ممارسة الحياة ليست مشروطة وإنما بشروط الذات على أى صعيد من الأصعدة ، بل هى مشروطة بقدرة الذات على استثمار الشروط الموضوعية الراهنة من أجل إمكانية تغييرها - بالفهم العلمى - فى المستقبل . الديمقراطية التى حلَّل الجميع لقتلها فى الجزائر بدبابات الجيش ومصفحاته ، خشية أن يقتلها الإسلاميون المنتصرون

عبر صناديق الانتخابات والارادة الحرة للناخب الجزائرى - هذه الديمقراطية قتلت على أى حال . لن يجدى أن يكون قاتلها الإسلاميون أو العسكر، طالما أن « الخشية » - مجرد الخشية - من احتمال القضاء على الديمقراطية إن جاء الاسلاميون للحكم قد أفضى إلى تحويل « المحتمل » أو « الممكن » إلى فعلى واقعى . إنه الانتحار السياسى ، بل والعقلى ، استنادا إلى المثل العربى - ولاحظ الاتفاق - « بيدى لا بيد عمرو » .

سنجد أن حالة الانتحار الجزائرية - والعربية أيضا تجد تبريراً آخر لها بعيدا عن « التواطؤ » الناتج عن النهج التلفيقى التبريرى فى العقل العربى الراهن . سنجد هذا التبرير فى إعادة إنتاج المبدأ الفقهى القديم : « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » ، وهكذا نعود مرة أخرى - من خلال العقل السياسى المناهض للعقل الدينى على مستوى البنية السطحية - إلى الكشف عن تجذّر حالة الاتفاق بين المثقف والسياسى على عزل الجماهير وحرمانها من ممارسة حقها الطبيعى فى الاختيار . إذا كانت الجماهير - بسبب نقص وعيها - ستختار « الحل الاسلامى » فإن من حقها أن تمارس تجربة اختيار هذا الحل ، وعليها أن تدفع الثمن اللازم لاستكمال وعيها التاريخى والاجتماعى ، إن وصاية المثقف والسياسى تنتهى كلتاهما إلى نتيجة واحدة . الدكتاتورية السياسية المطلقة من جهة ، وكهنوتية الفكر من جهة أخرى ، ذلك أن « الوصاية » على الجماهير - استنادا إلى نقص وعيها - يفضى إلى تثبيت هذا الوعى الناقص وتأبيده .

إن التعليم والصحافة والأحزاب والإعلام مجرد أدوات لتشكيل الوعى الذى لا يتحقق كاملا إلا من خلال انصهار الشعوب فى التجربة التى حرمت منها على امتداد تاريخنا ، بدعوى « الحماية » من الفتن والحروب إلخ . هل نجحت « الوصاية » حقا فى حماية شعوبنا العربية من كل ذلك ؟! على المثقف قبل السياسى أن يقرّ أن « الفكر » ليس وظيفة تمنحه سلطة « الأب » و « الوصى » و« الحامى » . وعليه من ثم أن يسعى - بآليات الفكر الحقيقية - لممارسة الفكر فى الحياة خارج منطق « التعالى » الذى ينظر للوظائف الأخرى فى الحياة الاجتماعية نظرة دونية . من هنا يمكن للمفكر أن يسلم بحق الجماهير فى اختياراتها . دون أن يوقفه ذلك عن العمل الحثيث للانتقال بالفكر من مساحة « الكهنوت » ومن داخل جدران « المعابد » ولو اتخذت مسميات أخرى - إلى الساحات والتجمعات .

لن يكون للفكر دور ولا للثقافة إلا بأن تشيع وتنتشر بكل الوسائل الممكنة والمتاحة ، بالكلمة المكتوبة والمذاعة والمرئية ، بالكتاب والمتحف والمعرض والأهم من ذلك إشاعة روح العلم ، لا بين الجماهير فحسب ، بل بين النخبة والصفوة أساسا .

ويحتاج تحقيق ذلك كله إلى تغيير الشروط الراهنة للحياة السياسية والاجتماعية بالحرص على ترسيخ « التعددية » وممارستها . لكن ثمة شرطا أوليا لممارسة تعددية حقيقية .

البدء وعلى الفور فى قطع « الحبل السرى » الذى يربط المفكر والمثقف والسياسى ، والعمل على استقلال أدوات إنتاج المعرفة بكل فروعها من العلوم إلى الأغانى والأناشيد ، مرورا بالفلسفات والفنون والآداب ، عن سلطة السياسى . إن السياسة - فيما يقال - هى فن تحقيق الممكن ، أما المعرفة فهى فن بناء المستقبل وتحقيق المستحيل .■ .



نحـــــــن ..

مقاربة للالتباسات التى استغرقت العلاقة بين الشرق والغرب يرى أن كبرى المشاكل فى هذه العلاقة ، من ناحيتنا تولدت عن التعميم السريع والخلط بين المعانى المختلفة للمفهوم الواحد .

دعوة لتحرر الأذهان من الانقياد لردود الفعل الآلية والتوجه نحو فهم أعمق لمختلف عناصر الموقف يؤدى إلى إدراك أن الواقع أعقد كثيرا من اختزاله فى مفاهيم جانبية .

فـــؤاد زكـــريا

أستاذ الفلسفة وصاحب « التفكير العلمى » و « سبينوزا » و « الصحوة الإسلامية » و «العرب والنموذج الامريكى» وغيرها من المؤلفات والمترجمات فى الفكر والفلسفة والثقافة .

فعلى قدر ما يؤلف مفهوم « الغرب » جزءا لا يتجزأ من كل حوار أو جدال ثقافى عربى فإن هذا المفهوم محاط بقدر غير قليل من الالتباس ، مما يلقى بظلال من عدم التماسك واللامنطقية على الكثير من معالجاتنا لأى موضوع ثقافى يكون الغرب طرفا من أطرافه ويكفينا هنا أن نشير إلى بعض من أهم هذه الالتباسات ، حيث إن الاستقصاء التام لها يحتاج إلى بحث ضخم قائم بذاته .

أول هذه الالتباسات ، وربما أهمها ، هو الالتباس التاريخى ، ذلك لأن التاريخ الحديث للغرب ، أعنى تلك القرون الأربعة الأخيرة التى أعطت الغرب مكانة عليا بين سائر مناطق العالم الحضارية ، قد شهدت ظاهرة فريدة فى نوعها ، تتمثل فى تلك الانجازات المعرفية الرائعة التى استطاعت أوربا بواسطتها أن تنتقل بالعالم كله إلى عصر جديد ، يحتل فيه العلم مكانة عليا فى سلم المعرفة ، بعد أن ظل طوال القرون العشرين السابقة على الأقل مجرد تابع ، غير واضح المعالم ، للفلسفة وربما للدين ، لقد كان مسار الكشف العلمى فى أوربا الحديثة غير قابل للتراجع ، وكذلك الحال فى التقدم التكنولوجى الذى ترتب عليه ، واشتق منه فى أغلب الأحيان ، فمهما حاولت الكنيسة أن توقف مسيرة المعرفة الجديدة ، ومهما وضعت فى سبيل هذه المعرفة من عقبات يفرضها جمود التقاليد وصعوبة تقبل التغيير ، فإن الحقيقة القائمة على برهان دقيق كانت تفرض نفسها فى نهاية الأمر على نحو يستحيل مقاومته .

ولكن هذه الأنجازات العلمية المبهرة ، التى حولت مسار المعرفة البشرية بأسرها فى فترة وجيزة من الزمن ، اقترنت منذ اللحظة الأولى بالاتجاه إلى تطبيق الكشف العلمى من أجل زيادة فعالية أسلحة القتال ، وهكذا عرفت أوروبا منذ القرون الأولى لنهضتها الحديثة ، ذلك الارتباط الغريب بين العقل واللا عقل ، بين رعاية الحياة والتفنن فى أساليب الموت ، وهو الارتباط الذى أصبح من أهم سمات ما نطلق عليه أسم الحضارة الغربية ولابد أن نشير إلى أن هذين الأمرين لا يتلازمان بالضرورة ، فمن الممكن — نظريا على الأقل — أن نتصور حضارة تتقدم علميا دون أن تسخر جانبا هاما من ذلك العلم من أجل دمار البشرية ، ومن الممكن أيضا أن نتصور حضارة ذات قدرات تدميرية هائلة ، دون أن تكون هذه القدرات مرتكزة على تقدم علمى ملحوظ ولكن الحضارة الغربية ، منذ بدء فترتها الحديثة ، قد سلكت هذا الطريق المزدوج ولم تحد عنه ، بل ازدادت توغلا فيه حتى يومنا هذا .

لماذا مرة أخرى ؟؟

وهكذا أصبح الطابع المميز للغرب ثنائى الأبعاد ، فهناك من جهة تفوق عقلى ومعرفى مؤكد ، ومن جهة أخرى

والغـــــــــــرب

استغلال لهذا التفوق من أجل السيطرة بالقوة على الشعوب الأخرى ، وبعبارة أخرى ، فإن الجانبين ، العقلى والعسكرى ، أو الثقافى والسياسى ، قد سارا معا ، جنبا إلى جنب ، وترتب على هذا الارتباط خلط مؤسف بين الحضارة الغربية من حيث هى علم وثقافة ، والحضارة الغربية من حيث هى سيطرة واستعلاء واستعمار وما كان أسهل فى معظم الحوارات التى تدور بين مثقفينا حول موضوع الغرب ، من أن يؤكد أحد المتحاورين طرفا من هذه الثنائية فيعترض عليه متحاور ثان بالإشارة إلى الطرف الآخر دون أن يدركا معا أن تعقد الظاهرة التى يتحدثان عنها ، ووجود أكثر من بعد واحد لها ، يزيل التناقض المزعوم بين الرأيين .

وهناك التباس لا يقل عن ذلك أهمية ، يقع بين المعنى الحضارى والمعنى الجغرافى للفظ الغرب ففى أحيان كثيرة ، نستخدم لفظ الغرب بالمعنى الحضارى ، الذى ارتبط فى أذهان العالم ، خلال القرون الأربعة الأخيرة ، بالسبق العلمى والتقدم الثقافى بوجه عام وهكذا فإننا حين نتحدث مثلا عن اللحاق بالغرب ، أو اتخاذ الغرب نموذجا ، يكون المقصود من ذلك فى حقيقة الأمر ، البحث عن أكثر مواقع العلم والثقافة تقدما ، والسعى إلى الاقتداء بها ، وهو فى ذاته سعى لا يملك أحد أن يعترض عليه ، ولكن الغرب أيضا موقع جغرافى معين ،



إدوارد سعيد

وفى هذا الموقع الجغرافى المحدد تقع شعوب يجمعنا وإياها تاريخ طويل من العلاقات المعقدة التى كانت ، فى الأغلب ، عدائية وعندئذ يكون من السهل إدانة شعار اللحاق بالغرب بمجموعة من الأوصاف السلبية التى لم يكن من الممكن تصورها وفقا للمعنى الحضارى السابق ولعل مما يؤكد أهمية التمييز بين هذين المعنيين ، ظهور مراكز جديدة للمعرفة المتقدمة فى مناطق جغرافية بعيدة عن الغرب خلال نصف القرن الأخير على الأقل فشعار « اللحاق بالغرب » إذا استخدم بالمعنى العلمى والتكنولوجى ، يشمل فى الوقت الراهن بلادا بعيدة عن الغرب الجغرافى ، كاليابان وكوريا ، وأغلب الظن أنه سيمتد فى القرن القادم إلى الصين وغيرها من بلاد الشرق الأقصى ، أعنى أنه سيمتد إلى كل منطقة تقف فيها المعرفة البشرية ، نظريا وتطبيقيا ، عند الحدود القصوى لتقدمها وامتدادها هذا الالتباس بين الغرب ، بوصفه مقياسا حضاريا لمستوى رفيع من التقدم ، وبين الغرب بوصفه إقليما له موقع جغرافى محدد ، لابد أن يترتب عليه قدر لا يستهان به من الخلط والاضطراب فى أذهان كثير ممن ينزلقون من أحد هذين المعنيين إلى الآخر دون وعى واضح .

هناك التباسات عديدة أخرى تكتنف معنى « الغرب » فى أذهاننا ، ولكن الحالتين السابقتين تكفيان للدلالة على

صعوبة استخدام هذا المفهوم فى حياتنا الثقافية ، وسهولة الوقوع فى مغالطات نتيجة لعدم التنبه إلى الإطار الذى يدور فيه هذا الاستخدام . ولعل الإشكال الأساسى الذى تتبلور فيه معظم هذه الالتباسات يكمن فى ازدواجية الثقافة والسياسة ضمن مفهوم « الغرب » أى فى كون هذا المفهوم منطويا على عنصرين لا ينفصلان عنه ، يسير كل منهما بطبيعته فى اتجاه مضاد للآخر ، ويشكل نقيضة أساسية فى صميم عملية لاتصال بين الغرب وبين أى مجتمع خارج عن نطاقه .

كانت هذه النقيضة ماثلة بوضوح منذ أولى لحظات الاتصال بيننا وبين الغرب الحديث . ففى الحملة الفرنسية عرفنا لاول مرة الوجه المدمر للغرب ، ذلك الوجه الذى يرتكز على تفوق تكنولوجى مطبق بنجاح فى صناعة أسلحة أقوى وأشد تدميراً ، تستخدم وسيلة لتوسيع النفوذ الاستعمارى على حساب شعوب ضعيفة مسالمة . ولكننا فى هذه الحملة ذاتها عرفنا لأول مرة الوجه الحضارى للغرب ، الذى كانت فرنسا التنوير والثورة تمثل قمة من قممه ، وكانت « حملة العلماء » التى صاحبت جيوش الاحتلال جزءا لا يتجزأ من الحملة العسكرية بكل أهدافها الاستعمارية . ولقد كان من الممكن ، بسهولة تامة ، تصور الحملة العسكرية بغير حملة علمية ، والأرجح أنها كانت عندئذ ستحقق معظم الأهداف التى كانت تسعى إليها فى تلك المرحلة المحددة من التاريخ . ومع ذلك فقد جاءت الحملتان معا ، لكى تقدما رمزا صارخا ومبكرا للالتباس الأساسى فى معنى « الغرب » .

وكان من الطبيعى أن ينعكس هذا الالتباس على تاريخ العلاقة المعقدة التى ربطت ، أو فرّقت ، بيننا وبين الغرب منذ تلك اللحظة المبكرة . وكان من الطبيعى أيضا أن يختلط البعدان ، الثقافى والسياسى ، فى أذهان قادة نهضتنا الذين تصدوا لمواجهة الغرب ، وكانوا فى الوقت نفسه وسائط بين جماهير العربية وبين ثقافة الغرب بل إن المعالم الرئيسية لتاريخنا الحديث قد تحددت من خلال هذه المواجهة الثقافية مع الغرب . فكيف يمكننا أن نكتب هذا التاريخ إن لم نسترشد بمنارات رئيسية مثل رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك ومحمد عبده وقاسم أمين ولطفى السيد وطه حسين ؟ على أن اللافت للنظر بحق فى هذه الشخصيات التى حددت المنحنى العام ، لتاريخنا فى القرنين الأخيرين هو أنها كانت تجمع بين الثقافة والسياسة ، إذ كان الكثيرون منهم رجال دولة أو ذوى مسئوليات عامة على جانب كبير من الأهمية ، فى نفس الوقت الذى كانوا فيه جسورا ثقافية بين مصر ، والعالم العربى عامة ، وبين الغرب وهكذا كان هؤلاء بمعنى ما ، تجسيدا لتلك الأزدواجية الأساسية التى تولدت عن احتكاكنا بالغرب : ازدواجية التأثر الثقافى ، والمقاومة السياسية ، وهى ازدواجية تعكس ، كما رأينا من قبل ، سمة جوهرية فى البنية الأساسية للحضارة الأوروبية منذ مطلع العصر الحديث .

وبقدر ما أدت ثنائية الإشعاع المعرفى بأوسع معانيه ، والنهم إلى التوسع والسيطرة على حساب كل قيمة إنسانية ، إلى خلق تشوهات عميقة فى صميم الحضارة الغربية نفسها ، فإنها قد ولدت تشوهات مماثلة ، وربما أشد خطرا ، فى المجتمعات التى احتكت بتلك الحضارة من خلال أحد طرف هذه الثنائية أو كليهما معا .ولقد كنا نحن ، فى عالمنا العربى ، وفى مصر على وجه التخصيص ، من بين تلك المجتمعات التى قدِّر لها أن تتصل منذ وقت مبكر بالوجه المعرفى والثقافى للغرب ، فى نفس اللحظة التى تعرضنا فيه لبشاعة الوجه الآخر ، التوسعى الاستغلالى وكان لهذا الوضع تعقيداته الشديدة على موقفنا الفكرى من الغرب . ذلك لأن بعض المجتمعات التى عانت من السيطرة الغربية كانت من التخلف بحيث لم تتمكن من استيعاب الصدمة الحضارية فى كافة جوانبها . أما فى حالتنا نحن ، فقد كانت لدينا ثقافتنا التقليدية ذات التاريخ الطويل ، وكان لدينا وعى واضح بهويتنا الثقافية ، ظل متماسكا طوال قرون مديدة . ولو قيل إن الاحتكاك بالغرب قد حدث فى لحظة كان هذا الوعى يعانى فيه من غيبوبة شديدة ، فإن ذلك لا يحول دون الاعتراف بأن الصدمة الحضارية قد بعثت الحياة فى آلياتنا الدفاعية ، وجددت ارتباطنا بتاريخنا الطويل ، وأيقظتنا من حالة البيات الشتوى التى كنا نمر بها خلال القرون السابقة مباشرة لاحتكاكنا الحضارى بالغرب . وكان من الطبيعى ، فى ضوءهذه الأوضاع ، أن تكون حدة الصدمة لدينا أقوى ، وأن يكون رد فعلنا فى حالات كثيرة مختلا فى توازنه .

ولابد لنا أن نعترف بأن جدلية المواجهة مع الغرب قد أصبحت ، منذ هذه البداية المبكرة . تكمن فى جذور أهم التيارات الثقافية التى سادت حياتنا فى هذا العصر الذى نطلق عليه اسم « عصر النهضة العربية » ولسنا فى حاجة لكى ندلل على ذلك ، إلى الإشارة إلى تيار التحديث الجارف الذى ساد حياتنا وأثر

فى مختلف مجالاتها وغير الكثير من معالمها ، منذ مطلع القرن التاسع عشر . ولكن هناك حقيقة أخرى أجدر باهتمامنا ، وهى أن حركة مقاومة التحديث ، والتبشير بالعودة إلى تراث السلف الصالح ، كانت بدورها متأثرة إلى حد كبير بتلك المواجهة الجدلية مع الغرب . فلم تكن تلك الحركة التراثية ، التى اتخذت أشكالا ومسميات متعددة طوال « عصر النهضة العربية » ، مجرد تطور ذاتى للفكر التراثى ولم تنبثق بفضل رغبة هذا الفكر فى الانتقال إلى مواقع جديدة ، وإنما كانت فى جوهرها رد فعل على الخطر الخارجي الزاحف بقوة ، والذى يقدم نفسه إلى مجتمعاتنا فى صور شديدة الإغراء .

ذلك لأن هذا التيار القوى المتماسك ، الذى رفض أن يتخذ من الغرب نموذجا ، ودعا إلى تحقيق التقدم من خلال العودة إلى الإسلام فى نقائه الأول ، كان يفترض ضمنا وجود مقياس خارجى للتقدم ينبغى منافسته أو تجاوزه بل إن الأصولية المعاصرة ، التى توصف بأنها أشد مظاهر هذا التيار تطرفا ، يمكن أن تعد بمعنى معين ناتجا من نواتج العصر العلمى والتكنولوجى الحديث . إنها ناتج غير مباشر بطبيعة الحال ، ولكن حدتها وتطرفها لا يصبحان مفهومين إلا فى إطار وجود نموذج آخر يفرض نفسه بقوة على مجموعات كبيرة من البشر فى صميم مجتمعاتنا ، ويهدد قيمهم التراثية الأساسية بالخطر .

فى هذه المواجهة الحادة ، التى هى دفاعية فى جوهرها ، كان هناك تركيز على معنى واحد للحضارة الغربية : هو المعنى التوسعى الاستعمارى ، وتوارى المعنى الآخر إلى الوراء بل نسيه الكثيرون ، وحتى أولئك الذين ظلوا يتذكرونه من آن لآخر ، كانوا يستخفون به ويدينونه بوضعه مجرد أداة أو وسيلة يستعين بها الغرب لتحقيق مطامعه التى لا تشبع ون « هذا الإطار نستطيع أن نفسر الحملة على الاستشراق ، التى بدأها التراثيون منذ القرن الماضى ، ولكنها أكتسبت أبعادا جديدة ، أوسع وأكثر تعمقا بكثير ، حين انضم إليها عدد من المثقفين العرب المتشبعين بالثقافة الغربية ، وعلى رأسهم إدوارد سعيد ، وشكلوا مدرسة كاملة تتبارى فى مهاجمة الرؤية الغربية للشرق ، لا فى عهودها السابقة التى كانت تخضع فيها بالفعل لعوامل الاستعلاء والعنصرية والعداء الدينى ، بل فى كافة أشكالها المعاصرة التى تتصور أنها تجاوزت هذه العوامل .

فى هذا الهجوم على الاستشراق حدث دمج بين الغرب بوصفه توسعيا مسيطرا ، وبين الغرب بوصفه سباقا إلى منهجية متميزة غيرت مجرى المعرفة فى العالم أجمع . فالمناهج الحديثة التى يستخدمها الغرب فى علومه ، وضمنها الاستشراق ، ليست ــ وفقا لهذا الرأى ــ محايدة ، ولا تستهدف توسيع المعرفة بالمعنى الموضوعى ، وإنما هى أداة لفرض الهيمنة ، ومحاولة للفهم من أجل إحكام السيطرة ، أى أنها فى جوهرها علم لا يستهدف إشباع حب الاستطلاع ، وإنما هو أداة فى يد نزعة الهيمنة التى لازمت العلم الغربى منذ بداية نشأته الحديثة .

والمشكلة فى هذا النوع من النقد أنه ينطوى دائما على تناقض ذاتى حاد . فلو طبقنا عليهم معياره الخاص ، لكان عليه أن ينقد رؤيته للغرب لنفس الأسباب التى نقد من أجلها رؤية الغرب لنا . ذلك لأن المعرفة ، التى يشكلها نقد مثقفينا للاستشراق الغربى هى بدورها معرفة تستهدف « تسوية الحسابات » مع الثقافة الغربية ، ولم تقدم نفسها أصلا إلا فى إطار الرغبة فى رد الضربه بمثلها . ومن جهة أخرى فإن كتاباتنا نحن عن الغرب حتى خارج إطار موضوع الاستشراق بأسره ، تحفل بمظاهر « المعرفة المتحيزة » التى لا تعرض لذاتها ، بل لاهداف انتقامية فى المحل الأول . وليس هذا من قبيل الانتقاد لهذه الكتابات ، فقد تكون لها ــ فى ظروفنا الخاصة ــ جميع المبررات المفهومة ، ولكن المهم فى الأمر هو أن نتنبه إلى أن المعرفة غير المحايدة يمكن ، فى ميدان العلوم الإنسانية بالذات ، أن تكون قاسما مشتركا بين الجميع ، وأن أسبابها متعددة ، ولا تنحصر فقط فى نزوع الأقوياء إلى السيطرة على الضعفاء ، وأن الظاهرة أعقد بكثير مما تصوره لنا مدرسة « نقد الاستشراق » فى الثقافة العربية المعاصرة .

والواقع أننى لم أقصد بهذه الإشارة إلى حركة نقد الاستشراق ، سوى أن أنبه إلى مظهر واحد من مظاهر الخلط فى رؤيتنا للثقافة الغربية بوجه عام ، ولهذا الخلط مظاهر أخرى متعددة ، انعكس أهمها على الميدان السياسى والاجتماعى . فقد أصبح من الشائع فى عالمنا العربى المعاصر أن ننسب أفدح خطايانا إلى الغرب ، وخاصة فى مرحلته الاستعمارية ، التى تبدو فى أدبياتنا كما لو كانت مرحلة دائمة التأثير ، لها بداية ولكن ليست لها نهاية . فالغرب هنا هو المشجب السهل الذى نعلق عليه أخطاء معظمها من صنعنا نحن ، وهو أشبه « بالشيطان » الذى يؤكد مرتكب الجريمة أنه لم يكن إلا ضحية

لوسبوستـه ، ويبرىء نفسـه على هـذا الأساس باعتباره منفعلا ، لا فـاعلا . ومن المعروف فلسفيا أن تلك الحالة التى يتناول فيها الانسان إحدى قواه المنتزعة من داخله ، ويضعها أمامه كما لو كانت قوةخارجية تمارس تأثيرهـا عليه ، هى حالة « اغتراب » . ولذا فإن من الممكن أن توصف علاقتنا بالغـرب ، من هذه الزواية ، بأنها عـلاقة اغتـراب ، وذلك حـين نجد فيـه العذر الأبـدى ، ودليل البراءة الحاسم ، من كل ما نرتكبه نحن انفسنا وبكامل إرادتنا ، من آثام . وإذا كان « الشيطان » الذى يخترعه مرتكب الجريمة من أجل إلقاء تبعة جريمته على قوة خارجة عنه ،هو واحد من أبرز أمثلة هذا الاغتراب ، فلنتذكر فى هذا الصدد أن خطـابنا السيـاسى المعاصر قـد بدأ يستخـدم تعبير « الشيطـان الأكبـر » للدلالة على أكبر قوة معاصرة فى الغرب ، وقد يكون فى ذلك نقل لحالة الاغتراب من ميدان الرمز إلى ميدان الـواقـع ، ومن التلميح إلى التصريح .

لقـد أرتكب الغـرب طـوال جـزء لا يستهان به من تارخه الحديث جريمة كبـرى ، هـى الاستـعـمـار . ولكـن الاستعمار مرحلـة تاريخيـة ، لابد أن تنقضى ، وبالفعل لم تبق له الا ذيول قليلة فى أمـاكن متباعـدة . ومـع ذلـك فـإن الاستعمار فى خطابنا السياسى حقيقـة دائمة ، والجريمة التى ارتكبها يستحيل أن تزول . ولو كان هذا التذكير الدائم « بالخطيئة الأولى » للغرب وسيلة لحفز الهمم من أجل النهوض المستقـل لهان الأمر . ولكن الواقع يشهد بأن الإلحاح المستمر على جريمة الاستعمار الغربى إنما يستهدف ، فى كثـير من الأحيان ، إخفاء الجرائم التى ترتكبها بـلادنا فى حق أنفسها وبهذا المعنى يصبح مفهوم الاستعمار ، المرتبط فى أذهاننا بالغرب ، نعمة بالنسبة إلى كثير من أنظمة الحكم القائمة ، ولا يدرى المرء كيف كانت هذه الأنظمة تستطيع مواجهة شعوبها لو لم يقـدم التاريـخ إليها تلك الهبـة التى لا تقـدر بثمن ، وأعنى بهـا المـرحلـة الاستعمارية من تاريخ بلادها !

لقـد اخترت ، عـامدا ، بعضـا من نمـاذج التشـويـه الـذى ينتـاب فكـر الكثيـرين فى بلادنـا حـين يعـرضـون لموضوع الغرب ويقعون فـريسة للخلط بـين المفاهيم الشـديدة التعقيد لهـذه الكلمة ذات المظهر البسيط والمبـاشر . ولنذكر أنفسنا مرة أخرى بأن لمفهـوم الغرب وجها آخر ، هو إنتاج المعرفة فى أشد صورها تقدماً . وهذا معنى لا نملك أن نتجاهله أو نتـلاعب به عن طـريق الخلط بينه وبين تلـك المعانى السلبيـة التى ارتبطت بالغرب من خلال تجاربنا السيـاسية والاقتصـادية والعسكـرية المريرة معه . ذلك لأن متابعة المعرفة فى أعلى صورهاهى أمر يستحيـل تجنبه ، وليس مـن مصلحـة أى مجتمـع أن يستسلم لدعوة التباعد عمن يجلسون فى « الصف الأول » من مسـرح المعرفـة بحجـة أن ماضيهم وقـدرا كبيـرا من حاضرهم ، كان حافلا بالآثام .

وهكذا يبدو واضحا ، فى ختام هـذا التحليل الموجز لمفهوم « الغـرب » ، أن أكبر المشاكل فى علاقتنا بالغرب تتولـد عن التعميم السريع والخلط بين المعانى المختلفة للمفهوم الواحد . ولاشـك أن التجربة التاريخية القاسية التى مـرت بها معظم الشعوب العربية مـع الغرب منذ أواسط القرن الماضى حتى أواسط القرن الحاضر ، هى التى جعلت مثقفينا يميلـون إلى تـغليـب غـرب القـهـر والاستعمار على غـرب الكشف العلمى والاختـراع التكنـولـوجى ، بـل إنهم يميلون إلى اتخاذ الموقف المضاد للغرب بصورة تكاد تكون آلية تماما ، فى كـل صراع يكون الغرب طرفا فيه . وإذا كان لمثقفينا العذر حين تعاطف نفر منهم مع النازية خلال الحرب العالمية الثانية لأنها تخوض صراعا شرسا ضد « الغرب » ، الـذى كـانت تقـوده الإمبـراطـوريـة البريطانية الاستعمارية العتيدة فى ذلك الحـين ، فـلا أظن أننـا نستطيـع أن نلتمس عذرا مماثلا لدى أولئـك الذين تعـاطفوا منـذ عامـين مع أبشـع نظام دموى عرفه التاريخ الحديث ، لمجرد أن جهاز دعايته صوّره بأنه يخوض معركة حياة أو موت ضد الغرب ، ذلك لأن مضى نصف قرن بين الحدثين كان كفيلا بأن يحرر الأذهان من الانقياد لردود الفعل الآلية ، ويوجهها نحو فهم أعمق لمختلف عناصر الموقف ، وهـو فهم كان كفيـلا بإنارة الطريق أمام العقول كيما تدرك أن الواقع أعقد بكثير من أن يُختزل إلى هذه المواقف المفرطة فى التبسيط ■



الموقف

قراءة فى واقع العالم الحضارى فى نهاية القرن العشرين ، وكيف تتكامل الحضارات والمدارس الفكرية ، فى العالم ككل ، وليس فى الغرب فقط وهى محاولة نحو استعادة دور العقل العربى داخل المنظومة العالمية .

حسن حنفى

أولا : الغرب نمط للتحديث

فمنذ الانفتاح الحضارى الأول فى عصر الفتوحات ، وترجمة ثقافات الشعوب المجاورة اليونانية والرومانية والفارسية والهندية من موقع قوة وليس من موقع ضعف ، ومنذ كان ولاء المترجمين للثقافة الجديدة قدر ولائهم للثقافة العربية القديمة ، كانوا عربا لغة ، ويونان ثقافة ، ونصارى دينا ، أو فرسا أو هنودا لغة ، وعربا ثقافة ومسلمين دينا ، ومنذ أن تم تمثلها ، تلخيصا وشرحا وتأليفا فى موضوعاتها أو استعمالها كأدوات تعبر عن الثقافة الجديدة الناشئة أو حتى الرد عليها أو نقدها أو رفضها ـ توقف هذا الانفتاح بتوقف الفتوح بعد أن أدى وظيفة تحديث الثقافة .

وفى الفترة الثانية ، بداية الحروب الصليبية من الغرب وهجمات التتار والمغول من الشرق ، وبعد أن أصبح العالم الاسلامى مفتوحا وليس فاتحا ، مغلوبا وليس غالبا ، بدأ الانغلاق الحضارى حماية للذات ، وتقوقعا على النفس ، وحرصا على ما تبقى من استقلال الأوطان . هذا بالاضافة إلى أنه لم تكن هناك ثقافات مجاورة يمكن ترجمتها . كانت هناك ثقافة العصر الوسيط الأوربى التى كانت أقل إحكاما من حيث الصياغات العقلية والطبيعية والانسانية من الثقافة الإسلامية ، فانتقال الثقافات يتم طبقا لنظرية الأوانى المستطرقة ، الأعلى يصب فى الأدنى دون أى حكم قيمة . إذ يتغير مستوى الثقافة من فترة تاريخية إلى أخرى لحياة الحضارات . كما أن الوافد كان للغزو ولم يكن للثقافة ، للنهب والسلب ، وليس احضار المخطوطات والمؤلفات . ولم يكن هناك ممثلون لها داخل الثقافة كما كان نصارى الشام من قبل حلقة اتصال بين العرب واليونان . كانت الثقافة الأوربية فى العصر الوسيط مستهلكة للثقافة اكثر مما كانت منتجة لها . كانت تنقل إبداعات الثقافة الاسلامية فى شتى العلوم من العربية إلى اللاتينية مباشرة أو عبر العبرية . واستمر الأمر كذلك حتى نهضت أوربا فى العصور الحديثة ابتداء من عصر النهضة ومصادره الاسلامية .

ثم ظهر ابن خلدون ليؤرخ لنهضة وسقوط القرون السبعة الأولى . ومنذ قرنين من الزمان ونحن نحاول إنهاء هذه الفترة الثانية من القرون السبعة التالية ، عصر الشروح والملخصات ، العصر المملوكى العثمانى ، حيث دونت الذاكرة أكثر مما أبدع العقل . كانت أوربا فى ذلك العهد قد بدأت احياءها فى القرن الرابع عشر وإصلاحها الدينى فى القرن الخامس عشر ، ونهضتها فى القرن السادس عشر ، وعقلانيتها فى القرن السابع عشر ، وتنويرها فى القرن الثامن عشر ، وعلمها فى القرن التاسع

مـــن الغــــــــرب

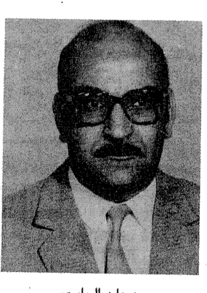
عشر . فنهضت وقـامـت وانتشـرت ، وهيمنت عـلى غيرهـا ، وكـان العـالم الإسلامى الممتد فى أفريقيا وآسيا هو هذا الغير ، استئنـافا لحـروب صليبية جديدة عبر البحار والمحيطات والالتفاف حول القارات ، وهو الاستعمار الاوربى الحديث .

ونشأت صدمة الحداثة منذ حملة نابليون على مصر أو قبلها بقليل على يد قلة من العلماء أتيح لهم الاطلاع عـلى بعض العلـوم الطبيعية فى الغـرب عن طـريق فـرنسـا . ولكن الحملـة جعلت الغـرب الحـديث مـرآة للـذات تعكس فيهــا صـورتهـا ، نفسهـا فى مـرآة الآخر ، وترى الآخر فى مرآة ذاتها . ولم تأت الحملة من الشرق حيث ترى الذات نفسها فى مرآة الشرق . كان الشرق على نفس المستـوى الحضـارى للـذات ، حضارات تاريخية مزدهرة فى الماضى ، فى الهند والصـين وأصبحت مثلنـا عـلى مشارف عصر حديث . كانت مصر درة الشرق ، ومرآة الشرق ، وفنانتها كوكب الشرق . لم يكن الشرق هو الآخر بـل امتـداد لـلأنـا . لم يكن العـدو بـل الصـديـق ، لـم يكـن التحـدى بـل الاستجابة عـلى تحديـات مشتركـة هو الاستعمار الغربى والهيمنـة الثقافيـة الأوربية . وظل الأمر كذلـك حتى ثورة الصين واستقلال الهند ونهضة اليابان الصنـاعية بعـد هـزيمتهـا فى الحـرب الثـانية . كـان ذلـك فى الاربعينـات .



عبد الله العروى

فالجناح الشرقى للأنا لا يزيد عمره على نصف قـرن ، غانـدى وسعد زغلـول ، نهـرو وناصر ، شـوين لاى والعـرب ، صناعات اليابان ونفط الخليج .



محمد عابد الجابرى

ونتيجة لصدمة الحداثة ورؤية الانا ذاتها فى مرآة الآخـر ، نشأت تيـارات ثلاثة فى فكرنا العربى المعاصر ، تلتقى جميعـا فى نموذج واحـد « الغرب نمط للتحديث » وإن اختلفت فيما بينهـا فى نقطة البداية ، الدين فى تيار الإصلاح الـدينـى ، والعلـم فى التيـار العلمـى العلمانى ، والسياسةِ أو الدولة فى الفكر الليبرالى . قد تتدخل هذه التيارات فيما بينها ، وقد يكـون هناك مفكـرون عرب معـاصرون عـلى التخوم بـين تيارين :

الاصـلاحى والليبـرالى (عـلى عبـد الرازق ، خالـد محمد خـالد) العلمى العلمـانى والليبـرالى (فؤاد زكـريـا) الاصلاحى والعلمى العلمانى (حنفى) ومع ذلك تبقى هذه التيارات متمايزة من حيث بـدايتها ومسـاراتها ونهـايتها ، روادها وأجيالها وروافدها .

يبدأ الاصلاح الدينى بمسلمة أنـه لا يتغير شىء فى الواقع ان لم يتغير فهمنا للدين أولا . ولما كان الآخر الأوربى هو المتحـدى فى صيغة المستعمـر وكـانت نهضته بالعلم والقوة ، فلا يفل الحديد إلا الحـديد ، أصبـح الغرب نمـوذجا للتحديث بالعلوم الطبيعية والصناعات العسكرية ومظاهر العمـران الحديث ، ومنهـا الحريـة والديمقـراطية والنظم البرلمانية والتعددية الحزبية والصحافة الحرة والدستور . وظل الأمر كذلك حتى قامت الثورة العرابية تحت تأثير تعاليم الأفغـانى ثم فشلت وأدت إلى احتـلال مصر . فـارتـد محمـد عبـده نسبيـا ،

واصبح نصف سلفى ، أشعرى فى التوحيد ، معتزلى فى العدل ، وبعد إنشاء الحزب الوطنى تحت تأثير تعاليم الأفغانى أيضا وتدوين برنامجه بيراع محمد عبده ، ولما قامت الثورة الكمالية فى تركيا وانهت الخلافة وتبنت العلمانية والنمط الغربى للتحديث كلية ـ انقسم تلاميذ محمد عبده إلى تيارين : الأول سلفى والثانى علمانى . فقد ارتد رشيد رضا مرة أخرى على يد محمد عبده ، وغلبت عليه السلفية دفاعا عن « الخلافة أو الإمامة العظمى » بعد أن كان من حزب الإصلاح فنشأ التيار السلفى الحديث باحثاً عن جذوره عند محمد بن عبد الوهاب ثم ممتدا إلى أحمد ابن حنبل . وكتب على عبد الرازق « الاسلام وأصول الحكم » متبنيا العلمانية الغربية من داخل حركة الاصلاح ، داعيا إلى الفصل بين الدين والدولة على النمط الغربى . كما كتب قاسم أمين « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » جاعلا المرأة الغربية نمطا للتحديث . وفى كلتا الحالتين ، ظل الغرب نمطا للتحديث ، فى الأخذ بالعلم الحديث ، ولو أنه كان من صنع الآباء والأجداد . ولما حدث الصدام بين الإخوان والثورة ١٩٥٤ ارتد الفكر الاسلامى للمرة الثالثة عن الواقع السياسى والاجتماعى . وخرج من المعتقلات تحت تأثير عذاب السجون والرغبة فى الانتقام عاجزا عن التعامل مع الواقع . فكفر المجتمع . وانعزل عنه ، وخرج عليه . واستعمل معه العنف ، واصطدم بأجهزة الامن . وانتهى « الغرب كنمط للتحديث » إلى معاداة كلية للغرب ، وتحول « شروق من الغرب » إلى « ظلام من الغرب » . أصبح الغرب معادلا للكفر والإلحاد والمادية والإباحية والعلمانية والشك والعدمية . وتم نبذ العقل والعلم والحرية والديمقراطية والدستور والنظم البرلمانية باعتبارها نظما غربية وإيثار الايمان والمعجزات والنبوات والحاكمية وتطبيق الشريعة الاسلامية ابتداء من الحدود ، وارتداء الجلباب ، ولبس الحجاب ، واطلاق اللحى . انتهى التيار الإصلاحى الدينى إلى عكس ما بدأ منه ، ودار على عقبيه مائة وثمانين درجة ، من الضد إلى الضد ، ومن النقيض إلى النقيض ، الاسلام فى مواجهة المجتمع فى الداخل والعالم فى الخارج كما تقضى بذلك سيكولوجية المضطهدين .

ويبدأ الفكر العلمانى بأنه لن يتغير شىء فى الواقع أن لم تتغير نظرتنا للطبيعة أولا وللمجتمع ثانيا . وهكذا كانت تجربة الغرب منذ عصر النهضة والقطيعة مع الماضى ، والكنيسة وأرسطو ، والبداية بالعقل كذات فى مواجهة الطبيعة كموضوع ، واضعا أسسا جديدة لنظرية المعرفة إجابة على سؤال : كيف اعرف ؟ وأسسا جديدة لنظرية الوجود إجابة على سؤال ماذا أعرف ؟ وأسسا جديدة لنظرية القيم إجابة على سؤال : ماذا يجب علىَّ أن أفعل ؟ يحدد العلم صلة الانسان بالعالم ، وتحدد العلمانية صلة الانسان بالمجتمع .

بدأ شبلى شميل العلم فى صورته فى القرن التاسع عشر الأوربى ، نظرية التطور . وانشأ فرح انطون مجلة « الجامعة » للدعوة إلى العلمانية كما فرضتها التجربة الأوربية . واسس يعقوب صروف مجلة « المقتطف » لترويج نظريات العلوم الطبيعية . ثم بدأ سلامة موسى الترويج لكل شىء غربى فى العلم والأدب والسياسة والاجتماع والقانون والفن . أصبح الغرب هو الأستاذ الوحيد كما يبين فى « هؤلاء علمونى » وحمل زكى نجيب محمود لواء الوضعية المنطقية باعتبارها منهجا لتحليل اللغة وإحكام القضايا العلمية عرضا للمذهب فى أصوله الأوربية حتى ١٩٧٠ ثم تطبيقا له بعد ذلك فى التراث القديم وفى الثقافة العربية المعاصرة فى تواصل دون انقطاع . ثم حدثت نفس ظاهرة الردة عند اسماعيل مظهر الذى بدأ دارويناً خالصا مترجما « أصل الانواع » . ثم كتب بعد ١٩٦٠ « الاسلام أبدا » منتقلا من طرف ، إلى طرف ، ومن نقيض إلى نقيض ، ومن الحديث إلى القديم ، ومن الجديد إلى التراث ، ومن الوافد إلى الموروث . وبطريقة أكثر صحفية واعلامية وشعبية انتقل مصطفى محمود من العلم إلى الايمان ، ومن الماركسية إلى الاسلام ، ومن قانون الطبيعة إلى الإرادة الإلهية فى برامج « العلم والإيمان » العلم الغربى والإيمان التقليدى ، وكأن الغرب هو الذى يبحث والإيمان هو الذى يبرر ، الغربى يبدأ والدين يتبع ، الريادة للعلم والتقليد للدين . ولما كان العلم متغيرا فى فهمه طبقا لكل عصر ، نسبيا فى رؤية الكون كذلك أصبح الدين . وتكون النتيجة أن الله سخر لنا الغرب العالم لمصلحتنا ، وكرمنا بالإيمان وحرمهم منه ، وبالتالى كانت لنا الحسنيان ، الدنيا والآخرة ، العلم والإيمان . ووقعنا فى التفسير الإيمانى لكل شيء ، هزيمة ١٩٦٧ لبعدنا عن الله ، وعبور ١٩٧٣ لعودتنا إلى الله ، ظهور مريم العذراء بعد ١٩٦٧ رفعا للروح المعنوية ، وعبور الملائكة مع الجنود قناة السويس فى ١٩٧٣ تقطع رقاب الاعداء قبل سيوف المسلمين لإيماننا بالله . كانت البدايات غير النهايات . حاول شبلى شميل أن يجد أسسا لنظرية التطور وعلوم

العمران فى القرآن . وجعلها فرح انطون وسلامة موسى ضد الدين ، وانتهى مصطفى محمود أن جعلها من الدين ، وفى الدين غنى عنهما ، وفى القرآن غنى عن كل علم .

ويبدأ الفكر السياسى الليبرالى بمسلمة أنه لا يتغير شىء فى الواقع ان لم يتغير فى السياسة أو فى الدولة أولا . روج رفاعة رافع الطهطاوى فى مصر وخير الدين التونسى فى تونس لفلسفة التنوير باعتبارها نموذج الحداثة ، الحرية والديمقراطية والإخاء والمساواة ، الدستور والقانون ، البرلمان والتعددية الحزبية ، المبادىء العامة التى تقوم عليها « الشرطة » Lacharte الفرنسية ، قنن الطهطاوى بناء الدولة فى « مناهج الألباب » كما قننها خير الدين فى « أقوم المسالك » ، جاعلا الصناعة « اندوستريا » تعادل النهضة والعمران ابتداء من الوطن ، وليكن هذا الوطن مكانا لسعادتنا أجمعين ، نبنيه بالحرية والفكر والمصنع » . وحاول قراءة الموروث كله من خلال فلسفة التنوير ، حب الوطن من الإيمان ، وروح القوانين عند مونتسكيو هما الحسن والقبح العقليان فى الشريعة . وفى نفس الوقت رأى الأنا فى مرآة الآخر ، والآخر فى مرآة الأنا فى « تخليص الإبريز » مرآة مزدوجة تعكس صورتين على التبادل . واستمر خليفته على مبارك على نفس المنوال فى « الخطط المقريزية » لإعادة بناء مصر ، ورؤية الصورتين للأنا والآخر على التبادل ، صورة العربى فى ذهن الانجليزى ، فى رحلة من الإسكندرية إلى لندن فى رواية « علم الدين » .

فلما فشلت الثورة العرابية اثر تعاليم الافغانى فى الثورة الاسلامية نشأ جيل آخر ، لطفى السيد ، يقصر همه على الأمة المصرية ، ويؤصل نمط تحديثها الغربى ليس فى الشريعة الاسلامية كما فعل الطهطاوى بل فى مصادرها اليونانية كما هو الحال فى الغرب ، فازداد التغريب درجة ، وتمت ترجمة « السياسة » و « الأخلاق » لأرسطو ابتداء من الفرنسية وليس اليونانية كما فعل حنين بن اسحق وقدماء المترجمين العرب الذين ترجموا من اليونانية مباشرة . وأصبح من ممثلى ثقافة النخبة ومن مؤسسى أحزاب الأقلية . فكأن الغرب نموذجا للتحديث عند النخبة دون الجماهير . وازداد التغريب درجة أخرى عند طه حسين فى « مستقبل الثقافة فى مصر » عام ١٩٣٨ من أجل تمرير معاهدة ١٩٣٦ وتحقيق أحد شروطها ، أن تصبح مصر جزءا من الغرب ومرتبطة به ، جزءا من ثقافة البحر الابيض المتوسط بشاطئيه العربى والغربى فما يربط مصر باليونان أكثر مما يربطها بفارس أو الهند ، وما يربط مصر بفرنسا أكثر مما يربطها بالصين . ثم حدثت نصف ردة عند العقاد لإعادة التوازن بين الثقافتين الاسلامية والغربية دفاعا عن الأولى ونقد الثنائية . ثم اكتملت الردة عند خالد محمد خالد الذى بدأ ليبراليا أصيلا فى « من هنا نبدأ » ، « الحرية أبدا » ، « كى لا تحرثوا فى البحر » .. إلخ ثم انتهى إلى صحابة حول الرسول ، سعوديا أمريكيا فى حرب الخليج(١) .

ثانيا : الغرب أداة للتجديد .

وبعد جيل الرواد الأوائل قدم الجيل الحالى نمطا جديدا للعلاقة مع الغرب ، ليس باعتباره نمطا كليا للتحديث ممثلا فى أحد تياراته الفكرية والسياسية وهى الليبرالية بل باعتباره أداة جزئية ومتعددة للتجديد . فالمذهب أو المنهج يأتى من الغرب . وبدلا من أن يظل وافدا فى صراع مع الموروث أو فى مواجهته أو موازيا أو مزاحما له فانه يستعمل كأداة لفهم الموروث وتقديم قراءة جديدة له . ويتم الاختيار طبقا للمزاج الفلسفى أو الانتساب الفكرى أو الولاء العقائدى أو التربية الفلسفية أو الجو الثقافى السائد أيام كان المثقفون العرب مبعوثين ودارسين فى الخارج أو الداخل ، « وكلهم إلى رسول الله منتسب » ، ويساعد على ذلك أن الغرب به تنوع كبير من المذاهب والمناهج بعد محاولات عدة على خمسة قرون أو يزيد الاستقرار الفكرى دون نجاح . كما أن تراثنا مملوء بكل شىء ويمكن قراءته فى كل اتجاه ولا يستعصى على أى تفسير فى بيئة تحسن التأويل والتخريج والتبرير وأمام نص وسع كل شىء . كما أن حاجاتنا ومطالبنا لا حدود لها فنحن فى حاجة إلى مثالية العقليين لتخلصنا من ثقل واقعنا المادى ، وإلى شخصانية الشخصانيين حتى تساعدنا على احترام الشخص والدفاع عن حقوق الإنسان ، وإلى وجودية الوجوديين حتى تؤكد على أهمية الوجود الانسانى الحر دون ردة إلى ماهو أعلى منه وهو الله أو الدولة أو السلطان أو الاب أو المعلم أو ردة إلى ما هو أقل منه أى الحيوان فى طرق الغذاء والكساء والسكن والتعليم ، وإلى اشتراكية الاشتراكيين حتى تذوب لدينا الفوارق بين الطبقات ، ويقوى دور الدولة فى التخطيط الاقتصادى ، وإلى ماركسية الماركسيين حتى نتعلم الصراع بين الطبقات ، وفائض القيمة ، والملكية العامة لوسائل الإنتاج ، وإلى بنية البنيويين حتى نعلم أن هناك بنية ثابتة تتخلل العصور والأزمان وتتحكم فى الظواهر الاجتماعية ومسار التاريخ . وإلى ظاهريات الظاهراتيين لوصف

الظواهر الاجتماعية كتجارب حية فى الشعور الفردى والاجتماعى ووصف التراث الماضى كمخزون نفسى عند الجماهير ... الخ .

استعملت الثقافة الغربية كأداة للتجديد أولا كمذاهب فلسفية مثل المثالية والشخصانية والوجودية والماركسية . فهناك مثالية عربية تسمى « الجوانية » (عثمان امين) أو مثالية معدلة (إسلامية) تقوم على الاتزان والوسطية دون الغلو والتطرف (توفيق الطويل) ، تعطى الأولوية للذات العارفة على موضوع المعرفة ، وللعقل على الحس ، وللفكر على الوجود ، المثل الأعلى وجود فعلى ، موجه للسلوك الاخلاقى معيار مطلق ولافرق بين ديكارت وكانط ونيتشه من ناحية وبين ابن سينا والفارابى والغزالى وإقبال من ناحية أخرى . ولا فرق بين الأخلاق المثالية ، أخلاق الواجب أو الضمير وبين الأخلاق الإسلامية .

وهناك شخصانية إسلامية (الحبابى) تعطى الأولوية للشخص على الكائن مثل مونييه ، وتحلل أبعاد الشخص فى الوجود والحرية والمفارقة أو التعالى والفعل ، وهى نفس الأسس التى يقوم عليها الوجود الانسانى فى الإسلام . ثم تتحول الشخصية الإسلامية إلى « الغادية » طبقا للتيار السائد والمذهب الشائع والهم العربى الحاضر وهو المستقبل وعالم الغد .

وهناك إنسانية أو وجودية عربية تظهر فى التصوف (عبد الرحمن بدوى) وعند أبى حيان التوحيدى ، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء (زكريا ابراهيم) ، تعطى الأولوية للوجود على الفكر والانفعال على العقل ، وللعمل على النظر ، وللزمان الوجودى على الأبدية والخلود ، ولمشاكل الحب والحياة والموت والفن والجمال على مشاكل الجوهر والعرض والصورة والمقولة والعلة والمعلول .

وهناك ماركسية عربية (العروى) ، الماركسية باعتبارها هدفا لتذويب الفوارق بين الطبقات وتحقيق العدالة الاجتماعية والملكية العامة لوسائل الإنتاج ، والعربية لأنها تتفق مع الظروف الحالية التى يمر بها المجتمع العربى وتطلعاته إلى الليبرالية وأهمية دور الطبقة المتوسطة فى التنمية ، وإذا كانت الماركسية العربية على المستوى الفكرى والنظرى فإنها هى نفسها الاشتراكية العربية على مستوى الممارسة السياسية والنظم العربية ، كما كان الحال فى الستينات .

وللتغلب على حدود المذاهب واتساع رقعة التجديد تم استعمال المناهج الغربية لدراسة الموروث واكتشاف مكوناته وبنيته . فتم استعمال المنهج الظاهرياتى (الفينومينولوجى) لدراسة التراث (أدونيس ، حنفى) ، وتحويله إلى تجارب حية فى نشأته وتطوره ، وتحليله باعتباره حاضرا حيا فى الشعور الفردى والجماعى ، مازال يؤثر فى الناس ، يحدد تصوراتهم للعالم ، يمدهم بمعايير للسلوك ، واكتشاف بنيته : الثابت والمتحول ، السلطة والمعارضة ، الله والعالم ، الحاكم والمحكوم ، الراعى والرعية ، السيد والعبد ، وكيف قام الموروث على الطرف الأول ، وكيف يمكن اعادة تركيب البنية لصالح الطرف الثانى .

كما تم تطبيق المنهج البنيوى من اجل رصد أبنية الفكر ، العقل العربى نموذجا ، بنية وتكوينا فى إيقاع ثلاثى سواء للتكوين أو البنية : البيان ، والعرفان ، والبرهان (الجابرى) . كما تم تطبيق النهج الماركسى التقليدى لتتبع نشأة نزعات الفلسفة المادية فى التراث العربى الإسلامى باعتبارها الفلسفة العلمية الحقيقية فى مقابل الفلسفات الدينية الكلامية الصوفية الإشراقية الزائفة (الطيب تيزينى ، حسين مروة ، غالب هلسا ، صادق جلال العظم) أو لرصد وقائع الفكر الاجتماعية السياسية التى يرد الفكر العربى اليها منذ بواكيره الأولى حتى الآن . كما تم استعمال المنهج اللغوى واللسانيات الحديثة لدراسة الجدل الكلامى (طه عبد الرحمن) أو تحليل الخط العربى (الخطيبى) . وأخيرا استعملت بعض مفاهيم فلسفة العلوم المعاصرة مثل القطعية المعرفية لدراسة الثقافة العربية بنيويا وتاريخيا واعتبار شرط تقدمها القطيعة المعرفية بين العقل والذوق ، بين المغرب والمشرق (ابن عبد العلى) .

وتمتاز هذه المحاولات بأنها محاولات صادقة لتجاوز ازدواجية الثقافة العربية بين الموروث والوافد ، وحل وضع المثقف العربى بين ثقافتين بدلا من ثنائية الثقافة بين سلفية وعلمانية ، الأولى تكفر الثانية ، والثانية تخون الأولى والتفاعل مع ثقافات العصر . كما أنها تمثل معرفة بأحد جوانب الثقافة الغربية ، مذهبا أو منهجا والاطلاع عليه ، والترويج له ، وفتح نوافذ عديدة فى الثقافة العربية المعاصرة للاطلاع على ثقافات الغرب وبالتالى التعاون مع الغرب فى أحد ابداعاته دون تخوف أو ستبعاد ، خاصة وأن هذه الإبداعات تمثل بعض الاحتياجات الفكرية فى الثقافة العربية المعاصرة . كما أنها تعامل مع الموروث فيه من أجل قراءته من جديد وإظهار المكنون العصرى فيه . فالقديم يتضمن الجديد ويحتويه ، والجديد مغلف بأغلاف اللغة والتصورات القديمة ، وبالتالى تتعدد جوانب فهم الموروث ،

ويقضى على تفسيره الأحادى ، ولايقع المحدثون فى تكرار القدماء . تلبى هذه المحاولات حاجات العصر من بحث عن مذاهب جديدة ومناهج جديدة ورؤى جديدة تتجاوز الموروث والوافد فى إبداع جديد . فالتحديات عظيمة والاستجابات ضعيفة تسد هذه المحاولات الفراغ الفكرى الراهن ، وتشجع الأجيال الجديدة على التجديد وتجاوز مصدر الثقافة . فكل قراءة إنارة للمقروء ورؤية القارىء . وتساعد هذه المحاولات على إنشاء فكر عربى جديد يعبر عن الوضع العربى الحالى ، مرحلة الانتقال من القديم إلى الجديد ، وتقوم هذه المحاولات المنهجية الآن ، والتى تسمى المشاريع العربية المعاصرة بدور المذاهب الفلسفية فى الغرب منذ القرن السابع عشر تتشكك فى الموروث وتنقد الوافد وتعبر عن حاجة العصر .

ومع ذلك يعاب على هذه المحاولات أنه يصعب إيجاد الوحدة العضوية بين الموروث والوافد ، بين الغاية والوسيلة ، وبقائهما على مستوى التجاور الخارجى مما يسهل الحكم عليها بالتوفيق خاصة لو ظهرت مصطلحات الوافد المسقطة على مادة الموروث . وعادة ما تأتى هذه المحاولات غير متوازنة ، إما أن يسود الموروث على الوافد ، والموضوع على المنهج ، وإما أن يسود الوافد على الموروث والمنهج على الموضوع ، إما أن يكون الموروث هو المضمون والوافد هو الشكل ، وإما أن يكون الموروث هو الشكل والوافد هو المضمون ، وكأن الفكر لايعرف التوازن . كما تجتزىء هذه المحاولات المنهج أو المذهب من الوافد وتخرجه عن بيئته الثقافية التى نشأ فيها ، تنزع الجزء من الكل ثم تطلقه وتعتبره منهجا علميا لكل العصور مع أن كل منهج إنما كان رد فعل على منهج سابق كما هو الحال فى المنهج الظاهرياتى الذى كان رد فعل على المنهج العقلى التجريدى والنهج الحسى التجريبى . كذلك الحال فى المذاهب يتولد بعضها من بعض طبقا لقانون الفعل ورد الفعل دون أن يكون لأى مذهب صفة الإطلاق . كما تجتزىء الموضوع من الموروث وتخرجه من بيئته الثقافية التى نشأ فيها ، تنزع الجزء من الكل ثم تطلقه وتعتبره التراث كله ، وتتجاهل تفاعل الجزء مع باقى الأجزاء ومع الكل الذى هو جزء منه ، هذا بالاضافة إلى غياب أى معيار لاختيار المنهج من الوافد إلا المزاج أى الاستحسان الشخصى أو المصادفة التى جعلت المثقف العربى أثناء وجوده بالغرب يتجه إلى هذا المنهج بتوجيه استاذه أو بتبنى المنهج السائد فى العصر أو فى القطر . ثم يعود إلى الوطن ممثلا لهذا المنهج أو المذهب فيعرف به .، وتسرع الشهرة إليه وبالتالى ينال الحسنيين ، الشهرة فى الوطن والعالمية فى الخارج ، ويسر من سماع القاب فوكو الثقافة العربية ، هوسرل الوعى العربى ، ماركس التاريخ العربى .. إلخ كما تتجاهل هذه المحاولات أن الموضوع المدروس ، وهو الثقافة الإسلامية ، وهو فى حد ذاته منهج أو تعبير عن منهج ، وبالتالى يكون إسقاط منهج خارجى على منهج داخلى تشتتا فى المناهج وتضاربا فى الموضوعات وتؤدى هذه المحاولات فى النهاية التى تستعير المنهج الوافد من الحديث والموضوع من الموروث القديم خاصة وأن الحديث أفضل من القديم إلى اعتبار صدق النتائج انما يرجع الفضل فيها إلى المنهج الحديث وليس إلى الموضوع القديم . المنهج هو الروح والموضوع هو البدن ، علاقة الأعلى بالادنى ، العظمة بالنقص ، فيتعمق الإحساس بدونية الأنا تجاه عظمة الآخر ، وكأننا موتى فى حاجة إلى بعث مستمر[٢] .

ثالثا : الغرب مصدر للعلم .

بالرغم من هذه المحاولات المذهبية أو المنهجية للجمع بين الموروث والوافد ، وتجاوز ثنائية الثقافة بين الداخل والخارج زادت حدة التغريب ، ولم يشع إلا المذهب أو المنهج الغربى دون تطبيقاته فى الثقافة العربية . شاع الروح دون البدن ، فالموروث كان مجرد تبرير للوافد ، كان الوافد هو الاصل ، والموروث هو الفرع . فتحول الغرب بصراحة إلى ان يكون مصدرا للعلم ليس فقط فى المذهب أو المنهج بل أيضا فى الموضوع . وبدلا من البحث عن المذاهب والمناهج الغربية فى الموروث وقراءتها فيه ، عن حق أو عن باطل أو عن صدق أو بتأويل ، مباشرة أو بطريق غير مباشر ، فلماذا لا يتم اخذها صراحة ، والعلم مشاع للجميع ، كما كانت علوم اليونان قديما مشاعا للحضارات المجاورة : اليهودية والمسيحية والإسلامية ، الشرقية والغربية ، ليس فى العلم شرق وغرب ، ولا ينتسب إلى حضارة دون حضارة يوجد العلم الآن فى الغرب ، فهو الذى أبدعه ، وعلى الحضارات الأخرى نقله وترجمته وتلخيصه وشرحه ، استيعابه وتمثله كما فعلت الحضارات القديمة مع العلم اليونانى . إذا كان الغرب هو المبدع فمهمتنا النقل . وما العيب فى التتلمذ والتعلم حتى نشب عن الطوق ؟ العلم لا وطن له ، فينشأ فى وطن ثم يعم كل الأوطان ، حضارة تنتج وحضارات تستهلك ، ولكل منها ظروفها التاريخية وربما قدرها ومصيرها . هناك ثقافة عالمية واحدة لا خصوصيات فيها .

العقل والعقلانية هما كذلك فى كل مكان ، والعلم والعلمية لهما شروط واحدة فى كل عصر ، والنزعات الانسانية قيم مطلقة تخترق كل العصور والأزمان ، وتعبر حدود الجغرافيا وأزمان التاريخ . المحيط ينتسب إلى المركز ويتعلم منه . وتستمر العلاقة كذلك عدة قرون أحادية الطرف ، مركز ينتج وطرف يستهلك . ولا يمكن للطرف أن يلحق بالمركز . ومهما نقل الطرف فإن معدل الإبداع فى المركز أعلى وأسرع بكثير من معدل استهلاك الطرف وبالتالى تكبر المسافة ، بينما يظن الطرف أنها تقصر لحاقا بالعصر . ينقل لاهثا مسرعا ، والمسافة تتسع يوماً بعد يوم حتى يقع فريسة للصدمة الحضارية .

هناك ثقافات محلية بطبيعة الحال ولكنها أقرب إلى الثقافة الشعبية الموروثة ، الشخصية الوطنية التى تبدو فى الاحتفالات والاعياد كما هو الحال فى اليابان وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وثقافات الهنود الحمر وقبائل استراليا . أما الثقافة العلمية فواحدة ، الثقافة الغربية ، ولامصالحة بين الخرافة والعلم ، بين السحر والعقل ، بين النزعة الإلهية والنزعة الإنسانية ، بين القهر والحرية ، بين الأبوية والديمقراطية ، بين التقدم والتخلف ، بين المركز والمحيط . إن العلاقة بين ثقافة المركز وثقافة الأطراف هى المثاقفة Acculturation اى انتقال ثقافة المركز إلى ثقافة الأطراف والهيمنة عليها طبقا لنظرية الأوانى المستطرقة فتسود الثقافة العليا على الثقافة الدنيا حتى ولو أدى الأمر إلى مجرد إحلال واستبدال . لا يذكر عادة فى المثاقفة إلا الثقافة العليا دون ذكر لمحو الثقافات المحلية مع أن حرف A فى اللغات الأجنبية يدل على السلب والنقص والعدم .

وتكون الهيمنة الثقافية للغرب هى بداية لهيمنة جديدة دائمة له على الشعوب التى تحررت منه حديثا عسكريا بالرغم من استمرار استيرادها السلاح منه واعتمادها فى التدريب عليه واقتصاديا بالرغم من اعتمادها فى الغذاء على المعونات والاستيراد منه ، وثقافيا وهوما لم يتم بعد نظرا لاستيراد العلم منه . والعلم ثقافة ، والثقافة قيمة . وبالتالى تنتشر ثقافة الغرب وقيمه لدى شعوب الأطراف وتشع من المركز مثل علاقة الشمس بالمجموعة الشمسية . وهذه الهيمنة ، الهيمنة على العقول والثقافات وأنساق القيم لافكاك منها ، هيمنة على الارواح والأبدان . وكل من يحاول الفكاك يكون مصيره الجهل والجوع ، ومن ثم الفناء فى الصحراء .

وبطبيعة الحال ينشأ رد فعل الموروث على الوافد ، من الغرب مصدرا للعلم إلى الغرب مصدرا للجهل ، من قبول الغرب كله إلى رفض الغرب كله ، من « شروق من الغرب » إلى « ظلام من الغرب » من التنوير إلى الإظلام ، وتنشأ حركات محلية ثقافية باسم الدفاع عن الموروث والثقافات المحلية فى مواجهة الغزو الفكرى والاستعمار الثقافى فيتحجر الموروث وبعد أن يكون أداة قبول يصبح أداة رفض . وبدل أن ينمو ويتطور ويتحدد ، يتحجر ويتكلس ويتجمد وبدل أن يكون قادرا على التمثل والاستيعاب واحتواء الثقافات الأخرى ينغلق على نفسه ويدافع عن حدوده فيتوقف عن النمو ، ويصبح أداة طرد بدلا من أن يكون اداة جذب ، فتشتد ازدواجية الثقافة بين الموروث والوافد ، وتنفصم عروة الثقافة بين الأزهر والجامعة بين الشيخ والأفندى ، بين الدين والدنيا ، بين علوم الغايات وعلوم الوسائل ، بين ثقافة الجماهير وثقافة النخبة[٣] .

لذلك كانت الحالة الراهنة للأشكال هى تقابل وصراع وتضاد بين الموروث والوافد ، بين تراث الأنا وتراث الآخر إلى حد القطيعة والخصام . والتكفير والخصام . والتكفير والتخوين المتبادلين ، وهو الصراع الدائر رحاه الآن بين السلفية والعلمانية ، كل منهما رد فعل على الآخر ، موقفان حديان ، يغذى كل منهما الآخر ، ويشرع وجوده من وجود الآخر مثل المعاداة للسامية والصهيونية ، الرأسمالية والاشتراكية . فريق يرى الغرب مصدرا للعلم ، وفريق آخر يرى الغرب مصدرا للجهل . الأول يأخذ من الغرب كل شىء ، والثانى يرفض من الغرب كل شىء ، موقفان انفعاليان يكشفان أن الصراع فى الحقيقة ليس صراعا فكريا بل هو صراع على السلطة ، كل منهما يريدها . الأول باسم الحاكمية والشريعة ، والثانى باسم الحرية والديمقراطية . الأول باسم العصر الذهبى والثانى باسم العصر الحديث .

وفى كلتا الحالتين الوطن العربى هو الخاسر اما بالتآكل الداخلى أو بالغزو الخارجى فتراث الأمة بدلا من أن يكون حاملا للتجدد والتأقلم مع العصر الحديث خاصة أنه يحتوى على العناصر لذلك ، أولوية الواقع على الفكر فى « أسباب النزول » ، والزمان والتطور فى « الناسخ والمنسوخ » وأولوية الطبيعيات على الإلهيات فى علم أصول الدين وفى علم الحكمة ، والاجتهاد فى علم أصول الفقه ، ووحدة الحق والخلق فى علوم التصوف ـ يكون أداة للتوقف ، ومعاداة العصر ، ومقاومة الزمن ، ورفض التطور حتى يتم اقتلاعه من الجذور وتتوجه الجماهير نحو ما يحقق مصالحها اضطرارا لا اختياراً خاصة

إذا غاب بديل ثالث أمامها مثل اليسار الاسلامى الذى يحاول تحقيق التغير من خلال التواصل ، وربط التراث بالعصر ، والحفاظ على الشرعيتين معا ، شرعية الماضى وشرعية الحاضر ، شرعية أسلوب القول وشرعية مضمون القول ، فالسلفية تعرف كيف تقول ولا تعرف ماذا تقول ؟ والعلمانية تعرف ماذا تقول ولا تعرف كيف تقول ؟ أما الحصار الخارجى فإنه يأتى عن طريق غزو العقول وهيمنة الثقافة الغربية حتى تطمس معالم الثقافة الوطنية ، وتضيع المحلية باسم العالمية ، ويقضى على استقلال الذات أما سيطرة الأخر ، وتنتهى الهوية لصالح التغريب(٤) .

رابعا : الغرب موضوع للعلم

إن التحدى أمام الجيل القادم فى مستقبل الثقافة العربية ليس فى نموذجى الماضى ، الغرب نمط للتحديث ، والغرب أداة للتجديد ، ولا فى نمطى الحاضر ، الغرب مصدر للعلم ، والغرب مصدر للجهل بل فى تحويل الغرب إلى موضوع للعلم ، فالدفاع أو الهجوم ، القبول أو الرفض ، الخير أو الشر ، كلها مواقف حدية انفعالية تتجاوز الموقف العلمى الهادىء الموضوعى الرصين .

حضارة الغرب حضارة تاريخية مثل باقى الحضارات البشرية السابقة ، حضارات الصين والهند وفارس وبابل وآشور وكنعان ومصر القديمة ، وحضارات المكسيك وأمريكا الوسطى ، إنما هى فقط آخر حلقة فى سلسلة تطور الحضارة الانسانية . حدث فيها أكبر تراكم تاريخى كانت البذور والجذور فى الشرق القديم ثم أينعت الثمار فى الغرب الحديث حضارة الغرب ليست له بل تراكمت فيه ، لم يبدعها بل حصلها ولم يزرعها بل حصدها . عباس بن فرناس له فى طائرات الكونكورد ، واقتفاء الأثر بسماع حوافر الخيل على الرمال له فى ماركونى والحمام الزاجل له فى الأقمار الصناعية والعجلات العسكرية للهكسوس ومصر القديمة وبابل وآشور لها فى الدبابات والمصفحات الحديثة ، وجابر بن حيان له فى المنهج التجريبى الحديث ، والحسن بن الهيثم له فى جاليلو ونيوتن ، حلقات متصلة فى تاريخ الرياضيات والعلوم والثقافات إنما هى مؤامرة الصمت حول الجذور والمصادر التى ضربها الغرب حول حضارته للإيهام بالعبقرية الأصيلة وبالإبداع الذاتى على غير منوال .

هذه الصفة الإيجابية فى الحصاد وتوزيع المحصول على باقى الثقافات أصبح السلب فيها قدر الإيجاب لأن هذا الفيض الغامر تم فصله عن جذوره ، واستولى فيه الحاصد على حق الزراع ، والجامع للمحصول على جهد الباذر للبذور ، وفى خضم التصدير من المركز إلى الأطراف ، فهو الحصاد الذى لا ينضب ، واستيراد الأطراف من المركز الذى لا يشبع نظرا لتعودها على الاستهلاك أكثر من الانتاج . صعب الزرع الجديد فى الأطراف ، وتعثر الإنتاج فيه ، سواء الانتاج للاستهلاك المحلى أو للتصدير ، من الضرورى إذن تحجيم الغرب ، ورده إلى حدوده الطبيعية وبيان نشأته وكشف مؤامرة الصمت حول مصادره ، فى مصر والشرق القديم ، وتتبع مساره ، تطوره ومراحله ، وبيان بدايته ونهايته كيف تكون وبلغ الذروة ثم شارف على الانهيار ؟ من الضرورى إثبات تاريخيته وصيرورته من أجل القضاء على أسطورة الثقافة العالمية ، وإثبات أن كل ثقافة تاريخية محلية ، وأن الثقافة العالمية ادعاء من خلال السيطرة على أجهزة الإعلام ودور النشر والأقمار الصناعية .

لم تنشأ الحضارة الأوروبية من عدم بل لها مصادر محددة : المصدر اليهودى المسيحى الذى تغلب فيه اليهودى على المسيحى ، والمصدر اليونانى الرومانى والذى تغلب فيه الرومانى على اليونانى ، والبيئة الأوروبية نفسها ، جغرافيتها وأساطيرها وقبائلها وثقافتها الشعبية ودياناتها ومزاجها الحربى وحروبها وعاداتها وتقاليدها وعنصريتها . وقد اتحد هذا المصدر بالشق اليهودى فى المصدر الأول وبالشق الرومانى فى المصدر الثانى وأصبح الركيزة الأولى فى العنصرية الغربية وأساس المركزية الأوروبية . وتكاد تخفى الحضارة الأوروبية مصادر مسكوتا عنها فى مصر القديمة وفى الشرق القديم ، فى بابل وآشور ، وفى فارس والهند والصين حتى يرث الغرب الشرق طبقا لمسار الحضارة من الشرق إلى الغرب وكأنها دورات الأفلاك ، وقد تداخلت هذه المصادر فى عصر آباء الكنيسة وفى العصر المدرسى قبل بداية الوعى الأوروبى الحديث .

بدأ الوعى الأوروبى بداية جديدة فى العصور الحديثة بداية ذاتية بالوعى الفردى ، وبمشروع معرفى ، المعرفة فيه تسبق الوجود ، والذات شرط لإدراك الموضوع ، ثم انقسم الوعى قسمين : وعى عاقل متجه إلى أعلى ، ومنه خرجت العقلانية ، ووعى حسى متجه إلى أسفل ومنه خرجت التجريبية ، وكل قسم يعارض الآخر وينكره ، ولم تنجح محاولات رتق الفتق فى القرن السابع عشر فى وحدة الوجود عند اسبينوزا على نحو صورى خالص ، ولا فى القرن

الثامن عشر عند كانط على نحو تركيبى آلى فى الفلسفة النقدية ولا فى القرن التاسع عشر عند هيجل وشيلنج وباقى الفلاسفة بعد أن كانت على نحو عضوى حيوى رومانسى أسطورى ، ذروة الوعى الأوربى ولم تنجح فى العودة إلى الوحدة الأولى إلا فى الكوجيتو الجديد فى الظاهريات حيث عاد الموضوع إلى الذات ، وعاد العقل والواقع كبعدين للشعور . وبالتالى أصبح للوعى الأوربى بداية فى « الأنا أفكر » ونهاية فى « الأنا موجود » وبين البداية والنهاية فتق ثم رتق فم مفتوح وفم مغلق ، تلك ملحمة الوعى الأوربى .

ومن خلال تاريخية هذا الوعى تكونت له بنية ثلاثية أو عقلية تجزيئية ترى الظواهر بمنطق « إما .. أو » الحقيقة اما عقلية أو حسية ، والظاهرة اما موضوعية أو ذاتية ، والحياة الإنسانية اما فردية أو اجتماعية ، والعالم اما موضوعى أو مثالى ، والفكر اما علم أو دين أو فلسفة ولا مصالحة بين هذه الأطراف ، جزئيات يعارض بعضها بعضا . غابت الرؤية الشاملة والنظرة المتكاملة وظل الوعى الأوربى ينتقل من طرف إلى طرف ومن نقيض إلى نقيض ، ومن جزء إلى جزء حتى انتابته الحيرة واعتراه القلق ، وانتهى إلى الشك والنسبية ثم إلى العدمية وإنكار وجود أنه حقيقة يمكن معرفتها بيقين ، صحيح امتاز بالجدة والابتكار ولكن بعد فترة يخف الدافع وتقل الحمية ، ويخمد الجسد إلا من بعث جديد .

تتولد المذاهب بعضها من بعض طبقا لقانون الفعل ورد الفعل ، من المثالية إلى الواقعية إلى المثالية الجديدة إلى الواقعية الجديدة من الكلاسيكية إلى الرومانسية إلى الكلاسيكية الجديدة إلى الرومانسية الجديدة ، من الديموقراطية إلى الاشتراكية إلى الاشتراكية الديموقراطية . قد يكون الإيقاع ثنائيا بلا تركيب طبقا لقانون التناقض ، وقد يكون ثلاثيا طبقا لقانون الجدل ، الموضوع ونقيض الموضوع ومركب الموضوع ، وقد يكون رباعيا طبقا لقانون التناقض المزدوج وكفتى الميزان المتصاعدتين على التبادل دون الوصول إلى حالة من التساوى والتكافؤ والتعادل . غابت البؤرة وانعدم المركز على مستوى المعرفة والادراك ، واستبدل الوعى الأوربى عن هذا النقص مركزا إراديا عضليا فى الرغبة فى الهيمنة والسيطرة والاحتواء كما تجلى فى المركزية الأوربية القائمة على اليهودية والرومانية والعنصرية الدفينة .

ضم كل مذهب السلب والإيجاب ، النفى والاثبات ، الهدم والبناء . وتوالت المذاهب . ما يتم هدمه بالأمس يعاد بناؤه اليوم وما يعاد بناؤه اليوم يتم هدمه فى الغد حتى أصبح الوعى بطبيعته عادما متقلبا هوائيا لا يستقر له حال . ومن ثم لم يستقر شىء فى المجتمع ولا فى السياسة ، يتقلب التنوير إلى فاشية ونازية وتنقلب العقلانية إلى عنصرية وطائفية وتتحول النزعة الإنسانية إلى عرقية وقسوة ومعاداة للبشر . تحول البحث المستمر من ظاهرة صحية إلى ظاهرة مرضية ، وتحولت الرغبة المعرفية من الدهشة والتساؤل إلى القلق والضيق لم يعد للوعى الأوروبى صديق دائم ولا عدو دائم ولم يعد له معيار أو مقياس . لم تبق له إلا القوة العضلية وصراع القوى .

والآن ما مستقبل هذا الجدل بين ثقافة الأنا وثقافة الآخر ؟ كان مصير الثقافتين فى التاريخ باستمرار على التبادل فى الوقت الذى كانت فيه ثقافة الأنا رائدة وكان الأنا معلما (القرون السبعة الهجرية الأولى) كانت ثقافة الآخر تابعة وكان الآخر تلميذا (العصور الوسطى الأوربية) وعندما تم تغيير الأدوار أصبحت ثقافة الأنا تابعة ، والأنا تلميذا (القرون السبعة الهجرية التالية) وأصبحت ثقافة الآخر رائدة ، والآخر معلما (العصور الأوربية الحديثة) لعب كل من الأنا والآخر دوره مرتين : الأنا معلما وتلميذا ، والآخر تلميذا ومعلما فما هى احتمالات المستقبل ؟

إن من يرصد ظواهر العدم فى الوعى الأوروبى الحالى ، وانتهاء الدافع الحيوى ، وبداية الموت فى الروح : انقلاب القيم ، الشكية والعدمية ، النسبية واللاأدرية ، الحروب الأوربية ، الفاشية والنازية ، العنصرية والطائفية ، حوداث الانتحار ، تلوث البيئة ، العدوانية والقسوة قد ينتهى ، كما انتهى إلى ذلك بعض الفلاسفة المعاصرين : نيتشه ، اشبلنجر ، شيلر ، برجسون ، توينبى ، سارتر ، هيدجر.. الخ إلى أن الوعى الأوروبى كدافع حيوى ، قد شارف على النهاية ، وأنه قد قام بدورته فى العصور الحديثة ،

وأن من يرصد ظواهر الوجود الحيوى فى وعى العالم الثالث الحالى ، بالرغم من انتكاساته وردته : حركات التحرر الوطنى ، الاستقلال السياسى ، الدولة الحديثة ، مناهضة العنصرية والصهيونية ، تجمعات آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، الإبداع الذاتى فى الفن والأدب ، إجماع عالمى غير أوربى جديد ، حقوق الشعوب بالإضافة إلى حقوق الإنسان ، الانتفاضة وثورات الشعوب قد ينتهى ، مع مفكرين عرب

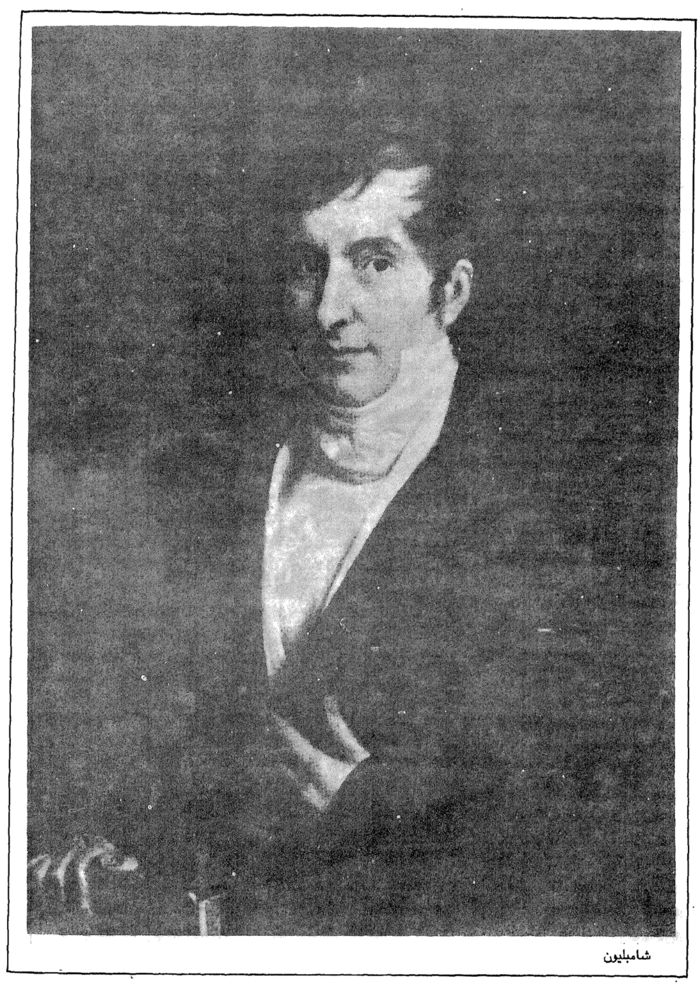
معـــاصرين ، إلى وجـــود وعى جديد يتخلق فى البـداية ، كـانت لـه جـذوره التاريخية فى حضاراته القديمة ، وقـد يعود من جديد لقيادة العالم .

نحن الآن عـلى مفتـرق الطـرق ، حضـارة تنتهى ، حضارة المـركز وهى الحضارة الأوربية ، وحضارات تبدأ ، حضـارات الأطراف حضـارة الصـين أو مصر أو الهند أو المكسيك ، شعوب أسيـا وأفريقيـا ، العالم الاسـلامى ، القارات الثلاث ، الوطن العربى ومصر فى قلبه أم بؤرة تنبثق فيها روح العالم الجديد .

إن نظام العالم الجديد ليس هو الذى يبـدو الآن ظاهـرا ، العـالم ذو القطب الواحد بعد اختفاء الاشتراكية وغلبـة الراسمالية ، نهاية التاريـخ ، نهايـة العالم العربى ، بداية عصر القـوميات الصغرى ، فهذه أشكال على السطح ، إنما نظام العالم الجديد مازال يتشكل ولم تظهر منه إلا القباب ، بدأ بـإنهيار أحـد القطبين ، ويتلـوه انهيـار القطب الآخر الذى تنخر مظاهر العدم فيه ، إذ يتزامن مع هذين الانهيارين صعود ثالث من خارج حضارة المركز ، من حضارات الاطراف .

إن سقوط غرناطة واكتشاف أمريكا فى نفس الوقت قد يعنى ذلك بداية مزحلة احتوت فى ثناياها على نهايتها ، تتلوهـا مرحلة تالية ، صعود غرناطة الجديدة ، وسقوط امريكا القديمة . نبوءة أو رؤية تمن أو فلسفة للمستقبل ، هـدف بعيد المنال ام غاية قابلة للتحقيق ؟ هذا هو السؤال[٥] .





شامبليون

الفصول والغايات

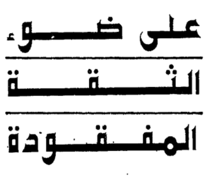
الاشتراكية - أحلام الماضي ومشاريع المستقبل



فى العدد الماضى قدمنا الجزء الأول من هذه الندوة العالمية حول الماركسية ومصيرها بعد زوال الأنظمة الشيوعية بشرق أوربا والتى عقدت فى جامعة السوربون بباريس فى الفترة مابين ١٧ الى ١٩ مايو ١٩٩٠ تحت رعاية مجلة « ماركس الآن » و« المعهد الايطالى للدراسات الفلسفية » ونشرتها دار المطبوعات الجامعية الفرنسية .

فى العدد الماضى أيضا نشرنا تعريفا بجميع المشاركين فى هذه الندوة ، كما نشرنا « الوثيقة التحضيرية » وهى ورقة العمل التى على أساسها قدم الباحثون أوراقهم ، المنشور هنا الجزء الثانى منها .

يلاحظ القارىء أيضا أننا اقتصرنا على نشر أوراق بعينها واستبعدنا أوراق كل من « ماكس جالو » و« جورج لابيكا » و« آلان لا بيبتز » و« إيثون كينيو » و« ماريو تيلو » ، على أساس أن مداخلاتهم إما أنها لا تهم القارىء العربى (مثلا جالو يتكلم عن طبيعة الماركسية من جهة وعلاقتها بالعقيدة السياسية للحزب الاشتراكى الفرنسى) أو أن بعض المداخلات المنشورة هنا تنطلق من نفس زاوية النظر للمداخلات المستبعدة .



المشكلة ليست الوقوف مع ماركس او ضده وإنما صياغة المسافة الواقعة بين القمع وبين التعليل التاريخى على خريطة فكره من جهة ، وفعل التاريخ من جهة اخرى



جاك جوليار

فأيها الأصدقاء الأعزاء ، إنى فى حيرة مزدوجة من إلقاء كلمتى امامكم . والسبب الأول هو انى وصلت لتوى ، ودائما ما أمقت الصعود إلى القطار وهو يسير فأشعر إننى اكرر ما اقول . فأرجوكم ان تعذرونى . وربما كان من الحكمة أن اعتذر عن عدم الدعوة التى قدمت لى لأن طبيعة المرحلة الراهنة ليست فى صالحى لكن فى نهاية الأمر أجد نفسى هنا . وبالتالى سأتحدث .

والسبب الثانى اننى اطلعت على برنامج العمل ووجدت ليس فقط إننى اقل المعقبين ماركسية ، وإنما كذلك لست ماركسياً على الإطلاق ، بما أن التقليد هذه الأيام هو الكلام بوضوح . إذن إنها لربما ميزة بالنسبة للغالبية العظمى من الحاضرين وافترض مقدماً انه لهذا السبب قد تمت دعوتى وكأنها شهادة أو نموذج من « اللاهوت السلبى » على نحو من الأنحاء . فإذن لن اتهرب من هذا النداء الضمنى .

وسأقول اولًا لماذا لست ماركسيا وثانيا لماذا اعتقد دراسة ماركس امراً مهماً وكيف أن ماركس سيظل فى افقنا الثقافى .

وسأقول فورا إننى احاول ان اتكلم بلغة المؤرخين وأن ما يعنينى ليس ماركس وإنما الماركسية ، وبالتالى ذلك الجزء القابل للنقد اكثر من غيره والجزء الأكثر فساداً والأكثر سواداً على مدى نصف قرن بل اكثر من تلك المدة بقليل ، فالآن سبعون عاماً من التاريخ جسدت هذا الفكر .

وبالطبع أعرف جيداً ما هو المنزلق فى هذه الحال . أن نقول انه إذا كانت الماركسية قد انتجت ظواهر سلبية واحياناً البربرية بل اغلب الوقت البربرية ، فهذا يرجع إلى ان الماركسية تشويه لا يمت بصلة إلى أعمال ماركس ، وأن أولئك الذين وظّفوا ماركس لصالح سياسة كانت ومازالت احياناً اليوم نوعا من عودة التاريخ الإنسانى إلى الخلف ، فببساطة شديدة فى تاريخ الحضارة جميع هؤلاء خانوا فكر ماركس ، وبالتالى فإن المشكلة تتعلق بالجرد الإصطلاحى .

وقد صارت مشكلة الانتماءات المعلنة شديدة الأهمية .

وبالطبع أيضا اعرف كل ذلك وسأقول لكم إنه وإن كنت لست ماركسياً ، فإنى منذ زمن طويل قارىء لماركس .

وبالتالى فإننى منجذب جداً إلى القول بوجهة النظر تلك ، والتى تؤدى إلى ان ماركس منقطع الصلة تماما عن

الاشتراكية أحلام الماضى ومشاريع المستقبل

الفكرة التى كوناها عنه ، وخصوصاً عن المظاهر التى تجعله مسئولاً عنها ، وأن ماركس غير مسئول عما حدث فى مجموع العالم الشيوعى أكثر من مسئولية « الدوق » (رئيس القضاة) إزاء الأحداث الدائرة أمامه فى فينيسيا كما كان يقول « لاروش فوكو » .

وإذا كنا نريد ان نحكم بعدل على اعماله ، فلنفعل . فلنتحدث عنها وإن كان هناك أمور كثيرة قابلة للنقد .

فقط ليس هذا ما يعنى المؤرخ .

وشخصياً اعتقد أن يسوع المسيح برىء تماماً من محاكم التفتيش لكن المسيحية ارتبطت تاريخياً بمحاكم التفتيش . على انه أمر محزن بالنسبة للمؤرخ : عظمته وضعفه أن يهتم بالمسيحية أكثر من يسوع المسيح . إنها خسارة لكن هكذا تجرى الأمور .

قبل عامين أو ثلاثة نشرت محاولة صغيرة حول روسو أو على وجه أدق حول النتائج التاريخية لفكر روسو فى القرن التاسع عشر . ولم أجد سوى هذا : عالم لذاته ووحده قابل للقياس بفكر ماركس . بل فكر ماركس نفسه يضاهى فكر روسو على نحو من الأنحاء بالإضافة إلى قليل من السبق .

وحقا كنت من أول من لاحظوا أن أنصار روسو فى القرن التاسع عشر بعيدون عن القراءة الموضوعية التى قدمتها قدر ما استطعت لروسو ، وعن القراءة التى يستطيع أن يقدمها المتخصصون الرئيسيون فى فكر روسو .

على انه المهم بالنسبة للمؤرخ ليس جان جاك روسو ، ولا حقيقة العقد الاجتماعى ، وإنما ما صنعه التاريخ بجان جاك روسو وبعقده الاجتماعى .

ونفس الملاحظة بالنسبة للماركسية ، فهى ستجر معها عاراً هو قيادة أحد اشكال البربرية فى القرن العشرين ، حتى إن لم تكن واعية بذلك !

ولا أناقش الصلة بين الفكر والتاريخ . فهذا لا يعنينى فقط الاحظ أن المسئولية التاريخية التى تتحملها الماركسية طرف فى القضية وأكرر مرة أخرى أنها قضية جميع أوليك الذين سيهتمون بماركس من الآن فصاعداً .

وسأضيف ضمن نقطتى الثانية أنه من حيث الجوهر اعتبر ماركس بريئا من الجرائم باسمه ، فهو من جانب آخر ، ليس غير مسئول تماما عن بعض أشكال تدهور فكره الخاص .

إنَّ فضل ماركس الأكبر حسب عبارة « لسوريل » أنه لم يكن قط تلميذاً لنفسه . على أن تلاميذه لم يخطئوا دائما فى الاستناد إلى احد اشكال السلطوية فى الماركسية .

وحينما نقرأ أعمال ماركس وعندما نقرأ حياته يبدو حقيقياً أن عنده أشكال اللاتسامح ، وكمناور سياسى ، يضاهى بعض اولئك الذين سيستندون إليه فيما بعد .

لكننى لا أعتقد أن هذا الأمر هو الجوهر ، حتى إذا كان فى الشكل السجالى ، الذى شكَّل به فكره ، فضلاً عن البعد الظالم الكبير المفترض فى السجال انه قد اثمر نوعاً أدبيا مارسه لينين وستالين وكثيرون غيرهما من بعده . النوع الأدبى هو نوع أدبى لكن النوع الأدبى حينما يمارسه قادة الدول يؤدى إلى نتائج . وحينما يصير فكر الدولة فكراً سجالياً فهذا أمر قد يؤدى إلى نتائج رهيبة .

لكن مسئولية ماركس مختلفة . وإذا قلت إنه على أساس من البراءة يتحمل مسئولية خاصة به ، فهذا يرجع إلى أن البعض اراد أن يصنع منه « مفكراً كلياً » . وباختصار ، فانطلاقاً من ماركس ، أراد البعض أن ينظر إلى الماركسية باعتبارها منظومة « كلية » .

حقا نجد عند ماركس ، ورغما عنه ، مشروعاً لفكر كلى ، لفكر يعيد بناء ليس فقط المجتمع ، وإنما كذلك رؤية العالم . لكن هذه الرؤية التى تبغى أن تكون كلية تحتوى على ثغرات . ومن وجهة النظر هذه يبدو أكيداً أن ماركس كان مفكراً نظر إلى الاستغلال الاقتصادى والاغتراب الثقافى . وأساساً هو ليس مفكراً صاحب رؤية فى الاستبداد السياسى إذ كان العجز الأكبر فى القرن العشرين غياب النظرية السياسية .

وإذا كان حقيقياً ، واليوم من السهل بالقدر الكافى ان نوضحه ، أن الاستبداد السياسى اكتسب استقلاله — وإذا سمحتم لى بهذه العبارة ، اكتسب الاستبداد السياسى

احتراماً ، عبر هذا القرن الحديدى ، قرن النازية والشمولية والستالينية — إنه حقا يحتوى فكر ماركس الكلى على ثغرة كبرى — وبالطبع لا اقول اننا لا نستطيع أن نجد هنا أو هناك بداية تنظير للاستبداد السياسى عند ماركس بالطبع بل بالتأكيد سنجدها . إنى متيقن من أن بعضكم يستطيع أن يجدها .

لكن هل وجدها القرن العشرون ؟ بل بالعكس ، ليس فقط لم يتم التنديد بالقهر السياسى باسم ماركس ، وإنما كذلك تم أغلب الوقت ممارسته باسم ماركس . مما يمنعه من القيام بدور الرسول الذى طالبناه به زمناً طويلاً .

وبعبارة أخرى واقع الأمر ان فكر ماركس السياسى غير الكامل لنفس سبب شمولية الشخصية قد أدى إلى نتائج كبيرة . وهنا لا نستطيع الاّ نفكر فى مسئوليته ، واعرف انى سأثير البعض ، **ليس هناك تفسير ماركسى لا لصعود الماركسية القمعية ولا لسقوط الماركسية نفسها** . ليس هناك تفسير ماركسى لمعسكرات ستالين أو هى ليست إلا جزئية . وبالتالى لا تستطيع ان تشبعنا . بل لم تشبع اولئك الذين عاشوا تلك الفترة فى تلك البلاد .

وعلى هذا فليس هناك تفسير كلى ماركسى لا لستالين ولا حتى لجورباتشوف .

والأكيد اليوم أن هذا النوع من الثغرات السوداء الكائنة فى الماركسية وخصوصاً فى الفكر السياسى هو ما يجثم ليس فقط على الماركسية نفسها ، وإنما كذلك على مجموع الفكر اليسارى فى العالم .

آخر ملاحظة سلبية (وقد قلت مقدماً إنى أصوغ لا هوتاً سلبياً) . عدت لا أعتقد أو الأدق إنى لم اعتقد قط أن من الممكن أن تكون الماركسية عقيدة عمل .

هذه هى النقطة المركزية فى نظرى ، وذلك لسبب بسيط جداً اعرضه عليكم من غير تفصيل (وقد قلت سابقاً إننى سأنظر هنا من وجهة نظر خارجية) .

لا اعتقد ان الماركسية حتى وإن الهمت افعالاً ، انها فى مقدورها أن تقدم نفسها وتقدم من الآن فصاعداً على انها فى مجملها عقيدة عمل ، لأن اليوم عدنا لا نعتقد ، فى غالبيتنا العظمى ، أن الشيوعية نمط إنتاج .

وما اكتشفناه وأوحى به التاريخ تدريجياً هو الفشل فى تصوير الماركسية على أنها نمط إنتاج جديد .

والغالبية العظمى من أبناء ذاك الزمن اكتشفت عبر الشيوعية إحدى الخلفات التقليدية جداً من اسلوب تدخل الدول فى المسار الاقتصادى ولم تجد نمطاً جديداً فى الإنتاج .

وعلى هذا ففى الوعى العام اليوم بالمجتمع تبدو الشيوعية على الصعيد الاقتصادى لا كمرحلة لاحقة على الفترة الرأسمالية ، وإنما أغلب الوقت كمرحلة قبل — رأسمالية .

واعتقد أن هذه هى القضية .

لم يعد هناك عالم ثالث لأنه لم يعد هناك عالم ثان أو أن العالم الثانى ، اقصد عالم الشرق أو العالم الشيوعى إذا شئتم ، هو من الآن فصاعداً نمط خاص من أنماط العالم الثالث .

ومن هنا فالمشاكل شديدة الصعوبة الخاصة « بتطور » نمط الإنتاج حيث كانت تمثل الشيوعيّة ، والماركسية بالتالى ، الحل النهائى فى آخر المطاف — كنا نستطيع اخيراً ان نتخلص من كل شىء فى نفس الوقت — لم يعد من الممكن التنبوء به .

ومع ذلك فقد وجدنا انفسنا من جديد أمام نفس المشاكل التى اعترضت طريق ماركس ، بمعنى مشاكل نقد نمط الإنتاج الرأسمالى وليس على نحو من الأنحاء التهرب من نمط الإنتاج الرأسمالى إلى نمط إنتاج ، ربما قد اسمى نفسه شيوعياً أو اشتراكيا أوماركسياً بصرف النظر عن الاختلاف الإصطلاحى .

هكذا تبدو الأمور فى مجملها وإن ظهرت على نحو سريع جداً .

بالطبع لا اقوم هنا سوى بتذكير ما يفكر فيه عفوياً الوعى المشترك بين الكثير من معاصرينا . واقصد من المعاصرين المؤرخين منهم فقط .

على أن الأمر الدال حقاً أنه فور زلزلة القهر السياسى فى كل بلد من بلدان الشرق على حدة ، كانت المرحلة التالية على الفور والتى تبعتها مباشرة

الاشـتـراكـيـة ـ أحـلام الماضـى ومشاريع المستقبل

تقريباً إعادة النظر فيما اصطلحنا على تسميته بنمط الإنتاج الجديد ، والمقصود الاقتصاد الاشتراكى .

إذن لماذا ماركس ؟ لماذا ماركس الآن وسط أنقاض لا نظير لها ؟

وقد لمحت إلى مصير المسيحية عبر التاريخ ونستطيع أن نضرب أمثلة أخرى . لكن القليل منها كما يبدو لى زال على ذاك النحو الكلى .

وأغادر غداً باريس إلى مدينة كان اسمها « لينينجراد » . لماذا أمست بتروجراد ؟

لماذا ماركس رغم ذلك؟

أسبابى بعضها تاريخى والبعض الآخر آنى .

السبب الأول أنه بصفتى مؤرخاً للأفكار لا أود أن يحدث لنا مع النصف الثانى من القرن التاسع عشر ما عشناه خلال ثلاثين عاما أو أربعين عاماً برفقة النصف الأول من ذاك القرن التاسع عشر .

كنا نعيش فى ظل رؤية لتطور الأفكار منفصمة العرى تماما وطرحنا عرض الحائط الفكر الليبرالى وخصوصا الفرنسى كما تطرح مدرسة علمانية بعينها مجمل الفلسفة المسيحية . وكلنا يعرف أن الفلسفة فى السابق انتهت مع أفلاطون وبدأت من جديد مع ديكارت . وعلى هذا فلا يجب أن يكون التاريخ من الآن فصاعداً قد انتهى مع « توكفيل » ليستأنف مساره مع « كينز » . إنه لتقليد فرنسى حقاً العجز عن الفحص فى التعقيد وعن التردد على فكر بغير اغتيال جيرانه .

واعتقد أن كتابة تاريخ فلسفة الأفكار والسياسة تنأى عن الماركسية وتمسى هذه الأخيرة نوعا من أنواع النقطة السوداء ، مما قد يجعل التاريخ المعاصر غير مفهوم . وهو ما لا ابتغيه .

وسبق وأن كتبت أنه مع تصفية « الماركسية — اللينينية » ، سندرس ماركس أخيراً على نحو لا يخضع إلى ضغط الحدث أو لإذلال المتطرفين أو لدفعة دائمة منقطعة الصلة تماما عن التفكير الحر . كان لويس ألتوسير يقول : « الماركسية أخيراً فى أزمة ! » وسنستطيع بفضل هذه الأزمة أن نكتشف ماركس من جديد لا باعتباره أفقاً غير قابل للاجتناب فى هذا العصر وإنما باعتباره مرحلة جوهرية . هذا وإن بدا ذاك مواساة ضعيفة لأولئك الذين صاغوا فى فكر ماركس عقيدة عمل ، فهى ملاحظة على الرغم من ذلك بعيدة عن أن تكون بغير أهمية .

لكن السبب الثانى ، وهنا الانتقال من التاريخ للحاضر ، أنه حينما يغيب ماركس ترقص الفئران . أقصد أن نمطاً من التفكير يصير مجنوناً . وحينها يغيب النقد المادى للأفكار تعود المثالية المحض القصوى .

وأخرج من تجمع كان محوره الحديث عن « كاربونترا » المدينة الفرنسية الجنوبية الكثيفة السكان اليهود التى تم فيها منذ أيام قليلة انتهاك المقابر اليهودية مما أثار ضجة قومية ضخمة : عمَّ من الممكن أن نتحدث منذ أسبوع ؟ كان يقال لنا : « هذا خطر جداً ، ينبغى العمل » . فوجد البعض متهمين الصحافة والصحفيين من جهة ، والمعلمين من جهة أخرى . المعلمون الذين لم يتحدثوا بالقدر الكافى عن « أوشفيتز » .

وشعرت وكأنى أعيش من جديد فى زمن « بيتان » حيث كان الأساتذة علة الخطأ . كان المسئول هم الصحفيين . واضطررت إلى أن أذكر ، أنا الذى كما سبق وأن قلت لكم فى مستهل حديثى ، أنا غير الماركسى على الاطلاق ، أنه ينبغى أن نتساءل عما إذا كان وراء صعود العداء للسامية والعنصرية أسباب موضوعية ، كما كنا نقول فى الماضى ، وما إذا كان يتدحرج هنا نوع من انهيار البنى الاقتصادية الاجتماعية كما أوضح ذلك الحزب الشيوعى ، لكنه أفسح مجالاً عريضاً « للوبن » فى ضواحى باريس .

عمَّ برهن ذلك ؟ برهن ذلك على أن غياب جانب من جوانب ماركس يجعل التفسير التاريخى غير متماسك .

المشكلة ليست ما إذا كنا ماركسيين أو معاديين لماركس . هذا ليس مهما . فكما أن « ماركس » قد صار فى التاريخ عنوانا لنوع من أنواع الفكر القمعى ، فمن المحقق كذلك أنه على العكس ، قد صار عنوانا لشكل من أشكال التفسير التاريخى وأنه غير مسئول كلية لا فى الحالة الأولى ولا الثانية .

وينبغى أن ننظر إلى ماركس فى صورته المستقبلية ضمن فكر العصر الراسمالى حيث يجد مكانه إلى جانب آدم سميث ، لكيلا لا نذكر سوى اسم واحد .

ثالثاً : تبدو لى الماركسية اكثر من اى وقت مضى اداة ضرورية لتحليل المجتمع الذى نعيش فيه . هذا ليس جديداً . اعذرونى . هذا جديد وينبغى ان نذكره من الآن فصاعداً . ربما لا يكون جديداً بالنسبة لكم لكن خارجكم ينبغى تذكيره .

وبعبارة أخرى اعتقد أن هنا ايضا ينبغى محو الإيحاءات الإيديولوجية أمام البحث العلمى والتنقيب عن الحقيقة .

وإذا كان لم يعد هناك فكر حول المجتمعات الشرقية فنحن عدنا لا نمتلك فكراً حول المجتمع الذى نعيش فيه سواء اسميناه ليبرالياً أو رأسمالياً أو ديمقراطياً . ومعرفتنا نفسها للمجتمع الذى نعيش فيه تدهورت .

وبالتالى لست متهماً بالتقليل من اهمية العوامل الفكرية واستقلال المثقفين عن آليات المجتمع . لكننى دهشت من أن هذا المجتمع ، المحب من الآن فصاعداً لنحبها عبر ليس فقط صحفها ومجلاتها وإنما كذلك عبر البحث العلمى نفسه — انظروا إلى عدد الرسائل الجامعية عن المثقفين والكوادر وغيرهم ، يصير رويدا رويدا معزولاً عن « جموع الناس والفلاحين والعمال ومجموع الطبقات الشعبية .

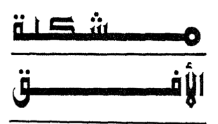
هناك شيء من الانفصام التام فى التفسير التاريخى فى زماننا هذا ، لذلك لدينا ما نصنعه بعدُ مع الماركسية لأن بعثها كأداة تحليل تاريخى سيصير ببساطة رمزاً لبعث الإرادة فى معرفة مجتمعنا .

وسأشير فى نهاية حديثى إلى نقطة ليس المقصود منها محاولة منى لجذب القاعة إلى جانبى بعد ان هززتها بعض الشيء ، لكننى اعتقد أن هناك شيئاً عميق الصلة فى الوعى المشترك بينى وبين الماركسية ، مما يجعل نفى الماركسية اليوم منشأ أخطر الالتباسات الفكرية والسياسية على السواء : ببساطة شديدة هى قضية الصراع الطبقى .

فكما أن الصراع الطبقى لم ينتظر ماركس ليخرج إلى الوجود فهو اليوم فى صحة جيدة ، إن جاز التعبير ، وإن لم يكن ماركس هنا لوصفه أو إن عدنا لا نلجأ إلى الماركسية لشرحه .

ويظهر الصراع الطبقى اليوم من جديد فى قمة حدته واعتقد أن المهمة العاجلة جداً هى تحليل ما يجرى الآن فى العالم الرأسمالى ومن الآن فصاعداً فى « العالم » بغير إضافة . وليس هناك اعجل من القيام بذلك بواسطة أدوات تحليل تلاحظ واقع أن المجتمع مستمر فى انقسامه إلى مجموعات وأن هناك تناحرات بين هذه المجموعات بين بعضها البعض وأن هذه التناحرات هى أحد العوامل الجوهرية فى التفسير أولاً بلغة العلم ، ثانيا بلغة الفعل .■

الإشتراكية ـ أحلام الماضي ومشاريع المستقبل



مشكلة الأفق

واحد من اكبر ابناء الجيل اللاحق على مثلث جارودى ولوفيفر والتوسير الفلسفى ، يقدم طرحاً جديداً لفشل « الاشتراكية » فى الشرق وازمة النظام الراسمالى العالمى على حد سواء .

يرى انه لا يمكن الفصل الكامل بين ما كانت عليه الاشتراكية من قبل وما كانت عليه أيضا الراسمالية .

لوسيان سيف

فاسمحوا لى أولاً ان اشكر منظمىّ هذه الندوة ، « جاك بيديه » و « جاك تيكسييه » ، لدعوتهما الرقيقة لى لإلقاء كلمة . وهما حينما يدعوان شيوعياً فرنسيا مثلى — فى هذا الزمن الذى فيه الباحثون الماركسيون الشيوعيون ، فى مجموعهم أكثر من غيرهم واعتقد إننى اهل لقوله ، مقاطعون من قبل غالبية اماكن الحوار فى ديمقراطيتنا الفرنسية الممتازة — يبدوان إذن على اعتقاد بأخلاقيات الحوار الذى لن ينمو عندنا الا إذا تم الوقوف إلى جانبه .

وستدور مداخلتى حول محور « الشيوعية : أى دفعة ثانية ! » الذى خصصت له تحت نفس العنوان كتاباً صدر مؤخراً عن دار المطبوعات الاجتماعية والذى نستطيع أن نلخص منهجه على النحو التالى :

إذا فكرنا فى المصير الراهن والمستقبلى للمشروع التاريخى الذى صاغه ماركس فإننا سنجابه ، ليس مشكلة واحدة ، وإنما مشكلتين فى غاية الأهمية مرتبطين وإن كانتا مختلفتين على نحو نوعى .

أما الأولى فمُحطمة وتخص ما قذفه فى وجهنا الفصل الأخير السريع من عقد الثمانينات لما احتوى عليه من انهيار مذهل لأنظمة أوروبا الشرقية .

اما الثانية فهى ابطأ وتنتج عن انه لم يعد من الآن فصاعداً بلد راسمالى واحد متطور جداً لا تعترض فيه الصعوبات الحركة الشيوعية صعوبات الإقلاع فى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وبريطانيا العظمى والمانيا الغربية (سابقا) أو صعوبات البقاء فى اليابان وإيطاليا وفرنسا .

وفى نظرى إنه ليس فقط فى أولى هذه الوقائع وإنما فى « رابطة » الاثنتين تكمن مشكلة مركزية الظاهر انها عادت لا تكتفى بأجوبة الأمس .

وغرضى الاقتراب بإيجاز بالطبع من بعض مظاهر هذه المشكلة التى هى فى تجديد مستمر وتتمثل فى الأفق التاريخى المتغير للكفاح من أجل تجاوز الرأسمالية وفى استراتيجية الجيل الجديد الذى نتشوف تثويره وفى المجالات السياسية التى ينبغى ان تمتد إليها من الآن فصاعداً وفى نمط التنظيم القابل لإعادة النظر الذى تتشوفه الممارسة المطابقة .

وبالطبع لا ادعى اننى امتلك الجواب على مجمل هذه الأسئلة وإنما أدعى على أقل تقدير تقديم بعض الأفكار حول منهج مقاربتها .

لكننى قبل ذلك أريد الوقوف على طريقة اللغة الإعلامية فى تقديم الأشياء — إن احداً هنا لا يستطيع ان يجهل فى اى سياق سياسى

وأيديولوجى قومى جاثم تنعقد ندوتنا هذه .

إن ما شهدناه فى أوروبا الشرقية حسب تلك اللغة هو « نهاية الشيوعية المطبقة فى التاريخ » ، و « موت الشيوعية » ، هذه حاضرة يومياً فى وجبتنا الصحفية والتليفزيونية .

هل من الضرورى أن نتساءل طويلاً حول أسباب هذه الحملة ؟

فحينما تقوّد حكومة يسارية سياسة يمينية ويصعد الغضب الاجتماعى ، حتى الساذج ، يفهم دون عناء أنه ما من الممكن أن يخدمه الاستغلال الكامل لمحور كمحور « السقوط التاريخى للشيوعية » .

ويبدو لى أن الأهم هو سؤال « كيف ؟ » .

والجواب فى نظرى هو التالى : الخطاب الإعلامى السائد اعتاد منذ زمن بعيد إطلاق « شيوعى » على أى بلد يحكمه حزب يحمل نفس الاسم أو اسم مماثل وإن كان ذاك البلد ما نجوليا أو اليمن ، بل ابسط من ذلك ايضا أى بلد يدور أو يعتبر انه يدور فى نفس المعسكر الدولى ، من افغانستان (سابقا) إلى نيكاراجوا .

ومن هنا ذهب الإعلام إلى حد نشر الفكرة التافهة بالطبع أن النظم القائمة فى تلك البلاد وإن اختلفت فيما بينها فى



الدرجة تمثل فى مجملها « الشيوعية » .

وبالمزج بين انفجار أوروبا الشرقية من الداخل ، وبين الصعوبات الملحمية لبيروسترويكا جورباتشوف ، وبين فشل « الساندينيستا » فى الانتخابات تم بديهياً الانهيار التاريخى « للشيوعية » .

وهكذا فتعقيد وتنوع أزمة تاريخية بلا أدنى شك كبرى ولكن تحليلها يتطلب فى نفس الوقت كثيرا من العمق من جهة ، وكثيرا من التدقيق من جهة أخرى ، قد ربطها الإعلام مقدماً ووضعها فى « حلة ضغط » « موت الشيوعية » .

وإذا كان شئ مؤكد فى هذه القضية المعقدة جداً فهو فى نظرى غباء خطاب مقدم إلينا فى هذا الصدد من قبل ايديولوجية الأخبار المتلفزة .

كما يبدو لى أنه فى هذه الندوة نستطيع أن نخصص دون أن نخرج عن موضوعنا ، بعض اللحظات لضبط اعتباراتنا المختلفة إزاء هذا الغباء المعيق .

ولكن إذا كنّا نريد أن نفكر بجدية فى مشكلة المصير الراهن والمستقبلى للشيوعية ، فيتوجب علينا أولاً أن نلتقط من جديد وببعض الدقة ما المقصود هنا منذ ماركس .

إن منهج ماركس ، لكى نقولها فى قليل من الكلمات ، يكمن فى التحليل

الأولى والعميق للتناحرات الجوهرية الكائنة داخل نمط الإنتاج الرأسمالى ، بمعنى تلك التناحرات الجارية فى نمط من أنماط تطور الإنتاجية المادية الضاغطة للعمل الحىّ فى ظل تراكم العمل الميت ، فى نمط من أنماط انتظام الممارسات الاجتماعية بواسطة معدل الربح الذى يخنق نفسه تحت الضغط المتصاعد لتكدس المال ، فى انتشار نظام على مستوى الكوكب يحمل فى جوفه نقيضه بفضل اللا تكافوء المتدهور فى التطور وحيث تتدرج ضمنه الآن قارات بأكملها وابتداء بأفريقيا .

الرأسمالية هى القوة الدافعة بحدّة لتطور القوى البشرية فى اغتراب بلا ضفاف للأفراد والشعوب قياساً بالقوى الاجتماعية سواء أكانت أدوات أو مالا أو سلطات أو معارف .

وبزيادة حدتها ، تثمر هذه التناحرات إذن ، الفروض الموضوعية لتجاوزها إلى النهاية لكن « الرأس محنى » ، كما يحب أن يقول ماركس ، **وهو التجاوز حتى النهاية** — الذى هو مشروع بسيط ، لأنه لن يخرج إلى الوجود بدوننا ، لكنه ضرورى إذ يشرط أى تطور لاحق للبشرية — الذى أسماه ماركس **الشيوعية** ، ولا شىء فى نظرى بد لى حتى الآن أنه تجريد « للشيوعية » من أنها هل لأن تكون « أفق تاريخى » لعصرنا .

وعلى هذا المفهوم أى التحقيق الشامل للقوى الإنتاجية وتجاوز ضوابط المال ورأس المال والامتلاك الفعلى لقواها الاجتماعية للمنتجين المشتركين ونهاية استغلال الإنسان للإنسان وإلغاء العمل والتطور الشامل لجميع الأفراد وإعادة ترتيب جدول الزمن وذبول الدولة وتجاوز العداء بين الأمم وإزالة اغتراب الوعى الاجتماعى والانتقال من العرض إلى الحرية الفعلية ، ذلك كلـه ، لا يعنى أن الشيوعية هى نهاية عبثية للتاريخ وإنما الخروج من مرحلة ما قبل التاريخ ، مرحلة الصراع الطبقى المتحولة إلى تحقق حر لمجمل القوى الإنسانية باعتباره غاية فى ذاته .

فلنطـرح إذن السؤال : هـل الشيوعية بهذا المعنى — وماركس لا يقصد أى شىء آخر — هى التى «تحققت تاريخياً » فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية تحت قيادة هونيكر أو فى رومانيا تشاوتشيسكو ؟ وإذا أجبنا بالنفى ، فكيف كان من الممكن أن تنهار هناك الشيوعية ؟ وعلى نحو أشمل باعتبار أن الشيوعية ليست سوى الأفق التاريخى والتجاوز حتى النهاية لتناقضات رأس المال ، كيف من الممكن أن تزول والرأسمالية تزدهر هى ونقائضها ؟

أليس هذا هو بالضبط ما كان يقصده ماركس حينما كان يتحدث فى الماضى عن أن الماركسية « غير قابلة للتجاوز » فى عهد المجتمعات الطبقية ؟ وبهذا المعنى هى كذلك حتى اليوم .

لكن ماركس كان ماديا ، بحيث أنه لم يقف عند حدود الرؤية المبدئية المحض للشيوعية . وكما يكتب فى « الأيديولوجية الألمانية » .

« الشيوعية ليست فى نظرنا **حالة أشياء** ينبغى أن **تُخلق أو مثالاً** نبغى أن يخضع إليه الواقع وإنما تعتبر الشيوعية الحركة **الفعلية** اللاغية لحالة الأشياء الراهنة . شروط هذه الحـركة تنتج عن الأمر القـائم الآن »[1] .

هل المقصود هنا تعريف مغاير للشيوعية ؟ الأحرى أنه المعنى الجدلى للتعريف السابق : الغاية الفكرية لا تفعل سوى تعميم توجه الحركة الفعلية بالمعنى الأول والثانى لكلمة حـركة ، أى المعنى الموضوعى ، والاجتمـاعـى ، والمعنـى الـذاتى التنظيمى ، نجو الشيوعية . لذلك فمن جانب آخر وبعيداً عن أى تقييم لعبارة « نهاية الشيوعية المطبقة فى التاريخ » التى سبق وأن قلت مـا اعتقده بخصوصها فإن الإشكالية نفسها التى تحتوى عليها تبدو لى على نحو واضح قليلة الانتماء إلى فكر ماركس .

ليس بهذا المعنى نجد أنفسنا فى مواجهة صعبة أمام إعادة النظر فى الشيوعية .

إنَّ الإعصار الذى أزال أوروبا الشرقية لم يقض على شيوعية قد « طبقت » بالفعل . والأكثر من ذلك انها لم تمحُ قط تناقضات رأس المال وبالأحرى أضافت تناقضات جديدة . كما إنه لم يحطم **الأفق التاريخى** للشيوعية وإنما برهن **على أزمة كبرى فى حركته الفعلية واتجاهه** .

كذلك فإن النظم المقصودة ، كما تذكرنا روسانا روساندا ، لم تقدم نفسها قط باعتبارها **شيوعية** وإنما باعتبارها **اشتراكية** .

لكن ما « الاشتراكية » ؟

وبما أن الغالبية العظمى لا تشدد على الأمر ، فإن ماركس لم يستخدم قط ، من ناحيته ، كلمة « إشتراكية » وآثر لأسباب أساسية كلمة « شيوعية » قبل أن يكتب « البيان » . وحينما كان يتحـدث عـام ١٨٧٥ ، (ضمـن الملاحظات النقدية المهمة جداً حول بـرنـامـج جـوتـا) ، عن حتمية « الانتقـال » من الرأسمـالية إلى

الشيوعية ، لم يطلق عليه إسم « الاشتراكية » ، وإنما « المرحلة الأولى » السفلية من الشيوعية ، مما يعنى رفضه الفصل بين مرحلة متأخرة وأخرى متقدمة ، لنمط الإنتاج الجديد .

إنها لقضية معقدة حقاً لكنها مثيرة فى نظرى ، وغير مدروسة بالقدر الكاف بعدُ ، أن ندرك بالضبط لماذا وكيف فى الحركة العمالية الثورية فى نهاية القرن التاسع عشر ، سيطرت كلمة « إشتراكية » رغما عن ذلك ، درجة درجة ، للإشارة إلى هذه المرحلة « المتأخرة » . وهو تطور أشمل من أن يكون اصطلاحياً محضا . لأن العادة قد جرت أن نعتبر أن الشيوعية المكتملة غاية بعيدة المنال وبالتالى أن من الواقعى أن ننظر إلى « الإشتراكية » فقط فإن جوهر الإشتراكية تأمين الانتقال إلى الشيوعية .

وسار الاعتقاد فى أنها قابلة للتعريف فى حد ذاتها وبواسطة معايير ليس فقط اقل طموحاً من معايير الشيوعية وإنما فى جزء منها « النقيض المستقيم » لغايتها الجوهرية المحكوم عليها بإنها خيالية .

بالطبع أن لينين المنتبه دائما إلى درس ماركس المضبوط ، قد نجح عام ١٩١٨ فى إقناع حزبه ، « حزب روسيا العمالى الإشتراكى الديمقراطى » ، أنه يجب أن يغير اسمه إلى « الحزب الشيوعى الروسى » بالضبط لصالح رؤية نظرية أساسية ، أن الغاية الفعلية لحركة **ثورية حتى النهاية** لا يمكن أن تكون سوى **الشيوعية** لا إشتراكية إنتقالية .

ومن هنا نتج الاختلاف حول التسمية السارية المفعول حتى اليوم بين الأحزاب الاشتراكية والشيوعية .

لكن القضية العميقة جداً والموضوعة للجدل وراء هذه المشكلات المتعلقة بالتسميات والتى ادركها لينين جيداً قد كفت فى ظل ستالين ولم تأخذها الحركة الشيوعية نفسها بعين الاعتبار إلى درجة أن أحزاباً ذات تاريخ معقد والكثير منها أمثال « الحزب العمالى الموحد البولندى » و « الحزب الاشتراكى الالمانى » و « الحزب الإشتراكى العمالى المجرى » لم تطلق على نفسها اسم « الشيوعى » .

وهكذا فقد تصور قادة « الاشتراكية المطبقة » سابقاً ، أو انهم احبوا أن يتصوروا ، انهم قد وصلوا إلى غايتهم القصوى فى جانبها الثورى بالمعنى الدقيق حينما تم خلق « سلطة الطبقة العاملة » المعروفة و « الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج والتبادل » المعروفة كذلك بغير الأخذ بعين الاعتبار انه مع « سلطة الطبقة العاملة » المتحولة إلى سلطة الحزب المطلقة قد ادرنا ظهرنا إلى ذبول الدولة ، وأنه مع « الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج والتبادل » المتغيرة إلى إدارة بيروقراطية إلى « لا ملكية أحد » حسب عبارة جورباتشوف ، وقد وقفنا فى الاتجاه المضاد لامتلاكها للمنتجين المباشرين ، مما يعنى أن تلك الاشتراكية الغربية كانت قائمة من حيث الجوهر على **نحو نقيض لأفق الشيوعية نفسه** .

ولقد تم استبدال غاية التقدم الفعلى إلى الشيوعية بطريقة فجة « بملاحقة الراسمالية » ، بمعنى انه بعد ما ان تمت اختيارات متضاربة — ملكية الدولة ضد الملكية الخاصة ، وبيروقراطية التخطيط ضد ليبرالية السوق ، وغيرها من المتعارضات الثنائية — طبقت تلك الاشتراكية اساساً نفس نمط تطور الإنتاجية ، بغير القدرة على جعله فعالاً وفى سباق نحو الضخامة الصناعية التى كانت مقدماً فى طريقها إلى الفشل ، وبرفقة نفس نمط الإنتاج — من تنظيم العمل على نهج « تيلور » إلى انفجار المدن ومن الخسارة البيئية إلى ازمة القيم .

إنَّ مأساة تلك الاشتراكية هى انها **صرفت النظر** فى طريقها **عن معناها** . مما كان يعنى الحكم على نفسها بالفشل بلا هوادة . لذلك ، وإلاَّ إذا انزلقنا لوهلة إلى « الحلقات الضعيفة » فى الراسمالية ، فليس لديها مخرج آخر من الآن فصاعداً سوى استعادة الغاية الثورية انطلاقاً من الوضع الفعلى حيث كانت تقف — ثورة ضمن الثورة تعطى لبيروسترويكا جوربا تشوف — بصرف النظر عما آلت إليه من كوارث ، أهمية تاريخية فعلاً .

والنتيجة التى يصل إليها هذا التحليل المعروض هنا بشكل سريع هى إذن **بالضبط نقيض** تلك التى تبحث عن الايحاء بها العبارة الإعلامية المتكررة دون توقف والتى تؤدى إلى أننا نعيش « نهاية الشيوعية المطبقة تاريخياً » .

ليس هذا فقط لأنى أرى أنه من المحال الإدعاء ان « الشيوعية المطبقة تاريخياً » هى التى زالت فى بولنده والمجر وجمهورية المانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفكيا ورومانيا ، وإنما لسبب اعمق وهو أن العامل الذى ختم مسيرة تلك البلاد **هو بالضبط** التخلى عن قصد ، **إنطلاقاً من اوضاعها الفعلية ، الأهداف الأساسية**

القصوى للشيوعية ، وعن الانخراط بغير طوباوية ، لكن بغير ضعف ، فى الحركة الفعلية نحو امتلاك المنتجين المباشرين لوسائل الإنتاج والتبادل أو نحو ذبول الدولة مثلاً — أنه بالضبط نتيجة قصد « اشتراكية نصف الطريق » يسودها على نحو حميمى بعد كثير من المبادىء الراسمالية والمتناقضة تماماً من جانب آخر بغياب سوق حقيقية أو ديمقراطية حقيقية .

وإذا كان هناك شىء قد حطمه التاريخ الآن بشكل مطلق فهو التوفيق اللقيط بين **اشتراكية الدولة وبين ملاحقة الراسمالية** .

ومن هنا تظهر على نحو أقوى حيرتنا الكبرى الآن وغداً : الراسمالية أم الشيوعية ؟ .

درس حاسم لنا ونحن نجابه مشكلات الراسمالية الأكثر تطوراً .

فلنقلها بغير تجميل فى الكلام . إن التخلى عن المشروع الشيوعى لم يمنع أبداً التناقضات الراسمالية من تعميق وجودها ، وإنما ببساطة سيتركها ومنطقها التفجيرى ، وإن بدت وقتية فى ظل « التليين » الاشتراكى الديمقراطى .

إذ إنه فى ظل الراسمالية الأكثر تطوراً ، أى فى أفضل من أى سياق آخر ، يظهر فى جدول الأعمال ، التجاوز حتى النهاية لتناحراتها ، وخصوصاً تلك التى تتعمق فى شكل الدالة الأسّية إنطلاقاً من التغيرات الكبرى الجارية .

لأنه فى نهاية الأمر هل من الممكن ان يحجب الغبار الناهض إثر سقوط اشتراكية أوروبا الشرقية — وفى نظر الماركسيين لأسباب اقوى — التناقضات الضخمة والمحطمة والجارية فى إمبراطورية راس المال الحديث ؟

إن التعاظم الحتمى للنشاطات غير المنتجة ، والتى لا تتجسد فى منتوجات او على أقل تقدير لا يمكن أن تختزل إليها دون كارثة ، يميل إلى تفجير شكل السلعة التى تقوم عليها عملية رفع قيمة رأس المال .

ويهمل تطور التكنولوجيات المتقدمة جداً أكثر من غيره التراكم غير المحدود للعمل الميت ضد العمل الحىّ حينما يصير تطور البشر من شتى الجوانب امراً كبيراً .

وتموضع عمليات المخ البشرى المرتبط باحتكار المعرفة والإدارة المستمر يمهد لحضارة العطل والخطأ المعمم وحيث يصير الحد الإقصى غير محتمل والخسارة ممنوعة .

ويدخل « تشوف البشر إلى المعنى » فى صراع عام مع إخضاع الشخص إلى الشىء والحل العاجل للمشكلات الكبرى الشاملة للإنسانية مع صراع الغاية والوسيلة .

والسيطرة العبثية الشاملة للمردودية المالية تنذر بكوارث انثروبولوجية .

والنوع البشرى عاد لا يستطيع العيش ضمن تلك الاغترابات .

وإذا وقفنا فعلاً فى امتداد ماركس فلابد أن نكافح ذاك النظام لا أن نتحالف معه .

لكن من هذا المنطلق ، كيف نعيد المصداقية إلى هذا الكفاح بحصر المشروع فى حدود « اشتراكية نصف الطريق » حينما تكون قد اينعت مجمل مشكلات الشيوعية .

وينبغى أن نمارس السياسة بهذا الأفق كله ، وبالتالى **ان نفتح من جديد ، وعلى نحو متسع ، الحركة الفعلية لتجاوز ، حتّى النهاية ، تناحرات راس المال ، وإزالة التشيؤ عن الاشتراكية ، وإرجاعها إلى جوهرها الانتقالى** .

إذ أن التجربة قد اثبتت بقوة ان الاشتراكية — إذا أردنا أن نحافظ على اللفظة — التى تؤجل باستخفاف الشيوعية إلى أجل غير مسمى ، تختلف تماما عن الاشتراكية التى تضع الشيوعية نصب عينيها .

وأرى أن الحزب الشيوعى الفرنسى قد احرز تقدماً جوهرياً حينما تخلى خلال عقد السبعينات عن **نموذج** الاشتراكية ، للتوكيد على خصوصيته الضرورية « على الطريقة الفرنسية » .

لكن هل يكتمل تقدم الحزب الشيوعى الفرنسى وهو مازال متمسكاً **بفكرة** الإشتراكية المطلقة ، نموذج النماذج ؟

وأين البرهان على انه إذا استمر فى ذاك الاعتقاد لا يخاطر بالتقليل الكبير من أن الحركة الفعلية نحو الشيوعية **إنطلاقاً من البلدان الراسمالية الاكثر تطوراً وفى التسارع الراهن للتاريخ** تنذر بأن تكون أكثر جدة من كل ما يوحى به بفكرة مثل فكرة الاشتراكية على الطريقة الفرنسية .

وانعدام الجراة فى فتح الأفق الشيوعى من جديد وبوضوح — بغير تغذية الأوهام حول تفاصيل تحقيقه ، لكن بغير ضعف إزاء ما يتعلق بالنتائج العملية التى ينبغى أن نستخلصها من اليوم — فأى جزء من الطوباوية يوشك على إرعاب الواقعية الظاهرة ؟

وفيما بعد مخلفات الاشتراكية فى هذا القرن أليس من الواجب الدفع من جديد إلى البحث الخلاق عن أشكال جديدة إجتماعية على الطرق الخالية من المخططات المسبقة فى مرحلة ما بعد الرأسمالية ؟

لكننا لا نستطيع إلاَّ تشيىء « الاشتراكية » دون ان نكف قبل ذلك عن تشيىء « الثورة » . **فالاشتراكية الانتقالية ، ثورة — عملية PRO-CES** هنا بغير أدنى شك يكمن التجديد الاستراتيجى الكبير والذى انخرط فيه الحزب الشيوعى الفرنسى حينما تخلى عام ١٩٧٦ عن ديكتاتورية البروليتارية وشق طريقه نحو التغيير السلمى والديمقراطى ، والتدريجى ، والبناء ، والقائم على التسيير الذاتى ، وحيث دلت المشكلة الأساسية الخاصة بالاغلبية ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، على الإعداد فى النضالات لبدائل قابلة لأن تصير ملكاً للأغلبية العظمى .

والمفهوم التقليدى للثورة يدخل هنا فى تحول لينتقل إلى مفهوم الثورة — العملية «PROCESSUS» غير القابلة للاختزال إلى أىّ **إصلاحية** بمعنى أنها تمارس التقليب وتغيير العلاقات القائمة ، لكنها متخلصة من **النزعة الثورية** على النهج القديم ، بمعنى إنها تتخلى فى عمقها عن شتى أساطير « الليلة الكبيرة » وكذلك عن مجمل أخطار « الفجر » .

الا نستطيع اليوم ان نكشف بين النزعة الإصلاحية وبين النزعة الثورية الموقفان التقليديان اللذان على نحو من الأنحاء كل شىء يفصلهما ، عن عجز تناظر القوى المحكومة برأس المال ، ثقافياً ومادياً ، وإن كان على نحوين منعكسين : البعض يصل إلى الحكم بغير كفاح حقيقى ، بل قل بغير مشروع حقيقى ، وبالانهزام الواعى امام المهزوم الظاهر ، مما يؤدى ، فى أفضل الفروض ، إلى إصلاحات هامشية ، والبعض الآخر يكافح بحرارة ويحصل بالتالى على مكتسبات جزئية ، لكن ثمينة ، وبغير أن يكون قادراً استراتجياً على خلق عالم جديد ؟ وبصرف النظر عن ذلك العجز أليس الواجب العاجل فعلاً تاريخيا هو التشديد على الإنتقال إلى كفاح ضد الرأسمالية على نمط جديد يتوجب فيه على صانعيه أن يعرفوا أو أن يفعلوا بجرأة منذ البداية باعتبارهم قوى سائدة وإن كانت بعد تمثل الأقلية لكن منخرطة بثقة كاملة فى صنع افق الحل جتى النهاية لتناقضات المجتمع القائم وباحثة عن توكيد نفسها سياسياً بصفتها قوى منافسة فى مجمل القضايا الكبرى ومتدخلة بطموح باعتبارها حزباً يستطيع أن يحكم فى كل النضالات وبقوة كان يستطيع ماركس أن يطلق عليه بغير أية تبجح « الإدراك النظرى لمجموع الحركة التاريخية »(٢) ؟

والبرهان هنا على أن هذا ليس مجرد كلام بغير رصيد يتطلب تحليل امثلة عديدة ملموسة . وحدود الوقت لا تسمح لى إلاَّ بشرح مثل واحد ، لكنه اساسى ، يتمثل القضايا الاقتصادية .

ففى تصور المنهج الثورى القديم ، كان استعراض القضايا الاقتصادية فى جوهره ينتهى إلى اتهام **لا مساواة** الرأسمالية ، وكان المقصود فى المقابل ، وضع بالإضافة إلى النضالات النقابية الضرورية ، رفض شامل لنظام ينبغى تحطيمه بالاستيلاء على السلطة السياسية وبتحويل وسائل الإنتاج إلى وسائل إجتماعية للإنتاج — بالإضافة إلى النتائج التى نشهدها اليوم .

أما المقاربة الجديدة للثورة باعتبارها عملية PROCESSUS فتطرح مشكلة اكثر طموحاً بكثير ، وهى ليس فقط التنديد بنتائج الخيارات الرأسمالية وإنما نقد **مقاييس** الخيارات الرأسمالية ، والنضال من أجل توزيع مخالف للثروات ، لكن التدخل فى **الإدارات** التى تتحكم فى إنتاج الثروات والدعوة إلى مجتمع جديد ، لكن إعداد حلول أخرى الآن — وبعبارة أخرى استبدال تجاوز حقيقى صراعى يتعلم فيه العمال من اليوم السيطرة على العمليات PRO-CESSUS الاقتصادية ، بالموقف المعارض غير القابل للتحول إلى بناء فعلى .

ومن هنا كل شىء مدعو إلى التغيير فى الثقافة والممارسة الثورية .

وبتوقفها عن التمحور حول فعل التحرير المفترض وقدرة الاستيلاء على السلطة بالتالى على تغيير المجتمع ، تتنوع « الثورة » إلى تغييرات تدريجية تستطيع أن تتحقق فيها القدرات على التسيير الذاتى ، وتكتسب من خلالها الأغلبيات الجزئية ويمهد عبرها إلى سلطات جديدة ، وإلى انتصارات فكرية ، وتكرس بواسطتها القفزات المحتملة الفجائية ، التحول التدريجى الديمقراطى لعلاقات القوى والمواجهات .

هذه « الاستراتيجية من جيل جديد « طموح وصعبة وغير محددة بعد ، لكنها الوحيدة الخليقة بأن تدفعنا فعلاً على طرق ما بعد الرأسمالية ، تدين

بالكثير إلى إضافات علماء الاقتصاد الفرنسيين المعاصرين ابتداء بأعمال « بول بوكارا » الاساسية .

كيف لا نقف ضد سيادة الصمت وضد ذاك النمط الرخْو من النقد الذى يحيط عامة فى بلادنا بهذه الإضافات ؟

ويفقد الحوار الفكرى فى فرنسا الكثير برفض المناقشة التى تفرضها تلك الإضافات . كما تفقد البحوث الماركسية فى مجملها من حيدتها .

هل استطيع أن اقول انه فى تقديرى يؤدى الاستيعاب النقدى لتلك الإضافات ، مثلاً ، إلى التساؤل حول تماسك الفكرة المركزية التى تقترحها ورقة الندوة التحضيرية ؟

إذ توحى ورقة الندوة بضرورة التفكير على وجه الخصوص ، فى « الدور الاكثر سلبية » ، الذى ربما لعبه ماركس ، فى التجربة التاريخية للاشتراكية وفشلها نتيجة ميلها المفترض انه كان يتجه نحو « التخطيط الشامل والمركزى للحياة الاقتصادية والاجتماعية » الذى نعارض بينه وبين اشكالية التخطيط والسوق .

ولا أجد هنا حقاً فكر ماركس — ليس فقط فكره السياسى النقيض الدقيق للتدخل المطلق للدولة فى الحياة كما يبدو ذلك من خلال تحليله الحماسى لكومونة باريس ، وإنما كذلك فكره الاقتصادى .

ففى هذا النطاق وبقدر قدرتنا على تلخيص ذلك فى جملة واحدة ، فأبعد عن نقد فوضى السوق الراسمالية الخليقة بأن تؤدى إلى البحث عن الحلول التخطيطية الخارجية ، فهو يذهب بعمق أقصى إلى حد تسليط الضوء على مقاييس إدارة رأس المال حيث إن تغييره الداخلى عبر نضالات ثورية مطابقة ، يسمح بتصور تجاوز فعلى لعلاقات السوق الراسمالية ، لا إلى أسفل وإنما إلى أعلى فى طريق السوق غير الراسمالية التى تحتوى على مقاييس مخالفة لمقاييس السوق ومعارضة من حيث الجوهر لتدخل الدولة المطلق فى كل شأن من شئون البلاد .

وتبدو لى هذه النقطة حاسمة . إذ أن وضع رفض الليبرالية ومركزية التخطيط فى سلة واحدة يهدد بتحويل مشروع التغيير بأكمله إلى القبول بأمر السوق الراسمالية الواقع عبر ضوابط إصلاحية بسيطة . وهو ما انتج سياسة « روكارد » .

فهل سنخرج من الراسمالية بما بعد الاشتراكية الديمقراطية ؟ الا يمر فى هذا المكان ، على وجه الدقة ، اليوم خط فاصل بين نهضة وبين انتكاسة منهج أصيل يستند إلى ماركس حتى النهاية ؟

ولا ادعى أن الأفق الشيوعى الذى نحن فى حاجة ماسة إليه اليوم أكثر من قبل ، هو نفسه ، وفى مجمل نقاطه ، الأفق الذى تصوره ماركس فى القرن الماضى .

بل أتصور على العكس ، انه تسرع فى استنباط زوال المشكلة القومية إثر ولادة التاريخ الكونى واستدلال ذبول نوع من انواع السياسة نتيجة ضرورة ذبول الدولة . فضلاً عن ان تحاليله اليوم من الواجب تحيينها فى نطاقات اساسية .

وعلى هذا « فالتطور الكونى للقوى المنتجة » يصطدم من الآن فصاعداً بحدود إمكانية العيش البيئية أو الانثروبولوجية ، مما يزيد من ضرورة تغيير أسلوب تطور الإنتاجية .

كذلك نجد عند ماركس **الافق الشيوعى للعصر الصناعى** ، أما الثورة التكنولوجية الجارية اليوم فتضع فى جدول الأعمال **الافق الشيوعى لعصر المعلومات** ، مما يرفع من مصداقيته .

لكنه فى رأيى ان الإتجاه فى مجموعه للحركة التاريخية الذى رسمه الأفق الشيوعى هو الأكثر من اى وقت مضى ، الاتجاه الصحيح ببساطة شديدة لأن التناحرات الاساسية لنمط الإنتاج الراسمالى التى كشفها هى أكثر من اى وقت مضى .

لذلك فإن الكثير من رؤى ماركس التى تبدو فى الظاهر كلها نظرية ، اكتسبت فى طريقها ، مصداقية عملية هائلة .

الا تكتسب فكرة الطبقة العاملة التى هى مقدماً « التعبير عن ذوبان جميع الطبقات » — بشرط واضح الا نخلط بينها وبين ذلك الوهم القاتل الذى يؤدى إلى اعتبار أن رأس المال سيزول من تلقاء نفسه — اليوم بعداً خاصاً وملموساً يحتوى على تمهيد « للعامل الجماعى » والجدل الجديد بين السياسى وبين القيمى ؟

والا تلهم بقوة الفكرة وثيقة الصلة بالفكرة السابقة والتى تؤدى إلى أن الطبقة العاملة لا يمكن أن تتحرر بغير ان تحرر المجتمع بأكمله ، مضامين جديدة وأشكال جديدة للحركة الفعلية نحو الشيوعية على الصعيد الدولى ؟

اليست عبارة **بيان الحزب الشيوعى** القائلة بأن **الهدف هو الانتقال إلى شكل اجتماعى** « يكون

لكل فرد فيها شرطاً لتطور جميع الافراد الحر » (٣) ، مطابقة مقدماً لعصرنا ؟ اليس عصرنا مطبوعا حقاً « بالثورة البيوغرافية » على نحو هائل لا يقل عن **الثورة التكنولوجية ؟ وعلى نقيض** جميع المشاريع التجميعية ، الا تعطى « الثورة البيوغرافية » الحق « لإرنست بلوخ » حينما كتب يقول « إن المجتمع الشيوعى يستطيع أن يكون اكثر فردية من اى مجتمع قبله »(٤) ؟

فى رأيى ، أن الشيوعية كانت تستطيع ان تأمل فى إيجاد دفعة ثانية ، إذا مدت على نحو نقدى جاد يفى فى نفس الوقت من حيث الجوهر بأفق ماركس ضمن ظروفنا المستجدة .

واختتم الآن حديثى .

كلا حقاً لا تدل أحداث اوروبا الشرقية عن « نهاية الشيوعية المطبقة فى التاريخ » .

ومن حيث أن الشيوعية ليست سوى أفق تاريخى وحركة فعلية تتجاوز حتى النهاية التناحرات غير المحتملة لرأس المال ، الا يعنى اعتبار « الشيوعية منتهية » الانتهاء التاريخى للراسمالية ؟

فماذا يبقى من ماركس نفسه حينما « نحرره من الفرض الشيوعى » حسب عبارة « روبير ماجيورى » ، ضمن مقالة فى جريدة « ليبراسيون » التابعة لقصر الإليزيه الرئاسى ؟ أى ماذا يبقى من ماركس حينما نكون قد افرغناه من نفسه ؟

وان نضع جانبا خطأ تراجعياً لا يعنى مطلقاً التقليل من عمق الدرس الذى ينتهى إليه القرن العشرون .

بل ارى النقيض تماماً .

إن ما ينتهى مع اشتراكية الجيل الأول ، هو تلك المرحلة من التاريخ المنفتحة عام ١٩١٧ ، حين تمت إعادة النظر فى الراسمالية من وجهة « حلقاته الضعيفة » ، حسب عبارة لينين الشجاعة جداً .

هل كان ذلك ممكناً ؟ هل من الممكن ان تعود البلاد المعنية بغير مضاعفات وقتية إلى بناء الراسمالية ؟

إنَّ مستقبل البيروسترويكا كان اكثر من غيره إجابة عن هذا التساؤل .

لكن التاريخ لا يعرف الفصل بين اقسام الاحداث .

نهاية هذه المرحلة هى فى نفس الوقت بداية للتالية عليها ، وما هو موضع جدل اليوم هو **مجموع سلسلة** راس المال بما فى ذلك حلقاته القوية — لكنه محفور أكثر من أى وقت مضى بتناحرات هائلة

نحن الذين نعيش ونناضل فى البلدان الراسمالية الاكثر تطوراً ، نعرف أيضا ، أن ماركس ، الذى كان يعتقد ، أن التقدم إلى الشيوعية ينطلق مباشرة من الراسمالية الاكثر تقدماً ، يكتسب لهذا السبب بالنسبة لنا قيمة أكثر من أى وقت مضى .

« ماركس الآن » — كلاَّ حقاً .■

الهوامش :

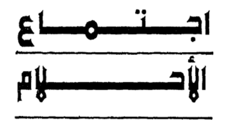
١ — **الأيديولوجية الالمانية** ، باريس ، دار المطبوعات الاجتماعية ، ١٩٧٦ ، ص ٣٣ ، حاشية «١» .

٢ — **بيان الحزب الشيوعى** ، باريس دار المطبوعات الاجتماعية ، ١٩٨٦ ، ص ٧٠ .

٣ — المرجع السابق ، ص ٨٨ .

٤ — Experimentum mundi ، باريس ، بايو ، ١٩٨١ ، ص ١٨٧ .





اجتماع الأحلام

نظرة امريكية لا ترى في تحولات السنوات الأخيرة انها «زلزال او معجزة وإنما انها تقوم على اعتبارين جوهرهما الانحطاط الامريكي نفسه وسقوط النموذج الامريكي البراق .

عمانوئيل ڤاليرشتاين

فـ ١٩٨٩ كان عام صدمة كبيرة . صدمة الزوال السريع وغير المتوقع تقريباً لايديولوجية كانت وإلى زمن غير بعيد تؤكد نفسها في سجل الحياة الأبدية .

وتفكيك النظم التي تستند إلى تلك الإيديولوجية انتهى مقدماً عند البعض ومازال جارياً عند البعض الآخر .

كيف نفسر هذا ؟

التفسير المباشر الحدثي — لم تكن الشعوب تحب تلك الانظمة — غير متماسك . هذه الشعوب كانت شاعرة بأنها مقهورة ومقموعة وغير سعيدة منذ زمن طويل . لكنها لم تستطع من قبل أن تزحزح هذه الأنظمة المفروض انها كانت « شمولية » ، وبالتالي شبه ازلية .

كيف كانت إذن تلك الانظمة قائمة ؟

اما التفسير الإضافي : انه انتصار النموذج الأمريكي في الحرب الباردة فهو غير متماسك كذلك . إذ لماذا لم يكن هذا النموذج فعالاً في بولنده عام ١٩٨١ وفي تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ وفي غيرهما من البلدان ؟

هل كان الامريكيون في ذلك الوقت أقل حماسة ؟ هل كان جمهور « صوت امريكا » ضيقا ؟

اما التفسير بالكارثة الاقتصادية فهو غير متماسك ايضا لا انه خطأ.فقد كانت هناك كارثة اقتصادية في الغالبية العظمى من تلك البلاد ، وإن كان ضرورياً أن ندقق في هذا التقييم حسب كل حالة على حدة .

لكن هذا بعيد عن أن يكون الميزة الخاصة بالبلاد المسماة « بالاشتراكية » ، أن تجد نفسها أمام صعوبات كبرى . فلا شيء يجرى على ما يرام في الارجنتين أو في ساحل العاج أو في بنجلادش ، بغير أن نتهمها بأنها قد اهملت السوق لصالح التخطيط .

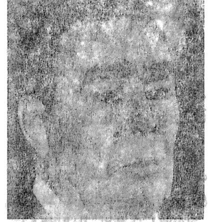
الواقع اننا لا نستطيع أن نفسر تحولات ١٩٨٩ في « الشرق » دون أن نضع بعين الاعتبار إنحلال الولايات المتحدة .

وبعيداً عن كونها بداية « السلام الأمريكي » ، كانت سنة ١٩٨٩ نقطة نهايته . الحرب الباردة كانت « السلام الأمريكي » إذ أن الولايات المتحدة قد عادت غير قادرة على الاستمرار في اضطرابات الحرب الباردة وأصبح ظهور جورباتشوف حتمياً في ذلك الوقت . ولأن جورباتشوف قد كافح في سبيل اجتناب الإخفاق ، فكان من الممكن أن تتحقق تحولات ١٩٨٩ وتداعياتها بعد ذلك .

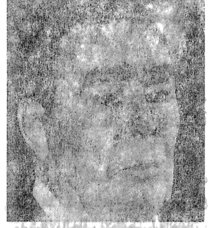
وينبغي أن نعود إلى ١٩١٧ ، عام ثورة اكتوبر ، طبعاً ، لكنه ايضا — حدث لا يقل اهمية وربما يكون أهم —

ريجان ... وجورباتشوف





ليونيد بريجنيف



البابا يوحنا السادس

كان عام دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى . وابتداءا من الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، عصر بدأت فيه الهيمنة البريطانية فى السقوط ، بدا واضحاً أن المتنافسين على المقدمة بعدها هما الولايات المتحدة والمانيا .

وفى ختام عملية PROCESSUS بطيئة السير نحو تنمية قواهـا السياسية والاقتصادية المتبادلة ، كنا قد وصلنا إلى حرب « الثلاثين عاماً » العالمية طويلة المدى ، التى فى مقدورنا أن نطلق عليها اسم « مرحلة ١٩١٤ — ١٩٤٥ » .

ولكسب هذه الحرب الطويلة ، فكما أن بريطانيا العظمى كانت عاجزة عن الاستغناء عن التحالف مع روسيا للقضاء على الطموحات الفرنسية فى حروب ١٧٩٢ — ١٨١٥ ، كانت الولايات المتحدة فى القرن العشرين فى حاجة إلى مساندة روسيا .

وإذا كان من الممكن أن يبدو ذلك تناقضيا ، فالثورة الروسية عام ١٩١٧ كانت تخدم فعلاً المصالح الجيو — سياسية للولايات المتحدة . ولكن الحرب الباردة بين الولايات المتحدة وروسيا / الإتحاد السوفيتى ، كما يبينه « أندريه فونتين » قد اندلعت ابتداءً من عام ١٩١٧ .

فكيف من الممكن ان نفوز بخط يصل بين هذا كله ؟

جاء عام ١٩١٧ على الساحة العالمية بمفكرين عقائديين كبيرين هما « وودرو ويلسن » وفلادمير لينين وكان لدى الاثنين رؤية وتصور للعلم ومشروع سياسى شامل .

أما مشروع « وودرو ويلسن » فكان يعنى « نشر الديمقراطية فى شتى ارجاء المعمورة » .

أما مشروع لينين فكان مضمونه تحقيق الثورة العالمية الإشتراكية .

لكن الاثنين كانا يعتقدان فى مشروعهما . وكانا يجذبان كثيرين إليهما . وكانا يسلكان (وكذلك من تبعهم بعد ذلك) على هدى مشروعهما . لكن مشروعهما كانا يحجبان ممارسات كانت تنأى بكل واحد منهما عن مشروعه .

وكما نعلم لم تقبل المانيا قط هزيمة ١٩١٨ . باعتبارها عام القضاء النهائى على السباق نحو الهيمنة بداخل النظام — العالم (شانها شان فرنسا التى لم تقبل قط هزيمة ١٧٦٣) .

لكن هنا ينقطع التوازى ، لأن ليست المانيا هى التى كانت تصنع « الثورة » بعد فشلها ، وإنما روسيا ، مما كان فى غاية الاهمية بالنسبة للنظام .

والواقع الذى جعل المانيا عاجزة فى ذلك الوقت عن صناعة « ثورة » ذات بعد شامل (وكما اذكركم فكثير من الناس كانوا متوقعين بما لبهم لينين) حجب عنها مكسباً جوهرياً فى منافستها مع الولايات المتحدة .

وبحثت المانيا عن بديل فى النازية التى امست شيئاً مختلفاً تماماً ، وشيئاً تدميرياً للغاية وكذلك امست اقل قدرة عن كسب عطف شعوب العالم .

وباختصار فبعد الكثير من المراوغة ضمن لعبة مناورات عالمية ، كان التحالف والسلطة ضمن الثنائية الامريكية والسوفيتية التى استطاعت القضاء على الهمجية النازية ومهدت إلى اقامة « النظام — العالم » بعد ١٩٤٥ .

فلنتذكر إذن اين كنا عام ١٩٤٥ . فقد تحطمت مجمل المناطق الصناعية فى العالم نتيجة الحرب باستثناء واحدة ، لكن كبيرة هى الولايات المتحدة .

فالولايات المتحدة التى كانت قد تقدمت سابقاً قبل مائة عام تقريبا ورفعت إلى درجة عليا مستوى الانتاجية فى مجمل نطاقات الاقتصاد واستخدمت الحرب العالمية الثانية لتقويتها فوجدت نفسها عام ١٩٤٥ بلا منافس ، بالإضافة إلى السقوط المدوى للقدرة الانتاجية فى ارجاء العالم الاخرى .

وجاءت الفرصة لكى ترفع الولايات المتحدة علم الهيمنة و « تحمل المسئولية » ، كما كانوا يحبون أن يقولوا فى واشنطن .

بالطبع نعرف ما تلى ذلك .

أعادت الولايات المتحدة بناء العالم . اعادت بناءه مادياً وسياسياً وكذلك ثقافياً .

وانشأت شبكة تحالفات كان جوهرها أوروبا الغربية (مشروع مارشال والحلف الأطلنطى) واليابان .

ومما لا شك فيه ، ربما قد تقولون لى ، . لم يكن المجال مفتوحا تماماً أمامها . إذ خرج الاتحاد السوفيتى من نفس الحرب ، مهتزاً ، ربما على الصعيد الإنسانى والمادى ، لكن عضدته ماكينة عسكرية شاملة بالإضافة إلى الحزام المنيع والعجيب (أوروبا الشرقية) والريح الإيديولوجية المدفوعة نحو النجاح (وبعبارة أخرى الحركات الشيوعية فى كل مكان تقريبا) .

ولكى تستطيع الولايات المتحدة تأمين نفسها كقوة مهيمنة وفعاله على « النظام — العالم » ، كان مفروضاً عليها إيجاد مصالحه فقط مع السلطة العسكرية والسياسية المنكوبة ، إن جاز التعبير . وهو الأمر الذى تم . هذه المصالحة يطلق عليها فى اللغة الشعبية اسم إتفاق « يالطا » .

لكن ينبغى أن نبصر جوهر ما كان عليه ذلك الاتفاق . إذ أعتدنا أغلب الوقت أن نقدمه وكأنه نوع من التنازل المخجل أمام السوفيت الذى أتاح لهم قمع الحريات فى الشرق الأوروبى .

لكن هذا تسطيح .

فالإمبراطورية الستالينية المصغرة كانت تخدم بنفس القدر المصالح الأمريكية والمصالح السوفيتية . وإلا فكيف كان من الممكن أن تعيش تلك الفترة الطويلة .

ماذا كانت الثمار لكل جانب ؟

بالنسبة للإتحاد السوفيتى ، تلك الامبراطورية المصغرة ، كان لها منافع ثلاث .

أولاً سمح لها على الأقل فى البداية بالاستغلال الاقتصادى للممتلكات والإنتاجات فى شرق أوروبا لصالح الإتحاد السوفيتى .

ثانيا : ضمن لها الامن العسكرى للإتحاد السوفيتى حين اذن لها بالمحافظة على السيطرة على المانيا التى كان الجميع يخشاها عن غير حق

ويخاف نهضتها العسكرية .

ثالثاً : وفى نفس الوقت الذى تم فيه إضفاء المشروعية على الاطروحات الأيديولوجية الجامدة (الضرورية للابقاء على النظام السوفيتى) ، تم السماح بعرقلة الحركات الاشتراكية الثورية خصوصاً فى أوروبا . تلك الحركات التى كان فى مقدورها أن تهدد الاحتكار السوفيتى للخطاب الإيديولوجى .

« يالطا » كانت المناسبة الملائمة لستالين لتحطيم الشيوعيين اليونانيين الذين كانوا يستطيعون الانتصار فى حرب العصابات وإذا كان قد قدر لهم ذلك ، فماذا كان من الممكن أن يترتب على السياسة الستالينية ؟

وهكذا دواليك .

فدمرهم ستالين .

وعلى هذا نفهم المصلحة الأمريكية فى تلك المصالحة .

فقد دخل السوفيت وراء كل خطاباتهم للعمل بصفتهم سلطة لا تحت امبريالية بالنسبة للولايات المتحدة مما خنق كافة مخلفات اليسار المتطرف فى أوروبا وخصوصا فى شرق أوروبا عام ١٩٤٨ الاساسية أو فى يساريته

ومن جانب آخر استفادت الولايات المتحدة على صعيد مغاير : ثلث العالم بأكمله من أوروبا الشرقية . إلى آسيا الشرقية — العالم المسمى « بالشيوعى » — كان مطروداً خارج « الاقتصاد — العالم » . لكنه كان طرداً مرحلياً تماماً . هذه البلاد كانت بالأحرى موضوعة كأحتياطى . وفى إعادة بناء أوروبا وآسيا المنهارة ، كانت الولايات المتحدة أصلاً قد وضعت يدها كلية على هذه القطعة التى كانت مسماة « بالعالم الحر » .

على الأقل هذا كان كافياً بوضوح حتى عام ١٩٦٠ . وبعد ذلك التاريخ بقيت بعد إمكانية إضافة بعض القطاعات من العالم الثالث . كان الأمر بعيداً عن أن يكون سلبياً من ناحية رأس المال العالمى .

لم يكن سلبياً أن يظل العالم الشيوعى قلعة مغلقة ، طيلة خمسة وعشرين عاماً على الأقل ولم تكن الولايات المتحدة حقاً فى حاجة إليه ، فضلاً عن انها لم تجد نفسها مجبورة بأى واجب إقتصادى إزائه بل كانت تستطيع أن تركز مجهودها على منطقة اضيق ، مما كان يمثل بالضبط سياسة استثمار ذكية .

ولا ينبغى أن ننسى فى نهاية الأمر التفوق الإيديولوجى الكبير للحرب المسماه بالباردة . كانت بالطبع حرباً باردة وعلماء الجغرافيا الإستراتيجية الجادون لم يتصوروا قط أنه كان من الممكن أن تصير شيئاً آخر . لكن أىّ إدعاء كان !

كان التفوق الإيديولوجى بشرق أوروبا يبرر كل شىء على الساحة العالمية وداخل الولايات المتحدة نفسها (وبلدان غرب أوروبا) .

كان القمع يتم ضد أى شىء لكن ربما بحدة أقل فى العالم الشيوعى .

على أنه كان أيضا فعالاً . كان قد تم تليين اليسار الغربى على الأقل حتى عام ١٩٦٨ . وكان مسموحاً بالتدخل بحرية فى العالم الثالث . وذلك باسم الحرية والخطر الشيوعى . كان بعبعا مصنوعاً بالمقاس .

وعلى ذاك النحو كنّا نعيش الثلاثين عاماً المجيدة (الحقيقة فعلاً أن نقول خمسة وعشرين) تحت قيادة الولايات المتحدة — « اقتصاد — عالم رأسمالى فى كامل إزدهاره .

ومن جانب آخر كان هذا الازدهار غير معقول . ففى القطاع الغربى (أو منظمة التعاون والتنمية الإقتصادية) من العالم سمح هذا الازدهار بخروج غالبية الشعب من الفقر (بمعنى غالبية الناس الاصلاء وهى قضية سأثيرها فيما بعد) وبخفض إلى ادنى الدرجات نسبة السكان الذين كانوا فى منطقة ريفية وبنشر تحديث ادوات فى كل مكان وبإقامة دول « مرسلة من العناية الإلهية » .

لا بأس بالنسبة لأولئك الذين كانوا يتمتعون بهذه المزايا .

لكن بدات الاضطرابات بعد ذلك . منذ عام ١٩٦٧ (والبعض يقول منذ ١٩٧٣) ونحن فى « مرحلة ثانية » عنونها « كوندراتييف » . على الصعيد الاقتصادى المحض عرفنا الحركة المكوكية للتضخم والبطالة وتعاظم ثقل التكلفة الاجتماعية والنقصان الشامل للطلب الفعلى والإفلاس لابتلاع الشركات الصغرى — وهو ما نطلق عليه اسم « الركود الإقتصادى » الشامل بالإضافة إلى كل ما يحتويه عليه من تمركز لرؤوس الأموال وقطبية الدخول والنضال الشرس بين رجال الاعمال والمضاربات المالية الوحشية وما تلقى الحكومات من خيبات أمل ضريبية ومالية (هذه هى المرحلة الثانية من الصراع العالمى)

ثم بدات سلطة الولايات المتحدة الإقتصادية تتلاشى . أوروبا الغربية واليابان ، بعد أن التقطتا انفاسهما ، صارتا متنافستين بجدية .

وبالطبع نتيجة الازدهار الإقتصادى بدأنا فى استخلاص النتائج السياسية الدالة ، على نحو كان فى مهده محدوداً ، على التحرر من السيطرة الأمريكية .

وكان العالم الثالث يعاند المظهر البراق « لإزالة الاستعمار » الحكيمة والممنوحة ، والتى كانت مفروضة عليه ، وأظهر الرغبة فى الدخول فى تمرد أكثر جذرية (فيتنام والجزائر وكوبا خصوصاً ، وليس فقط فى هذه البلاد) .

ثم جاء عام ١٩٦٨ والثورة العالمية التى كانت جارية تقريباً فى انحاء العالم كافة ؟ فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة واليابان وتشيكوسلوفكيا والصين والمكسيك والهند وتونس والسنغال وفى غيرها من البلاد .

وفى كل مكان كاناهما نفس المحورين اللذين كانا يتكرران وإن تم ذلك فى لفات لصيقة بالأوضاع المحلية الخاصة .

أولًا كان رفض الهيمنة الأمريكية والتواطؤ السوفيتى مع هذه الهيمنة

ثانيا : وبالإضافة إلى مزيد من الحماسة ، تم رفض « اليسار العجوز » بالمعنى المريض — الاحزاب الإشتراكية — الديمقراطية والاحزاب الشيوعية وحركات التحرر الوطنى — نتيجة إنعدام فعاليتها الكاملة ، وبسبب أن وصولها إلى الحكم لم يثمر فى أى مكان الثمار المرجوة والموعودة ، وأن مجمل هذه الحركات ، فى نظر الرافضين ، قد فقد عنفوانها فى معارضة التفاوت الاجتماعى فى « النظام — العالم » .

ومرت اضطرابات ١٩٦٨ منذ زمن بعيد وانطفأ تماما التوهج التنظيمى . لكننا لن نفهم شيئاً فى خيبات أمل سنوات ١٩٧٠ و ١٩٨٠ إذا لم ننظر إليها على ضوء التحولات الذهنية التى ظهرت إلى الوجود فى امتداد أحداث ١٩٦٨ .

وكانت سنوات ١٩٧٠ و ١٩٨٠ سنوات مناورات مزيفة من قبل الولايات المتحدة والعالم الثالث والنظم الشيوعية الحاكمة . كل هذه الحكومات وجدت نفسها أمام تحديات كبرى ناتجة أساساً من الركود الاقتصادى العالمى . كلها أرادت حماية نفسها من التراجع المهدد وكلها فشلت فقط اليابان وأوروبا الغربية استطاعتا التماسك ونالتا التعويض فى العقود المقبلة .

المشكلة من وجهة نظر الولايات المتحدة — حكومتها ومصانعها وكذلك شعبها — كانت تتمثل فى كيفية إبطاء السقوط . وحاولت كل شىء تقريباً . حاولت بواسطة منظمة البلاد المصدرة للبترول — التدريب الإضافى المالى الدولى الكبير عبر البلاد النفطية وشركات عابرة القوميات النفطية الكبيرة (كلها تقريباً أمريكية) والقروض المصرفية الكبيرة فى اتجاه بلدان العالم الثالث والعالم الشيوعى .

وكانت تأمل الخروج بفائدتين كبيرتين .

أما الفائدة الأولى فكانت تتمثل فى رفع سعر منتجات غرب أوروبا واليابان بالنسبة للمنتجات الأمريكية عبر تصدير البطالة .

أما الثانية فخلق طلب جديد مهم على الساحة العالمية لمساندة السوق .

وعرفت الولايات المتحدة نجاحاً تقريبيا إزاء هاتين الفائدتين فى السبعينيات لكن التخطيط كان محدوداً من داخله .

ففى الثمانينات ، عاد لايصلح للإستخدام (التضخم أولًا ثم ديون الولايات المتحدة ؛ أزمة المديونية فى العالم الثالث منذ عام ١٩٨٢) .

كما حاولت تصفية الالتزامات العسكرية الفعلية (الخروج من فيتنام فى ظل نيكسون عام ١٩٧٣) .

حاولت إذن فى مستهل محاولتها ايقاف هجرة رؤوس الأموال الكبيرة والتى صارت سياسياً من الصعب احتواؤها .

لكن حينما أدى هذا كله منطقياً ، عبر سنوات كارتر وبداية عهد ريجان ، إلى أزمة أعمق من أزمة ١٩٨٢ . ثم حاولت من جديد دفع الاقتصاد الأمريكى بواسطة الاستثمارات الضخمة فى النطاق العسكرى « الكينيزية » العسكرية) الممولة بالقروض الخارجية (خصوصاً اليابانية وجزئياً الغرب أوروبية) . وكذلك كان الفشل . فشل سياسى وعسكرى بمعنى أن حكومة الولايات المتحدة قد خلقت لنفسها عبئا طويل الأجل لعجز فى الميزانية ، تقريباً من المحال تغطيته .

كما حاولت الولايات المتحدة « التفاوض » مع الحلفاء الكبار ، مع أوروبا الغربية واليابان .

وفى جانب من هذه المحاولة أرادت الولايات المتحدة نيل رضاهما ، فأهدت لهما شبه حق المشاركة فى الإدارة العالمية (« الأضلاع الثلاثة ») .

ومن جانب آخر رغبت الولايات المتحدة فى فرض إرادتها عليهما

بواسطة التسخين الجديد للحرب الايديولوجية .

اما جوهر رد فعل غرب أوروبا واليابان فكان القيام بالحد الأدنى الضرورى على شتى الأصعدة لكيلا تنزعج الولايات المتحدة . لكن لا شيء اكثر من ذلك .

وفى نهاية الأمر لم تكن شتى هذه الانتصارات الدبلوماسية الصغيرة لصالح الولايات المتحدة فى تلك المفاوضات سوى السراب .

ومن حيث الجوهر شيئاً فشيئاً قطعت أوروبا الغربية واليابان شوطاً كانتا تبحثان عن قطعه .

واخيراً حاولت الولايات المتحدة كل شيء فى سبيل رفع مستوى إنتاجية المنتجات الامريكية فى السوق العالمية وارادت الوصول إلى غايتها هذه بخفض تكاليف الإنتاج وخصوصاً تكلفة العمل .

ورغبت إذن أمريكا فى الوصول إلى اجور أقل فعلاً ونجحت بعد عقدين من الزمن — بواسطة التضخم والضغوط والمفاوضات تحت التهديد من أجل إغلاق المصانع وأخيراً عبر الضرائب . والأجور الفعلية هبطت حقاً .

على انه لم يكن لذلك كله اثر كبير فى السوق العالمية .

والسبب الجوهرى هو أنه كان مفروضاً على الولايات المتحدة فاتورة شاملة للمصروفات «لكوادرها» (لا لطبقاتها العمالية) تتجاوز تماما ، وعلى مدى الخمسة والعشرين عاماً المقبلة ، الفاتورة الإجمالية الغرب «الاوروبية واليابانية . مما جعل الصعوبات التجارية القائمة حتمية .

بالطبع كان من الممكن ان تساعد أوروبا الغربية واليابان حقا الولايات المتحدة بمصروفاتها الخاصة . لكنهما لم يريدا وهو أمر نفهمه جيداً .

على أن صعوبات الولايات المتحدة لم تساعد بلدان العالم الثالث كما كان يتوقعها اولئك الذين كانوا يرفعون رايه نصر العالم الثالث السائد فى الستينيات .

وكان السبب الجوهرى أن مجمل ما كانت تكسبه بلاد العالم الثالث من إمكانيات المناورة المترتبة على ضعف العسكرية والسياسة الأمريكية ، كان مواجهاً أو أكثر من ذلك كان مهتزاً نتيجة السقوط الكوارثى لوضعها الاقتصادى .

بلاد العالم الثالث فى شمولها هى التى كانت مضطرة إلى دفع جزء كبير من تكاليف الركود الشامل وعادت لا ترغب الولايات المتحدة فى منتجات تلك البلاد او بالاحرى بهذا القدر الكبير .

كانت امريكا تبيع لتلك البلاد بأسعار أغلى بكثير مما كانت تصدر لها ، وحتى جماعياً إذا افترضنا ان مفهوماً من ذاك النوع قد امتلك دلالة سياسية قابلة للتطبيق ، لم يكن فى مقدورها فعل أى شيء يذكر .

وحينما طرحت الولايات المتحدة طوق النجاة المتمثل فى القروض المصرفية الموجهة إلى تلك الدول المحتلة فى السبعينيات ، التقطتها فعلاً . مما سمح لها تحقيق بعض الربح إلى سنوات قليلة تالية .

لكن بالطبع فإن معدلات الخدمة ارتفعت إلى حد غير متوقع . وفى نفس الوقت لا شيء قد تغير على صعيد المبيعات الفعلية فى السوق العالمية . كارثة إذن اقتصادية وسياسية على حد سواء .

ونعيش اليوم تيهاً للعالم الثالث وأصبح من الصعب الاعتقاد بعد فى اسطورة التنمية الوطنية . لم يثمرها التخطيط ولا « الإشتراكية » . ويتم الآن إفساح المجال امام طلبات صندوق النقد الدولى بغير أمل حقيقى .

ببساطة لم يعد هناك خيار .

بالطبع هناك ثمن سياسى من الواجب دفعه . الثمن هو الاستقرار السياسى وتفكك دول لم تكن متماسكة من قبل وعادت رغماً عن تنويعاتها (الإيرانية او الجابونية ، اللبنانية أو الكولومبية ، الكمبودية أو الجزائرية) لا تنذر بأى تفاؤل .

نصل إذن إلى التحول الكبير شبه المعجزة فى المنطقة الشيوعية فى السنوات القليلة الماضية .

وحقيقة ان الامر ليس « غير عادى » كما يروق لنا أن نتخيل .

إن الرابطة بين العنصرين اللذين قد وصفتهما سالفاً — الانحلال الأمريكى وأثر الركود فى البلاد المحيطة — تكفى تماما لتفسير تطور هذا الجزء من العالم . أى الكتلة الشيوعية ، التى كان منظوراً إليها فى الماضى وكأنها بمنأى عن الريح والإعاصير الجارية فى الاقتصاد العالم الرأسمالى .

وينبغى أن نعود إلى الوراء ، إلى الدور الذى سبق وأن وصفته والذى لعبه الإتحاد السوفيتى داخل ابنية الهيمنة الأمريكية .

ولم اذكر حتى الآن اية مقاييس أخرى .

على الصعيد الاقتصادى كانت المنطقة الشيوعية تعيش فى نوع من انواع العزلة الجماعية الوقتية وكانت

شعارات تلك البلاد التصنيع والتنمية السريعة . وهو ما كان ممكنا تماما عبر تقنيات التنمية الخفيفه — الضغط على قوة العمل وتخفيض الأجور نسبياً واستخدام الفائض الناتج فى سبيل الاستهلاك اليومى (وكذلك بالنسبة للكوادر) وغياب الحروب ورقابة سياسية مشددة نوع من انواع اقتصاد الحرب بغير حرب فعلية .

على أنه كان هناك حدود ساسية لهذه العملية PROCESSUS التى كان قد سبق وأن أشير إليها عبر وصول خروتشوف إلى قمة السلطة فى الإتحاد السوفيتى السابق .

فمنذ ١٩٥٦ بدأت الأبنية الشيوعية فى التفكك . وقد أطلقنا على هذه العملية PROCESSUS نهاية الستالينية ونهاية تبعية شرق أوروبا للإتحاد السوفيتى . وهى العملية التى أسرعت فى الوصول إلى ثورة ١٩٦٨ .

ولإبطاء التفكك تم الضغط على « الفرامل » البريجنيفية لكن بالضبط كشأن الإبطاء المتفكك الذى دخل حيز التنفيذ فى الولايات المتحدة بدا ذلك بغير فعالية .

وبعد أن تم استنفاد الإمكانيات المباشرة فى الاستمرار فى اقتصاد التنمية الحقيقية وفى نفس الوقت واقع الركود الشامل « للاقتصاد — العالم » ، كان مفروضاً على الكتلة الشيوعية ان تلجأ إلى نفس الحلول الوقتية التى كان قد استخدمها العالم الثالث : رأس مال نفطى (بالنسبة للإتحاد السوفيتى) وقروض مصرفية (بالنسبة لأوروبا الشرقية وكذلك بالنسبة لكوريا الشمالية نفسها) . مما أراحها قليلاً خلال عقد السبعينات إلى أن واجهت الحقيقة فى الثمانينات .

والأزمة البولندية عام ١٩٨٠ التى اثمرت حركة « تضامن » بدأت إثر محاولة النظام خفض الأجور الفعلية فى مواجهة معدل خدمة الدين الخارجى الذى صار غير محتمل .

وقد زادت كثيراً المشكلات الاقتصادية اليومية التى كانت تضاهى من حيث الجوهر نفس مشكلات العالم الثالث (سواء أكانت نظم العالم الثالث « يسارية » أو مسماة « بالمعتدلة ») من تدهور الغضب السياسى لدى سكانها الذين كانوا بعيداً عن التزامهم بالإيديولوجية السائدة فى ظل تلك النظم .

على أن هذا لم يكن خليقاً بأن يكفى للوصول إلى انهيار هذه الأنظمة ، إذا اخذنا بعين الاعتبار إدواتها المسماة « بالشمولية » . كانت فى حاجة إلى عنصرين آخرين — الإنتشار البطىء لكن المستمر لروح التمرد اللصيقة بعام ١٩٦٨ (الذى كان رافضاً وساخراً من الأيديولوجية الرسمية « الماركسية اللينينية ») وانحلال الولايات المتحدة التى كانت مضطرة إلى الحد من الاضطرابات الجيوسياسية أساس نظام الهيمنة الأمريكى والتى كانت تساند ، ليس فقط الحكومة الأمريكية وإنما كذلك عدوها اللدود والمفترض انه حكومة الإتحاد السوفيتى السابق .

إنه تراكم العناصر الثلاثة — الكارثة الاقتصادية فى البلدان الشيوعية وجزء لا يتجزأ من آثار الركود الشامل على البلاد المحيطة واهتزاز الإيديولوجية الرسمية أمام ذهنية ١٩٦٨ وعجز الولايات المتحدة عن الإدعاء إلى الهيمنة السابقة وبالتالى عن إبقاء نظام « يالطا » — هو الذى أذن دفع جورباتشوف فى ذلك الوقت

إلى طرح إعادة البناء الكبرى ، البيروسترويكا ، والتى كانت تحتوى على وجهات ثلاث :

أولاً تصفية مخلفات الحرب الباردة والتخلى عن العبء السياسى (الذى قد صار ضد — إنتاجى) الذى كان يمثله شرق أوروبا ودمج روسيا فى المدار الاقتصادى الأوروبى وإقامة نظام مستقر فى الإتحاد السوفيتى من جديد بغير كثير من الصدامات بالداخل . لكن لم يعد ممكنا النظر فى تحقيق العنصرين الآخرين الوثيقى الصلة !

فى هذا كله لم اتناول قط لا اليابان ولا أوروبا الغربية .

لكن بالنسبة لليابان القضية سهلة جداً ومعروفة جيداً . خلال ثلاثين عاماً لفت اليابانيون انظارهم إلى تحسين الوضع الاقتصادى الشامل . وهو الأمر الذى انجزوه على نحو متوهج وباستمرارية خطيرة .

وينبغى ان نقيم النجاح الأحدث أثناء الزوابع التى احدثتها النمور الأربعة فى شرق آسيا على أساس انه عملية وقعت كامتداد لما سبق وأن قامت به اليابان ، وبنفس المناهج والمكتسبات . ليس هذا درساً للعالم الثالث وإنما هو بالأحرى أثر ثانوى للإقلاع اليابانى .

والأهداف طويلة المدى واضحة كذلك . تتوقع اليابان إزدهارا كبيراً فى « الإقتصاد — العالم الراسمالى » . ربما من اليوم وعلى مدى عشرة أعوام .

وتريد اليابان ان تكون قادرة تقريباً على احتكار الصناعات التى ستكون متقدمة جداً — كالميكروبرسيسور والعقول الإلكترونية والبيوتكنولوجيا وأشكال الطاقة الجديدة وغيرها من

الصناعات المتطورة .

لذلك ينبغى ضبط الكشوف الحاسمة وإبرازها على نحو أكثر فعالية منافسيها .

وللوصول إلى ذلك فاليابان فى حاجة إلى تحسين تحالفها الاقتصادى الدقيق مع الولايات المتحدة ولهذا أسباب ثلاثة : إمكانية الحصول على رأس مال بشرى أمريكى يظل قوياً جداً .

ثانياً الاضطرار إلى تحمل أعباء مزيد من المصروفات السياسية والعسكرية الشاملة .

ثالثاً تصفية المنافس المفترض عبر اختيار زميل له . وربما سيتم التوقيع على نوع من انواع تلك « الإتفاقيات » فى عقد التسعينات .

وإذا استطاعت اليابان فى نفس الوقت ضم الصين إلى حظيرتها ، وهو الإمر الذى أراه كذلك ممكناً ، فلسوف يكون لشبكة « منطقة المحيط الهادى » فى المستقبل حظ كبير فى إنجاز أكبر قدر من الإنتشار العالمى .

وما يهدد أوروبا الغربية على وجه الخصوص هو أنه منذ خمسة وعشرين عاماً تلعب دوراً مشابهاً لدور اليابان . غير أن فى حالتها كان هناك عنصر مميز .

كانت أوروبا الغربية جزءاً من الحلف الأطلنطى ، ولم يكن فى مقدورها البقاء هكذا خارج اللعبة الجيوسياسية مثل اليابان . وكانت مصروفاتها السياسية والعسكرية إذن أكثر من اليابان .

ومن جانب آخر كان لأوروبا الغربية مصلحة سياسية وثقافية شديدة الفرادة وشديدة الخطورة — وهى استعادة أوروبا الشرقية .

كان الخطر الإقتصادى الذى كانت تمثله شبكة منطقة المحيط الهادى والأمل فى استعادة أوروبا الشرقية إذن يدفعان فى نفس الوقت ومازالا يدفعان أوروبا الغربية .

وخصوصاً ، أشدد على ذلك ، محور باريس وبون الذى يقلل البعض من شأنه إلى الاتفاق مع الإتحاد السوفيتى .

وكان ذلك ممكناً مع جورباتشوف . من « بيته المشترك » ، لم يكن فى حاجة إلى الإبحار طويلاً للوصول إلى « الكونفدرالية الأوروبية ، حسب عبارة « ميتران » ، الذى باركه « البابا » صاحب فكرة أوروبا المسيحية (انقسام فى القرن الحادى عشر السابق) . وربما يصل إلى قلب الكنيسة المتجددة وأخيراً الكاثوليكية .

وهكذا تجتمع شتى الأحلام . وتضيف الجيوسياسية قواعدها الخاصة . ومن الآن إلى عام ٢٠٠٠ ليس محالاً ان نصل بسرعة أو ببطء إلى هذا الاجتماع .

وباختصار اعتقد أننا نصل إلى العصر ما بعد الأمريكى المقذوف مجدداً إلى المغامرة ذات الإنتشار الاقتصادى الأكبر ، بالإضافة إلى قطبين متنافسين . من ناحية المركب اليابانى الأمريكى الصينى . ومن ناحية ثانية أوروبا الكبرى .

وأين يقف جنوب العالم ، البلاد التى نطلق عليها اسم « العالم الثالث » ، من هذا كله ؟

حقيقة ، موقفها غير محدد تماما . أولاً ، وكما يشير الكثيرون ، فاليوم ، يكتوى الشمال بعسر إقتصاد الكتلة الشيوعية السابقة وهذا ليس سهلاً .

وعلينا الا ننسى أننا لا ننحصر فى حدود منطقة نهر « البوهيم » . إذ أننا نتكلم عن روسيا والصين أيضا . ربما يكون ذلك هو المجال الحيوى صاحب الأولوية فى هذا الإنتشار الكبير .

وبلا أدنى شك سيكفى ذلك إلى فترة طويلة قادمة . ولا أقول أن العالم الثالث كله مهمش . والأدق أن نقول أنه سيؤذن له بلعب دور إنتقائى جداً .

وبالطبع إذن نتوجه نحو تسارع كبير لقطبية الشمال والجنوب .

وبالتأكيد أن بعض البلاد فى الجنوب ستبقى على صلاتها الوطيدة بالشمال . أو الأدق بأحد الشماليين . وربما سيحكم النسيان على الأجزاء الأخرى لكنها لن تكون سعيدة . وسنشهد إذن بالتأكيد رد فعل سياسى ضخم لن يحتوى إلا على تنويعين : إما جماعى ووطنى ، أو « الفردية » .

ومن المحال التوقع بتفاصيل أو بتواريخ ردود الفعل المتنوعة الجماعية والوطنية فى الجنوب . لكن من المؤكد اننا سنشهدها مضافا إليها النتائج الجيوسياسية غير المضمونة .

ومن كان يستطيع أن يتوقع عام ١٩٤٥ بأن هذا المكان البعيد والمعروف قليلاً على خريطة العالم الذى كان اسمه الهند الصينية أنه سيصير بؤرة لذلك الجزء الكبير من الصراعات العالمية خلال ذلك الزمن الطويل ؟

كان شعار « تشى جيفارا : اثنان ، ثلاثة ، العديد من فيتنام » متسرعاً ومبالغاً فى حماسه بدون أدنى شك . لكن ما كان يقصده كان صحيحاً .

على أن الأهم بكثير فى رأيى هو رد الفعل الفردى والهجرة غير الشرعية إلى الشمال .

إننا نتكلم كثيراً عن هذه الأيام . وفى فرنسا صارت الهجرة أحد المحاور الإشكالية الكبرى للحياة السياسية ضمن حوار اختلط فيه الحابل بالنابل .

غير أن أحداً لا يقول الحقيقة : لا شيء نفعله أو تقريبا لا شيء نستطيع أن نفعله . حكومة « لوبن » ستكون أشرس إزاء المهاجرين ، لكن حتى حكومة « لوبن » لن تستطيع أن تؤثر التأثير الكمى الهام فى وصولهم . وبصرف النظر عن أية اعتبارات أخلاقية فإن هذا واقع لا نستطيع أن نهرب منه .

فالشعوب التى تعيش فى أمريكا الشمالية وأوروبا وحتى اليابان ، من اليوم وعلى مدى الخمسين سنة القادمة ، سيتكون نصفها ، وإن لم يكن أكثر ، من سكان الجنوب . فلينظر كل واحد منّا إلى النتائج السياسية والثقافية ، فليسعد أو يضجر من « تداخل » الشعوب لكن قبل أى شيء فلنكن على قدر من الشجاعة !

إذن ماتت « الماركسية اللينينية » فى نفس الوقت الذى ماتت فيه أحلام التطور الوطنى وسياسة الدولة المنضبطة والمناضلة والتقدمية . وهو ما يقتل أيضا حلم « ويلسن » حول الجبر الذاتى السلمى الخليق بتحسين الأمم .

ولن يدوم طويلاً سراب « السوق » الصالح للمهانين فى العالم .

لكن ماذا بعد ؟

هل ستحيا من جديد « الشعبوبية الوطنية » ذات اللون اليمينى ؟ أم الأصولية فى تنويعاتها كافة ؟

لكن هذه حلول تزيل الجزء وتحافظ على البناء . حلول خائبة فإن الواقع القطبى « للاقتصاد — العالم » الراسمالى لم يفقد شيئاً من قوته . لكن ما فقد من قوته هو أوهام اليسار العجوز المناهض للنزوع المذهبى — سواء أكان الإشتراكيين الديمقراطيين أو اللينينيين أو المناهضين للإمبرالية .

ماالذى يحيا ؟

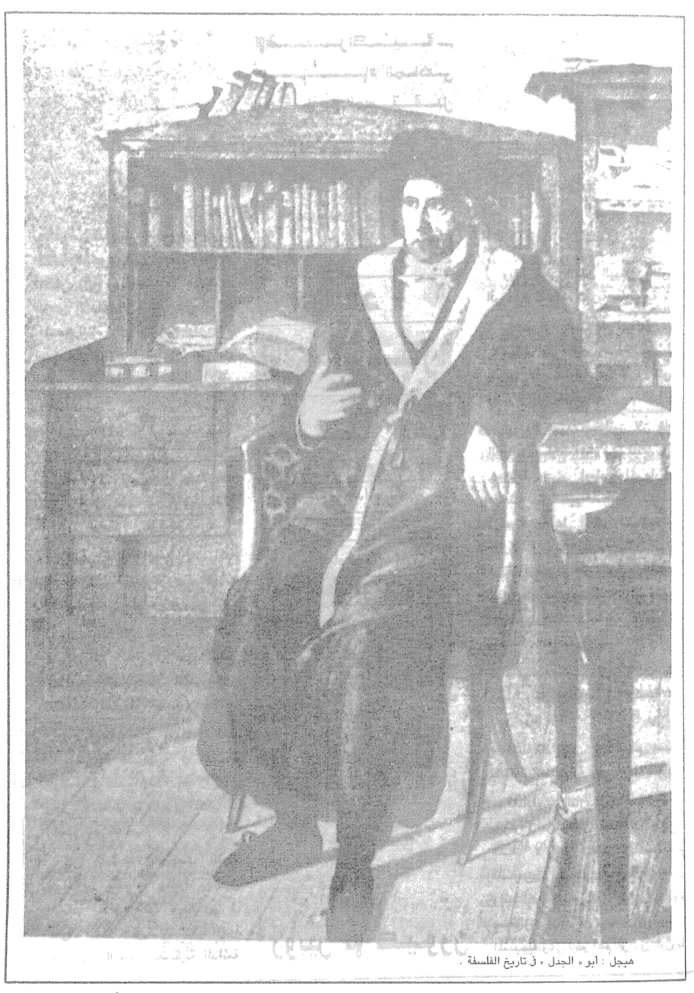
العاجل الآن إعادة التفكير فى إستراتيجيتنا الشاملة واستعادة طريق ١٩٦٨ على نحو إيجابى ومدرك وذكى ومرن .

لكن هذا ممكن أيضا .

إذ إن عيوب النظام القائم تظل بأكملها والمتناقضات كذلك .

وينبغى الآن أن نلقى نظرة شديدة الأسلوب النقدى إلى أنفسنا وأدوات تحليلنا وخطايانا التاريخية التى هى أكثر من خطيرة فى سبيل إعادة بناء حركاتنا ورفعها إلى مرتبة الانتقال الصعب جداً والمهتز جداً من الراسمالية كما ظهرت فى التاريخ إلى شيء آخر نرجو أن يكون افضل .





هيجل : أبو « الجدل » في تاريخ الفلسفة .

الاشتراكية ـ
أحلام الماضي
ومشاريع المستقبل

ماذا بعد الانهيار؟

كيف تستطيع «العقيدة» الماركسية ان تقوم بالنقد الذاتى والتصحيح الذاتى على نحو شامل ؟

سؤال هام لا تقل اهميته عن اهمية نقطة البداية فى بلورة العقيدة

روبين بلاكيورن

فمن المعروف انه فى بيان الحزب الشيوعى وفى بعض الكتابات الاخرى ألحّ ماركس وإنجلز على فكرة تؤدى إلى أن الراسمالية هى الشرط المسبق لبناء نظام اجتماعى ارقى بناء سيتطلب تحولات اجتماعية ، على اقل تقدير ، فى كثير من الدول الاكثر تطوراً .

ونتيجة هذه الأطروحة الماركسية التقليدية انه كان من الوهم تماماً القيام «ببناء الاشتراكية» فى بلد واحد كبير ، بل فى سلسلة من البلدان بطيئة التطور .

وكانت خلفية الثورات الاشتراكية الناجحة فى القرن العشرين ، خراب الحروب وفشل الراسمالية .

واضطرت كل واحدة من تلك الثورات ان تكافح فى نفس الوقت التخلف الإجتماعى الاقتصادى الضاغط والحصار العسكرى .

فى روسيا كانت النتيجة إقامة الديكتاتورية السوفيتية فى الفترة الواقعة بين عام ، ١٩١٨ — ١٩٢٢ . وحتى الانتصار على الحرب الاهلية لم يسمح بأى هدنة .

كان قادة الدولة بعد الثورة محاصرين بالمجاعة وكانوا يخشون امتداد فقدان الثقة ويعتقدون فى العودة الممكنة للثورة المضادة . فردوا بعد جهاز التعبئة العسكرية الدائمة للسكان إلى زمن السلم .

ويقال اغلب الوقت اليوم إن الثورة الروسية كانت «تجربة ماركسية» .

ويبدو لى استناداً لجملة من الأسباب انه لا يحق للماركسيين ان ينزعوا اية مسئولية عن ثورة اكتوبر والدولة التى خرجت من رحم الثورة .

إن الماركسيين مخطئون لأن قادة الدولة السوفيتية ، من لينين إلى جورباتشوف ، استوحوا ماركس وبحثوا عن تنظيم المساندة السياسية لهذه الدولة على اساس انتمائهم إلى الماركسية ومن وجهة نظر ذاتية اعتقدوا انه فى ظل الوضع الصعب الذى كان فيه وضعهم كانوا يخدمون بأفعالهم هذه القضية الاشتراكية حسبما كانوا يفهمونها .

والحقيقة أيضا أن ستالين كان وحشاً وأنه شوه ومسخ الماركسية على نحو مؤلم .

لكننا لا ينبغى أن نسلم مسبقًا بالعقائد السياسية وانساق الاعتقاد .

فالماديون التاريخيون ينبغى أن يكونوا فى مؤخرة من ينتقد ذلك المنهج . مثلاً لا ينبغى فقط لن يحاكم المسيحيون حسب افعال القديسين وإنما كذلك ينبغى ان يسلموا بأنهم مسئولون جزئياً عن سياسة الحكومات المسيحية وعلى نحو اعم عن دور أوروبا

المسيحية فى العالم . لكن القول بأن تجارة العبيد أو « هولوكوست » اليهود يعبران عن جوهر المسيحية هو قول يثير الضحك .

على أننا نستطيع أن نعقد رباطاً بين العقيدة المسيحية وبين تلك الأحداث وإلاّ فكيف نفهم أنه كان فى مقدور المسيحيين المساهمة فى إثارتها وهذا النوع من الرباط ربما يكون ببساطة « البورتريه » التقليدى للوثنيين واليهود المرسوم بيد « المسيحية الشعبية » .

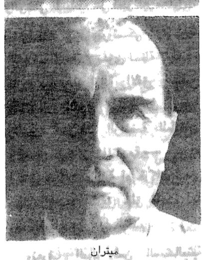
كذلك لا ينبغى أن نثق فى أفكار ونوايا آدم سميث وعمانوئيل كانط وكوند ورسيه وأليكسى توكفيل فى حكمهم على الليبرالية الغربية ، لأنه ينبغى أن نأخذ بعين الاعتبار أن الدول الليبرالية مسئولة عن الحرب والاستعمار والمجاعة بالإضافة إلى مسئوليتها عن بعض النقاط الخفية التى تطبع الفكر الليبرالى .

كما أن الثغرات والأخطاء والحاجة إلى دمج هيئات الرقابة أو التوازن داخل الأبنية السياسية أو تصفية العملة لا تمثل جوهر الماركسية ، وإن كان يروق للبعض أن يؤكد على ذلك .

لكن من الممكن أن تكون مسئولة جزئياً بشكل مباشر أو غير مباشر ، عن الممارسات التى اصطلحنا على تسميتها « بالاشتراكية المطبقة بالفعل » .

ماركس





ميتران

وقبل الخوض فى التناول الخاص لقطاع من « العقيدة الماركسية » والممارسة الشيوعية ، قطاع الإدارة الاقتصادية ، أود أن أضيف لما سبق لازمة وحصراً مهمين .

إذا كانت الماركسية لا تستطيع الهروب من ارتباطها الحميم بمصير الثورة الروسية فلا ينبغى أن نجهل أيضا أن العديد من الماركسيين الأكثر شهرة فى ذلك الوقت ليس فقط كاوتسكى وبليخانوف وإنما كذلك روزا لوكسمبورج — قد انتقدوا منذ البداية ممارسة ديكتاتورية الحزب .

وأنطونيو جرامتشى الذى كان متعاطفاً مع المكون الإرادى وعى لثورة اكتوبر وصفها بقوله أنها « ثورة مصوبة ضد « رأس المال » (كتاب « رأس المال » لكارل ماركس) .

وانطبع التاريخ اللاحق للإتحاد السوفيتى بالانتقادات المتوالية من جانب المنشفيك والاشتراكيين الديمقراطيين و « الأوستروماركسيين » وأنصار المجالس العمالية والاشتراكيين الليبراليين والمعارضين اليساريين واليمينيين والماركسيين الغربيين وهكذا دواليك حتى أحدث الكتابات ، ككتابات رودولف بهرو وبوريس كاجرليتسكى .

كان كل واحد بطريقته ينتقد ويرفض الخط الاستراتيجى الأساسى بالإضافة إلى نقده للجرائم والأخطاء

الخاصة المرتكبة فى الطريق .

غالبيتهم كانت تقف بوضوح إلى جانب التراث الماركسى واستوحت من ماركس معارضته اللاذعة لمصادرة الصحف وللممارسة القمعية لسلطة الدولة والحث على فكرة أنه كان ينبغى الانتصار أولاً فى المعركة الديمقراطية وناضلت لصالح مسئولية الممثلين السياسيين .

وكانت كتابات ماركس حول اليعقوبية والبونابرتية محكومة بمعارضة عميقة للأحزاب السياسية التى كانت تبحث عن إستبدال القوى الاجتماعية بنفسها .

وبما أن الماركسيين فى القرن العشرين قد تجاوزوا ضد البشاعة الحديثة للحرب العالمية والشمولية ، فبالتأكيد أنهم اضطروا إلى إبداع مفاهيم جديدة بغير التخلى عن موقف المادية التاريخية .

وإذا رجعنا إلى الأمثلة التى ذكرتها سابقاً ، فينبغى أن نضيف إلى ملف المسيحية والليبرالية ، بمقياس نضفاض يتسع حينا إلى المعارضة ثم يضيف إليها حيناً آخر . فقد كانت المعارضة فى بعض الأحيان مباشرة ومتجهة ضد النزعة العسكرية والعبودية أو الاضطهاد العنصرى والدينى تلك النزعة التى كان صناعها أقلية شجاعة من المسيحيين والليبراليين .

وقدرة العقيدة على النقد الذاتى والتصحيح الذاتى على نحو شامل أمر مهم كأهمية نقطة بدايتها لأن نقطة البداية تستطيع على أى حال أن تكون مبنية على خطأ أو أن تكون غير كافية فى كثير من الجوانب .

وتمثل البلشفية بالنسبة للتيار الماركسى السائد تنويعاً على لحن الإرادوية السياسية . ونفهم فى سياق الأوتوقراطية الفوضوية أن القداسة التى كان يتمتع بها لينين فى التنظيم والانضباط كان لها معنى فى نظر العديد من المناضلين .

وقد مهدت مجازر لا نظير لها فى الحرب العالمية الأولى وآثارها التدميرية فى حياة مئات الملايين من البشر ، الطريق أمام وصول البلاشفة إلى قمة السلطة .

وتصلبت الديكتاتورية البلشفية بعد ذلك أثناء الحرب الأهلية الدموية والأزمة الحادة التى أفرزتها المجاعة واستنفاد طاقة الشعب وزوال أوهامه اللاحقة على أحداث الحرب .

واشتدت حدة الأيديولوجية البلشفية لتبرير احتكارها الجارف والوحشى للسلطة على نحو غير معقول .

واعتقد لينين وتروتسكى أن الثورة البلشفية لم تكن سوى لحظة توقف ، كان مصيرها إزالة الأفق الفظيع للانتصار الثورى المضاد فى روسيا وتأمين الحركات الرافضة للطبقات القائدة للبلدان المتقدمة ـــ سواء أكانت حركات عمالية أم حركات تحرر وطنى ـــ عن طريق خلق قاعدة لها ربما تساعدها على التقدم .

ونعرف اليوم ثمن الستالينية الرهيب وأثر « المثال » السوفيتى الذى غالباً ما كان سلبياً .

وعلى أية حال فإننا نجهل ما كان من الممكن أن يترتب من عنف دموى على انتصار الجيش الأبيض و « الكوزاك » .

وبينما يحق للشعوب الأعضاء فى الاتحاد السوفيتى السابق أن يشعروا بالغضب من الأهوال التى أفرزتها الستالينية ، فإن بقاء الاتحاد السوفيتى فى الماضى قد كان له العديد من النتائج التى كانت غالباً إيجابية بالنسبة لأولئك الذين كانوا خارج حدود الاتحاد السوفيتى .

وبالطبع لعب السوفييت دوراً كبيراً لا نظير له فى تصفية النازية . لكنهم ساهموا أيضا ، وإن كان على نحو من الصعب تقييمه الآن ، فى ضغط الطبقات القائدة الغربية وإرغامها على إفساح المجال أمام حركات التحرر المعادية للاستعمار والتنازل أمام معارضيها أنفسهم ، أى أمام الأحزاب العمالية .

وحتى إذا كان ضرورياً الأخذ بعين الاعتبار بعض العوامل الأخرى ، فإنه من المثير أن نشير إلى أن أغلب الدول الأوروبية المحيطة بالكتلة السوفيتية السابقة هى التى كانت تتمتع بالمساعدات والإجراءات الاجتماعية الأكثر حجماً ، والكثير من هذه المساعدات دخلت فى عصر كان فيها لمعان الاتحاد السوفيتى قد وصل إلى ذروته فى فترة ما بعد الحرب .

وعلى أية حال ، أحب أن أطرح أن المنجزات المكلفة والمبالغ فيها للاتحاد السوفيتى باعتباره قوة غير رأسمالية تؤكد فكرة أنه كان فى مقدورها أن تكون لاحقا نظاماً منافساً ـــ لكن ما توحى به فى الواقع هو أن الاقتصاد السوفيتى دائما ما كان نظاماً اجتماعياً واقتصادياً إزدواجياً .

فالتجميع الجبرى وبرنامج التصنيع كما أقامه ستالين ساندته تعبئة شبه عسكرية للكوادر الذين كانوا يعتبرون فى ظل عالم معادٍ ، « الخط العام » لستالين وكأنه ضرورى لبقاء الحزب

والدولة التى كان يراقبها .

ولعب جهاز الحزب المستمر والمسيطر على الدولة على الوصل بين التخطيط بأسلوب عسكرى المفروض من فوق وبين تعبئة الكوادر انطلاقاً من القاعدة لفرض وبناء إقتصاد سلطوى .

لكنه لم يكن يستطيع الإفلات تماماً من ضغوط المحيط الراسمالى العالمى .

كما انه لم يكن يستطيع ان يصفى تماماً مخلفات العلاقات الاجتماعية الراسمالية .

وفى نقد كاوتسكى المهمل على غير حق ، وإن كان نقدا وحيد الجانب ، لاشكال الاقتصاد السوفيتى فى عقد الثلاثينات والأربعينات ، ابرز كاوتسكى أن ما كان ينقص هذه الأشكال هو القاعدة الاجتماعية الضرورية والقدرة على التحول إلى اشكال اجتماعية أصيلة وعلى التنمية الاقتصادية المنتظمة والمتنوعة .(١)

واعتبر كاوتسكى أن ادارة إقتصاد حديث يجاوز ببساطة كفاءة البيروقراطية .

وعلى العكس من ذلك ، لم تكن البيروقراطية خليقة سوى بأن تشجع نوعا من أنواع التطور الموصول بقدراته الخاصة ومصالحه الضيقة .

وقد رأى كاوتسكى نفسه أن الدولة السوفيتية كانت على علاقة راسمالية من حيث الجوهر مع الفلاحين ، وفى البداية ، مع المنتجين المباشرين . وكانت الحقوق الديمقراطية وهيئات المراقبة ضرورية لتامين جودة التقدم الصناعى .

ورغماً عن شتى التصريحات المعلنة لصالح أو ل الخطط الخمسية ، افصح ستالين نفسه عن حدود نموذجه الإدارى ، كما يبدو ذلك من محافظته على بعض عناصر اقتصاد العملة المنظور إليه وكأنه راسمالى .

بالفعل نستطيع أن نرى اليوم انه فى الغالبية العظمى من النظم التى كانت قائمة على النسق السوفيتى ، كانت تلك المؤسسات تلعب دوراً حاسماً .

فقد كانت العملة الوسيلة الرئيسية للتبادل ، والأجور الجوهرية للعمل ، والإنتاج الصغير شائع فى القطاع الزراعى ، والتجارة الخارجية ضخمة فى قطاعات هامة وهكذا دواليك .

وإذا اعتقدنا فى نوع خاص من الارثوذوكسية الماركسية ، سواء أكانت نمطاً من الطوباوية او نموذجاً من الإرادوية البيروقراطية ، فعلينا أن نعتبر أن هذه الآليات الاقتصادية عناصر مجزوءة من الراسمالية (وإن كان كل واحد على حدة قد سبق بزمن طويل فترة ازدهار الراسمالية) .

وفى كل مكان اختارت فيه الدول الشيوعية استراتيجيات الاكتفاء الوطنى ، شجعت الركود والقمع السياسى — وأخيراً ، كلها لم تفعل أغلب الوقت سوى الاستسلام أمام الضغط الراسمالى ، على نحو بارز تماماً كما كان الحال فى الصين فى نهاية عقد السبعينات وبداية الثمانينات .

وبدا ستالين احيانا وكأنه يوصى ويطبق نماذج الاكتفاء الذاتى الاقتصادى للتطور على هذا النحو — خصوصاً بعد ١٩٤٥ وفى سياق « المعسكر الاشتراكى » الموسع لكن كان دائما بطيء التقدم .

على أن البحوث الأخيرة فى نطاق التطور الاقتصادي السوفيتى تبرهن على أنه فى الثلاثينات والأربعينات كان التطور الاقتصادى سريعاً على نحو لا نظير له ، حينما كان هناك تبادلات كبيرة مع الغرب .

والواقع الجدير بالملاحظة فى هذا الشأن انه فى مستهل الثلاثينات فإن أكثر من نصف الصادرات من الماكينات القادمة من المملكة المتحدة أو من الولايات المتحدة الأمريكية كان ذاهبا إلى الاتحاد السوفيتى . وفى بعض القطاعات كانت الأرقام تتجاوز نسبة التسعين فى المائة .

إنها الصادرات الضخمة من التكنولوجيا الغربية فى الثلاثينات والأربعينات هى التى ارست قواعد التطور السوفيتى حتى نهاية الخمسينات .

ولا ينبغى أن ننسى أن السياسة الغربية أثناء الحرب الباردة منذ منظمة « الكوكوم » وحتى الأشكال الأخرى للحصار الاقتصادى والعسكرى — كانت مصنوعة لغاية توجت بالنجاح ، وهى قطع الإتحاد السوفيتى عن التكنولوجيا الغربية والضغط على المخططين السوفييت لإهدار المصادر الضخمة المضافة إلى المصروفات العسكرية .

وبالتاكيد فإن هذه المشكلات كانت قد تدهورت نتيجة القمع البيروقراطى والإدارة السيئة . واستطاعت الشريحة القائدة السلطوية أن تبرر نفسها على نحو أيسر من وجهة النظر العسكرية . ومن جهة أخرى فقد عرقلت الطبائع الشمولية للشريحة القائدة السلطوية استخدام العقول الإلكترونية والمنافسة بين التكنولوجيين وبين العمال والتى كانت شائعة جدا فى أوساط القطاعات المتقدمة .

والآن ونحن نمتلك معطيات سوفيتية قابلة للاستخدام فعلاً سيكون مثيراً أن نلاحظ أنه إذا كان القمع الستالينى ، سواء أكان المقصود هو التجميع الإجبارى أو نظام معسكرات الاعتقال ، فقد أتى حقاً بمساهمة حاسمة فى « التراكم البدائى » لرأس المال السوفيتى .

ومن المحتمل جداً أن يُظهر الرصد العام أموراً سلبية على الصعيدين الاقتصادى المحض أو الإنسانى كافة .

وإذا تم الانتفاع خلال فترة من الزمن من فائض الزراعة ، فالإنتاج الزراعى عانى بانتظام . وكان سجناء معسكرات الاعتقال البؤساء يبنون محطات توليد الكهرباء والسكك الحديدية فى ظل ظروف لم يكن من الممكن أن يسمح بها العمال الأحرار . بل فى مناجم الذهب « كوليما » يبدو أن العمل الحر أكثر إنتاجية اليوم من العمل الإجبارى فى الماضى .

ولكيلا نذكر سوى ذلك ، فالاندفاع المتعاظم للعمال المجبورين إلى التمرد ، كما حدث فى « فوركوتا » عام ١٩٤٩ ، قد صار مصدر إضطرابات . وحينما خرج الملايين من البشر من المعسكرات فى الخمسينات . فقد رجع ذلك فى جزء منه إلى الضغط الاجتماعى — ولكن ربما أيضا فى جزء منه نتيجة نظام العمل الإجبارى الذى اتضح ثقله وغلاء ثمنه وانعدام فعاليته .

لكن هل كان هناك بديل ؟

من المثير أن نلاحظ انه باعتباره معارضاً « للاشتراكية فى بلد واحد » ، اقترح تروتسكى عام ١٩٢٨ خطة شجاعة للوصول إلى هدف مزدوج .

أولاً : مساعدة الإتحاد السوفيتى على كسر العزلة الاقتصادية .

ثانياً ، دفع قضية حركات الطبقة العاملة فى أوروبا الغربية . واقترح على الحكومة السوفيتية دعوة الاشتراكيين الديمقراطيين فى أوروبا الغربية وأوروبا الوسطى إلى الانضمام إليه لإعداد وتحقيق الخطة الخمسية .

وأشار إلى أن الإتحاد السوفيتى فى حاجة محزنة إلى شراء الماكينات . كذلك لفت الأنظار إلى الآفة المتعاظمة للبطالة فى باقى أوروبا .

فى مثل هذا الوضع ، كان مفروضا أن تكون المقاربة الأممية — أو ، لكى نستعيد ألفاظ ماركس ، « الكوزموبوليتية » — صياغة برنامج للتقدم الاقتصادى والاجتماعى المشترك بين الحكومة السوفيتية وبين الحكومات الأوروبية التى ربما كانت ترجو الانضمام إليه — كحكومات النمسا وألمانيا وبريطانيا العظمى مثلاً ، حيث كانت الأحزاب العمالية فى السلطة أو كانت تأمل الوصول إليها .

ورأى تروتسكى أن هذا الاقتراح هو الوجهة الاقتصادية لمبدأ جبهة العمال المتحدة . لم يخش أن « يلوث » التعاون الاقتصادى فى مجال التخطيط بين الحكومة السوفيتية وبين الحكومات الاشتراكية الديمقراطية عقلانية الحكومة السوفيتية ، لأن المجتمع السوفيتى لم يكن يستطيع ، وكذا لم يكن يستطيع أى مجتمع غيره ، أن يكون منظماً على نسق « الدماغ العملاق » التى يراقبها نوع من المراكز العالمة بكل شىء .

وهذا ما كتبه تروتسكى فى نوفمبر ١٩٣٢ : « إذا كان هناك دماغ كونى يسجل فى وقت واحد شتى العمليات الطبيعية الجارية فى المجتمع ويقيس قواها ويتوقع نتائج تداخلاتها المتبادلة ، فإن هذا النوع من الأدمغة قد يكون خطة دولة فاضلة بغير عيب . والحقيقة أن البيروقراطية تعتبر أحيانا أن دماغها كذلك . لذلك تعفى نفسها على هذا النحو السهل من مراقبة السوق والديمقراطية السوفيتية . وينبغى أن يعرف الصناع الكثيرون جداً للاقتصاد الجماعى التابع للدولة أو الخاص ، حاجاتهم، بالإضافة إلى الأهمية النسبية لهذه الأخيرة ، ليس فقط بواسطة التلفيق الاحصائى الذى تقوم به لجان التخطيط ، وإنما كذلك عن طريق الممارسة المباشرة للضغط على العرض والطلب ، التخطيط مراقب وفى الجزء الأكبر منه مطبق بواسطة السوق . وينبغى أن يتأسس ضبط السوق على الميول التى تظهر به . وينبغى أن تثبت المشروعات المعدة فى المكاتب بالدليل على عقلانيتها الاقتصادية بفضل الحساب التجارى . ولا يمكن أن نفكر فى اقتصاد الفترة الانتقالية إذا لم تكن مضبوطة بالروبل »[٢] .

وحسب تروتسكى فربما تستخدم الديمقراطية السوفيتية المتجددة السوق للتحقق من المطابقة والعقلانية فى التخطيط فضلاً عن أنه يلزمها اللجوء إلى تدخلات الدولة شديدة الخصوصية — إعادة توزيع وضوابط ودعم وضرائب — لتصويب المنطق الأعمى للسوق .

إن دفاع « بوخارين » عن استخدام السوق وعن ضرورة التحالف على المدى الطويل مع المنتجين الصغار معروف جيداً لكن ، كما يشير إليه « آليك نوفيه » ، وقف تروتسكى والمعارضة

اليسارية كذلك ضد أوهام النظام البيروقراطى .

وقد لفت تروتسكى منذ ١٩٢٢ الانتباه إلى المؤتمر الرابع « للكومينترن » وإلى فكرة أنه « يتوجب ، خلال فترة الإنتقال ، على كل مصنع أو مجموعة مصانع ، بقياس فضفاض يتسع إلى كثير أو قليل من المعنى ، على التوجه خارج نطاق السوق والخضوع إلى رقابة السوق . وينبغى على كل مصنع تابع للدولة وكذلك على مديره التقنى ، أن تمارس ليس فقط رقابة من فوق بواسطة جهاز الدولة — وإنما كذلك عن الطريق السفلى بفضل السوق — الذى سيؤمن إلى فترة طويلة من الزمن ضوابط اقتصاد الدولة »(٣) .

ونحو ١٩٣٣ رأى تروتسكى أن دور العملة وعلاقة السلع سيتعاظم مع نمو الاقتصاد السوفيتى : « مناهج الاقتصاد وقياس العملة المتطورة فى سياق الراسمالية غير مرفوضين وإنما قد انطبعا بالطابع الاجتماعى » .

هكذا كان يكتب .(٤) .

والحقيقة أنه فى مستقبل بعيد نسبياً ، بعد الانتقال الاقتصادى ، ستكف العملة والأسواق عن كونها أدوات ضرورية للتخطيط الاجتماعى . لكن تروتسكى لم يضع الطريقة التى عليها ستعمل العقلانية الاقتصادية حينذاك وهذا وإن اكتفى بالالماح على أنها ستتم على صعيد عالمى .

وينبغى أن يكون بناء اقتصاد إشتراكى دائما متمحوراً حول القوى التقدمية فى الاقتصاد العالمى .

ومن هنا دفاع تروتسكى عن الاتحاد فى نطاق التخطيط مع الحكومات الاشتراكية الديمقراطية فى أوروبا الوسطى والغربية ، ومن جهة يسمح اقتراح تروتسكى باستغلال التفوق التكنولوجى الغربى لصالح التنمية السوفيتية ، ومن جهة أخرى سيسمح ذلك للأحزاب العمالية الغربية باقتراح اجراءات عملية ومرحلية فى سبيل حل مشكلة البطالة العامة وإن لم يتم الأخذ بعين الاعتبار اقتراح تروتسكى فقد كان ستالين فعلا مؤسس التعاون الاقتصادى مع البلدان المتقدمة فى الثلاثينات وأثناء الحرب .

لكن اندلاع الحرب الباردة فرض حصاراً اقتصادياً كان ضاغطاً على نحو غير معقول ومهد الطريق أمام مرحلة الركود الآتية آنذاك وأوهام الإكتفاء الوطنى . وبدت منظمة « الكوكوم » أقوى من منظمة « الكوميكون » .

وهناك فيما قلته حول تطور الاقتصاد السوفيتى خطر حصر التفسير فى مظهره التكنولوجى ، إذ إننى أوضحت أن تحولات هذا التطور لصيقة بدخول التكنولوجيا الغربية .

وتصادفت النجاحات الاقتصادية الحقيقية ، من جانب آخر ، وإن كانت فى نفس الوقت وحشية ، فى ظل مرحلة الذروة الستالينية ، مع عصر لم تكن فيه بعدُ الدوافع الأيديولوجية للكوادر والمناضلين قد ضعفت نتيجة خيبات الأمل المتكررة ، فضلاً عن أنه ينبغى أن نتساءل لماذا الإتحاد السوفيتى ، حينما وصل إلى درجة لا بأس بها من التقدم ، لم يحرز تقدماً فى المجال التكنولوجى ؟

ولماذا ظل الإتحاد السوفيتى يسىء استخدام التكنولوجيا التى أمكنه استيرادها ، كالعقول الإلكترونية المتطورة التى دخلت العديد من المصانع السوفيتية الكبرى فى مفتتح السبعينات ؟

وخلال العقود الأخيرة ، رأينا الرأسمالية — رغماً عن مشكلاتها الخاصة بها وعن التفاوت الاجتماعى الجارى بداخلها — قادرة على البرهان على تفوقها على الاقتصاديات القائمة على النسق السوفيتى ، وذلك على صعيد الإنتاجية .

ما هى العراقيل والعقبات الخاصة التى افرزتها هذه الاقتصاديات ؟

ينبغى ، كما ابرزت من قبل ، اعتبار النفى الوحشى للديمقراطية الاشتراكية ، بالتأكيد وكأنه العامل الذى عرقل التجديد والنمو الخلاق للجمعيات الجماعية الخاصة بالعمال ، خصوصاً فى مجال العقول الإلكترونية .

لكن هذه الحجة لا تفسر وحدها ضخامة الركود السوفيتى لأن بعض الدول ، ككوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورا ، استفادت أكثر بكثير من التكنولوجيا الجديدة من ناحية الإنتاج فى نفس الوقت الذى فرضت فيه رقابة شاملة وطبقت فيه الحريات الديمقراطية ، محاولة ، دون إنجاز دائم ، خنق نمو النقابات .

إن الطابع البدائى للصلات القائمة بين القرارات الاقتصادية المصغرة وبين القرارات الاقتصادية الكبيرة هو الذى بدا وكأنه العيب الحاسم فى الإقتصاديات القائمة على النمط السوفيتى . أو إذا آثرنا قولاً مغايراً يبرز نفس الفكرة ، فنقول إنه غياب نظام محكم لضبط وقت العمل الضرورى اجتماعياً .

ومن اللافت أن هذا الضعف يبدو أقل وضوحاً فى القطاعات التى فيها مستهلك واحد ضخم ، والذى فى استطاعته أن يكون له طلبات خاصة

وأن يرفض المنتوج إذا لم يكن على مستوى النوعية المطلوبة .

وعلى هذا كان الإنتاج السوفيتي الحربي دائما وأغلب الوقت على مستوى منافس على الصعيد العالمي لأن الوزارات التي كانت تخزن السلاح السوفيتي كانت تراقب عملية الإنتاج وكان لها السلطة في رفض أية معدات منخفضة المستوى .

ليس المستهلك السوفيتي المتوسط في نفس الوقت كما نعرف فهو لا يتمتع بتمثيل مؤسسي فعلي .

والمحاولات التي جرت آنذاك من أجل تلافي هذا العيب بتشريع مراقبة تتمتع بنوعية فعلية (جوسبرييمكا) قد فشلت مصطدمة بالمعارضة المزدوجة للعمال والإداريين .

وعلى أية حال فالمشكلة تظل مرتبطة بتخفيض التكاليف بالنسبة لنوع الإنتاج لا بضبط الطلب . بل من الممكن ألا يكون الإنتاج العسكري السوفيتي أو نجاحات مفتتح الثورة الصناعية قد تم بواسطة التكلفة القصوى .

ومنذ زمن طويل كنت أعمل مع الوزير الكوبي وكنت مسئولاً عن العلاقات التجارية مع الإتحاد السوفيتي . وأتذكر قصة رواها قائد القسم حول المؤتمر الاقتصادي الذي كان قد عقد بطلب من « أوسوالدوا دورتيكوس » الذي كان في ذلك الوقت رئيساً يراقب مجمل القسم الاقتصادي .واحد من المستشارين أكد أنه مع إتخاذ الإجراء في أي قطاع ، ينبغي ابتغاء الربح الأقصى مع تكلفة ومجهود أدنى .

فأثبت دورتيكوس بحماسه اختلافه قائلاً : « ليس كذلك يعمل الثوريون » .

ثم استطرد قائلاً : « بل بالعكس ، إننا نحاول الحصول على الربح الأقصى بالقوى القصوى (FUERZAS) ، للأسف ، صار الموقف الذي وقفه دورتيكوس ، ومنهج التنمية الاقتصادية المستوحى من روح الفروسية ، معبراً أكثر من اللازم عن نمط إدارة الاقتصاد الكوبي ، كما يدل على ذلك هدف « العشرة ملايين طن » المحدد لحصاد عام ١٩٧٠ .

ففي الاقتصاديات القائمة على النسق السوفيتي لا تجابه المصانع كثيراً مشكلات تتطلب تقييماً دقيقاً للحلول .

لم تستطع المصانع السوفيتية تحقيق استخدام العقول الإلكترونية لأنها وجدت نفسها في سياق اقتصادي تجابه فيه إما انضباطاً أكثر من اللازم أو انضباطاً أقل من اللازم [illegible] المبدأ نيل لها انضباط أقل من اللازم . بالضبط ما عليها أن [illegible] أن تستخدم من مواد أولية . [illegible] ، [illegible] هناك نقص وكان من الواجب استخدام الصلات السرية لإغلاق الفجوة . وكانت المواهب المطلوبة ليست مواهب مدير المصنع العاقل صانع المنطق الاقتصادي وإنما كان المطلوب مواهب واحد من أولئك الذين تطلق عليهم اسم « المنافق » . ولم تلعب جميع هذه الحسابات المتعلقة بالتكاليف المقارنة والهامشية ، و « تقييمات للرونة » التي تشغل بال مدير المصنع الغربي ، أي دور في هذا النظام .

فلنأخذ قضية المنتجات الرديئة مثلاً لا يترفع مدير المصنع الغربي عن الربح الناتج عن بيع منتجات المصنع الرديئة — ويعمل مدير المصنع السوفيتي في خدمة وزارة ، ولن تسنح له الفرصة لاكتشاف أن المهملات الصناعية من الممكن أن تصير مصدراً ضرورياً في فرع آخر .

وإذا ربطنا بين هذه الواقعة وبين إهمال الرقابة الاجتماعية وصنمية القيمة الإضافية بغير أن نمتلك أدنى البراهين على أن ما تم إضافته له فعلاً قيمة اجتماعية — فهذا واحد من بين العوامل التي ساهمت في صناعة الرقم القياسي الرهيب، الذي أحرزته الاقتصاديات القائمة على النسق السوفيتي على صعيد البيئة .

وأوضحت التجربة السوفيتية على صعيد إدارة العقول الإلكترونية أن النظام البيروقراطي لا يتطلب بالضرورة سوى بعض المعادلات الرياضية البدائية .

وفي الواقع [illegible] العقول الإلكترونية القوية التي تم شراؤها من العملات [illegible] في السبعينيات لم [illegible] [illegible] الأخصائيين [illegible] .

وإذا كان لدى مدير المصنع السوفيتي فائض في المصادر ، [illegible] المصادر [illegible] بحيث تكون [illegible] [illegible] [illegible] للمصنع [illegible] التي سيخزنون الإحتياطي الأهم وستفتح مصانع قطع غيار ، وستوفر الحاجة إلى قوة عمل ثمينة .

على هذا فلم يصنع الإتحاد الصناعي السوفيتي الكبير غالبية قطع الغيار وإنما كذلك قاد المزارع وتربية المواشي وأفران الطوب ، في سبيل الإعفاء المباشرة من حاجات قوة العمل ، بغير اللجوء إلى سوق قليلة الدوران وغير فعالة .

هذا المنهج في التنظيم له منطقه الخاص وهو شديد الفرادة . لكنه لا يقود إلى — أو هو غير أهل لذلك —

عقلانية اقتصادية أوسع .

رسمياً الإنتاج أكثر اجتماعية من الأنتاج الرأسمالى . عملياً هو أقل من ذلك بكثير .(٦) .

المصنع السوفيتى إما خاضع إلى « أوامر » أو « إلى نفسه » . وفى الحال الأولى ، فإن التحول الفعلى لطابع إدارة المصنع إلى طابع اجتماعى محدود بعجز المخططين عن معرفة أو رقابة اقتصاد واسع النطاق ومعقد ، بينما نجد فى الحال الثانية استقلال المصنع واضحاً .

وعلى النقيض ، حتى المصنع الرأسمالى الأكثر بدائية ، مجبر ، بحكم آليات المنافسة ، أن يقارن بين إستخدام مصادره وبين الاستخدام الجارى من قبل منافسيه لمصادر مشابهة .

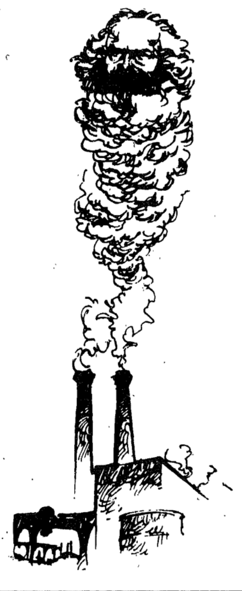
وكلما كانت المصانع المختلفة منتجة ومربحة اقتصاديا ، كلما استطاع التشريع والضرائب أن تفرض عليها أهدافاً متكافئة ومسئولة اجتماعياً .

وفى كتاب « رأس المال » وضمن كتابات أخرى ، يقدم ماركس عرضاً معقدا للغاية لآليات قانون القيمة فى النظام الرأسمالى .

فى نفس الوقت ، يدلل ماركس بوضوح على أن القوة العمياء لتراكم رأس المال تعنى مشكلات طرحتها هى نفسها جاهلة بالخسارة الإنسانية والبيئية التى لا تأخذها السوق الرأسمالية بعين الاعتبار .

وربما كان من الممكن أن نعتقد أن آليات الاقتصاد الاشتراكى كانت أعقد بكثير بالطبع من آليات الرأسمالية .

لكن المثير للدهشة أن ماركس يكتب فى بعض المواضع المشهورة بعض المبالغات البلاغية التى توحى بأن كل شىء سيكون واضحاً بعد تصفية الرأسمالية .



فلنأخذ مثلا « الروبنسونيات » البروليتارية فى خاتمة القسم الخامس بصنمية السلعة فى الفصل الأول من الجزء الأول من « رأس المال » حيث قارن ماركس بين الطبقة العاملة العالمية باعتبارها كتلة جماعية وبين روبنسون الذى اقام بجزيرة معزولة .

كما يحتوى « نقد برنامج جوته » على مبادىء هامة للتوزيع الجماعى ، لكنه يحتوى قليلاً جداً على أمور نافعة حول التنسيق ، وتحويل الإنتاج إلى إنتاج اجتماعى .

وإذا فحصنا عن كثب أكثر سنجد ماركس فعلاً يقول فى هذه المواضع أن عقلانية خضوع العمل إلى الحاجات الاجتماعية هى التى ستظهر بوضوح حينما سنكون قد صفينا سيادة السلعة .

وبما أن ماركس قد كان نصيراً للتحول الاجتماعى الجذرى للإنتاج فى العديد من الدول الرأسمالية الاكثر تقدماً ، فمن الصعب ان نتصور انه تنبا فعلاً بالسلطة التخطيطية العالمية المحددة لأية كمية لكل شىء ينبغى أن يتم إنتاجه .

ومن جانب أخر ، ينبغى أن نقر بانه لم يرسم قط بياناً دقيقاً لآليات الاقتصاد الإشتراكى .

وحسب جميع الاحتمالات ، فالحاجات الإنسانية الجديدة التى كان فى مقدوره ان يشاهدها فى محيطه ، لم تكن تتطلب تقييماً شديد التعقيد ، بينما التقنيات الصناعية كانت حقاً ذات طابع بدائى .

وينبغى أن تلهم نظرة ماركس إلى تعقيد ودينامية الرأسمالية ، اليوم ،

فهمنا للدلالة الممكنة للتخطيط والتحول الاجتماعي .

وربما اقصد مفهوما للتخطيط والتحول الاجتماعي يطور ويعيد توجيه أشكال التعاون الاقتصادى المطبق ، مثلاً ، على يد شركات متعددة الجنسيات والبنوك وتوكيلات بطاقة القرض والهيئات ، كهيئة السوق الأوروبية المشتركة .

إنَّ واحدة من المشكلات المتعلقة بالمؤسسات الحساسة التى ينبغى إيجاد حل لها ، هى تطوير الآليات الاقتصادية المصغرة الاشتراكية القادرة على تشجيع المصنع فى اقتصاد اشتراكى للقياس الكامل للحاجة والتكلفة الاجتماعية ، بدلاً من المواصلة البسيطة لمسيرته على نحو اناني واعمى .

وفى المستقبل المنظور ينبغى أن يتضمن هذا ما اطلقت عليه زميلتى فى العمل « ديان أيلسون » اسم « تحويل السوق إلى سوق اجتماعية »(٧) .

مع السوق سيستطيع الاقتصاد الاشتراكى فى نفس الوقت تشجيع وضبط اعمال ملايين من صانعى الحركة الاقتصادية ، بما فى ذلك التعاونيات الصغيرة والشركاء الذين يحتاجهم أى اقتصاد حديث ، من الممكن ضبط الضرائب والدعم على نحو دقيق بحيث يتكيف مع الأهداف الاجتماعية ومع تشجيع حماية المصادر الطبيعية .

ربما يفرض قانون على المصانع طلب المعطيات التجارية التى هى اصل القرارات الإدارية الخاصة بالأسعار والأرباح والاستثمار .

وإنَّ الحاجة إلى رقابة تزايد الأرباح باستخدام مؤشرات السوق هو درس من التجربة السوفيتية والصينية الذى لا يمكن بالطبع ان يجهله أولئك الذين يريدون تصفية بؤر الرأسمالية العالمية .

ونقد « شيوعية الحرب » ، كما فعل لينين وبوخارين ، وبعد ذلك نقد التصنيع والتخطيط الستالينى ، كما فعل تروتسكى وبوخارين ، دون أن نضيف الإنتقادات الأحدث حول المركزية القصوى ، كما قام بها « أليك نوفية » ، و « شوشاوزهى » تكتسب قوة أكثر اليوم لأن الاقتصاد يصبح اعقد . وينبغى على الاقتصاد الاشتراكى المتقدم ان يجابه مشكلة التخطيط والضوابط الشديدة التعقيد : إضفاء الشرعية على سلطة المستهلكين والإذن بالإستشارة الديمقراطية على المستوى المحلى والإقليمى والقومى والدولى والأخذ بعين الاعتبار التكاليف الخاصة بالمحيط وكذلك بالحلول البديلة ومنطقة عمل الملايين من صناع الحركة الاقتصادية المستقلة وهكذا دواليك .

لو كان النظام الاقتصادى الاشتراكى قد اخذ بعين الاعتبار الديمقراطية ، لكانت المسئولية الاجتماعية والتسيير الذاتى اقل بساطة وأكثر توقعاً من النظام البيروقراطى .

وبالتالى ، ففى أى اقتصاد حديث ، فإن كل مصنع يخضع إلى سلسلة من الموردين والمنافذ . كل جماعة ينبغى أن تمتلك هامشاً من الحرية لتجريب . وتحسين نفسها ، لكن فى نفس الوقت ، إذا اردنا أن يظل المجموع منطقياً ، ينبغى ان يكون هناك مرحلياً نظام من الضوابط — جيد بالقدر الكافى — يعوض عملاً أكثر فعالية وأكثر مسئولية . وربما يتم استخدام تقنيات « السوق الداخلية » ، المستخدمة من قبل بعض الشركات غابرة القوميات وبعض الهيئات العامة لتخييل ممارسات السوق ، بدراية ذاك السياق .

نفس الأمر يجرى على نظام طلب القطع السيالة والممتدة فى التقنيات المشهورة فى « كابان » .

هل يعنى ذلك أن الاقتصاد الاشتراكى ينبغى ان يستخدم أجوراً اقتصادية متنوعة ؟

إذا ظلت تغيرات الدخول متواضعة ، ومنعنا استثمارها فى امتلاك أدوات الإنتاج ، فإذن هذا ربما يولد التفاوت الطبقى من جديد .

هؤلاء الذين ادخلوا السوق فى الدول الشيوعية ، حاولوا دائما أن يندمج مع إصلاحات تقتبس من لحد العالمين اسوا ما لديه . وأفرزت هذه الإصلاحات تفاوتاً وبطالة بغير تطوير الانتاجية والإنصات (المنتقى) للمستهلك ، اللذين يطبعان النظام الرأسمالى المتقدم .

عيب كبير فى نظام السلطة الشيوعية انها اعتادت السير بحيث تمنع آليات قوى السوق عن العمل .

وقد أخذت بعد ذلك المصانع المفلسة ضغط « الميزانية الضعيفة » بمصنع « كورناى » ، وتأثيرها السياسى ضمن المصانع الكبرى . ولن يكون محكوماً عليها بشكل مباشر أو غير مباشر بالإفلاس . وعلى هذا النحو تم خنق آليات الرأسمالية التى تضمن إعادة توزيع الممتلكات الإنتاجية .

ولم تتمركز قط التنمية الرأسمالية فى الفترة الأخيرة فقط فى الشركات التجارية الكبرى . وقد سمحت آليات

المنافسة بوجود مجموعة من الشركات الصغيرة الجديدة التى تحصل على نصيب من السوق وتقذف منها عمالقة الحديد والصلب المأزومين .

إنَّ إعادة هيكلة الراسمالية على هذا النهج لا يتوازى مع « البيروسترويكا » ، لأن « البيروسترويكا » — حتى مستهل صيف ١٩٩٠ على أقل تقدير — سمحت للشركات المفلسة بالإعلان عن إفلاسها .

وبالطبع وعدا بعض الاستثناءات الدقيقة ، **كلما كانت الشركة السوفيتية كبيرة كلما اثرت فى السياسة وبالتالى كلما استطاعت طلب الدعم .**

ولم تسمح الأحزاب فى السلطة فى الدول الشيوعية بأى تمثيل ديمقراطى للعمال .

لكن عموماً رأى القادة ، من الحذر ، البحث عن تنظيم العمال ضمن مكان عملهم . فكان جهاز الحزب والكوادر فى القطاع الصناعى معنيين بشكل مباشر بالدفاع عن النموذج الصناعى القائم ، الذى كان مهتماً أكثر من أى شىء آخر . بالمعدات على نطاق واسع .

ونلاحظ أن المصانع الكبرى قد حافظت بالقدر الكافى على دورها المؤثر فى بولندا لمنع إغلاق القطاعات المفلسة حتى بعد انهيار السلطة الشيوعية فى البلاد .

وبعد أن بينا دور آليات المنافسة فى نمو الإنتاجية داخل الراسمالية ، يتوجب علينا أن نبرز أن بعض التكوينات الاجتماعية الأكثر ديناميكية داخل الراسمالية قد حدث كذلك كثيراً من العقاب بالإفلاس ، وعلى الأقل فى القطاعات المتقدمة .

وهكذا فالإفلاس نادرا جداً فى اليابان وكوريا .

وتغطى تجمعات المدن الكبرى عدة قطاعات فى سبيل القدرة على المرور من فرع مفلس إلى فرع رابح .

وإذا حصلت إدارة من الإدارات على نتائج سيئة ، فسوف يتم إعادة تنظيمها واستبدالها ، إجتناباً للإنقطاع العام نتيجة الإفلاس .

واقع الأمر انه أكثر عقلانية من المقاربة التقليدية القائمة على « دعه يمر » ، التى ربما تقود إلى حل الوحدة الكلية الإنتاجية نتيجة عيوب بعض الإداريين بدلاً من الحد من آثار هذه الأخيرة .

مما لا شك فيه هو أنه فى مقدور السلطة التخطيطية المركزية الاشتراكية كذلك ، أن تتخيل بدائل فعالة ، لكن اجتماعياً غير قابلة للإفلاس والبطالة .

وربما تساهم إقامة مجموعات صناعية منتمية إلى قطاع الدولة على الصعيد الإقليمى فى تأمين توزيع متوازن للتكلفة الاجتماعية وأرباح إعادة البناء الاقتصادى .

كذلك ربما يكون نافعاً أن يتم تقطيع الأجور وسن قوانين لا تسمح إلاَّ بقدر قليل من التفاوت بين الدخول .

والكارثة البيئية والامتداد الشامل للفقر فى العالم جزء لا يتجزأ من الحجج الهامة لصالح مبادرة الدولة والتخطيط على مستوى العالم .

لكن الواقع نفسه ، أن تطرح هذه المشكلات ، على النحو الأكثر قطعية و على مستوى العالم ومنظوراً إليها باعتبارها كلاًّ متماسكاً ، ينبغى أن تذكرنا بأننا لا نستطيع أن نجيب عنها بواسطة « سلطة اقتصادية عالمية » .

وكما سبق وأن أشرت فبعض أشكال التخطيط تمنع عملياً الحساب الإقتصادى المصغر الذى سيشجع إعادة التشغيل فى قطاع آخر .

وبالتأكيد فأن المبادرة الهابطة من سلطة تخطيطية ربما يكون دافعاً حاسماً فى القطاعات الحيوية — وعلى سبيل المثال تطوير مصادر الطاقة البديلة للمحروقات المتحجرة .

لكن ضبط السوق سيسمح كذلك بتطوير مسئولية مستحيلة التحقيق فى نطاق البيئة ، بالقيام ببساطة على قرار إدارى .

وبالطبع أن **السوق الراسمالية** تروج لنموذج فى الاستهلاك لا يتفق وضغوط ندرة المصادر .

لكن ليس هناك داع لأن تصب السوق المتحولة إلى سوق لجتماعية إلى نفس النتيجة ، إبتداء من اللحظة التى ستتحول فيها اندفاعات المنافسة إلى اندفاعات مراقبة ومضبوطة بشكل دقيق .

ونفترض كثيرا من الوقت أن أى لجوء إلى آليات السوق يعادل الراسمالية .

لكن علماء الاقتصاد السوفييت شددوا حقاً على أن انماطاً مختلفة من السوق قد سبقت بكثير ازدهار الراسمالية وستبقى بعدها كذلك وبالتأكيد إلى زمن طويل .

ولا ينبغى أن نقترب بمقاربة غير تاريخية للأسواق .

كما ينبغى أن ندرك التباينات القائمة بين مختلف انماط السوق .

فكل سوق يعمل فى سياق خاص وفى ظل توزيع معطى للسلطات كما أن لكل سوق تكاليفها وإن كان ممكناً فعلاً ضبط التكاليف ومراقبتها .

افتراض خطأ آخر نرتكبه أغلب الوقت هو أن اللجوء إلى آليات السوق يعنى بالضرورة الخصخصة واسعة النطاق .

وحتى إذا كانت الأسواق تتضمن بالتأكيد تعدداً فى مراكز القرار الاقتصادى ، فإن هذه المراكز ليس عليها أن تمتلك سلطات خاصة فى امتلاك رأس المال .

ويكمن مفتاح الاقتصاد الاشتراكى فى توزيع السلطات بين الملاك وبين الجمعيات الجماعية العمالية وبين السلطات المحلية أو البلدية وممثلى المستهلكين والدولة ، أو حتى الهيئات الدولية بحيث يتم الربط بين المسئولية الاجتماعية وبين الفعالية العملية .

وليس هناك داع لافتراض أن الفعالية العملية تتطلب الامتلاك الفردى للمعدات الإنتاجية واسع النطاق .

ربما يكون على عاتق الهيئة الدولية للتخطيط الاشتراكى الكثير لتأمين أن قواعده تضمن تعميق المساواة الاجتماعية والمسئولية فى قطاع البيئة وتحقيق ذات المواطن .

ولن يكون فى حاجة إلى قيادة الإنتاج العالمى فى مجمله .

وإذا كانت تبدو هناك بعض « المبالغات البلاغية » عند ماركس اليوم شديدة التبسيط ، فهذا لا ينطبق أبداً على القول المأثور والجميل الذى يختصر المبدأ الذى ينبغى أن يحكم المجتمع المقبل وهو أن التطور الحر لكل فرد فيه شرط للتطور الحر لجميع الأفراد .

إن السؤال الذى اقتربت منه هو فى الواقع سؤال يعنى إبراز الآليات الاقتصادية التى تجسد ذلك المبدأ فى مجموع النموذج الإقتصادى العالمى ، وخصوصا فى بعض النقاط .

ويتطلب التناقض الفاحش بين الثروة وبين الفقر فى العالم الحديث — وكذلك شبح الكارثة البيئية — تخطيطاً عالمياً وإقليمياً .

لكنه يتطلب أيضا بناء إطار اقتصادى يشجع المبادرة المسئولية وتجديد جموع المواطنين .

كما نستطيع أن نقول كثيراً حول هذه النقطة . لكننى آثرت تطبيق هذا التصويب المادى اللصيق بالماركسية ، والذى أوحى به التاريخ ، على تحديد مشكلة نجابهها الآن .

واقع الأمر إننى أحب أن التفت إلى الماضى ثم المستقبل بحيث أنظر إلى مستقبل أوروبا بعد الأحداث الضخمة التى طفت على السطح عام ١٩٨٩ .

وقبل ثورات ١٩٨٩ ، نستطيع أن نقول أن الاختيار الحاسم لليسار الأوروبى كان يعنى قدرته أو عجزه عن تشجيع ، قدر المستطاع ، أولئك الذين كانوا ينتقدون ديمقراطياً الأنظمة السلطوية السائدة فى الشرق وكانوا يعارضونها .

وفى العقود الأخيرة على أقل تقدير حطمت أغلبية فصائل اليسار بوضوح أى « نموذج سوفيتى » ، وإذا لم يكن ذلك فى نظرهم من الأولويات .

وآثر بعض أكبر الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية التواطؤ مع الحكومات فى السلطة مهملة الحركات الانشقاقية والتى كانت فى ذلك الوقت فى نظرها هامشية نسبياً .

وأدلت الأحزاب الشيوعية الأوروبية بتصريحات صحفية جميلة لكنها لم تذهب فى ذلك إلى النهاية .

وسلكت حركات السلام المستقلة — وخصوصاً « إند » — وبعض المجموعات المتأثرة بالتروتسكية مسلكاً أفضل بكثير وانقذت شرف اليسار .

أما اليوم فنحن أمام مشكلة جديدة .

والاختيار الجديد لليسار الغربى سيكون قدرته أو عجزه عن مد التضامن الاجتماعى والاقتصادى إلى شعوب أوروبا الشرقية والإتحاد السوفيتى السابق التى تبنى نظاما ديمقراطياً وتجابه مشكلة ما بعد الشيوعية فى عالم رأسمالى . وربما يأخذ ذلك شكلاً محتواه « إما .. أو » المؤلم ، لأنه ربما يكون ضرورياً لليسار أن يستند إلى توسيع الجماعة الأوروبية الخليقة بتقوية مواقف خصومها : اليمين الديمقراطى المسيحى والوسط الليبرالى .

وباختصار الحيرة هى التالية

فى اللحظة التى تبدو فيها أحزاب اليسار الغربى الرئيسية أنها ستحصل على الأغلبية فى مؤسسات الجماعة الأوروبية — مجلس الوزراء والبرلمان الأوروبى — تطرق بلاد كالمجر وبولنده الباب وتطلب الانضمام إلى الجماعة الأوروبية . وإذا تم قبولها باعتبارهما عضوين من نوع خاص ، فسوف يوسع ذلك فوراً من صفوف اليمين والوسط .

فلنأخذ المجر مثلاً .

لم يستطع الاشتراكيون الديمقراطيون المجريون النجاح فى تجميع الأصوات بالقدر الكافى أو بالقدر الذى يؤذن لهم بانتخاب نائب واحد . وإذا كان نصيب الشيوعيين السابقين افضل ، فقد صرخوا حينما حاول البعض إزاحتهم إلى اقصى اليسار فى الجمعية البرلمانية .

وبينما تستطيع احزاب اليسار أن تأمل فى كسب الانتخابات القادمة فى بريطانيا العظمى أو فى المانيا ، فإن نفس الأفق بعيد جداً فى بولنده أو تشيكوسلوفكيا حيث عجز مجدداً الاشتراكيون الديمقراطيون فى الحصول على نائب واحد .

وهكذا فحسب المنحنى الذى تسير فيه أوربا فإن توسيع الجماعة الأوروبية هو آخر الأمور التى تأمل فيه احزاب اليسار الكبرى فى أوروبا الغربية .

والارجح أنه سيتم على يد أحزاب اليمين التى ستربح على الفور عملياً ، احزاب اليمين معرقلة الخطى نتيجة مشكلات خطيرة فى الاستيعاب التى لن تلبث وأن تطفو على السطح إذا أرادت دمج مجتمعات ما بعد الشيوعية بالإضافة إلى جميع صعوباتها وطول انتظارها .

وإذا كانت السياسة الزراعية المشتركة موضع جدل ، فينبغى أن نتخيل إلى أى مدى ستزداد حدّته إذا امتدت إلى شرقى أوروبا الوسطى ، كما ينبغى أن نتخيل الإعداد الموازى لسياسة صناعية مشتركة متكيفة مع الأهداف التى تتطلبها هنا إعادة البناء الصناعى .

وبالتالى فالإجراءات المهداة فى المقام الأول إلى بلدان أوروبا الوسطى اخذت شكل جمعية ترفض ادنى تمثيل لهم فى مؤسسات الجماعة الأوروبية .

أما الاشتراكيون الفرنسيون فيبدون أنهم يقبلون هذه المقاربة .

كما أن الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية الغربية الأخرى تستطيع ان تسلك نفس المسلك . تماما كاتفاقية « لوميه » التى تضبط علاقات الجماعة الأوروبية مع الدول الاستعمارية سابقاً والاكثر فقراً .

وبالتالى فإننا نستطيع أن نتوقع إبرام إتفاقية على نسق « لوميه » لشرق أوروبا الوسطى .

ويسمحون بذلك كما يبدو لى — لكى يفوا بوعودهم الخاصة بجماعة اوروبية يسودها اليسار لكن المقصود منها سيكون وعوداً مزيفة .

واقع الأمر أنه على اليسار والحركة العمالية الغربية تدعيم النجاح الاقتصادى والاجتماعى فى أوروبا الشرقية لأن دعم رأسمالية من الطراز الثالث خليق بأن يحطم على نحو أيسر مكتسبات الغرب نفسه ، الإجتماعية .

وحينما كانت مارجريت تاتشر تقاوم ضغط مؤسسات الجماعة الأوروبية ، أو عندما كانت اللجنة تعارض امتداد الانتماء إلى الجماعة الأوروبية ، ففى الواقع أن هذا لا يفعل سوى تشجيع دينامية الإندماج الاقتصادى .

بغير ضغط مضاد من قبل المؤسسات الديمقراطية ولدى البنوك وشركات عابرة القوميات خطط لابتلاع أوروبا الشرقية بصرف النظر عن موقف الجماعة الأوروبية المشتركة .

وكذلك قامت شركات عابرة القوميات السويدية مقدماً بجمع مصادر ضخمة لإقامة معدات إنتاجية داخل الجماعة الأوروبية ، محاولة كذلك الضغط على النقابات والحكومة الاشتراكية الديمقراطية .

وربما يتم الترحيب بالحركات القائمة لصالح الفيدرالية الأوروبية إذا ارتبطت بتعميم الديمقراطية وتوسيع الانتماء إلى الجماعة الأوروبية وكما يتطلبه ما سبق — إعداد مؤسسات جديدة للتدخل الاقتصادى والاجتماعى .

وقد تفرض جماعة موسعة برنامجاً كريماً يستهدف رد الاعتبار الاقتصادى والاجتماعى والبيئى . وقد يتطلب ذلك مجهودات قوية لإقامة سلطات عابرة القوميات والديمقراطية والمختصة والمؤسسات الضرورية لتأمين التقدم الاقتصادى وحماية البيئة والعدالة الاجتماعية .

وبالطبع ستظل الجماعة الاقتصادية الأوروبية مؤسسة رأسمالية من حيث الجوهر بالإضافة إلى أنها غير مفصولة عن « دعه يمر » .

لكن حركة عمالية متحدة على نحو غير معقول وممتدة عبر كل القارة ومرتبطة بالجناح التقدمى للخضر ، وإلى حلفاء آخرين ، قد تستطيع البداية فى بناء وفرض منطق آخر .

بتصفيتها للستالينية حطمت ثورات ١٩٨٩ الجدران الداخلية لليسار بنفس القدر الأكيد التى حطمت الجدران الفاصلة بين الشرق وبين الغرب .

وسيكون من الآن فصاعداً التعاون بين الاشتراكيين الديمقراطيين وبين الشيوعيين الأوروبيين ميسراً ، بينما العديد من أولئك الذين يكونون جزءاً لا يتجزأ من الحركات السلمية ، والخضر ، والحركات النسائية ، يجدون

الآن فى الشرق فى نفس الوقت ، حلفاء وشركاء قدماء وجددا .

لكن ينبغى أن نقترب من السؤال الحساس — شكوك نتفهمها تظل تخيم على الأحزاب التى كانت فى السلطة وحافظت على اعضائها او حتى استمرت فى المشاركة فى الحكم . كما ينبغى أن نحتفظ فى أذهاننا بالاعتبارات التالية .

فى السياق الجديد الوطنى والدولى فإن الشيوعيين السابقين مضطرون للنضال من أجل السلطة بواسطة الديمقراطية ، ولا يأملون أبداً فى إعادة بناء احتكار الحزب ، حتى إذا كانوا يرجون ذلك .

وفى حالات عديدة تخلى عنهم الانتهازيون والوصوليون والجزء الاكبر من . ● النومونكلاتورا ● (« تكنقراط الدولة — الحزب ») .

وغالبا ما استفادت أحزاب اليمين والوسط من خدمات الاعضاء السابقين فى الحزب أو كبار الموظفين فى الدولة .

وينبغى ان يشجع اليسار الموقف السياسي المبنى على التسامح ، مادام ظل هذا الموقف لا يقوم لا على خيبة الأمل أو على الخدعة . وينبغى أن يفسر الافراد وهيئات الدولة للسئولة عن التجاوزات الخاصة افعالهم .

لكن ، وكما اعتاد الاعتراف به المعارضون الأكثر شجاعة والأكثر استنارة فى ظل الأنظمة السابقة ، ليس سليماً وضع المسئولية خصوصاً على أعضاء الحزب البسطاء . حينما كانت المناهج الشمولية قائمة على التواطؤ والمشاركة الصامتة للغالبية العظمى من الناس .

وفيما يخص الأحزاب التى سبق وان كانت فى السلطة والتى أصلحت على نحو من الانحاء من أمرها ، قد يكون اعتبارها احزاباً منبوذة منذ الأزل من السياسة ، امراً سيئاً من منظور إشاعة الديمقراطية كما من وجهة نظر اليسار .

وسينبغى أن ناخذ بعين الاعتبار ، فى نفس الوقت ، رغبتها فى إصلاح اخطائها الماضية ، والحكم الصادر حولها من قبل ناخبيها أولئك الذين هم فى الوضع الأفضل للحكم ،

وإن كان واعداً ذلك الافق القاصد إقامة صلات جديدة داخل اليسار فى مختلف أرجاء القارة فسيظل هناك دائما اشتراكيون يمارون فى اعتبار ما إذا كانت الجماعة الأوروبية فضاء للرفض الصادق ، وحتى إذا استطاعوا بصعوبة نفى الحاجة إلى إطار على نطاق القارة .

قليلون هم اليوم من ممثلى اليسار الذين قد يوازنون بين « الكوميكون » السابق وبين الجماعة الاقتصادية الأوروبية .

على أنّ البعض يستطيع رفض اعتبار المؤسسات القائمة الآن كنقطة انطلاق .

لكن حينما نقترب من التساؤل عن اى مؤسسة قادرة على توحيد القارة ، فلم نجد اليوم إلّا متسابقاً واحداً .

الجماعة الاقتصادية الأوروبية القائمة على اقتصاديات أقوى هى بوضوح المؤسسة — المفتاح . وحكومات المجر وتشيكوسلوفاكيا وبولنده اعترفت بهذا الواقع بطلب الانضمام إليها وكذلك طلبت النمسا الإنضمام ، والمحتمل ان بلاداً أخرى كالسويد أو النرويج ستتبعها رغماً عن المعارضة المستمرة الآتية من جزء من الرأى العام .

وجهل واقع هذا السياق يعنى اللعب على أرضية أولئك الذين يسلمون بالحساب الانانى قصير النظر القائل عن المجموعة الإقتصادية الأوروبية إن « الصغير جميل » . وعلى المدى المتوسط والطويل لن يكون الحال هكذا .

وقد تخلق أوروبا ، حسب توجيهات كول وميتران ، شكلًا فاسداً من الاستعمار الاقتصادى داخل أوروبا . وإذا استطاعا إعطاء أوروبا الشرقية دور المكسيك أو امريكا اللاتينية فربما ستعيش الحركة العمالية فى أوروبا الغربية تجربة التهميش التسارع على النسق الأمريكى الشمالى ، وحتى إذا كان الاكثر تنظيماً منها قادراً على الخروج ببعض الامتيازات الهشة .

من جانب آخر قد تطور التجربة والتراث ومؤسسات أولئك الذين يتشوفون لأن يكونوا اعضاء فى المجموعة الاقتصادية الأوروبية ، النضج المحتمل وقوة اليسار الأوروبى .

ورغماً عن المخاطر السياسية ، فإننى أعتقد أنه على اليسار الأوروبى أن يقدم مقترحات انتقالية لصالح الانتماء الكامل للمجموعة الاقتصادية ولجميع البلدان الديمقراطية فى أوروبا الشرقية ودول الشمال التى ترغب فى الانضمام إليها . وتتضمن هذه المقترحات ما يلى :

(أ) جدولة الديون

(ب) صندوق اجتماعى واقتصادى يحتوى على أقل تقدير على ١٠٠ مليار جنيه استرلينى .

(ج) سياسة صناعية مشتركة تصفى الحواجز الموضوعة فى مواجهة واردات منتجات أوروبا الشرقية وتشجع تطوراً متجانساً ومنطقيا .

(د) إعادة الميثاق عابر القارات تتضمن أسبوع الخمس والثلاثين ساعة وبندا هاما لصالح مشاركة العمال .

(هـ) الاعتراف بأن أغلب المخاطر الجاثمة على البيئة الأوروبية هى ممتدة إلى القارة (على الأقل) ، وبالتالى التفاوض على مستوى القارة حول اتفاقية تخص البيئة .

وإذا كان فى مقدور المجموعة الأوروبية أن تطلب ضمانات ديمقراطية من دول أوروبا الشرقية ، فبالتالى فيتوجب عليها كذلك أن تكون مستعدة إلى دمقرطة نفسها بإعطاء سلطات فعلية إلى البرلمان الأوروبى وبتحميل اللجنة مباشرة مسئولية أمام هذه الجمعية المنتخبة .

وقد صفى الرأى العلم الأوروبى التقليدى فكرة أن بلداً من أوروبا الشرقية يستطيع أن يكون بين أعضاء المجموعة ، إن لم يكن قد مر مقدماً بمطهر طويل فى الخصخصة ، وتفكيك أبنيته الاجتماعية .

وليس قبل الألفية المقبلة ، هكذا يقال لنا ، سيكونوا مستعدين لدخول الجنّة الغربية .

سيكون صعباً ، حتى بالنسبة للممثلين الغربيين الأكثر إدعاء ، الإبقاء على موقف من هذا النوع إزاء النمسا أو السويد .

ومن جانبه فاليسار يجب بالطبع أن يسعد بوجود التأمين الاجتماعى على مستوى عال والقطاع العام عند المتطلعين الجدد للعضوية فى المجموعة الاقتصادية الأوروبية .

كما ينبغى أن يعارض بشدة المحاولات الغربية الرامية إلى استخدام المحرك الاقتصادى لإجبارهم على الخصخصة .

وحتى هنا لم أتحدث سوى عن الأهداف القومية الكبرى .

وفى نفس الوقت الذى يضغط فيه اليسار الأوروبى فى سبيل أخذ هذه الحلول بعين الاعتبار ، عليه كذلك أن يعمل لصالح التعاون العمل والتضامن بين النقابات وبين الحركات الاجتماعية التى تبعث ، عبر القارة ، الدفاع عن قضايا ، كإزالة التسلح ، وإعادة الاعتبار إلى البيئة ، وتشجيع التعاون الاقتصادى ، تحسين شروط العمل ، ومسئولية ومشاركة المؤسسات الاقتصادية ، وتأمين النساء والعمال المهاجرين ، وتقوية الحقوق الشاملة للمواطن (بمدها إلى المهاجرين) ، وإدخال المكتسبات الاجتماعية التى سرعان ما تتوحد وتمتد داخل أوروبا والموسعة تتماسك أكثر . .

وتتضمن مسئولية التوفيق بين شروط الحياة فى الأقاليم الغنية الآن وبين الفقيرة فى أوروبا بالطبع ، على مسئولية أخرى ، هى تحقيق أهداف مشابهة على نطاق العالم وكذلك قانوناً محلياً على صعيد البيئة يتضمن التعاون البيئى العالمى .

وعلى أية حال نخطىء إذا وازنا بين الأهداف المحلية وبين الأهداف اللذين قد يكونا بالأحرى متكاملين . وهكذا فالجزء الغنى من أوروبا يرفض مساعدة الجزء الفقير ، وبالتالى فالاحتمال ضعيف أن يعمل لصالح التنمية الاقتصادية فى العالم الثالث .

وربما يبدو وبرنامج من هذا النوع طموحاً جداً وبالتأكيد هو كذلك .

لكنه أيضا أقل طوباوية من تلك المقاربات التى تعنى تصور أننا نستطيع أن نقفز ببساطة فوق المجموعة الاقتصادية الأوروبية .

وأخيراً فإن برنامجى أكثر واقعية من أن نغض البصر عن دورها وهو الأمر المتجه إلى أن يدع الأوروبيين فى وسط — شرق يتصرفون وحدهم .

وينبغى أن يبقى فى ذهننا واقع أن المجموعة الأوروبية بعيدة عن أن تكون على الأقل دولة « فيدرالية » بالمعنى الحصرى للكلمة وأقل أيضا بكثير من دولة كبرى . ليس لديها جيش ولا شرطة ولا سجون ، فقط بضعة آلاف من العاملين . ونتيجة النهج الذى ينتهجه مجلس الوزراء فى استخدام سلطات المجموعة لتشريع إجراءات لا يعاقب عليها بالتفصيل من قبل البرلمانات الوطنية أو البرلمان الأوروبى ، فإن المجموعة الأوروبية تعانى مما نطلق عليه بأدب اسم « اللا كفاية الديمقراطية » .

على أن الطابع الجنينى للمجموعة يدل على أن اليسار البرلمانى وفوق البرلمانى يستطيع أن يساعدها فى بناء آلياتها ومؤسساتها .

بل أذهب إلى حد القول بأنّ ذلك البرنامج الذى عرضته سالفاً قد يبدأ فى تحويلها على نحو من الاتجاه بالقدر الكافى من الأداة العادية إلى التنسيق الرأسمالى الذى تتشوف إليه .

ومن المثير أن نتذكر أنه فى مؤتمر بروكسل حول التبادل الحر عام ١٨٤٧ — المهد البعيد للمجموعة الاقتصادية الأوروبية — وقف ماركس

بحماسة إلى جانب التبادل الحر، وعارض أنبياء « الحماية » الوطنية .

ومن الممكن أن تستوحي مؤسسات المجموعة الاقتصادية سياسة « دعه يمر » . لكنها لا تكف عن السعي وراء ضبط معايير الإنتاج والتبادل لمئات وآلاف المنتجات .

وبهذا المعنى فالمجموعة مثال ضخم لإمكانية تحقيق التخطيط في العالم الحديث .

لتأكيد أن الاستخدام الاشتراكي لهذه الآليات في التخطيط قد يتطلب تحولات حقيقية لم أستطع أن أفصلها هنا .

لكن على الأقل هذه المقاربة ربما تكون مطابقة أكثر لطروحات ماركس القائمة على أن الاشتراكية لا ينبغي أن تكون « النفي المجرد للرأسمالية » ، وإنما على خلاف ذلك « التجاوز الفعلي » للرأسمالية .

ولكي أختم مداخلتي ، أقول أنه ينبغي أن نستخلص الدروس من الانتخابات الألمانية الشرقية السابقة فلم تعبر أي فصيلة من اليسار عن ممارسة فعلية لصالح التوحيد الألماني .

أما ماركس وانجلز ، القائدان القديمان لحركة ١٨٤٨ الديمقراطية الوطنية الألمانية فقد اضطرا إلى أن يتقلبا في قبرهما . وكانت النتيجة إهداء النصر لليمين على طبق ذلك أن اليمين كان في نفس الوقت أكثر واقعية وأكثر كرماً . أكثر واقعية لأن الدولة المصغرة الشرقية الألمانية لم تكن حقاً وحدة قابلة للحياة ، حتى إن لم تكن مقرونة بصور فظيعة للغالبية العظمى من المواطنين .

وأكثر كرماً لأن الديمقراطيين المسيحيين بدوا راغبين في تقسيم الثروة الغربية .

وبالتأكيد كان ذلك شطحاً ديماجوجياً . لكن لم يكن من الممكن التنديد به إلا من قبل يسار ذي الرؤية الكريمة على هذا النحو . اليوم التحدي الأكبر حول الوحدة الأوروبية يتطلب بالتحديد ذي الرؤية الكريمة .

تركت عن عمد مفتوحة تلك القضية الهامة والصعبة مفتوحة هل كان ضرورياً أن ينضم الإتحاد السوفيتي إلى المجموعة الاقتصادية الأوروبية ؟

من ناحية الامتداد والمصادر كان الإتحاد السوفيتي كبيراً جداً بحيث كان في مقدوره أن يعقد سوقاً معقولاً مع المجموعة ، وإن كانت الشعوب المكونة له ممثلة أو لا داخل مؤسسات المجموعة .

وربما كان نافعاً لبعض دول « الكوميكون » البقاء في رباطها مع الإتحاد السوفيتي والانضمام إلى المجموعة عن طريق ترجمة جديدة « للكوميكون » .

ومع ذلك فقد كان أفضل الحلول توثيق العلاقة بين الاتحاد السوفيتي وبين المجموعة بالروح التي سبق وأن مهد إليها تروتسكي عام ١٩٢٨ .

وربما تكون اللجنة الاقتصادية الأوروبية للأمم المتحدة إطار لهذه العلاقة ، أما بناء نظام اقتصادي عالمي متوازن ومسئول فسيتطلب تنوع في الأشكال الاقتصادية والجمعيات المحلية يجهل الحدود الراهنة ويدمج على نحو مغاير الوحدات القائمة .

والنقطة الحاسمة هي أنه ينبغي على هذه الانسجامات أن تقدم وسائل ديمقراطية للدفاع الفعلي عن الضوابط الاجتماعية للعمليات الاجتماعية مما يتغلب على منطق غير مفهوم لتراكم رأس المال .

هوامش

١ ـ لمناقشة هذه النقطة ، انظر ما سيموسا لفادوري ، كارل كاوتسكي ، لندن ، ١٩٧٩ ، خصوصاً ، ص ٣٠١ ـ ٣١٢ .

٢ ـ **مضبطة المعارضة** ، ٣١، ١٩٣٢ ، ذكره أليك نوفيه ، في **الاشتراكية وعلوم الإقتصاد والتنمية** ، لندن ، ١٩٨٧ ، ص ٩٧ .

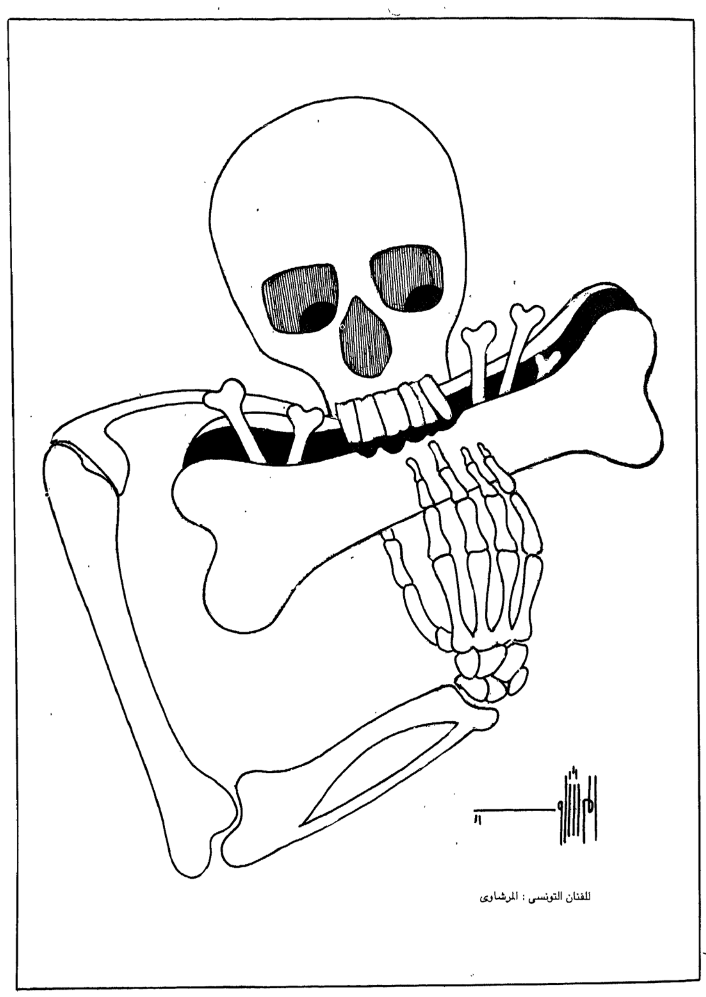
٣ ـ نفس المصدر السابق ، ص ٨٩ ، حيث سنجد مناقشة مثيرة حول الطريقة التي قدم بها تروتسكي أفكاره في هذه المسائل .

٤ ـ نفس المصدر السابق ، ص ٩٨ .

٥ ـ حول هذه النقطة ، انظر أندرس أسلوند ، **كفاح جورباتشوف من أجل الإصلاح الاقتصادي** ، لندن ، ١٩٨٩ ، ص ٧٦ ـ ٨٧ .

٦ ـ فيما يتعلق بالفشل السوفيتي على صعيد إدارة العقول الإلكترونية ، انظر مارك . ر. بايسينجير ، **الإدارة العلمية والانضباط الاشتراكي والسلطة السوفيتية** ، لندن ، ١٩٨٨ ، ص ٢٤٦ ـ ٢٦٠ .

٧ ـ في مقال يحمل نفس العنوان ، **مجلة اليسار الجديد** ، ١٧٢ ، ١٩٨٨ .



للفنان التونسى : المرشاوى

الاشتراكية
أحلام الماضي
ومشاريع المستقبل

سياق الوهم

مداخلة نظرية اقتصادية عامة تدور حول مفهوم مركزي هو مفهوم «الانتقال» من نمط إنتاج معين إلى نمط إنتاج آخر.

موريس جودولييه

فأ تميل جميع الشواهد ، من السقوط العامة للأشكال المعروفة تحت اسم «الاشتراكية» في إدارة الاقتصاد والحكومة المفروضة في في أوروبا الوسطى بعد الحرب العالمية الثانية على يد أحزاب شيوعية تابعة للإتحاد السوفيتي إلى الظهور الوشيك لتحولات كبيرة في هذا البلد نفسه والذى كان بعد ثورته ، مصدراً لآمال عديدة إلى نتائج ذاك النمط من النظام والتفكك المشين للصين بعد ماو والمبشر بانفجارات ضخمة جداً في آسيا مستقبلاً . نقول تميل جميع هذه الشواهد إلى التوكيد على أننا نعيش إحدى اللحظات المميزة في التاريخ الذى يتخلى عن أشكال تنظيم المجتمع وأشكال فكرية ميتة محكوم عليها بالفشل .

وباختصار يبدو لنا أننا نعيش نهاية عصر ، نهاية الشيوعية ، وبالطبع ، نهاية الفكر الذى وضع مبادىء الشيوعية ، أى نهاية الماركسية .

إنَّ المثير حقاً في هذه الأحداث ليس السرعة في تفكيك قطع النظام الرئيسى الواحدة تلو الأخرى ، وكأنه قصر من ورق ، وإنما خصوصاً أنه استغرق قليلاً من الوقت (تقريبا سبعين عاماً) ولا وهم كبير يبدو أنه واجب البقاء ، على أنه في نظر الجميع ، سواء أكانوا أنصاراً مادحين أو أعداء متحفزين ، كان جبلاً شامخاً .

وعلى عكس الشمولية النازلية التى حطمتها الأسلحة ، توقع البعض مستقبلاً طويل المدى للشمولية بعد الستالينية . شرط أن تكف عن المجابهة المباشرة العسكرية مع المعسكر الرأسمالي .

هل برهن فشل المصلحين على الطريقة الخروتشوفية على أنه كان كذلك من المحال إصلاح النظام من الداخل وبالتالى على أنه من العبث الرغبة في ذلك ؟

فشلت الإصلاحات وإنهار الجبل الشاهق .

ذلك أنه كان أصلاً مفككاً واحد لم يكن يعرف .

وهو الأمر المنقطع الصلة إذن عن نهاية المجتمع القديم «العبودى» الذى تفكك عبْر قرون قبل أن يزول ويترك وراءه أفكاراً وأعمالاً ومؤسسات كانت أهلاً عن جديد لخدمة تطور الغرب منذ القرن السادس عشر ، وربما يكون ذلك ـ وهنا ذروة السخرية نستعيد مثالاً عزيزاً على ماركس ـ فشلاً يضاهى ما أصاب الإصلاحات «الكارولانجية» حينما أريد إحياء نطاقات كبرى من العصر القديم في عصر كان فيه التقدم في الزراعة أتيا من التعدد المتزايد للاستغلال صغير الحجم أو المتوسط الحجم .

لكن المثال أعرجُ . لأن اصلاحات «شارلمان» لا تمت بصلة إلى طموحات الثورة البلشفية (في تأسيس مجتمع غير طبقى وديمقراطى بالإضافة إلى غيرها من الصفات) .

على أنه يوحى بأنه إذا كانت حياة هذا النظام قصيرة ونهايته سريعة فهذا يرجعة إلى أنه على عكس النظام القديم والإقطاعى أو الرأسمالى ، إن لم يكن قابلاً للحياة .

لم يكن قابلاً للدوام ، لا لانه كما تعلن عنه المسيحية والإسلام والديانات الاخرى المنزلة ، انه اغتصب الطبيعة البشرية ، وإنما ببساطة لانه اجتنب كثيراً الوقائع اليومية ولم يستطع حقاً أن يكون ضارياً فى جذورها ، وبالتالى لانه كان يذهب فى الإتجاه المضاد لتاريخ عصرنا ، ولم يكن يستطيع فى نهاية المطاف ان يواكبه بعدما إدّعى سبقه .

بالطبع استطاع البعض وهلة من الزمن فرضه بالقوة على شعوب كان مفروضاً أن تنتظر منه تحقيق مُثُلها الممنوعة فى المجتمع الراسمالى والبورجوازى ، اى الحرية والمساواة والإخاء .

ومن جديد يفرض علينا الإعلام بالإضافة إلى سقوط الشيوعية سقوط الفكر الذى ألهمها ، اى سقوط فكر ماركس واولئك الذين استندوا إلى فكره .

بالنسبة لمفكر قد اراد كشف «قوانين الحركة الاقتصادية» للمجتمع الحديث ، الظاهر أن التاريخ قد حكم وفصل . وفى افضل الفروض اريد تبرئته من الجرائم المرتكبة باسمه ، بحيث ان يبقى ماركس مفكراً كريماً لكن طوباوياً ، آخر الطوباويين .

واخيراً يكون قد جاء ، فى الغرب على اقل تقدير ، عصر نهاية الأيديولوجيات .

وباختصار قد يكون التاريخ يستعيد مجراه ويستعيد سيره بين ضفاف الممكن .

إنجلز





ستالين

والفكرة تقفز تلقائياً إلى الذهن هى أن المجرى الذى يستعيده التاريخ ليس سوى مجرى تطور الراسمالية التى يستمر انتشارها ، والذى للحظة يتم معارضته وعرقلته بفضل الثورة الروسية ونتائجها فى أوروبا وبلاد العالم الثالث يستمر بشكل حتمي فى مسيرته إلى الامام على نحو أسرع وأقوى من اى وقت مضى .

واخيراً فإن أوروبا ستعد فى المستقبل فى ظل قوانين من المحيط الاطلنطى إلى جبال الأورال فى انتظار القدرة على استيعاب الصين .

وسيكون ذلك أمراً مختلفاً عن جمهورية المانيا الديمقراطية .

ومن المفروض إذن أن نهاية الماركسية .

مما يعنى فى نفس الوقت انتصار الراسمالية والليبرالية . بالنسبة لكثيرين ، وأنا منهم ، كانوا يكافحون فى نفس الوقت الراسمالية والنظم البوليسية والبيروقراطية التى كانت تمارس باسم الاشتراكية : الرعب وإحتقار جموع الناس ، هذه الوقائع تحزنهم وتخيفهم .

اى حركات واى أشكال نضال واى أفق ينبغى إبداعها اليوم فى سبيل الكفاح ضد الإستغلال والفقر والخضوع والوحدة حيث يجد مئات الملايين من الرجال والنساء انفسهم خاضعين إلى هذه الانظمة وليس فقط فى العالم الثالث وإنما كذلك فى أوروبا الوسطى والشرقية ؟

لانه إلى زمن قريب ، فى البلاد الراسمالية الاغنى ، حينما كانت تصاب

بازمة ، كان يتم فوراً وبنشاط «تنظيف» أجهزة الإنتاج والتبادل وتسريح ملايين البشر ، شباباً او اقل شباباً ، اى لانتصار الراسمالية «نتائج إنسانية» .

تبقى المشكلات وتُغير المتناقضات من طبيعتها لكنها لاتزول . نضالات تفرض نفسها وأخرى ستفرض نفسها ، بك ينبغى الدخول فيها .

لكن فى نفس الوقت الذى يتم فيه ذلك ، ينبغى اجتناب الغرق من جديد فى عثرات مأسوية وغير مجدية على حد سواء .

وربما منذ نهاية القرن الثامن عشر ، أولئك الذين يريدون العمل بهذا المعنى لم يجدوا أنفسهم أمام صورة الحكم على نتائج بهذه الضخامة . وايضا فى نفس الوقت فى سياق كثير من الأشياء تبدو من الآن فصاعداً واضحة .

ولكن هل مجمل هذه البديهيات حقاً بديهية ؟

ولكى لا اعطى إلاّ مثالاً واحداً ، فيبدو من الصعب البرهان على أن تحاليل ماركس كانت تحتوى على مقدمات ومشروعية الاستغلال وإخضاع الجموع الشعبية من قبل الدول البيروقراطية والبوليسية .

ولكى نفحص بوضوح ينبغى ان نحلل إلى جانب ذلك الأسلوب الذى اتبعه ماركس فى تمثيل شروط وعمليات الانتقال من نظام اقتصادى واجتماعى إلى نظام اقتصادى واجتماعى آخر وعلى وجه الخصوص الانتقال من الرأسمالية إلى ما اطلق عليه لا اسم «الاشتراكية» ، وإنما «نمط الإنتاج يقوده العمال المجتمعون» .

وللجواب السريع عن هذا السؤال سنخصص باقى عرضنا[1]

طرح ماركس عدة مرات فى حياته المشكلة المركزية للفهم العلمى للتاريخ وشروط آليات الانتقال من نمط إنتاج سائد إلى نمط إنتاج سائد آخر ومن تكوين اقتصادى واجتماعى إلى تكوين اقتصادى واجتماعى آخر .

والنصوص كثيرة ، وتمد على مدى حياته ، من «الأيديولوجية الألمانية» (١٨٤٥) حتى المسودات الثلاث فى الفرنسية لرسالته إلى « فيرا زازوليتش » (١٨٨١) ، ذلك الثورى الروسى الذى قد سأله ما إذا كان فى نظره ممكناً أن تنتقل روسيا إلى نمط إنتاج يقوده العمال المجتمعون « بغير المرور بمجمل مراحل الإنتاج الرأسمالى »[2] .

سؤال نقيس اليوم فقط بعد قرن من طرحه مداه .

والنصوص الأهم بالنسبة لحديثى متناثرة فى الأجزاء الثلاثة من كتاب «رأس المال» المخصصة للانتقال فى أوروبا من نمط الإنتاج الإقطاعى إلى نمط الإنتاج الرأسمالى بالإضافة إلى نصوص برامج جوته وإيرفورت (١٨٧٤) ، حيث ينتقد ماركس بعض أطروحات الاشتراكيين الديمقراطيين الألمان حول الانتقال من الرأسمالية إلى «نمط الإنتاج الذى يقوده العمال المجتمعون» .

من ناحية إذن تحاليل وفروض حول انتقال هو فى الوقت الذى كان يكتب فيه ماركس منتهه فى البلاد الغربية الرئيسية — انجلترا وهولنده وفرنسا حيث تسود الرأسمالية تطور الاقتصاد والمجتمع .

ومن ناحية أخرى ، نصوص يتوقع فيها ماركس الانتقال فى بلاد الرأسمالية المتطورة إلى نمط انتاج يقوده العمال المجتمعون .

إذن لدينا من ناحية انتقال تم ، ومن ناحية أخرى ، انتقال ليس واجب الإتمام ، وإنما حسب ماركس جار الحدوث مقدماً .

كيف إذن ماركس يرى الانتقال الأول ، ذلك الانتقال الذى كان منتهياً وإذن وقد «ظفر» ؟

كان ماركس يرى الانتقال المنتهى فى بلاد الغرب إلى الرأسمالية ، عملية بعيدة المدى بدأت نحو نهاية القرن الخامس عشر وسبقت إيطاليا فى القرن الثالث عشر ولم ينته فى انجلترا إلاّ فى مستهل القرن التاسع عشر .

وفى جانب آخر ، شدد ماركس على أن فى التاريخ ، ليس هناك قطيعة واضحة بين مختلف العصور فى التطور الاقتصادى للمجتمع وبين مختلف التكوينات الاقتصادية والاجتماعية .

واستهلت هذه العملية مسيرتها فى إيطاليا ثم بدأت من جديد فى البرتغال وأسبانيا وتوقفت عدة مرات ثم استؤنفت بعد ذلك فى فرنسا وخصوصاً فى هولنده ثم اجتمعت فى انجلترا شتى الشروط القائمة فى البلاد الأخرى على نحو متفرق .

وباختصار فعملية الانتقال المحصورة هنا فى حدود التحولات الاقتصادية التى تثمر انحلال ثم زوال نمط الإنتاج السائد واستبداله بنمط إنتاج آخر يسود بدوره مجموع شروط الإنتاج والتبادلات ، هى عملية تولد عفوياً وتتطور على نحو لامتكافىء فى مختلف المجتمعات وتأخذ عدة قرون فى الانتهاء فى مجتمع ثم فى مجتمع آخر يكون قد تطور فيه .

وتنحصر تحاليل ماركس طواعية فى حدود دراسة المظاهر الاقتصادية لهذه العمليات processus . وهو لايجهل ، فى نفس الوقت الذى يطرحها جانباً ، تحولات أشكال السلطة والأفكار البروتستانتينية ، والثقافة (الفن التشكيلى والموسيقى) ، وغيرها من الأشكال ، التى تسير فى موازاة هذه التحولات الاقتصادية .

تحليله حصرى لكن لغاية بعينها .

واقترح ماركس تقسيماً تاريخياً لذلك النمط من العمليات . فقد قسمها إلى مراحل ثلاث (مع تحفظات عديدة) :

١ — الولادة ،

٢ ـــ مرحلة الشباب وتطور النظام الجديد ،

٣ ـــ النضج .

أما المرحلتان الأولى والثانية (الولادة والتطور) فهما يكونان مرحلة الانتقال التى تنتهى إلى سيطرة جديدة للانتاج (المرحلة الثالثة مرحلة الانتقال إذن هى فى نفس الوقت تلك المرحلة التى يتفكك ضمنها النظام السائد القديم بسرعة تزيد أو تقل وتشق طريقها إلى الزوال من القطاع الأول إلى القطاع الثانى من مختلف قطاعات الإنتاج الواحد تلو الآخر ، وذلك فى بلد واحد أو فى عدة بلاد فى نفس الوقت .

وتقع ولادة نمط الإنتاج الراسمالى حسب ماركس فى مستهل نهاية القرن الخامس عشر ، قبل اكتشاف امريكا .

فترة الشباب والتطور تمتد من نهاية القرن السادس عشر إلى أواسط القرن التاسع عشر .

وتكون قد بدات مرحلة النضج فى انجلترا قبل أى بلد آخر ، فى مستهل القرن التاسع عشر وفى وقت تكون فيه فرنسا والمانيا قد بقيتا بعد بعيداً جداً فى المؤخرة .

وقبل ذلك ، فى إنجلترا ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، مع ظهور التعاونيات والمصانع العمالية وتطور المصارف و«التروست» وغيرها من الهياكل ، كان ماركس يرى فى الإشارات المباشرة (التعاونيات العمالية) وغير المباشرة (مختلف أشكال الطابع الاجتماعى للملكية المصانع وغيرها) إلى الانتقال إلى نمط آخر من الإنتاج الأرقى ، نمط إنتاج يقوده العمال المجتمعون ، أن الانتقال قد بدأ مقدماً ، لكن فقط فى البلدان الراسمالية الاكثر تطوراً .

والواضح فى نظر ماركس انه لايمكن أن تولد «الاشتراكية» وأن تجد شروط تطورها إلّا فى البلدان الراسمالية الاكثر تطوراً حيث الإنتاج والتبادلات مطبوعة بارقى الطبائع الاجتماعية ، وحيث تمتلك الطبقة العاملة تجربة طويلة من النضالات ، وحيث إنها منظمة منذ زمن طويل عبر نقابات وأحزاب .

وحينما سأله ميخايلوفسكى عام ١٨٧٧ وف . زازوليتش عام ١٨٨١ ما إذا كان هذا الانتقال ممكناً فى روسيا ؟ .

كان جوابه بالإيجاب . لكنه ذكر عدة شروط سنعود إليها فيما بعد .

ولكن واحدة منها ينبغى أن نشير إليها هنا فورا : إذا انفجرت الثورة الروسية فلن يكون ذلك «فى عصر تبدو فيه الراسمالية بعد متماسكة . لكنه على العكس يجد نفسه فى أوروبا الغربية ، وكذلك فى الولايات المتحدة ، فى صراع مع جموع العمال والعلم وقوى الإنتاج التى تثمرها ـــ وبعبارة واحدة يجد نفسه فى ازمة ستنتهى إلى تصفية نفسها ، بعودة المجتمعات الحديثة إلى شكل أرقى من النمط «القديم» فى الملكية والإنتاج الجماعى»[٣] .

وهو « لخص ـــ الصدى » الملاحظات إنجلز (١٨٧٥) حول العلاقات الاجتماعية فى روسيا :

«هذا الانتقال نحو شكل ارقى من الواجب أن يتم بغير أن يمر الفلاحون الروس بالدرجة الوسيطة المتمثلة فى الملكية المقسمة البورجوازية وهو مالن يحدث إلّا فى حال أن تحدث فى أوروبا الغربية ، قبل التفكك النهائى للملكية المشاعية ، ثورة بروليتارية ظافرة تقدم إلى الفلاح الروسى الشروط الضرورية لهذا الانتقال وخصوصاً المصادر المادية ..»[٤] .

وباختصار فالثورة ممكنة فى روسيا ، لكن باعتبارها استثناء وبشرط ان تقوم فى نفس الوقت ثورة بروليتارية ظافرة فى أوروبا الغربية .

والواقع نعرفه .

بعد الحرب العالمية الأولى ، قامت انتفاضات ثورية فى المجر والمانيا . لكنها قمعت . ومنذ ذلك الوقت لم تقم اية ثورة بروليتارية فى أوروبا . وصار الاستثناء قاعدة الآن (إذا وضعنا جانبا بلدان أوروبا الشرقية حيث تم فرض «الاشتراكية إثر تقسيم أوروبا بين المنتصرين فى الحرب العالمية الثانية) انتفاضات شعبية فى الصين وفيتنام وكوبا دفعت الأحزاب الشيوعية إلى السلطة ، فى بلاد غابت عنها الشروط المادية والاجتماعية للانتقال إلى نمط الانتاج الذى يقوده العمال المجتمعون . بلاد كالصين وفيتنام لم يكن لديها بعد قليل من خلايا الإنتاج الصناعى الراسمالى .

لكن فلنعد إلى اللحظة الأولى المكونة لعملية الانتقال ، إلى المولد نفسه لعلاقات اجتماعية جديدة فى الإنتاج ، وخصوصاً إلى مولد علاقات الإنتاج الراسمالى .

فقد كتب ماركس مراراً أن هذا المولد كان عفوياً . وقد تم تحت ضغط تطور إنتاج السلع اللصيق بانتشار التجارة الدولية والقومية فى بعض بلدان أوروبا منذ القرن السادس عشر . انتشار التجارة المدفوع بقوة المجتمع الإقطاعى اصطدام بحدود الأشكال الإقطاعية فى تنظيم الإنتاج الحرفى والصناعى وتبادل السلع . كما اصطدم بالحواجز التى اقامها تنظيم الإنتاج والتجارة الحرفية ورابطة النقابات .

ويحلل ماركس فى الفصل السادس ، غير المنشور فى حياته ، من كتاب «رأس المال» ، هذا المولد العفوى لعلاقات الإنتاج الراسمالى حينما يقارن بين الورشة الراسمالية وبين ورشة الحرفى قائد جماعة من الحرفيين .

ويوضح أن هذا المولد قوامه انسجام جديد لعلاقات اقتصادية كانت قائمة مقدماً ، لكن بعد تصفية رقابة هيئات الحرفيين على الإنتاج .

كما كانت قائمة مقدماً الملكية الخاصة

لوسائل الإنتاج واستخدام المال كرأس مال ودفع الأجر للعمل جزئيا عيْناً ، لكن الجزء الآخر ايضا نقداً .

وقد تم المحافظة على هذه العناصر وإعادة دمجها . مما وفّر قدرة جديدة فى تنظيم الإنتاج وحوّل لأول مرة العمال ومن صاحبهم والمبتدئين إلى عمال اجراء وأوقف وضعهم القائم على شبه العضوية فى أسرة المعلم والصانع .

وباختصار ينبغى أن نشير إلى ثلاث ملاحظات حول هذا المولد إذا أردنا المقارنة بينه وبين مولد نمط الإنتاج «الاشتراكى» الذى شيد إثر «ثورة سياسية» : ومتناثراً قبل أن ينتشر ويصير ظاهرة شملت بعض بلدان أوروبا .

٢ ــ لم يكن هذا المولد جواباً عن تطور قوى الإنتاج الجديدة وإنما كان جواباً عن تطور تبادلات السلع وإنتاج مختلف السلع الذى كان يغذى هذه التبادلات . إن التحول فى علاقات الإنتاج يجيب عن تطورها لا عن ضغط أى شىء آخر ، قوى الإنتاج «الجديدة» مثلاً .

٣ ــ بدا هذا المولد وكأنه أحد الأساليب الممكنة فى تنظيم الإنتاج خارج أبنية الجمعيات الحرفية وضدها .

لكن فى كل مرة كانت العلاقات الاقتصادية قائمة أصلاً (الملكية الخاصة واستخدام المال كرأس مال والعمل المأجور) ووجدت نفسها ممزوجة على نحو جديد وصائغة شكلٌ اجتماعى فى تنظيم الإنتاج والتبادلات ، جديد وأكثر فعالية (قياساً بالحاجات الاقتصادية فى المجتمع آنذاك) . وبالطبع كان يحتوى هذا الشكل ، بالربط المباشر بين رأس المال وبين العمل الحر ، على شتى عناصر استغلال رأس المال للعمل ، والشكل الحديث لاستغلال ملاك وسائل الإنتاج والمال للعمل البشرى وكان يحتوى على العناصر الخاصة للعلاقات الطبقية الرأسمالية التى طبعت المجتمع الحديث بعد الإقطاعى .

ولم تفرض هذه العلاقات الجديدة نفسها فور مولدها كما فعلت علاقات الإنتاج «الاشتراكى» فى فروع الإنتاج والتبادل كافة .

تتطور هنا وهناك ثم تتوقف وتزول وتحيا من جديد ثم تستهل مسيرتها مرة أخرى وهكذا دواليك .

وباختصار فالمرحلة الثانية من عملية الانتقال وفترة الشباب وتطور نمط الإنتاج الرأسمالى فى حاجة إلى وقت وتخضع المرحلة الثانية إلى العديد من الظروف الاقتصادية وغير الاقتصادية . إذ أن هذا التطور لم يتم على أساس قوى أو محركات اقتصادية فقط . فهناك أيضا التوسع الاستعمارى الأوربى والحروب ومساعدة الدولة ونزع ممتلكات الكنائس (مما يسر الإصلاحات الزراعية وإعادة توزيع الملكية) والبروتستانتينية وأخلاقيتها فى العمل والخلاص . جميع هذه الظروف وجميع هذه القوى أسهمت ، حسب ما قال ماركس ، فى تطوير علاقات الإنتاج الجديد .

وتدين إذن هذه العلاقات بغير حساب إلى مختلف أشكال العنف الخاص والعام لما حققته من انتصارات . ولم تكن إذن السوق قط المصدر الوحيد لتطور الإنتاج السلعى . هذه كانت موجودة ، ماركس يذكر هذا الأمر بغير توقف ، قبل الرأسمالية بكثير ، واستندت بالتالى إلى علاقات إنتاج وأشكال استغلال العمل مختلفة كلياً كالأشكال العبودية والتسخير الفلاحى وغيره من الأشكال ، إنَّ قوى أخرى غير السوق تخدم التبادلات السلعية أو تعارض انتشارها .

لكن العامل الحاسم الذى أمنَّ ، حسب ماركس ، نصر الرأسمالية وأقامها كنمط إنتاج سائد جديد طبع نهائياً تطور المجتمعات الغربية الحديثة بطابعه ، هو أن الرأسمالية استطاعت خلق قاعدة مادية (وفكرية) خاصة بفضل تطوير الميكنة والصناعة الكبرى ، وبتعميم تطبيق العلوم فى الإنتاج .

وحينما توقفت الرأسمالية عن القيام على تقنيات وقاعدة مادية متوارثة عن الماضى من المجتمع الإقطاعى ومهنه اليدوية وبدأت فى إن تخلق لنفسها قاعدتها الخاصة ، تقسيمها الخاص للعمل ، وفى تدمير أو فى التخلى عن الشروط المادية التى كانت نقطة بدايتها ، انتهت مرحلة الانتقال على صعيد الإقتصاد .

وهو الأمر الذى أطلق عليه ماركس اسم الانتقال من «الإدراج» الشكلى إلى «الإدراج» الفعلى للعمل تحت رأس المال .

ليس فقط قوى إنتاجية جديدة ، مادية وفكرية (العلوم والتقنيات وغيرها من القوى) ، وإنما كذلك نمط جديد من العمال : العامل المجُزأ للنزوع على الصعيد الفردى من أية قدرة إنتاجية ، لكنه يكتسبها فور التصاقه ببعض قوى العمل الأخرى داخل البنية الجماعية .

إذن حينما تكون قد بنت قاعدتها المادية الخاصة ودمرت فى ظل منافستها أو أرضت لها أشكالا أخرى وعلاقات إنتاج ، يصير نمط الإنتاج الرأسمالى سائداً .

وبالطبع ، لم تصل إلى هذه المرحلة إلاَّ فى تلك البلاد التى قد تطورت فيها على النحو الأكثر وهى البلاد المركزية (أو بالأحرى المراكز بغير تشديد) انتشارها بالنسبة للبلدان الأخرى الخاضعة لها وتكون المحيط المختلف لهذا المجموع الاقتصادى الجديد .

لكن الواضح حسب ماركس أنه كان لابد أن تقوم الثورة البروليتارية أولاً فى البلدان الرأسمالية الأكثر تطوراً ، فى المركز ، لا فى المحيط (كروسيا فى طرف أوروبا) وأنه فى هذه البلدان وحدها كان

حظ نجاح الثورة الاكبر، الافقط النجاح الفورى، والانتصار السياسى، وإنما القدرة على الانتقال الفعلى إلى أشكال حديثة وديناميكية من الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج.

وكان المفروض أن تمتلك البروليتاريا وحلفاؤها فى هذه البلدان، بعد انتصارها السياسى، شتى أشكال الراسمالية فى نطاق تطوير الإنتاج والتبادلات والعلم والتقنيات وغيرها من الاشكال.

وإذا قارنا بين تحاليل ماركس لشرطى وعمليات الانتقال إلى الراسمالية وبين ماحدث فى روسيا او فى الصين، سنرى على الفور أن هذه البلدان لم تكن بلداناً راسمالية متطورة (الصين اقل بكثير من روسيا القيصرية) وأن الثورة بالتالى اضطرت، كما توقع ماركس وكثيرون آخرون فى عصره، إلى إدخال التقنيات وقوى الإنتاج المتطورة فى الغرب الراسمالي لكى تخلق لنفسها قاعدتها المادية الخاصة.

ولم يستطع قط تطور هذه القاعدة المنافسة الحقة لقاعدة البلدان الراسمالية الاكثر تطوراً.

واقل من ذلك، لم يستطع خلق، فى تاريخ البشرية، قوى الإنتاج المادية والفكرية الوحيدة بغير نظير لها فى الغرب الراسمالي، والتى ربما قد صارت بالنسبة له مستحيلة المنال وبالضبط بسبب ابنيته الراسمالية.

وصـارت الأنظمـة «الاشتـراكيـة» البيروقراطية والبوليسية عجوزا خلال بضعة عقود بغير أن تكون قد وصلت إلى النضج ولم تكن قط قادرة على خلق قاعدة مادية خاصة على إساسها كان المفروض أن يصبح ممكناً تطور المجتمع لصالح جموع الناس المستحيل تشييده داخل انظمة اجتماعية تقوم على استبعاد الغالبية العظمى من الملكية (و / او) من الرقابة على وسائل الإنتاج وعلى استغلال قوة عملها.

إنها لم تكن قابلة للدوام لانها غير قابلة للحياة — وتعود من جديد إلى نفس الاسئلة.

ونقيس اليوم مدى وهم لينين المأسوى حينما رقص من الفرحة يوم ان كان ممكناً أن يقال إن الثورة البلشفية دامت نفس فترة كومونة باريس الزمنية.

وعلى العكس، صنع لينين وتروتسكى لانفسهما عدداً أقل من الأوهام حينما تصورا أنه من الصعب، بل من المستحيل، بناء الاشتراكية فى بلد واحد فقط، إن لم تتفجر ثورات بروليتارية ظافرة بسرعة فى انحاء بلدان المركز الراسمالى، فى اوروبا الغربية والولايات المتحدة. وعلمّهما قمع «السوفيت» فى بودابست وبرلين انه ينبغى الانتظار. وبالانتظار يتم القيام قدر المستطاع ببناء نمط إنتاج كانت فيه العناصر المادية مفقودة والشكل الاجتماعى واجب الاختراع.

وفى نهاية الأمر فحينما نحلل مايعتقده ماركس فى دور الثورات السياسية، فى انجلترا عام ١٦٤٥، وفى فرنسا عام ١٧٨٩، فمن البديهى بالنسبة له لم تثمر نمط الإنتاج الراسمالى. بالتاكيد انهما سرعتا من إيقاع تطوره، لكن ليس بشكل مباشر، إذ أن ذلك لم يكن هدفهما. بل كان هدفهما تغيير علاقات القوى وتحقيق تقسيم جديد للسلطة، اولاً وقبل اى شىء بين الطبقات السائدة فى المجتمع، ارستقراطيات جديدة او قديمة ومختلف البورجوازيات.

وعلى خلاف ذلك وجدت الثورة الروسية نفسها امام هدفين وحيدين فى التاريخ: من جانب، خلق نمط جديد فى الإنتاج، اختلاقه وفرضه على مجموع المجتمع، مما هو مقدما غريب لكن من جانب آخر، اراد هذا النمط فى الإنتاج الا يقوم لاول مرة فى التاريخ، منذ ظهور مجتمعات طبقية على استغلال عمل الغالبية العظمى من قبل اقلية تمتلك الملكية (و / او) على رقابة وسائل الإنتاج والوجود.

وباختصار قدم هذه النمط فى الإنتاج نفسه وكانه الخطوة الأولى التى تخطوها الإنسانية فيما بعد العصر البدائى. كان مفروضاً أن يكون شكلاً حديثاً فى الإنتاج أرقى من الراسمالية، قائم على الامتلاك المشترك لوسائل الإنتاج وإعادة توزيع منتجات عمل الجميع، مع الأخذ بعين الاعتبار، فى نفس الوقت، العمل الذى يقدمه كل واحد على حدة، والحاجات المشتركة بين الجميع، المنتجة وغير المنتجة، على صعيد الصحة والتربية ووسائل المواصلات وغيرها من الحاجات.

وتلك الخطوة الأولى خارج العصر البدائى للمجتمعات الطبقية التى كان المفروض ايضا أن تمهد «لذبول» الدولة ولدخول مملكة الحرية الحقة.

ففى يناير ١٨٧٤، اى عام قبل أن يكتب ماركس نقده لبرنامج جوته (مايو ١٨٧٥)، كتب إنجلز هذه السطور التى تصل بين إنجلز وفكر ماركس: «ستزول الدولة بعد الثورة بصفتها وظيفة سياسية وستحافظ على وظائفها الإدارية والرقابية لمصالح المجتمع الحقة»[٥].

وكان ماركس يعتقد حينما كان يُعلّق على القرارات التى اتخذتها كومونة باريس، أن كومونة باريس لم تكن سلطة دولة كغيرها من سلطات الدولة.

فالفكرة إذن واضحة:

«إن المجتمع الذى يعيد تنظيم الإنتاج على أساس الجمعية الحرة والمتكافئة التى يقيمها العمال فيما بينهم ستنفى ماكينة الدولة فى مجملها إلى حيث سيكون مكانها فى المستقبل، متحف الاثريات، إلى جانب دولاب المغزل والفاس البرونزيين»[٦].

هذه هى النتيجة التى وصل إليها كتاب

اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة (١٨٨٤) .

لكن لم يكن ممكنا أن يكون ذلك المجتمع هو روسيا ١٩١٧ التى كانت قد استنفدتها الحرب ، وحيث استمر البؤس والضرائب فى إجبار ملايين الفلاحين على الهرب من الريف جرياً وراء لقمة العيش بالعمل فى المناجم ومناطق عمل «باكو» أو فى المدن .

على أن لينين يذكر هذه النصوص لماركس وإنجلز حينما كتب فى قلب الفترة الثورية ، فى يناير وفبراير ١٩١٧ ، ملاحظاته حول «الماركسية والدولة» .

كذلك لم يكن من الممكن أن يكون ذاك المجتمع (صين ١٩٤٩) المكبلة بالكوارث الناتجة عن الاحتلال اليابانى والحرب مع «كومينتانج» والتى لم يكن لديها بعد القدرة على خلق قوى جديدة بعد قرن من العجز شهد انحطاط الإمبراطورية الصينية طويل الأمد .

لكن فلنعد من جديد إلى الأسلوب الذى اتبعه ماركس فى استخلاص إمكانية الثورة فى روسيا وتصوّر شروط نجاحها فى مواجهة المهام التى كان عليها أن تقوم بها .

ولنتذكر مرة أخرى ، أنه حسب ماركس كانت الدولة الروسية هى والدولة الأكثر رجعية فى أوروبا ، لأنها كانت تربط بين ملامح الملكيات المطلقة الغربية وبين الملامح المركزية و«الاستبدادية» التى كنّا نقابلها فى الدول القائمة على استغلال الجماعات الريفية والمطابقة لمختلف أشكال ما اصطلحنا على تسميته بنمط الإنتاج «الأسيوى» . هذه هى الدولة ، حسب ماركس ، التى لعبت منذ اندلاع الثورة الفرنسية «شرطى» أوروبا ، وكانت قابلة للانهيار فى كل مرة كانت تهدد فيها الانتفاضة الشعبية هذه أو تلك من الدول فى أوروبا الغربية أو أوروبا الوسطى .

وكانت لاتزال القوة الإنتاجية الرئيسية فى روسيا ، حسب ماركس أيضا ، مكونة من الفلاحين ، لا من البروليتاريين . وكان جزء كبير من الأراضى ، الأقل جودة دائما ملكية جماعية للاقاليم الزراعية . وفى شكل المصارف والسكك الحديدية والشركات المساهمة وبورصات الأوراق المالية ومختلف الصناعات الميكانيكية والملاحة التجارية وغيرها من الأبنية . «دفعت الدولة ، على حساب الفلاحين وضدهم ، فروع كاملة من فروع النظام الرأسمالى الغربى» .

وأرادت «تحويلها إلى طبقة متوسطة زراعية تلك الأقلية الغنية تقريباً من الفلاحين ، وتحويل الأغلبية إلى بروليتاريين ، بغير تحذلق ، مأجورين[٧] .

والسؤال المعلق هو إذن : ما إذا كان فى مستطاع روسيا ، بعد الثورة الفلاحية ، وبواسطة هذا «الاجتماع بين ظروف استثنائية» ، الانتقال مباشرة «إلى النظام الاقتصادى الذى يصبو إليه المجتمع الحديث» بغير المرور «بالمغامرات الفظيعة» اللصيقة بالرأسمالية ، بالاستناد إلى أشكال ملكية وعمل جماعية قبل رأسمالية التى مازالت باقية على النطاق القومى فى هذا البلد وهى من ملامح القرية الريفية الروسية ؟

والشروط التى يذكرها ماركس تستحق أن نوردها هنا :

(أ) ينبغى أن «نبدأ بوضع القرية فى وضعها العادى على قاعدتها القائمة ، لأن الفلاح فى أى مكان هو عدو أى تغيير فجائى» .

(ب) تحتل القرية الروسية موقعاً استثنائياً ، لانظير له فى التاريخ . هى الوحيدة بعد فى أوروبا فى شكلها العضوى ، السائد فى الحياة الريفية ضمن امبراطورية مترامية الأطراف . وتقدم لها الملكية المشاعية القاعدة الطبيعية للامتلاك الجماعى وبيئتها التاريخية . كما تقدم لها معاصرة الإنتاج الرأسمالى جاهزة الشروط المادية للعمل التعاونى المنظم على أرجاء مترامية . وتستطيع بالتالى أن تستوعب المكتسبات الإيجابية المتبلورة فى النظام الرأسمالى بغير المرور بالمشانق الجماعية المضافة ؛

وتستطيع درجة درجة أن تزيح الزراعة المتناثرة وتضع محلها الزراعة المترابطة بواسطة الماكينات الذى يدعو إليها الشكل الفيزيقى للأرض الروسية» .

(حـ) وبفضل تطوير قاعدتها ، الملكية المشاعية للأرض ، وبتصفية مبدأ الملكية الخاصة التى تتضمنه أيضا ، تستطيع أن تصير نقطة انطلاق مباشرة للنظام الاقتصادى الذى يصبو إليه المجتمع الحديث وتستطيع أن تجدّد من نفسها بغير أن تبدأ فى الانتحار .

(د) يدين المجتمع الروسى ، الذى عاش لزمن طويل على حساب الفلاح ، للفلاح ، بالتقدمات الضرورية لذلك الانتقال [٨] .

(هـ) هناك طابع «للقرية الريفية» فى روسيا يلحق بها الضعف وهو معاد بكافة المعانى . إنها عزلتها [... التى] تدفع إلى السطح وفوق القرى استبداداً مركزياً تقريباً . [...] . وهو ليس إلاّ فى وسط الإنتفاضة العامة الذى من الممكن أن يتمم كسر [هذه] العزلة على أساسها [...] . وربما يكون واجباً علينا أن نستبدل جمعية من الفلاحين تختارها القرى نفسها وتلعب دور الهيئة الاقتصادية والإدارية المدافعة عن مصالحها «بالفولوست» ، المؤسسة الحكومية»[٩] .

(و) ونضيف أن جميع هذه الشروط لن تكفى إذا لم تتم فى البلدان الغربية ، «ثورة بروليتارية ظافرة» تأتى «لتقدم إلى الفلاح الروسى الشروط الضرورية لهذا الانتقال ، وخصوصاً الشروط المادية التى سيحتاج إليها للقيام بالتحول المفروض بحكم هذا الواقع فى أنحاء نظامه الزراعى كافة»[١٠] .

على أنه حينما نفحص هذه القائمة من الشروط التى ربما تسمح لثورة فلاحية من حيث الجوهر أن تنخرط فى نفس طريق الثورات البروليتارية المفروض أنها قيد الإنجاز والتى كانت لابد أن تسير فيه البلدان الرأسمالية الاكثر تطوراً (مشكلة مطروحة كذلك أمام صين ماو، ستين عاماً بعد ذلك التاريخ)، فإننا ندهش من المفارقة، بل من التعارض بين هذه الطروحات، وبين ماحدث فى روسيا بعد «السياسة الاقتصادية الجديدة».

يتخيل ماركس بالفعل أن الثورة سيقوم بها الفلاحون المجتمعون لصالح «جميع قوى العقل الروسى» والفلاحين. والتغيرات بعد ذلك كان لابد أن تسير درجة درجة. وسيتلقى الفلاحون وسائل تطوير أنفسهم.

المجتمع يدين لهم. سيديرون بأنفسهم مصالحهم الاقتصادية أو غير ذلك من الأمور. ولابد من قلب الدولة الاستبدادية والمركزية رأساً على عقب، ومكافحة البيروقراطية وغيرها من الإصلاحات ولا أثر هنا لماركس الذى يدافع عن رعب الدولة والبيروقراطية ضد جموع العمال.

ومن جانب آخر فإن هذا يضىء لنا ما كان مقصوداً «بديكتاتورية البروليتارية» التى ترسخت بالضرورة وهلة من الزمن بعد انتصار الثورة البروليتارية.

وبصفته عالماً بالتاريخ القديم، كان ماركس يعرف أن الديكتاتورية فى روما قد أعلن عنها حين كان التوقيف الوقتى لبعض حقوق المواطنين ضرورياً للقضاء على الحروب الأهلية التى كانت تشعلها فيما بينهم.

كان المفروض إذن تصويب ديكتاتورية البروليتاريا لا ضد الشعب، وإنما ضد أعداء الشعب وممثلى الطبقات المستغلة القديمة التى كانت تتصارع فيما بينها بالسلاح أو بطرق أخرى لصالح تحولات المجتمع الثورية.

ولم تكن إذن ديكتاتورية البروليتاريا، ديكتاتورية حزب، وإنما كانت ديكتاتورية أغلبية الشعب ـــ البروليتارية والطبقات المستغلة الأخرى قديماً ـــ ضد الأقلية.

وبعد هذا الوضع المرحلى المطابق لتناحرات بين الطبقات المستمرة بعد الثورة، كان لابد أن يتلوه ديمقراطية أغنى بإمكانات للفرد من تلك الديمقراطية التى انجزتها البورجوازية فى نهاية نضالاته.

ولاينبغى أن تنسينا سخرية ماركس من الطابع «الشكلى» والنهى غالباً للديمقراطية البورجوازية، ضد حدود الحرية السياسية التى تبقى على التفاوت والعبودية الاقتصادية، أن ماركس أكد بوضوح، حينما رسم، فى نقد برنامج جوته، يحذر وتردد، الأشكال التى من الممكن أن يتخذها المجتمع المقبل «الشيوعى»، أن القانون «البورجوازى»، بمعنى ذلك القانون الذى يضع أن القانون يساوى بين الجميع وغيرها من الأمور التى يضعها القانون قد تكون فى المستقبل، رغماً عن حدودها، ضرورة حتى المرحلة «العليا» من الشيوعية.

وإذا أضفنا إلى جميع هذه النصوص تلك النصوص التى يندد فيها ماركس ببيروقراطية الدول الحديثة التى تعتبر الدولة وكأنها ملكيتها، وحيث انتقد «الشيوعية العسكرية»، أو «اشتراكية الدولة» التى دعا إليها «لاسال» والتى رآها ممتدة على صفحات المطبوعات الاشتراكية الديمقراطية الألمانية فى السنوات التى سبقت رحيله[11]، فمن المحال أن نرى فى ماركس الملهم أو أب الستالينية الروسية أو الماوية.

ولنذكر أنه انتقد بنفس القدر «الشيوعية البدائية» التى ناصرها أولئك الذين دعوا إلى تقسيم كل شىء.

وقد ذهب إنجلز فى كتابه «أنتى دهرنج» (١٨٧٧) إلى حد التوكيد على أن أى محاولة لتصفية الطبقات حينما تكون الشروط التاريخية غائبة قد تثمر تراجعاً عاماً لحركة تطور المجتمع، تراجعاً حضارياً (أو قد تولّد جماعات طوباوية قد تزول هى نفسها بسرعة).

وعلى أى حال فالشروط التى يذكرها ماركس لنجاح الثورة الاشتراكية الفلاحية المندلعة فى بلد إذن لاتسوده الرأسمالية بعد، تحتوى على أطروحة تبدو غير واقعية: فالمجتمع الروسى قد يعطى للفلاحين الروس الشروط المادية لتحولهم، بل ويضيف إنجلز أن الثورة البروليتارية فى الغرب قد تقدم إلى الفلاح الروسى الشروط المادية الضرورية.

لكن من ينتج هذه الشروط؟

كيف من الممكن أن «تُعطى» إلى المجتمع الروسى أو أن «تقدم» هذه الشروط إلى الفلاح الروسى قبل البروليتاريين فى الغرب بعد انتصار ثورتهم؟

على أنه هنا بالضبط تكمن مشكلة تراكم وسائل تحديث المجتمعات الزراعية، وفى سبيل حل هذه المشكلة فرض النموذج الستالينى فى التطور الاقتصادى للإتحاد السوفيتى التجميع الإجبارى للإنتاج الزراعى وأعطى الأولوية غير المشروطة لتطور إنتاج وسائل الإنتاج وفرض التخطيط المركزى وبالتالى البيروقراطى، وصفى السوق وآليات المنافسة والأسعار وغيرها.

وباختصار وبصرف النظر عن أفكار ماركس وإنجلز حول إمكانية الثورة فى روسيا، وبصرف النظر عن المواقف الديمقراطية أو المناهضة الديمقراطية، للينين وتروتسكى والثوريين الروس، فحينما قامت الثورة، طُرحت المشكلة فى مجملها وفى الواقع.

كيف يمكن تطوير ـــ حسب المبادىء الجديدة ـــ مجتمع اشتراكى حديث على

انتقاض المجتمع الزراعى ، فى انتظار أن تغير ثورة بروليتارية فى الغرب ، العلاقات بين الدول وتزود الفلاحين الروس بالامكانات التقنية والاقتصادية الضرورية ؟

وأخيراً طرحت مشكلة التعارض بين التخطيط وبين السوق فى التطور الاقتصادى للمجتمعات الحديثة ، وينبغى أن نتذكر كيف كان ماركس يتصور هذين اللفظين ، وهاتين الآليتين ، إذ أنه بواسطة أفكاره اقترب الثوريون الروس وغيرهم من الثوريين ، من مهمة بناء منطق اقتصادى جديد ونموذج مجتمعى جديد .

وبالنسبة لماركس ، فعقلنة الإنتاج وتنسيقها والتخطيط لها هى ملامح الإنتاج الرأسمالى كما يجرى داخل شركة تجارية أو «تروست» أو «كارتل» أو مجموعة مشتركة من الشركات الرأسمالية .

وبسبب انفصال رأس المال عن العمل ، تتضمن هذه العقلنة وجود أشكال «استبدادية» فى الانضباط فى العمل بالإضافة إلى أشكال البيروقراطية المصوبة ضد العمال . وبصرف النظر عن المصنع ، يسود السوق إما المنافسة أو الفوضى ، أو ، إذ سيطرت الاحتكارات على السوق ، إنتظام لايحكمه مبدأ حاجات المستهلكين ، وإنما الربح الأقصى للاحتكارات التى فى مقدورها المضاربة على الأسواق التى تتحكم فيها .

وبالنسبة لماركس كذلك كان على الاشتراكية أن تمتد إلى الإنتاج بأكمله ، العقلنة الكائنة داخل المصانع بالإضافة إلى تحولين كبيرين : أن تكون المصانع مسيَّرة ذاتياً من قبل المنتجين أنفسهم وأن يكون إنتاجهم مصوَّباً أولاً نحو إشباع الحاجات الاجتماعية وألاّ يحكمها مبدأ تحقيق أقصى الأرباح الناتجة عن رأس المال .

وباختصار ، لاحظ ماركس ، كغيره كثيرين ، أن آليات السوق الرأسمالية لاتعطى عبر لعبة العرض والطلب (القدرة على سداد الديون المتكررة) سوى معلومات جزئية حول الحالة الفعلية لحاجات الشعب والمجتمع ، ولاتسمح بتكييف الإنتاج والاستهلاك إلاّ عبر الأزمات الدورية لفائض الإنتاج أو القحط .

وتصور ماركس أن الثورة لا [illegible] يقدر لها النجاح فى بلد واحد أو فى عدة بلدان رأسمالية الأكثر تطوراً (وإذن حيث تكون شروط الإنتاج والتبادل مقدماً وفى الواقع مطبوعة بالطابع الاجتماعى العريض» قد تستطيع أن تقيم أشكالاً جديدة من انضباط الاقتصاد التى قد تحل محل السوق وتكون أفضل منها .

كان على التخطيط فى نفس الوقت السماح بمعرفة أدق للحاجات وبتنظيم الإنتاج لإشباع الحاجات فى أسرع وقت ممكن وبأقل تكلفة .

ولذلك كان لابد فى جميع القطاعات وبين جميع المستويات ، أن تقوم المعلومات حول الحاجات الاجتماعية وتدور ، وأن يسير مجموع العملية ذاته بواسطة المنتجين أنفسهم المجتمعين فى رقابة شروط الإنتاج .

كان من المفروض إذن أن يكون الإنتاج مرتبطاً عضوياً بالديمقراطية المباشرة ، وأن يكون موسعاً وفعّالا فى جميع القطاعات ، السياسية والإقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وبالنسبة لماركس إذن لم يكن من الممكن أن يخرج المجتمع الاشتراكى إلى الوجود إلاّ بتوافر شرطين: ألاّ يعود المنتجون منفصلين عن الملكية أو عن الرقابة الفعلية لإدارة وسائل الإنتاج . وأنه باعتبارهم مواطنين ، ألاّ يكون المواطنون منفصلين عن الوسائل السياسية وحكم المجتمع ، وبالتالى عن إدارة الدولة وممارسة السلطة . والدولة التى تبدأ فى الاستغناء على هذا النحو عن وظائفها القديمة كأداة سيطرة واستغلال للطبقات المُسيَّطر عليها ، للجموع العاملة ، فهذا يعنى أن هذه الدولة قد بدأت فى «الذبول» .

ونحن بعيدون مع هذه الرؤية القائمة على التخطيط الديمقراطى القادر على صنع الأفضل من السوق لتأمين التطور الاقتصادى للمجتمع ، والقائمة كذلك على التخطيط البيروقراطى والبوليسى الذى قاد تطور البلدان الاشتراكية بتصفية تمت بالقمع أو القهر لأى تدخل للعمل فى تحديد الأهداف ومناهج الاقتصاد وعبر تخصيص جزء من ثمار التنمية لتحسين شروط الحياة «لنومونكلاتورا» صاحبة إمتيازات فى تمثيل الدولة ، والساسة المحترفين ، ورجال الشرطة وغيرهم من موظفى الدولة والحزب الذين كانوا يمتلكون جزءاً من السلطة .

هل فقط لأننا مع روسيا والصين وفيتنام ورومانيا كان لدينا مجتمعات كانت فيها الأبنية الرأسمالية بعد ضئيلة التطور ، أم كما تصور ماكس فيبر فى مقاله القصير حول الاشتراكية والذى حلله بذكاء شديد جاك تيكسييه ، لأن أى تخطيط على الصعيد الوطنى لا يستطيع إلاّ أن يرفع إلى الدرجة القصوى «ميل عصرنا» إلى بيرقرطة الإنتاج والمجتمع وأنه يتضمن لا الذبول ، وإنما تقوية الدولة ورقابته لحياة كل واحد عبْر بيروقراطية أقوى من أى يوم مضى ، إذ قد يتضمن التخطيط أخيراً اتحاداً بين بيروقراطية المصانع وبين بيروقراطية الدولة ؟

نص عظيم مكتوب عام ١٩١٨ بضعة أشهر تقريباً بعد أن تفجرت الثورة الروسية وقبل أن يبدأ الثوريون الروس بقليل فى بناء اقتصاد ومجتمع اشتراكيين كان ذلك بعد عصر السوفيت المحليين لا عصر «الدولة الاشتراكية» .

وهذا النص كان محاضرة طلبت من ماكس فيبر لكى يلقيها أمام ضباط موظفى الدولة البروسية ، لكى يشرح لهم ما كانت تدل عليه الاشتراكية التى كان يدعو إليها

الثوريون الروس وأنصارهم فى ألمانيا من البلدان .

كان فيبر إذن ينتقد فكرة ذبول الدولة الممكن ، باعتبارها فكرة طوباوية . وهذا النقد قام به لا على قاعدة المعطيات المأخوذة من الملاحظة الملموسة ، وإنما على قاعدة رؤية نظرية تتعلق «بمصير» العصر «الحديث» الذى يدفع بغير توقف إلى الأمام خضوع الإنتاج والحياة الاجتماعية إلى العقلانية البيروقراطية وعقلانية الدولة .

كانت الاشتراكية ، بالنسبة لماكس فيبر ، حقاً تجاوزاً للرأسمالية بمعنى أن الاشتراكية كانت تزيل جميع الحواجز القائمة عبر الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وبرقرطة الحياة الاجتماعية وخضوعها إلى الدولة .

وكان منطقياً أن يبدو له إذن التخطيط «الديمقراطى» من حيث الجوهر تناقضياً وبالتالى يستحيل تحقيقه واستخلص من ذلك ضرورة نوع من أنواع «ديمقراطية الديكتاتور» فى سبيل اجتناب هذه المخاطر الآتية من سيطرة سلطة الدولة والبيروقراطية .

على أن الحوار والتعارض بين السوق وبين التخطيط مطروح دائما بشكل ملموس اليوم ، لا فقط فى سبيل تطوير بلدان «العالم الثالث» ، وإنما كذلك داخل البلدان الرأسمالية الأكثر تطوراً للجواب عن حاجات لاتتحملها لا السوق ولا منطق الربح : حماية البيئة ورفع مستوى المعارف والتعليم المهنى وبرامج البحوث والنضال ضد الأمراض القاتلة وغيرها من الحاجات .

ومن جانب آخر ، تلعب أفكار الرقابة الديمقراطية للدولة وإعادة امتلاك المجتمع المدنى للوظائف المتمركزة فى الدولة وغيرها من الأفكار ، دوراً فى النضالات والتطور السياسى للبلدان الرأسمالية المتقدمة القائمة على النظام الديمقراطى التمثيلى.

لذلك فاليوم وحسبما تعلمنا من الفاشية والستالينية ، فالنضال فى سبيل توسيع الديمقراطية هو أرضية الالتقاء والدمج بين جميع النضالات ضد التفاوت الاجتماعى والحرمان من الحقوق والحريات .

لأن الديمقراطية لاتنحصر فى حدود البعد السياسى وحده الذى لاينحصر بدوره فى حدود حق الانتخاب للمواطنين مرة كل أربعة أعوام لإرسال «ممثليهم» إلى البرلمان .

فالديمقراطية السياسية ،هى الممارسة الفعلية والمقسمة لمسئوليات إدارة وقيادة المجتمع .

ونحن الآن بعيدون عن ذلك ، حتى فى الديمقراطية البورجوازية الأكثر تقدماً . لكن الديمقراطية ، هى أيضا الديمقراطية الاجتماعية والثقافية والتسليم بالفوارق بين المرأة والرجل وبالحقوق التى اكتسبها المهاجرون الذين يعملون منذ سنوات ، بشكل رسمى ومستمر فى ظل اقتصاد بلد آخر وغيرها من ملامح الديمقراطية وعلى هذا الصعيد ، التقدم محدود جداً والمقاومة كبيرة .

وأخيراً ، آخر بعد من أبعاد الديمقراطية وآخر قطاع يبقى شبه فارغ كلياً بلا عناية ، هو قطاع الديمقراطية الاقتصادية ، الرقابة والإدارة المقسمة ديمقراطياً من قبل جميع أولئك الذين يشتركون فى عملية الإنتاج والتبادلات .

هذا حسبما نعرف موجود بندرة فى عالمنا وليس الحضور فى مجلس الإدارة داخل المصانع الخاصة أو التابعة للدولة لممثلين رسميين للعمال هو الذى قضى على الأوتوقراطية التى تسود تلك المصانع .

فالتوسيع الدائم للديمقراطية يبقى المبدأ الأول وركيزة جميع النضالات الثورية والوحيد الذى يسمح بتكوين جبهة متعددة الحركات والنضالات تهاجم أشكال الخضوع والقهر والاستغلال المختلفة التى يعانى منها ملايين البشر لأنهم نساء ، أو لأنهم سود أو لأنهم عرب فى بلد غريب أو العكس ، أو لأنهم عمال ، موظفون أو كوادر وغيرهم .

إن الأقلية التى تمتلك وحدها وبغير رقابة وسائل تطور المجتمع ووسائل وجود أغلبية الرجال والنساء اللائى يكونَّ هذه الأغلبية عاد فى عصرنا هذا من غير السهل الدفاع عنها أمام الملأ .

وكل مرة تظهر وقائع من هذا النوع نحاول نفيها أو إضفاء الشرعية عليها باسم المصلحة العامة .

وفى ظل ديكتاتورية ستالين وماو ، كانت الدساتير «الديمقراطية» والسلطة مضطرة إلى تقديم نفسها على أنها سلطة الشعب والعمال . وفى الديمقراطيات الغربية المتحلية بفضائل الاقتصاد «الليبرالى» نطلب من الدولة إصلاح التجاوزات والحد من التفاوت الاجتماعى ومكافحة الأمية والبطالة أو المخدرات .

ليس هناك مكان واحد يقوم فيه التطور الاقتصادى على مبدأ واحد ، على مؤسسة واحدة ، على السوق أو على التخطيط . وليست تلفيقية أن نرغب فى دمجهما حيث يكون ذلك ضرورياً . كما أنها ليست طوباوية أن طلب مشاركة الغالبية العظمى من الناس فى إدارة المجتمع . إذ تعرف من جانب آخر أنه عاجلاً أم آجلاً كل شىء له ثمنه .

ومن يدفع الثمن حينما يكون هناك تخطيط بغير سوق وسوق بغير تخطيط أو أية آلية غير سلعية ؟

ويحل اليوم محل السياقات الوهمية للانتقالات الإجبارية (حيث عرفت فى النهاية قوى العديد من الثورات وآمال مجتمع أفضل) زمن لايمكن أن يكون زمن تعددية النضالات وتعددية الحركات ، لكى تفرض عليها إصلاحات دقيقة ، هى التى تجابه نظم (ليس فقط رأسمالية أو

اشتراكية سابقة) عاجزة عن حل تناقضاتها .

وفي زمن الانتقالات الثورية الفاشلة أستشهد تطورات ضرورية تقوم بما هو افضل مما قامت به ؟

والأمر الاكيد هو أن الحيرة التى قسمت الحركة العمالية وحلفاءها إلى إصلاحيين وثوريين هى من الآن فصاعداً فى حكم التاريخ .

وأين ماركس من هذا كله ؟

أسيصير ما كان يرفضه ، المفكر الكبير مصفوفاً إلى جانبا العظام كأرسطو طاليس ، وداروين والعالم الذى يبتغى دراسته باعتباره علماً ، لكنه عاد لايمتلك اى تأثير آخر فى تطور زمنا ومجتمعاتنا ؟

وهل ينبغى اعتبارها «طوباوية» من الواجب التخلى عنها بصفتها بغير منفعة أو خطورة ، فكرة أن فى إمكان الدولة يوماً ما أن تشق طريقها إلى الذبول لأن نماذج أخرى فى الإنتاج وأساليب أخرى فى قيادة المجتمع لن تهيم بعد ذلك التاريخ ، أن البعض ضد البعض الآخر من المجموعات البشرية والطبقات على أساس المصالح المتعارضة ؟

هل نستطيع أن ننسى أن الدولة لم تكن دائما فى مجرى تاريخ البشرية ، وذلك لاجتناب التفكير فى أنه من الممكن يوما ما أن تكف عن الوجود ؟

هل ينبغى أن نحافظ على ماركس العالم ونقذف ، بل نندد به كمفكر غير مسئول كان لديه هذه الأفكار الموصوفة من قبل الواقعيين «بأنها طوباويات» كريمة ، لكن خطيرة ؟

الواقع أنه ينبغى إعادة بناء صلة عصرنا بماركس ؟

وينبغى أن نعرف ، ماتحافظ عليه ولماذا وما نرفضه ولماذا ؟ لاشىء يمر اليوم بالإيمان أو بإكراهية .

ويبقى ماركس ذلك المفكر الذى أوضح للمرة الأولى دور الإقتصاد فى تطور المجتمعات ، والصلة الحميمة القائمة بين اشكال الإنتاج وبين أشكال السلطة .

إنَّ الإقتصاد والسلطة مرتبطان برباط حميم وتكونان القوى المحركة الرئيسية للمجتمع ومصادر التغيرات الأهم أى تغيرات المجتمع .

هذه الفكرة دخلت فى الممارسة (بل فى العلوم الاجتماعية) .



وسقوط الشيوعية بعد الستالينية الملغومة بالفلم قاتلة وانهيار نظامها الاقتصادى هو أحدث البراهين على هذه الفكرة .

ولكن من هنا نستنتج أن الاقتصاد هو الأساس العام للحياة الاجتماعية ، وأن علاقات القرابة ومختلف الأديان وأشكال الفن تطابق نمط نتاج محدد . هذه الأطروحة وإذا كانت حقاً فى ماركس هى غير مقبولة اليوم .

فقد سبقت المسيحية مثلاً والتى ظهرت إلى الوجود قبل ألفى عام ، فى بلد صغير من جانب حوض البحر الأبيض الشرقى ، بعشرة قرون تقريبا مولد الأشكال «الإقطاعية» فى تنظيم الإنتاج والمجتمع ، بأكثر من بضعة قرون ، ولادة الرأسمالية .

المسيحية فى أصولها وعقائدها ورموزها لاتمت بصلة إلى الإقطاع أو الرأسمالية .

ورغم ذلك فقد أعطت المسيحية بعض العناصر الجوهرية لتنظيم المجتمع الإقطاعى وتبقى ايديولوجية ومؤسسة مسيطرة داخل المجتمعات الرأسمالية الغربية .

ومن الممكن إقامة نفس البرهان على نظم القرابة الأوربية المطبوعة منذ قرون بمظاهر «قرابة الرحم» وذلك قبل فترة طويلة من ظهور العصر الحديث وآثار التصنيع وانتشار المدن فى التطور الأسرة وصلات القرابة[١٢] .

وباختصار ، لا نقارب المستقبل بنفس المادية التى تركها لنا ماركس . مما لايعنى أبداً اننا نشعر بضرورة وضع فكرته فى سلة المهملات التاريخية والقائلة بأن أشكال السلطة وأشكال الاقتصاد مرتبطان برباط حميم وتكونان القوى الأقوى بين تلك القوى التى تخلق التاريخ .

وذلك لا لأنها قد تغير المجتمع — وهو الأمر الطبيعى ، وإنما لأنها تدفع فى نهاية المطاف الرغبة فى تغيير المجتمع .

الاشتراكية —
أحلام الماضي
ومشاريع المستقبل

هوامش :

(١) للتفصيل انظر م . جودولييه «أعمال ماركس» ، ماركس الآن ، ٧ ، ١٩٩٠ ، ص ١٣٩ — ١٦٣ .

(٢) انظر ، ماركس وانجلز ولينين ، حول المجتمعات قبل الراسمالية ، باريس ، دار المطبوعات الإجتماعية ، ١٩٧٨ ، ص ٣١٨ — ٣٤٢ . انظر ايضا في نفس المرجع ترجمة نص انجلز «انتهاء الإشتراكيات في بلد الينجر» (في اللغة الالمانية) .

(٣) ١٨٨١ . انظر ، نفس المرجع ، ص ٣٢٥ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٣٥٦ .

(٥) «حول السلطة» . انظر في هذه النقطة م . جودولييه ، مدخل إلى كارل ماركس ، حول المجتمعات قبل الراسمالية ، باريس ، دار المطبوعات الاجتماعية ، ١٩٧٨ ، ص ١٠٢ .

(٦) ف . انجلز ، اصل الاسرة والملكية الخاصة والدولة ، باريس ، دار المطبوعات الاجتماعية ، ١٩٧٠ ، ص ١٥٩ .

(٧) كارل ماركس ، حول المجتمعات قبل الراسمالية ، نفس المرجع ، ص ٣٢٨ — ٣٢٩ .

(٨) نفس المرجع ، ص ٣٢٤ .

(٩) نفس المرجع .

(١٠) إنجلز ، ١٨٧٥ ، انظرنفس المرجع ، ص ٣٥٦ .

(١١) انظر ايضا حول هذا المحور رسالة إنجلز إلى بيبيل بتاريخ ١٨ يناير ١٨٨٤ ورسالته إلى كاوتسكي بتاريخ ١٤ فبراير ١٨٨٤ .

(١٢) م . فيبر ، الاشتراكية ، منحنى الكتابات الكاملة حول الاجتماع والسياسة الإجتماعية ، توبنجن ، موهر ، ١٩٢٤ (في اللغة الالمانية)

(١٣) ج . جوودى ، تطور الاسرة والزواج في اوروبا ، باريس ، ا . كولان ، ١٩٨٥ .

العودة إلى [الماركسية البسيطة]

دراسة تضبط مسار الماركسية في المستقبل وتتوقع انها لن تكون لا « ماركسية حرب » ولا « ايديولوجية دولة » ، وإنما ستكون او ربما ستكون « ماركسية مدنية » ، او ماركسية منصهرة في المجتمع المدني وتتكيف مع تباين المجتمعات الحديثة البورجوازية .

فولف جانج هاوج

فهل من السابق لأوانه أن نتحدث عن نهاية « الماركسية — اللينينية » ؟ فمن بين اولئك الذين قاتلوا في الماضي من أجله بالسيف ، اكثر من واحد يبدو أنه يجد أن هذا الأمر سابق لأوانه . مما يقلق تحولهم .

لكن إذا أردنا اجتناب اية تبدلات جذيدة وتحويل الإشارات المبشرة إلى تجربة ، فينبغي أن نتحدث عنها بصراحة .

ورغماً عن إبهامها كله ، فسقوط حائط برلين يعني قبل اى شيء ، كما يقول المفكر الماركسي البريطاني « ستوارت هول » ، تحرير الماركسية(1) .

بالطبع أن ما يجرى اليوم لا يحدث بغير مخاطر ، لكن هذه المخاطر لن يكون ممكنا مجابهتها ، إلا إذا أخذنا وقتنا في الملاحظة الدقيقة للوجه الآخر من العملة .

وهكذا سنرى أن اليسار يستطيع أخيراً أن « يحتفل بتحرير طاقة جديدة ، وبانفتاح إمكانات جديدة وأفكار جديدة وتجارب جديدة تقفز فوق

الحدود القديمة والانقسامات المنقرضة ، وذلك بفضل الحركات الديمقراطية فى أوروبا الشرقية .

إذ انه أكيد أن اليسار هو المنتصر الأكبر فى هذه القضية . وإذا كان حائط برلين حداً رمزياً وبدا هذا قبل أى شىء فى سبيل اليسار ، لكنه قطع إلى قسمين فكرنا ، لأنه كان يرفض أى بديل ويمنع أى تساؤل ويقطع الطريق أمام تجديد الأفكار الاشتراكية وأخمد كل شىء والجميع من خلال ثنائية الحرب الباردة : من « جهتهم » أم من « وجهتنا » .

« ومأساوية الوضع هو أن « الاشتراكية المطبقة بالفعل » استنفدت طاقات اليسار وسدت الطريق أمام تجديدها الذاتى » . وحسب رأى ، كانت الماركسية — اللينينة » تعبيراً ايديولوجية عن انغلاق ، بدأ مع الماركسية نفسها .

لذلك كان يرمز سقوط الحائط أيضا إلى سقوط « الماركسية — اللينينية » .

لكن ينبغى سلفاً أن نتفق عما لا يعنيه تعبير « الماركسية — اللينينية» .

فليس المقصود فى أى حال التفكير فى سبيل الفعل والفعل المطابق لنظرية لينين .

وينبغى أن نفهم كذلك أن « هذا التفكير وهذا الفعل » كانا يمثلان أحياناً أداة ووسيلة لإضفاء الشرعية على « الماركسية — اللينينية» التى تشكلت فى ظل ستالين .

وهذه نقطة انطلاق للنقد فى مواجهة غرق اشتراكية الدولة السلطوية ، لنقد ينقذ ما يمكن إنقاذه الآن (بنجامن) ، لنقد قادر على التمييز بين ما يستحق المحافظة عليه فى البنيان الفارق وبين ما لا يستحق المحافظة عليه .

كان لينين يصف نفسه انه ليس سوى « ماركس بسيط » . وإذا كان يقصد من ذلك نفى الدور القيادى الذى كان ينوى القيام به عبر مداخلاته فى السجالات الماركسية ، فينبغى أن نتحدث عن الإقلال الكبير من شأنها ، إذ كان لمداخلاته صدى لدى خصومه وأنصاره على السواء ، باعتبارها ثاقبة وكاشفة .

كلا ، هذه العبارة تستهدف الميل نحو تجاوز الماركسية لصالح فكر ، المفروض انه أرقى وهو « فكر اللينينية » .

صفة « الماركسى البسيط » ، هذه تعنى — بالنسبة للينين : فى المرفوض سلفاً الإعلان عن « ماركسية — لينينية » سارية داخل « الماركسية » .

وبعد رحيل لينين ، بالغ رفاقه وقادة « الحرس القديم » فى الإندفاع نحو تأسيس « ماركسية — لينينية » . وبما أنهم أنقسموا إلى فرق متنافسة ، حاول كل واحد منهم التدليل أمام الآخرين أنه الوريث الحقيقى للينين .

وعلى هذا النحو ، أخضعوا انفسهم عن غير وعى إلى إحدى الآليات الأساسية للإيديولوجية التى وصفتها تحت مفهوم « الإستناد التناحرى »(٢) :

« ورغماً عن الطابع غير المتناسق لهذه الإدعاءات التناحرية ، فهى تتداخل فى بعض المفاهيم والقيم والأشكال . مما يؤدى إلى **انقلاب ايديولوجى** للعناصر القائمة . فهى تمر على نحو من الانحاء من الراس إلى داخل المجتمع اى إلى ما هو عمودى قائم فوق المجتمع » . (٣)

وهذا ما جرى لأفكار لينين بالإضافة إلى اسمه وصورته التى انتهت قداستها إلى الامتداد إلى انحاء المجتمع كافة .

وبانتصار ستالين فى حسم الصراع من أجل السلطة ، سيطر فى نفس الوقت على صعيد شخصى على الإختصاص فى تفسير « العقيدة » التى تم تحويلها إلى عقيدة عمودية .

وهذا « التحويل » قد اكتمل فى شكل **الفلسفة . والتحول ضد ماركس** وتكشف فى الوضع « الماركسى — اللينين » للفلسفة كما فى الاتصال بمفهوم « الأيديولوجية » .

وقد برهن جورج لابيكا على أنه فقط **الفلسفة** كانت تستطيع تقديم التمعضل الذى ادخلته فى « الوظيفة الفلسفية والتابعة للدولة » للوصول إلى منتهى التركيب المثلث للستالينية : **الحزب والأيديولوجية والدولة .**

هذه البنية بقيت بعد رحيل ستالين وبعد استبدال أولوية الجهاز بأولوية الرعب (إذ ليس الجهاز هو الذى استهدفه الرعب فى نهاية الأمر على النحو الأقل) .

وإذا رجعنا الآن إلى الماضى ، فنستطيع ان نفهم أن « الماركسية — اللينينية » لبنية فوقية أيديولوجية للاشتراكية البيروقراطية والسلطوية . وهذا لا يعنى حصرها فى هذا الدور . فكأى ايديولوجية ، هناك جزء من الإبهام : قد تفقد الإيديولوجية فعاليتها إذا توقفت عن كونها ساحة قتال .

« فأمهات » الأعمال الماركسية نصوصاً بقيت فى جزء كبير منها فى تناقض ممسوخ مع استخدامها فى نطاق الدولة والايديولوجية وجرى لها

ما سبق وأن جرى لإيديولوجيات كبرى اخرى وأديان الدول فكان التناقض بين « يسوع » التاريخى وبين تجسيده فى مؤسسات مازال بنفس القدر ممسوخاً .

وسبب أن هذا النمط من التناقض يثمر إلاّ مقاومة ضئيلة هى **قانون تكامل جميع الإيديولوجيات** الذى ينص على أن ما يضمن إعادة إنتاج علاقات السيطرة لا يعكس هذه العلاقات بغير تناقضات ، وإنما على النقيض وإذا عملت « آليات التحويل الراسى والإسقاط المثالى .

وينبغى الآن تحرير أمهات الكتب الماركسية من هذه الآليات وينبغى « إعادة دمجها » فى المجتمع على أن إخراج لينين من « اللينية » لا يعنى بالطبع إحياءه بغير نقد .

ونفس القانون يجرى على ماركس .

فهل هناك مقاييس لتحديد ما ينبغى إنقاذه من الغرق فى « الماركسية — اللينينية » .

ولن تفرض نفسها إلاّ بعد فهم المقياس السلبى . فالأطروحات ، والتقييمات وغيرها هى الخطأ فى الماركسية اللينينية .

وابداً لم يكن تعبير « ادورنو » أصح من اليوم : **الخطأ هو الكل** . الخطأ هو النحو الفلسفى الماركس اللينينى ، لأنه مكمن وظيفة السلطة الفلسفية ، وذلك حتى فى التفاصيل . وما ينبغى نقده ليس سوى هذا الكل .

ومن هنا ستولد وتتأسس على ضروريات الوجود والمناقشات الملموسة ، المقاييس التى وفقها سنحكم على التحليل والقدرات « الماركسية اللينينية » التى تستحق الالتفات إليها .

وإذا نظرنا إلى المستقبل فينبغى أن نسأل انفسنا ما هى العناصر الواعدة فى الماركسية ؟

ماذا ستكون شروطها وأنماط وجودها ؟

وهل سيعود الماركسيون من جديد هؤلاء الماركسيون الذين منذ زمن طويل قد اختاروا طرقاً مختلفة وأولئك الذين يلعبون دور خط الوصل إلى « ماركسيين بسطاء » ؟

وكما كتب جاك بيديه فى جريدة « لوموند » الفرنسية ذائعة الصيت (٤) ، صار فكر ماركس من جديد **جاهزاً للجميع** . وهذا ما يحدد إمكانات هذه اللحظة من التاريخ .

« أوتوباور » اقترح إعادة توحيد مختلف التيارات التى تضمها الحركة العمالية فى **الاشتراكية الشاملة** . هذه الفكرة المتبلورة فى ذروة الستالينية والنازية صارت فى ظل جورباتشوف خط الحزب الشيوعى السوفيتى وبعبارة أخرى ، هنا مكمن العنصر الإنفصالى الذى لم يكف عن تقوية عدوانيته ، ودفع إلى معسكر العدو أى ميل إلى الإختلاف فى التوجه وأى متبقيات نقدية **وبالضبط هنا نتج النقيض** .

واليوم ، **الاشتراكية الديمقراطية اشتراكية شاملة** بالقوة ، ولذلك يرى الاشتراكى الديمقراطى « هيرمان شير » (٥) الدولية الإشتراكية موضوعه « أمام المهمة الأهم فى تاريخها :

استعادة الوحدة الدولية لليسار على قاعدة برنامجية جديدة وسياسية ، لا تكتفى بالحديث عن الربط غير المنفصم بين الديمقراطية وبين الإشتراكية [...] ، وإنما عليها إيجاد أجوبة لتحديات عسكرية واقتصادية وابيئة يفرضها فى شمولها مجرى الأحداث الراهنة » .

على انه بالضبط هذه الإمكانية الجديدة لإيجاد إشتراكية ديمقراطية شاملة تولد انقسامات جديدة . من ناحية ارتسم جانبياً تطرف يسارى جديد . ومن ناحية أخرى نستشعر انغلاقاً فى صفوف اليمين . وهو قائم إلى درجة أن الاشتراكية الديمقراطية لا تستخدم مفهوم « الاشتراكية الديمقراطية » إلاّ فى مناسبة محدودة ، وأنه فى نفس الوقت ينفعه فى حجب أفق سياسته لصالح **الراسمالية ذات الوجه الإنسانى**ـ راسمالية تعتمد على الدولة والبرلمان لعلاج جرحاها .

على أن هذا الانغلاق لا يمكن صياغته بوضوح ضمن برنامج أو الذهاب إلى ما بعد حاكم ملتبس إلى درجة التباس « اقتصاد السوق الإجتماعى » ليس خليقاً بأن يصنع مصالحات . وكذلك فالدلالية السياسية ستتغير لحظة توقف الحدود القديمة عن العمل وسيكون هناك جسور جديدة ونقاط التقاء جديدة .

لن تكون الماركسية المقبلة « ماركسية حرب » ولا ايديولوجية دولة ، وإنما ستكون الماركسية فى المستقبل **ماركسية مدنية او ماركسية للمجتمع المدنى** . وستسجل اختلافها النوعى باعتبار أنها ستكون قادرة على النظر إلى تباين المجتمعات الحديثة . وخصوصاً فى المجتمعات الراسمالية من المهم النظر إلى شروط الوجود والصعوبات والخصوصيات البنيوية

للماركسية فى مجتمع « مفتوح » (يعنى فى « مجتمع مدنى بورجوازى » كما يقول اسكندر جاولاك (٦)) .

وانتهت « وحدة النظرية والممارسة » التى خص بها لوكاتش عام ١٩٢٣ جوهر الماركسية الإرثوذكسية ، لان هذه الوحدة لم يكن من الممكن تمثيلها إلاّ عبر « الآلية الفلسفية والتابعة للدولة » لمحور الحزب والإيديولوجية والدولة .

وقد مرت أطلال هذه المحبة إلى الوحدة بغير أن تعرف ساحة الأخلاق السياسية . وما ينبغى أن نتعلمه هو أن نميز الخصوصيات المنطقية والاشكال التى تدور فيها مختلف القوى والممارسات حيث يمثل وحده « الكل غير الكلى » . (حسب عبارة سارتر) الماركسى .

وقبل أى شىء فالماركسية سارية المفعول فى الحركات الاجتماعية والأحزاب وصنّاع السياسة الآخرين بالإضافة إلى النظرية الماركسية نفسها .

ومن لا يلعب لعبة هذا التمييز — بما فى ذلك التمييز بين الماركسية اللينينية وبين الماركسية — سيضطر إلى الدعوة مع فرانسيس فوكوياما الذى يدير قطاع التخطيط فى الإدارة الأمريكية ، إلى نهاية الماركسية .

ويرى فرانسيس فوكوياما أن الماركسية هى أيديولوجية دولة أو لاتكون « زوال الماركسية اللينينية أولاً فى الصين ثم فى الإتحاد السوفيتى سيكون زوالا كزوال كأيديولوجية ذات أهمية تاريخية عالمية . ولفترة من الزمن ، سيظل هناك بلا أدنى شك بعض المؤرخين الأصلاء فى مناطق كما ناجوا وبيونج يانج أو كمبريدج (ماساشوسيتس) . لكن الاّ يعود هناك دولة كبيرة واحدة تعمل فيها هذه الأيديولوجية يدفن نهائياً إدعاءها بأنها مرشدة الإنسانية جمعاء » .

يتحدث فوكوياما عن النهاية . لكنها نهاية السجن البابلى . ومن الممكن أن يكون ذلك بداية جديدة .

ويعطى عن حق « إريك أولن رايت » لمفهوم الماركسية الاكاديمية معنى ايجابيا ويستند إلى « أنه فى المرحلة الراهنة ، يتم استخدام للماركسية فى الجامعة أكثر بكثير من استخدامها فى صفوف الحركات الشيوعية » .

وهو يقنع بأن « الماركسية ستخرج من مرحلة إعادة البناء النظرى ليس فقطظ أكثر قوة فى المجال النظرى ، وإنما كذلك ستزود بقدرة سياسية أكبر من قبل اليسار الجديد » .

وينبغى فهم النظرية للماركسية فى المجتمع المدنى وممارستها باعتبارها ثقافة نظرية لا تستطيع احتكار الحقيقة . مما يعنى أيضا ولنترك الكلام هنا إلى إريك أولن رايت (عضو مدرسة « الماركسية التحليلية ») ، أن الماركسية هى « ساحة فكرية للحوار أكثر من كونها مجموعة من الطروحات المتفق عليها سلفاً » . وهو تعريف نجده كذلك عند هؤلاء الذين ينتقدون هذه المدرسة . كما يشير إلى « سببين رئيسيين يجعلان الماركسية باقية كإطار نظرى جوهرى فى سبيل تحليل نقدى (جذرى) » .

الأسئلة التى هى فى مركز الماركسية « تبقى إشكالية بالنسبة لأى مشروع سياسى للتغيير الاجتماعى الجذرى » .

« الإطار النظرى الضرورى للجواب عن هذه الأسئلة ينتج أجوبة لا تزال ثاقبة النظر » .

هذه الأسئلة تتعلق بتطور أشكال السيطرة والاستغلال ، و « هى ضاربة الجذور فى التنظيم الاجتماعى للإنتاج وخصوصاً فى العصر التاريخى للراسمالية » .

وتصلح هذه الأسئلة بالإضافة إلى ذلك ، لتحديد شروط وجود اشتراكية « قد يسمح بالقضاء على الإستغلال والسيطرة الراسمالية » . ومن هنا أهمية الماركسية الخاصة بالنسبة للإيديولوجية والدولة والثقافة والجنس والعنصر وغيرها من القطاعات .

والمثير أن « رايت » يعتبر أن الماركسية فى حد ذاتها « تحجب الجنس » . مما يجعله قابلاً للاستخدام على يد النسائيين ، وهنا يكمن مفهوم إستاتيكى مبالغ فيه للماركسية وتثبتها فى إحدى مراحلها .

التفكير فى العلاقات القائمة بين الجنس وبين الجنس الآخر فى سياق علاقات الإنتاج يسمح بإنتاج مفاهيم « ماركسية » لا تتضمن فى أى حال حصر قضية تحرير المرأة فى حدود القضايا الطبقية .

ومن جانب آخر ، يجدد « إريك أولن رايت » ، على الأقل حينما يقدم « ماركسيته التحليلية » .

« فى سبيل إحياء وإعادة بناء قوتها النظرية ، على الماركسية إن تستوعب بحماسة الأدوات الأدق فى العلوم الاجتماعية الراهنة » .

وبالفعل ليس هناك ، كما يؤكد جون إيلستر ، أى منهج عند ماركس عند بعض كبار المنظرين الماركسيين .

لكن هذا لا يصلح إلاّ من الناحية الإبستمولوجية ويبقى متارجحاً طالما ظللنا غير متفقين على خصوصية

الأسئلة والضرورات الاجتماعية التى تجيب عنها والممارسة والصناع الاجتماعيين الذين تتجه إليهم .

وإذا كانت كلمة « المنهج » تشير إلى الدرب القائد إلى غاية ، فهذا الدرب ليس فقط محدداً بواسطة السوق وإنما كذلك بواسطة الغاية وخصوصاً بواسطة المشهد .

والماركسية موجودة اليوم بالفعل بشكل متعدد وينبغى ان ننظر إلى تعدد تياراتها وأشكال حركتها .

وبعبارة أخرى فعلى الماركسية أن تنتج « نحوا » نظرياً جديداً .

والماركسية القادمة ستقوم على قاعدة من أشكال الإنتاج رفيع المستوى التقنى ، حتى إذا كان عليها فى المقام الأول بناء نظرية نقدية إلى أشكال الإنتاج هذه والاستهلاك فى تكوين بناء مسئول من وجهة نظر التضامن والأيكولوجيا .

والموضوع اللصيق بالماركسية القادمة سيكون هو موضوع العامل الشامل وذلك بمعان ثلاثة.

أولاً بدمج مختلف الوظائف (« المادية والفكرية ») لعملية إنتاج الحياة الاجتماعية ، العملية الجامعة والمتنوعة .

ثانياً ، بمعنى العلاقات بين الجنس والجنس الآخر فى الإنتاج ونمط الحياة .

ثالثا ، بصفتها تمثيلاً شاملاً للعامل الشامل .

وما ينبغى أن تتجوهر به الماركسية القادمة — فى الفكر والممارسة على حد سواء — هو ضرورة البحث عن حلول لمشكلة المجتمع البشرى المتصلة بشروط الوجود الطبيعية .

وأكثر من أية ماركسية صريحة ، الأهم هو « ماركسيات الشىء نفسه » : البؤس اصبح فى درجته القصوى كما تدمر البشرية شروط وجودها الطبيعية . والأهم كذلك هو كل ما يسمح بمعرفتها والوصول إليها .

هوامــــش

١ — ستوارت هول ، الماركسية اليوم ، مارس ١٩٩٠

٢ — الماركسيات المتعددة ، برلين — الغربية السابقة ، ١٩٨٧ ، الجزء الثانى ، ص ٤٢ وما بعدها .

٣ — نفس المرجع ، ص ٥٠ .

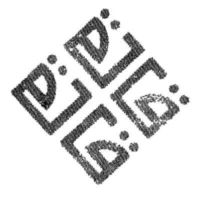
٤ — فى « لوموند » ، ٧ فبراير ، ١٩٩٠ ، ص ٢ .

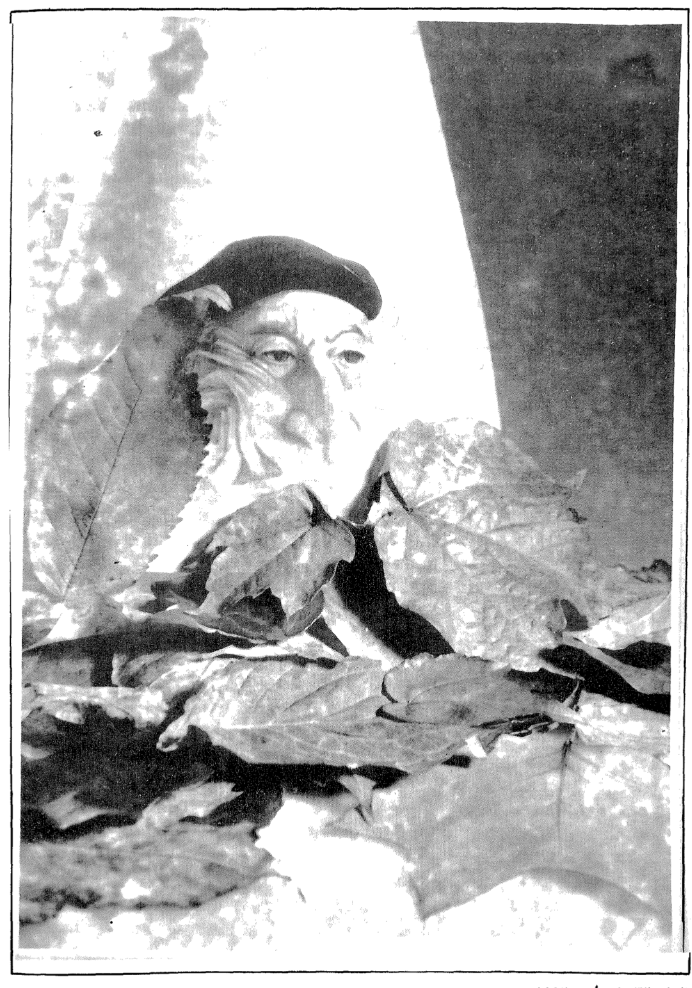
٥ — فى المجتمع الجديد ، مايو ١٩٩٠ .

٦ — فى مجموع اعداد جريدة فرانكفورت الألمانية ، ٢٧ مارس ، ١٩٩٠ .

٧ — فى الثورة الاشتراكية ، ٤ ، ١٩٨٩ .

نقل الندوة إلى العربية
وائـــل غـــالى





المراجعات

مدكور ثابت

* مخرج وكاتب سينمائى مصرى
استاذ بالمعهد العالى للسينما بالقاهرة
مدير تحرير مجلة « الفن المعاصر »

ما أن أطفئت أنوار القاعة الضخمة ودارت آلات العرض ، حتى بدأت المفاجآت وساد الذهول ... لقد أصبحت « الشاشة / الكاميرا » « هى » نحن / المتفرج » ، نجلس مع رجال المخابرات الأمريكية وجها لوجه ، يتحدثون إلينا باعتبارنا الكاميرا ... وقد بدا طوال الوقت أنهم وحدهم المتحدثون ونحن الصامتون ، ولكن حوارا أعنف كان يعتمل فى عمق كل منا ، إذ كان الصمت مجرد غلاف للصخب المكنون فى هذا العمق ، حيث التشوق حاد والذهول البساطة المقرونة بأخطر أسرار التاريخ الانسانى لعالم القرن العشرين ، فهى لم تكن أسرارا عن حياة نجمة من هوليود ، ولا نجم سياسى كبير واحد ، أو حتى الاكتفاء بأسرار حزب من الأحزاب السياسية ، أو على أحسن الافتراضات أسرار دولة كبيرة بعينها ، وإنما هى أسرار تمس مصير البشرية وحياتها وأمنها وأحلامها ودمائها ، وكل ما تضمنته من حروب ، ومظاهرات ، وأنقلابات ، ومفاوضات ، ونشأة وانهيار نقابات ، وقوانين ومعاهدات ، وعلاقات شعوب وأمم وحكومات ،

توثيق التاريخ .. والانقلاب

« .. لا يمكن لفيلم واحد أن يغير من الرؤى السياسية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن على المرء أن يعتبره عنصرا فى عملية نمو الضمير الأمريكى .. لقد استغرق انتاج الفيلم حوالى خمس سنوات ، وخلال هذه المدة كان لدينا ما بين أربعين إلى ستين من رجال وكالة المخابرات المركزية الأمريكية يواجهون كاميراتنا التى صورت مقابلات فيلمية معهم يبلغ طولها الأجمالى حوالى مائة وخمسين ساعة عرضاً سينمائياً »

المخرج الأمريكى
آلان فرانكوفيتش

أكثر حدة . كنا نتعجب لتبسطهم فيما يعترفون حول أحداث تاريخية خطيرة ، فالعالم وتاريخه أمامهم خشبة مسرح للعرائس وهم محركوها ...

يقول جاكسون لكاميرا الفيلم : « إننا نعمل على بناء مجموعة معينة فى زمن الحرب الساخنة ، لتعمل لحسابنا أثناء الحرب الباردة .. إننا نتعامل مع احزاب يتم انشاؤها ومع الكثير من أنظمة المخابرات فى العالم ، وكذلك وسائل الصحافة المفتوحة ، بل ولابد من إنشاء نقابات عمالية فى مختلف البلدان لتعمل لحسابنا » ... كلمات اعتراف صريح ومفاجىء ، لأنها تكشف عن حقائق جديدة كانت خافية ، أو هى كانت محل تخمينات واتهامات قائمة على مجرد الاجتهادات ، دون أن ترقى من قبل إلى مستوى الوثيقة .

مذهل هذا اللقاء فى البساطة التى سيطرت على القاء أحاديثه ، لأنها وأسلحة دمار .. إلخ ، وهو ما تعرض أحداثه الشهيرة علينا الآن ، عبر أرشيف الوثائق الفيلمية المصورة ، لنرى الآن وقائعها بالمنظار الجديد لهذه الاعترافات التى تنهال علينا مفاجآتها بلا هوادة .

لكننا وبينما رحنا نلهث مع تتابع الفيلم وقنابل أسراره ، كنا لا نفتأ نتساءل فى كل لحظة : هل تفضح هذه القوة الأمريكية نفسها مجانا أو اعتباطا ، فتلقى هكذا أسرارها لتنتشر خلال صالة عرض لأكبر مهرجان سينمائى بين الدول الشيوعية ، عندما كانت الحرب الباردة فى أوجها بين الكتلتين ، فى الزمن الذى كانت توجد فيه وتعلو أصوات حكومات شيوعية فيما كان يسمى بالكتلة الشرقية ، وحيث يقام مهرجان لايبزج هذا على أرض واحدة منها هى التى كانت تسمى من قبل « ألمانيا الشرقية » ؟

وجدير بالذكر، أن المفارقة والتداعيات كانت تداعب الذهن فى هذه اللحظات من أواخر نوفمبر ١٩٨٠ فالمبنى الذى تعتمل به سخونة عرض هذا الفيلم فى مهرجان لايبزج بألمانيا الشرقية / الشيوعية حينذاك، هى دار سينما الكابيتول التى تحتضن عروض المهرجان، فى نفس الوقت الذى تبدأ فيه لحظات تجدد وانتعاش بمبنى آخر يحمل نفس الاسم، ولكن فى ضفة المعسكر الآخر، حيث يستعد مبنى « الكابيتول » فى العاصمة الأمريكية، والذى يضم الكونجرس، لاستقبال

أنهم واعون اذن ولن يتركوا شيئا من هذا القبيل فى الداخل، أو فى الأسرار ... ومن ثم فإن مجرد الموافقة على جلوس حوالى ستين من الأمريكيين حملة هذه الأسرار الدفينة أمام الكاميرا، واحدا تلو الآخر، يتحدثون وهم فى كامل وعيهم، لابد أن يكون بناء على موافقة واعية أيضا بهدفها، ومن ثم فلابد أن يكون هذا العرض السينمائى فى ذاته واقعة سياسية لها هى أيضا أسرارها وملابساتها ضمن مجريات هذه الحرب الباردة، وهى ما تلقى عليه ذات الاعترافات الواردة بالفيلم ضوءا

من اليقين عندما نلتقى بالاعتراف الذى طالما نوه لذات فحواه كثير من النقاد فيما يتعلق بالسينما الأمريكية، ولكنه فى هذه المرة يأتى على لسان مسئولى الوكالة الأمريكية ذاتها، عندما يعلنون صراحة : « أننا نستخدم السينما الأمريكية فى الخارج .. » ، وبما يحدده أحدهم فى قوله : « من خبرتى على مدى أربعين سنة، فان للفيلم الأمريكى عاملا كبيرا وهاما فى التحضير النفسى لأعمالنا المختلفة فى هذه البلاد .. » .

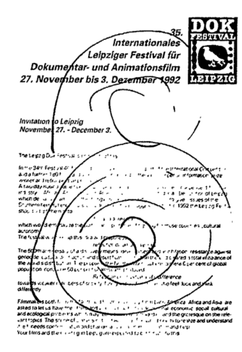
العقـــــل بالســـــينما

رئيس أمريكى جديد لأربع سنوات قادمة، مهللا له المبنى بزينة الرايات والأعلام، ألا وهو الرئيس الأمريكى رونالد ريجان فيما بعد، والذى زخرت حياته الماضية منذ كان ممثلا فى هوليوود - مثلما زخرت سنوات رئاسته - بالكثير مما أثير حول المخابرات الأمريكية، أى ذات الموضوع الساخن الذى يتأجج هنا على شاشة « الكابيتول » الشيوعية. وحيث تجد الاعترافات والأحاديث التى تأتى بالفيلم على السنة مسئولى وكالة المخابرات الأمريكية وقد تركزت كلها حول هدف واحد لتاريخ الوكالة، هو مكافحة النشاط الشيوعى فى العالم، بل وفى قلب أمريكا ذاتها من قبيل ما يقول به سميث للكاميرا : « لقد سمعنا أن هناك مؤامرة شيوعية فى أمريكا، حيث قيل إن وزارة الخارجية الأمريكية أصبحت مليئة بالعملاء الشيوعيين، فهل من المعقول أن نترك هذا ؟ .. »



وليام كولبى الرئيس السابق لوكالة المخابرات الأمريكية، وأهم أبطال الفيلم الأمريكى « بتكليف من الشركة » .

وفى ضوء ما نسمعه بهذا النص حول استهداف « التحضير النفسى » - ولابد أن المسئولين الشيوعيين أنفسهم قد سمعوه مثلنا / على الأقل عند المشاهدة فى لجنة الاختيار والتصفية لعروض المهرجان - كان لنا أن نتساءل حول الاحتفاء الشيوعى بوصول هذا الفيلم الأمريكى الساخن، الذى بدا وكأنه السوبرمان الأمريكى وقد اخترق يومها المهرجان المذكور ليخطف الأضواء من شاشة عرض سينما الكابيتول التى قدمت خلال مهرجان العام ذاته ٢١٨ فيلما من ٤٧ دولة، أى من كافة جنسيات العالم، شرقه وغربه، متضمنة أفلام اليونسكو والأمم المتحدة، وبرلين الغربية، ومنظمة التحرير الفلسطينية، والولايات المتحدة الأمريكية. إذ رغم كل ذلك، وأمام كل هذا الحشد العالمى - والذى تغلب عليه التجمعات اليسارية ولاشك - كانت أمريكا هى نجم مهرجان عام ١٩٨٠ من خلال فيلمها « بتكليف من الشركة » الذى أخرجه الأمريكى آلان فرانكوفيتش، ومن انتاج الشركة الأمريكية « أفلام ايزلا نيجرا » بكاليفورنيا، بل وتصدرت مناقشة هذا الفيلم كل ندوات وسهرات الحوار بين



DOK FESTIVAL LEIPZIG

35. Internationales Leipziger Festival für Dokumentar- und Animationsfilm
27. November bis 3. Dezember 1992

Invitation to Leipzig
November 27. - December 3.

الدعوة لمهرجان لايبزج فى الشهر القادم ، لبحث مشاكل نصف الكرة الجنوبى ، على ألا ينظر إلى مكمن الجريمة باعتباره أمريكا ، بل العالم أن يعيد التأمل فى نفسه .



الكسندر هيج وزير خارجية ريجان ، أصبح عضوا فى مجلس إدارة شركة كومودور لألعاب الفيديو .

مختلف الوفود ، إلى الدرجة التى فرض بها الفيلم نفسه على الجلسات الخاصة ، حتى مع من يتم الالتقاء بهم من أبناء الشعب الألمانى ذاته . كما ظلت آثارات الفيلم متأججة حتى اللحظات الأخيرة من انتظار نتائج مسابقة المهرجان ، بل وبعد حصول الفيلم على الجائزة الذهبية للجنة التحكيم الدولية ، عندما كان لنفس الفيلم نصيب الأسد فى العرض الأخير الذى تبع توزيع الجوائز ، والذى أختيرت له ثلاثة أفلام فقط من بين الأفلام الفائزة ، فكان أولها بالطبع فيلم « بتكليف من الشركة » ، الأمر الذى جدد إثارة المناقشة حوله ، حتى بعد انفضاض المهرجان ، وفى اللحظات التى يحزم فيها أعضاء الوفود حقائبهم للرحيل .(١)

جدير بالذكر أنها ليست المرة الأولى التى تعرض فيها بهذا المهرجان الشيوعى أفلام أمريكية من ذلك النوع الذى يمس ما يسميه الأمريكى فرانكوفيتش « الضمير الأمريكى » إذ طالما اشتركت مثل هذه الأفلام الأمريكية بنصيب كبير فى عروض السنوات السابقة لهذا المهرجان ، كما وأن خريطة أفلام ذلك العام نفسه تبين درجة المشاركة الكبيرة بأفلام أمريكية أخرى من ذات النوع ، بل ولطالما كان هناك أمريكيون أعضاء فى ذات لجنة التحكيم الدولية للمهرجان . أما الآن وفى مواجهة هذا الفيلم ، فان الأمر مختلف تماما من حيث هذه المشاركة الأمريكية ، وهو ما يجعلنا متسائلين ولاشك ، لكن تساؤلنا ـ ينصب على كل من الجبهتين :



شعار مهرجان لايبزج فى زمن الدولة الشيوعية .
« أفلام العالم — من أجل سلام العالم »



الشعار الجديد لمهرجان لايبزج بعد ضم الألمانيتين ، وقد احتفظ بحمامة السلام من التصميم القديم .

— على الجبهة الشيوعية :

وحيث التساؤل منشؤه أن الفيلم قد تبناه الشيوعيون فى لايبزج تبنيا صارخا ، رغم أن الطرف الشيوعى لابد وانه قد فهم ولو للحظة اللعبة وما تحمله من عدم البراءة التى لا تخفى هدف الحرب النفسية فيها ، من حيث إبراز أصابع المخابرات الأمريكية باعتبارها القوة الأولى والأخيرة المحركة لأحداث التاريخ المعاصر برمته ، مما قد يبعث على اليأس إزاء هذه القوة المتغلغلة حتى النخاع ، وحيث تبث القناعة فى الرأى العام بأنه لافكاك من أذرعتها بحال من الأحوال .

— على الجبهة الأمريكية :

وحيث ينشأ تساؤلنا من كون أن ثمة فيلما بهذه الخطورة ، ينظر إليه باعتباره فاضحا لنشاط وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وتاريخها ، ومع ذلك فهو إنتاج أمريكى ، بل والأبعد من ذلك أن الذى قام بعرضه أولا هو التليفزيون الأمريكى نفسه ، طبقا لما صرح به مخرج الفيلم من أنه قد تم عرضه مرتين قبل وصوله إلى مهرجان لايبزج ، وإن كنا نحن لا نعرف كم مرة قد عرض بأمريكا نفسها فيما بعد .

ومع كل التداعيات التى يثيرها شعار « الحرية الأمريكية » ، لابد أننا راغبون هنا فى استقصاء هذه التجربة المثيرة ، مادامت تمس التعبير الجرىء فيما أسماه مخرج الفيلم نفسه بعملية نمو الضمير الأمريكى .. فتساؤل الاستقصاء هنا أنما ينصب على تجربة المخرج نفسه « إنتاجا » و « عرضا » مع كل ملابسات الواقع الأمريكى .

أما بعد رصد هذه الظاهرة

وما أثارته من التساؤل ، ودون اجابات شافية على أى من الجبهتين ، فقد يبدو الحديث عن هذا الفيلم هنا متأخرا ، ولكن الربط العضوى الذى مقترحه نظرتنا الخاصة إلى فن السينما إزاء تعامله « مع التاريخ » بحيث يجب أن ننظر إليه باعتباره أيضا « منجزا فى تاريخ » ، هو ما حدا بنا إلى استدعاء هذا النموذج الفيلمى ، فالموضوع الحقيقى لهذه السطور هو طرح فرضية قد تبدو بسيطة ، ولكن اثباتها بالنموذج المتحقق سوف يبرز أهميتها فيما يتعلق بالسينما والتاريخ ، إذ ننظر إلى هذه السينما ليس باعتبارها مجرد توثيق للتاريخ ، وإنما لكونها أيضا تجربة واقعة فى هذا التاريخ كذلك ، لأنها حال شروعها فى معالجة التاريخ السياسى خاصة ، سوف تصبح بالضرورة ـ وبحكم كل متطلبات خروجها إلى حيز الوجود فى هذه الحالة ـ تجربة انتاجية لها تاريخ انجازها السياسى الذى لا يتحقق خارج التاريخ ، وإنما ضمن كامل مجرياته ، بل وكعنصر ملتحم ببقية ملابساته فى الزمان والمكان .

من ثم وإذا كنا قد تساءلنا مرتين بلا إجابة ، مرة على الجبهة الأمريكية ، والأخرى فى مواجهتها على الجبهة الشيوعية ، فإن صعوبة العثور على إجابات شافية ستظل قائمة مادمنا اعتبرنا إننا إزاء جبهتين فقط ، فالحقيقة أن ثمة جبهة ثالثة هى التى تكمن فيها الأجابات ، وهى جبهة المخرج صانع الواقعة السينمائية التى استطاعت النفاذ بتحققها على الجبهتين ورغما عنهما معا ، أى الجبهة التى بها الربط الذى نقصده بين « اخراج التاريخ فى السينما » وبين « الانجاز السينمائى فى التاريخ » ، وبما يشير إلى اعتبار موضوع البحث فى هذه الجبهة الثالثة هو « القدرة على النفاذ » ومن ثم « كيفية تحقق هذا النفاذ » رغما عن المتناقضات وهو ما يلزمنا بالتعرف على شخص هذا المخرج السينمائى / الجبهة ، وعلى ما يستهدفه ، لكن جنبا إلى جنب مع استقرائنا لما يستهدفه ـ على حدة ـ كل من الجبهتين المتصارعتين ، سعيا لإجابة سؤال واحد فى هذه المرة : « كيف أمكن » جمع المتناقضات حول هدف متحقق « واحد » ؟ .. وبما يعنى ـ بالتالى ـ ضرورة رصد هذا « المتحقق » كأثر مباشر لدى عرض الفيلم ، دون إغفال لميكانيزم التلقى ذاته ، باعتباره ناتج أسلوب فنى هو الذى ادى إلى تحقيق هذا الأثر . فرصد ذلك سيكون من شأنه لمس الهدف عبر المتحقق ، ومن ثم يمكن أن ننظر من خلاله إلى المستهدف الفعلى على كل جبهة .

أما الوصول إلى هذا الرصد فيستلزم التعرف أولا على هيكل بناء التتابع الذى يطرح به الفيلم موضوعه .

التسلسل التاريخى مع تطور الوكالة :

مع لهاثنا وطوال تدرج المفاجآت فى مسار الفيلم ، كان يتم التضفير دائما ما بين التسلسل المعروف عن تاريخ وقائع وأحداث العالم ، وبين تطور العمل فى وكالة المخابرات الأمريكية ذاتها ، بدءا من انشائها ومرورا بالأساليب المختلفة التى يتم تطويرها لتحقيق أهدافها .

وعبر هذه الفكرة البنائية ، نرى الفيلم ينساب تسلسله التاريخى ، وقد بدأ باستسلام اليابان فى الحرب : « لقد ترك عدونا السلاح » .. والحوار بالطبع من وجهة النظر الأمريكية ، بينما نعرف أنه قبل ذلك ـ وكنتيجة للهجوم اليابانى المفاجىء الذى أدى إلى كارثة الأسطول الأمريكى فى بيرل هاربر (جزر هاواى) ـ كان قد طلب الرئيس الأمريكى روزفلت من الجنرال دونافان أن ينظم أول وكالة مخابرات تجمع المعلومات فى جهاز مركزى ليقوم بتصنيفها وفرزها واستخلاص حقائق ومعلومات جديدة من خلال هذه العملية ، بهدف عرضها على الحكومة الأمريكية للتحرك والعمل من خلالها ، وهو الأمر الذى دعا الجنرال دونافان إلى الاستعانة فى هذا الصدد بأبرز العلماء فى مختلف التخصصات ، كالزراعة والعلوم الطبيعية والطب وجميع فروع العلوم والفنون ، بالاضافة إلى العسكريين .

أما خطوات التطوير فقد بدأت تتلاحق ، وسمعنا أهمها عندما ظهر وليم كولبى (أحد الرؤساء السابقين لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى الفترة من عام ٧٣ إلى ١٩٧٦ ، والذى مر قبل ذلك بمختلف المناصب فى الوكالة خلال ربع قرن) متحدثا إلى الكاميرا /نحن ، ناطقا باعترافاته الهادئة الرزينة والمتبسطة فى أدائها ، ولكنها المتلاحقة المعلومات عن وقائع تاريخية رهيبة ، إذ مع التبسط والرزانة تصدم أذن « النحن » كلمات عديدة من قبيل : « فى زمن الحروب نقوم بالتخريب .. اشتركت فى ذلك بنفسى فى نهاية الحرب العالمية .. وطورنا الوكالة » .... إلخ ، بينما تتقدم لقطات الأرشيف السينمائى لتؤدى دورها عبر تتابع مونتاجى حول الوقائع التاريخية ، دون أن تتوقف أصوات الحكى بالأسرار المصاحبة للقطات الوثائقية ، وحيث يبدو واضحا

اعتماد المعالجة السينمائية ـ التى سنتحدث عنها لاحقا ـ على عنصرى : الريبورتاج (الحديث . المباشر للكاميرا) من ناحية ، والأرشيف السينمائى الوثائقى من ناحية أخرى .

أما الريبورتاج وحده فقد كان لب موضوعه هو الاعترافات المتلاحقة من مسئولى وكالة المخابرات الأمريكية ذاتهم ، وبالحديث المباشر للكاميرا عن مولد ونشأة هذه الوكالة ، وكذلك أسباب ودواعى انشائها ، ثم بعد ذلك تاريخ نموها وتطورها ، وفقا لتتابع وتلاحق الأحداث العالمية فى شتى بقاع الأرض ، وما كان منها ساخنا على وجه الخصوص ، هذا دون أن يكتفى الفيلم بالوقوف عند مسئول واحد ، بل يبدو تلاحق وتتابع ظهور المسئولين واحدا تلو الآخر فى أحاديثهم المواجهة للكاميرا (الجمهور) وكأنه التتابع التاريخى بعينه ، حيث يكمل كل منهم الحلقة التالية لسابقه .

١ ــ الأثر ... تحقق الانقلاب العقلى :

أن كل واحد من هؤلاء المسئولين عندما يلقى فى دوره إلى الكاميرا ، باعترافات الحقائق المثيرة إلى الجمهور ، فأنها تثير ذهولا ، بحيث يكاد يصدقها عقل بشر ، ليس فقط لأنها تكشف أسرارا تمثل اضافة معلومات جديدة ، ولكن لأنها تقلب كل موازين العقل المعاصر بعد كل ما أختزنه هذا العقل من معلومات سابقة حول التاريخ المعاصر وأحداثه ، والتى كان يدركها العقل ـ من قبل ـ بمفهوم معين بناء على تلك المعلومات السابقة ، والتى كانت تحدد موقفه إزاء كل قضية من قضايا العالم . انها انقلاب عقلى أذن وليست مجرد نصر صحفى تم تحقيقه بشريط صور متحركة بدلا من كلمات مطبوعة للقراءة . والانقلاب العقلى يكون حادا هنا ، لأنه نتاج ما تمسه هذه الأسرار ، إذ هى أسرار كل العالم وتاريخه واللهفة على مصيره ، عبر سنين القرن العشرين ودماراته المهددة للبشر أجمعين ، أى كل ما كتبت فيه آلاف أطنان الكتب والمجلات والجرائد اليومية والأسبوعية وبث فيه مليارات ساعات الأرسال المرئى والمسموع ، وكل ما تناقلته دقات التكرز من وإلى ... أى كل ما تم صبه فى عقل القرن العشرين فترسخ وتبرمج ، إلى أن جاءت صفعة وصدمة هذه الاعترافات الجريئة ، والتى التقت بهدف واضح يعلنه المخرج : « أن مهمة فيلمنا ، أن يقدم ثلاثين عاما مطردة ، كانت تجرى فى السر ، فالتفاصيل التى أصبحت معروفة عبر الفيلم ، قد خرجت بهذه المجارى السرية إلى النور ، وهى التى دأبت وكالات الأنباء الرسمية فى أمريكا على محاولات حجب حقيقتها دائما تحت الأقنعة » .

من هنا كان تحقق الأثر الذى آثرنا تسميته بالانقلاب العقلى عبر ما يوقعه الفيلم فى ذلك العقل الذى يقف مذهولا مرتبكا ، فهو ما أن يكتشف ـ أو يتيقن ـ من المحرك الحقيقى الكامن وراء كل أحداث العالم ، صغيرها وكبيرها ، ساخنها وباردها طوال هذه السنين ، وفى شتى بقاع الأرض ، الا وهو أصابع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، الكامنة وراء كل ذلك بما لا يمكن لبشر أن يتوقعه ، يكون متفرج الفيلم ـ بعامة ـ قد دخل فى الحقيقة لحظة هذه الفرجة / التلقى ، إلى معمل للعقول البشرية ، بحيث يخرج منه بعد إنارة أضواء صالة العرض السينمائى ، وقد انقلبت فى رأسه كل العلاقات المختزنة عن الحقائق التاريخية السابقة والراهنة ، ومن ثم فهو يخرج من الباب وقد استحوذ على منظار جديد ، رغم سيطرة لحظات الاندهاش والانبهار والذهول .

٢ ــ خصوصية الأسلوب الفنى وميكانيزم التلقى :

إن للوثيقة هنا « مركب فنى خاص » ، فتوثيقية هذا الفيلم عبارة عن عملية « بحث فنى » تعيد تركيب المعطيات : معطيات هذا الاعتراف المنطوق ، ومعطيات الأرشيف السينمائى التقليدى المكون من الأشرطة المصورة لأحداث القرن العشرين ، وهى التى كانت وما زالت متوافرة لكل من يشاء استخدامها ، إلا أن ما يجب التأكيد عليه هنا ، أن المعلومات المتداولة من قبل والمتعارف عليها عن كل واقعة بعينها ، هى التى كانت تحكم أى مستخدم لهذه المواد الأرشيفية ، وما أكثر ما تم استخدامه منها سينمائيا وتليفزيونيا من قبل ، بل وعبر ذات الطريقة التى عولج بها الموضوع هنا سينمائيا خلال ساعتين من عرض الفيلم ، لكن الفيصل بين الحالتين إنما يكمن فى الخصوصية التى اتسم بها ما نعتبره هنا عملية بحث فنى ، وهى الخصوصية التى تبرز عبر كل من الأسلوب وميكانيزم التلقى له .

لقد كنا عندما تأتينا الحقيقة / الاعتراف المنطوق على لسان أحد مسئولى وكالة المخابرات الأمريكية نظل نحن / الكاميرا ، أى نحن .. المتفرجون ، لاهثين وراء الحقيقة / الواقع ، فمثلما أن للاعتراف قوته

الصدمية فإن للتجسيد الحى أيضا حسمه القاطع من خلال صورة الواقع الحى بحركته على الشاشة ، ونحن عندما يصدمنا الاعتراف المنطوق ، نظل فى حاجة إلى الحسم الذى يشبع « استمتاعنا » بالصدمة من خلال تأكيدها ، الذى هو توثيقها بالتعيين ، وهذا هو عين أسلوب الفيلم ، أى أسلوب التضفير فيما بين قوة الاعتراف ، وبين حسم التوثيق بالصورة الحية ، فهو الذى يقطع فى الفيلم بقوة اعتراف تومبرين مثلا للكاميرا عندما يقول : « فى سنة ١٩٤٧ عندما كان هناك تهدد بسقوط الحكم فى فرنسا عن طريق الأحزاب الشيوعية ، قمنا بتكوين نقابة عمالية جديدة لتقف ضد هذه الأحزاب ، وتمتص جماهيريتها ، لتكون تابعة لتوجيهاتنا نحن .. » .. فما فى هذه الكلمات هو فقط صدمة الاعتراف حول مجريات التدخل الخفى ، أما القوة التى يمنحها الفيلم للاعتراف فهى منحه الحقيقة / الواقع ، عبر تتابع لقطات الأرشيف السينمائى المعنى بما يشير إليه الاعتراف ، وهى فى ذاتها لقطات لا تعدو ـ من ناحية أخرى ـ كونها تاريخا مصورا محفوظا : لقطات لمظاهرات .. واجتماعات .. ولقاءات .. وانفجارات .. إلخ ، ولكنها تأخذ الآن معنى جديدا وتأثيرا جديدا فى تركيبها السينمائى ، فى ضوء الاعترافات الجديدة .

لكن أول ما يجب التسليم به أن التأثير الخاص لهذا الفيلم إنما قد تحقق كنتاج لإبداع « المفارقة بالمونتاج » ، فما من حقيقة أو سر يجرى الاعتراف به للكاميرا من أحد مسئولى المخابرات المركزية إلا وسرعان ما ينقلنا المونتاج بالقطع فى هذه اللحظة المناسبة (اللحظة التى يتم اختيارها بقصدية محددة) لعرض لقطات الأرشيف السينمائى المصور للواقعة أو الوقائع التاريخية التى يتحدث عنها الاعتراف ، فاذا ما تذكرنا فى لحظة الفرجة ـ وهو ما كان يحدث ـ أن نفس هذه اللقطات قد سبق عرضها مرارا وتكرارا ، سواء فى افلام وثائقية ، أو جرائد فيلمية فى حينها ، أو حتى خلال العديد من الأفلام الروائية التى تتعرض تاريخيا لمثل هذه الوقائع .. نقول أننا ما أن نستحضر مثل هذه الحقيقة البسيطة ، حتى نقع فى المفارقة المذهلة بين ما نعلمه وما صرنا الآن نعلمه ، وما هذا إلا دور خاص بالصياغة السينمائية فى هذا الفيلم ، انظر مثلا عندما يسترسل صوت المتحدث الذى يلقى باعترافه ، مستمرا ـ هذا الصوت ـ على لقطات الواقعة التاريخية المعروضة من الأرشيف الوثائقى السينمائى ، أن هذا الصوت فى هذه المرة من العرض إنما يأتى وقد أضفى ضوء الحقيقة الجديدة على نفس لقطات الوقائع المعروفة سلفا فى ظل مفاهيم طال اختزانها ، وطال اجترارها ، وهكذا يتلقى عقل المشاهد هذا الضوء الجديد باعتباره الضوء الحقيقى ، وكأن ما سبق اختزانه لم يكن أضواء ولكنه كان اظلاما .

خصوصية الرؤية فى قصيدة المونتاج :

وبالرغم من البنية التاريخية ، فإن تتابع الفيلم لا يحكمه مجرد مبدأ السرد التاريخى ، وإنما رؤية الفنان المخرج صانع الفيلم ، والذى تبدو قصديته الواضحة فى تحديد لحظة « القطع » من اعتراف إلى التالى ، ثم لحظة القطع للعودة إلى اعترافات الأول ... وهكذا ، ربما بغرض اتاحة الفرصة للمقارنة المقصودة ، إذ قد يجىء قطع فى لحظة بعينها لكشف تناقض معين ، أو لكشف ما يمكن أعتباره « كذبة » مثلا ، أو لإلقاء الضوء الحقيقى على أسرار أحد الأحداث العالمية الشهيرة ، بل والأبعد من ذلك هو قصدية الإيحاء الذى يساوى تصريحا بما لا تنطق به الاعترافات المباشرة ، من خلال إعادة تركيب الاعترافات فى علاقة جديدة باللقطات ليوحى المركب الفنى بما لم يتم التصريح به . فهذا هو كولبى مثلا تتم العودة إليه متحدثا للكاميرا /نحن ، بأن الوكالة « قد تم تكوينها حتى نجمع (والحديث لكولبى) الأخبار السرية ، وحتى نتعرف على أشخاص ذوى أهمية ، وكل ذلك بهدف واحد هو المحافظة على الأنظمة التى نريد لها البقاء ... كما تعمل الوكالة على افناء أى جماعة أو مجموعة تخدش أو تهدد مثل هذه الأنظمة » ـ وهنا يتم الانتقال بالأرشيف الوثائقى السينمائى الحى إلى أيطاليا والبابا ينادى الشعب بعدم انتخاب الشيوعيين ، وهى الانتقالة التى لا يمكن انكار خطورة مغزاها الايحائى ، الذى يساوى تصريحا غير معلن ، ولكنه فقط ناتج هذا الربط الذى يلعب دوره سحر المونتاج السينمائى وفقا لقصدية المخرج وحده .

كذلك وعندما ينقلنا هذا المونتاج إلى وثائق الأرشيف المصورة للرئيس الأمريكى ترومان معلنا : « سياستنا الحرية » ، فانه باستخدام المفارقة المونتاجية يتم الانتقال إلى لقطات أرشيفية أيضا ولكن لمؤتمر أوروبا حول اقتراح مارشال بأوروبا موحدة ، بينما تضفر هذه اللقطات مع اعترافات أحد مسئولى الوكالة وهو فيليب ريجيم متحدثا حول أن امريكا قد نجحت فى

اوروبا لأنها كانت ترفع الشعارات ضد الفاشية ، كما أنه قد تم تكوين وكالة المخابرات الأمريكية لنمنع (والحديث لفيليب ريجيم) المنظمات السرية من تخريب اقتراح مارشال بأوروبا موحدة . ومن ثم فهى الانتقالات والتضفيرات السينمائية التى تتوج ما سبقها من تكثيف للمعلومات ، بتصريح ايحائى مفاده التأكيد على أن هذا الاقتراح هو مشروع أمريكى فى الأساس ، وأن الذى كان يتحرك وراءه هو أهداف وكالة المخابرات الأمريكية .

وهكذا نجد أنه برغم وجود تعقيبات ووجهات نظر وآراء أخرى مسجلة بالفيلم ، فى مقابل أحاديث مسئولى الوكالة ، بالاضافة إلى ما كان يتم من الرجوع أحيانا إلى وجهات نظر تاريخية معلنة سابقا حول أى من الموضوعات التى يتناولونها ، فقد كانت وجهة نظر المخرج وحده هى صاحبة الأثر/ التصريح النهائى ، إذ هو الذى يبدع علاقات المركب الفنى بين كل هذه التقابلات المونتاجية ، سواء تلك التقابلات بين المتناقضات حينا ، أو بربط التوافقات حينا آخر ، كأن يلجأ إلى الاستمراريات التكاملية للأحاديث المتتالية بأكثر من شخص زعيم أو قائد أو مواطن ، عبر اللقطات لكل منهم فى أكثر من مكان ، ولكنها فى تتابعها تبرزهم وكأنهم صوت واحد يقول بنفس الفكرة أو المفهوم الذى يتم ترديده حول موضوع تاريخى بعينه ... ثم إذا بالقطع إلى لقطة اعتراف المسئول الأمريكى ، سواء لتفجير مباشر لسر ، أو للإيحاء عبر هذا القطع بذلك السر ، بما من شأنه أن يصدم أو يهدم كل ما قيل وأشيع وسبق بثه ، أو على الأقل فانه يحسم شكوكا طال أمدها .

ومما يؤكد القصد العمدى للمخرج ، والكامن وراء الأثر النهائى المتحقق ، هو ذلك الجهد المبذول فى حذق وتدقيق شديدين ، فقد تبدو أفكار هذه المعالجات المونتاجية وتصميماتها القصدية بمثابة السهل الممتنع ، ولكن ثمة صعوبة حقيقية سوف يدركها المحترفون لدى مشاهدة انجاز هذه الأفكار ، خاصة فيما يتعلق بالتنسيق الفنى بين الأصوات ، فاللقطات الأرشيفية تحتوى على أصواتها التاريخية بها ، كالمؤثرات الصوتية للحروب والمظاهرات وما إلى ذلك ، إضافة إلى كلمات التصريحات أو الحوار ، بل وفى كثير من الأحيان خطب للزعماء فى حشود الجماهير ، وما شابه من مكونات شريط الصوت ، لذلك فانه عند الجمع بين شريطى الصوت : صوت المتحدث المعترف ، فى مقابل الأصوات الخاصة بلقطات الأرشيف ، يصبح فنان الفيلم مواجها بضرورة التمكن من مرحلة أخرى للخلق المبدع فيما يسمى « المكساج » (عملية المزج بين الأصوات الموجودة على أشرطة مختلفة لتصبح فى شريط واحد ، بعد أن يتم خفض صوت من شريط لصالح ارتفاع آخر ، والعكس صحيح ، وفقا لما يرتئيه الفنان) وبما يحقق فى النهاية أثرا محددا فى المشاهدين للفيلم ، الا وهو انقلاب علاقات المفاهيم التى تم اختزانها فى العقل عن تاريخ هذه الوقائع ، وبما يجعله انقلابا لا يتأتى بمجرد « الشرح » الصوتى المصاحب للقطات الوقائع ، أى بما يتطابق مع ما يعلنه فرانكوفيتش نفسه :

« لقد حثتنا التنويرية المستهدفة من الفيلم لأن نتخلى عن التعليق الطويل ، ومن ثم فإن الاعترافات المباشرة من رجال الوكالة هى التى أصبحت مسيطرة ، هذه الوثائق التى غدت بمثابة وثائق لا يمكن لأحد أنكارها »[٢]

جمع متناقضات الأهداف حول متحقق واحد :

يصبح المطلوب الآن هو قياس أهداف الجبهات الثلاث مع المتحقق عبر الفيلم ، سواء عبر صورته الفنية ، أو عبر أثره فى التلقى ، إذ لابد أن كل جبهة منهم قد تحقق هدف لها ، وإلا ما كان الفيلم قد وجد فرصة انجازه انتاجا وعرضا ، سواء على الجبهة الأمريكية أو الشيوعية .

أولى الجبهات هى جبهة فرانكوفيتش نفسه ، وحيث إذا كان الأثر النهائى المتحقق بفيلمه هو « إنقلاب عقل » فان القصدية الواضحة التى برزت فى معالجته السينمائية إنما تعنى أن هذا الانقلاب هو استهدافه ، الا أنه كان انقلابا فى اتجاه « الحقيقة » وحدها .

ثانية الجبهات هى جبهة الوكالة المركزية للمخابرات الأمريكية ، والتى تحقق هدفها عبر الصورة الفنية المباشرة للفيلم ، حيث قد تم تسجيل الاعترافات لبثها إلى المتلقى ، أى ما من شأنه بث « حرب نفسية » تقوم على اشاعة الاستسلام لتلك القوة الرهيبة المحركة لكل أحداث العالم .

وثالثة الجبهات هى جبهة أولئك الشيوعيين الذين وجدوا بالفيلم السند الوثائقى لكل ما سبق أن دأبوا على إعلانه اتهاما للولايات المتحدة الأمريكية وأجهزة مخابراتها .

ومع ذلك اذن فلابد أن ثمة تفارقا بين هدف فرانكوفيتش ، وبين

المستهدف على كل من الجبهتين المتصارعتين :

أن الفرق ـ فى النتيجة النهائية لهذا الانقلاب العقلى ـ بين هدفى كل من فرانكوفيتش ووكالة المخابرات الأمريكية ، إنما يكمن فى الفرق بين « الاعترافات المباشرة » التى ادلى بها المسئولون بالوكالة مسجلة عبر صوت وصورة الفيلم وبين تلك « التصريحات الايحائية » التى « تضيفها » معالجات فرانكوفيتش فى المونتاج والمكساج بالفيلم .

أما الفرق فى ذات النتيجة بين هدفى كل من فرانكوفيتش والشيوعيين ، فقد يبدو للوهلة الأولى الا وجود له وأن ثمة تطابقا بينهما ، ولكن مجرد العودة للتساؤل حول عدم انتباه الشيوعيين إلى هدف « الحرب النفسية » فى نفس الوقت الذى يتوضح فيه وعى فرانكوفيتش ولاشك بهذا الهدف ، لكفيل بأن يجعلنا نقر بعدم تصنيف فرانكوفيتش « جنديا » فى هذه الجبهة الشيوعية . والا فقد كان عليه أن يلعب دوره التحذيرى كجندى منتم ، وهو ما لم يحدث دليل قيامه أساسا بانجاز الفيلم . الأمر الذى يدفعنا للتوقف مع خطوة التعرف على فرانكوفيتش ، سعيا وراء استكشاف هذه النقطة .

المخرج الأمريكى فرانكوفيتش .. من ؟

من هو أذن ذلك الرجل / الجبهة ، صاحب تجربة هذا النفاذ بين الجبهتين / القمتين على طرفى الحرب الباردة ؟ .. من هو هذا الامريكى فرانكوفيتش ؟ أن أول ما نلتقى به هو انشغاله بالعمل السياسى من خلال الفن إذ يقول : « لقد كنت مهتما بالمسرح أساسا ، وقد اتجهت إلى فرنسا بعد أن تبدى لى اضمحلال الصورة العامة للسياسة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، إلا أننى عندما عدت إلى أمريكا بعد ثلاث سنوات ، كانت الحركة المضادة للحرب قد بدأت ، ومن ثم فقد شاركت بكاميرتى فى أول مسيرة للاحتجاج ضد الحرب فى فيتنام ، وسرعان ما أدركت الامكانية الخاصة للأفلام فى العمل السياسى ، فأقدمت على إخراج الأفلام من منطلق هذا المفهوم ، وحتى اليوم (نوفمبر ١٩٨٠) قد أنجزت ثلاثة أفلام تسجيلية طويلة ، وفيلما واحدا روائيا قصيرا ، بالاضافة إلى عملى فى مجال الأدب » .

تجعلنا اهتماماته تلك نفهم أن استهداف الانقلاب العقلى بالسينما ليس بغريب عما نستخلصه حول قناعاته ، والتى ستبدو لنا أكثر وضوحا بما يساعد فى إلقاء الضوء المركز على أعماق موقفه ، عندما يحكى عن حياته : « والدى مهندس تعدين ، وقد عمل لعدة سنوات فى بلاد أمريكا اللاتينية ، وكان هذا هو السبب فى أننى قضيت الغالب الأعظم من سنى طفولتى فى أمريكا اللاتينية ، حيث كنت أواجه بظروف الحياة الاجتماعية فى هذه البلاد : الفقر ، والظلم الاجتماعى الذى هو نتاج طبيعى لهذا الفقر »

نفهم أذن هنا روافد تكوينه التى قادت اهتماماته فى اتجاه موضوع المخابرات الأمريكية خاصة فيما يستطرد به قائلا : « .. من ثم فقد نشأ عندى ارتباط مبكر جدا بأمريكا اللاتينية ، التى سرعان ما جعلتنى أرتبط باهتمام أكبر بمشاكل جميع الدول النامية ... فى عام ٧٧ / ١٩٧٨ عملت فيلمى (تشيلى فى قلبى) والذى تركزت قضيته الأساسية حول الانقلاب الفاشى الذى وقع فى هذا البلد ، حيث لعبت وكالة المخابرات المركزية الدور الأكبر فى تحقيق هذا الانقلاب ... وخلال تحقيقى فى واقع الحقائق ومصادرها ، تعرفت تماما ، وعن قرب ، على ميكانيكية مشاريع المخابرات المركزية ، إلا أن اهتمامى بها يمتد أكثر إلى الماضى . » .

أما عن فيلم (بتكليف من الشركة) فيمكننا أن نلتقط الخيط الرئيسى لا ستقصاءاتنا على جبهة هذا الرجل ، فيما جاء به تصريحه كهدف معلن بوضوح شديد الحسم ، إذ يقول : « أننى أتصور عملنا بهذا الفيلم باعتباره حركة تنوير .. نحن المواطنين الأمريكيين مسئولون عن الدور الذى تلعبه الولايات المتحدة الأمريكية فى السياسات العالمية ، ومن هنا يصبح من الضرورة أن تقدم لكل أمريكى حقيقة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية .. أن كل مناروة فى سياسة أمريكا إنما لابد وان لها صلة بأنشطة وكالة المخابرات المركزية ، وهو مالا يعتبر موقفا جديدا ، ولكنه مثل ما يجرى منذ عشرات السنين . وأما الاتجاهات الحالية فإنه يمكن الرجوع إلى أصولها فى الفترة الرئاسية لكنيدى ، حيث رئيس الوكالة (هيلمز) يعرف مجمل التطورات ويعترف بحقائقها لكاميرا الفيلم »

أن الاستهداف هنا واضح ، أما المفهوم أو التوجه الذى يحكم هذا الهدف ، فهو المدخل إلى مشكلتنا فى فهم تجربة فرانكوفيتش ، بعد أن يكون تصريحه بنفس الوضوح والمباشرة قائلا : « وكان هدفنا أن يعرض الفيلم خلفية أنشطة الوكالة المركزية للمخابرات الامريكية ، لان الشعب الأمريكى يجب أن يعرف أن سياسة أمريكا الخارجية إنما تحكمها ـ بدرجة

كبيرة ـ المصالح الربحية للاحتكارات الكبيرة التى تدير دفة الاقتصاد الأمريكى ، وكذلك دفة الاقتصاد فى امريكا اللاتينية ، وفى أقطار أخرى عديدة من العالم .. وكل فرد يعرف هذه الاحتكارات من واقع خبرته الخاصة ، وأن مصالحها هى ما تدافع عنها وكالة المخابرات المركزية ، أما أنواع هذه المصالح التى تمثلها فهو ما يتجلى واضحا فى احاديث ولقاءات كاميرا الفيلم مع أعضاء الوكالة » . وفى هذا الصدد فإن توثيقات فرانكوفيتش الفيلمية ، وفقا للاعترافات التى جاءت على لسان « كورى » السفير الأمريكى السابق فى شيلى ، لهى مثيرة حقا .

هكذا تشير تلك الدلائل إلى توجه يسارى توضحه تصريحات فرانكوفيتش عن نفسه وعن تجربته بينما أنه أمريكى الجنسية قام بالتعامل بالكاميرا مع نفس مسئولى وكالة المخابرات الأمريكية الذين أعلنوا لذات هذه الكاميرا أن أنشطتهم فى مكافحة النشاط الشيوعى لا تمتد إلى بقاع العالم فحسب ، بل وفى قلب أمريكا ذاتها ، أى حيث نتعرف على فرانكوفيتش وتجربته تلك ، ومن ثم يتساوى أن تنشأ الريبة أو مجرد التساؤل حوله ، مادام أن مسئولى الوكالة لابد « أنهم واعون ولن يتركوا شيئا من هذا القبيل فى الداخل ، أو فى الخارج .. » .

انه أمريكى الجنسية من ناحية ، ويعلن عن يساريته من ناحية أخرى ، وبهذا فهو يغدو فى ذاته إشكالية ، ليس فقط بسبب يساريته التى هى رغما عن امريكانيته ، ولكن لأنه ستنطبق عليه ذات التساؤلات التى طرحت على كل من الجبهتين ، فهو مثلا وفيما يتعلق بزعم اليسارية : هل يخون جبهة الكتلة الشرقية / الشيوعية ، والتى ينتمى إليها زعمه المذهبى ، فيخترقها بانجاز « التحضير النفسى » بالسينما ، والذى تستهدفه الجبهة الأمريكية متمثلة فى وكالة مخابراتها المركزية ؟ .. انه تساؤل لن يحسمه نفى أو ايجاب كلما استحضرنا جهد فرانكوفيتش فى قصديته الفنية ، ومع المتحقق عبرها من انقلاب عقلى بالسينما التى أنجزها ، إذ انه اثر متحقق لا يتطابق مع الهدف الأمريكى المضاد من الناحية الأخرى ، مثلما انه ـ وبنفس القدر ـ لا يتطابق مع مبدأ تجنيب الرأى العام الشيوعى مغبة الوقوع فى « التحضير النفسى » المستهدف أمريكيا . بل وسوف يعود التساؤل اكثر تكثيفا إذا ما عدنا إلى ما يخص الجبهة الأمريكية وسمعنا تعليق فرانكوفيتش عما يحتمل أن يكون قد لقيه من مصاعب ، إذ يقول : « ومع ذلك لم تكن هناك مهاجمات شخصية ضدى ، لأن مثل هذه المهاجمات كانت ستثير التساؤل حول ما يمتدح دائما فى الحرية الأمريكية لوسائل الاعلام ، وكذلك لم يتم الضغط على بأية اجبارات سرية » .

وحتى عندما سئل فرانكوفيتش : « هل تمت محاولة لمنع عرض الفيلم ؟ » ... أجاب : « لقد حدثت المحاولة خلال التليفزيون فى البداية ، حتى انه قد أصبح فيلما شهيرا لدى المعلنين .. كما كانت هناك بعض المهاجمات من الصحفيين المعروفين بتعاونهم مع وكالة المخابرات المركزية ، ومع ذلك فإن هذه المهاجمات قد توقفت أمام المواجهة المباشرة للعرض التليفزيونى نفسه » .

لن تتوقف إذن سلسلة التساؤلات التى تستدعى بعضها البعض إزاء هذه التجربة المثيرة ، ولكن تواصل هذه التساؤلات هو نفسه ما يؤكد الحقيقة الهامة : حقيقة أن فرانكوفيتش قد كان هو ذاته جبهة مستقلة ، وحيث لا أجابة لأى تساؤل إلا هذه الاستقلالية ، وهى ذاتها الدافع وراء تحقيق قدرته للنفاذ على الجبهتين المتصارعتين ... ولكن مرة أخرى : كيف ؟

المؤكد أن فرانكوفيتش قد لعب على الجبهتين ، فاستطاع النفاذ ، إذ ان ملابسات تجربته نفسها هى التى تشير إلى :

أولا : انه من ناحية ، كان يعى الهدف البعيد المدى الذى يفكر فيه المسئولون الأمريكيون ، وفقا لقناعتهم فى استهداف التحضير النفسى للعمل السياسى الأمريكى ، ومن ثم فقد فهم فرانكوفيتش عدم البراءة فى تسهيل هذا التسريب لمثل تلك المعلومات ، وراح يستثمر ذلك الهدف لدى الطرف الأمريكى ، بما جعله يتمكن من التعامل معهم من هذا المنطلق ، وإلا ما كان قد تمكن من اقناع هذا الحشد من مسئولى الوكالة للمثول بالاعترافات أمام كاميرته .

ثانيا : انه كان ـ فيما يتعلق بالجانب الشيوعى ـ يعرف مسبقا أنهم سيتهللون باعترافات المخابرات الأمريكية ، ومن ثم فانهم سوف ينشغلون بالتهليل فقط لما اعتبر تدليلا قاطعا على كل ما سبق وأعلنوه اتهاما للمخابرات الأمريكية ، دون أن يلتفتوا إلى الهدف السياسى الحقيقى من الواقعة السينمائية المتجسدة فى انتاج وعرض هذا الفيلم ، اى « التحضير النفسى » فقد كان فرانكوفيتش يعرف ، مثلما يعرف كل هؤلاء الأمريكيين ، ذلك الجمود الهائل فى النظرة ، والذى يتمتع

بـه هؤلاء الشيوعيـون ممن يختـارون ممارسة وظيفتهم فى العمل السياسى من خلال التدثـر بعباءة النقـد السينمائى أو حتى صناعة الأفلام ، بينما هم براء منها ، حيث لا يملكون إلا القـدرة على إطـلاق حناجـر التهليـل بـالشعـارات السياسية ، أى ذات مـا حدث فعـلا ، عندما لم يستلفتهم إلا مجرد كون الفيلم « وثـائقى » ، دون أدنى أنتباه إلى أن الانشغـال بأحـادية النظرة عبر قنـاة التهليل السياسى الأعرج ، لم يكن ليدع فرصة سانحة للالتفات إلى هذه الوثائقية بأكثر من كونها وثائقية وفقط ، أى دون الالتفات إلى ابداع أسلوبها الخاص ، الذى هو فى حقيقته جوهر تحقيق النجاح الأمريكى من ناحية ، وتجسد كل هذه الاثارة من ناحيـة أخرى ، بـل وبدون خصوصية هذه المعالجة الفنية سينمائيا لم تكن مجـرد الاعترافـات والأسـرار الجديدة بقادرة على تحقيق ما أحدثته .

لقد أدت أحادية النظرة لأن يكـون انفجارا سياسيا ، بينما حجب ذلك أى نظـرة متأملـة فى خصوصيتـه الفنية ، مثلمـا غطى عـلى هـدفـه السيـاسى الحقيقى .

ومـع ذلك يمكننـا الافتـراض بـأن المسئولين الشيوعيين قـد توقفـوا أزاء الأمر ولو للحظة واحدة يشعـرون فيها بـالريبـة حول تسهيـل تسـريب هـذه المعلومات ، وفى هـذا الصدد كـان من الواضح أن فرانكوفيتش قد القى اليهم بطعم ، فـالتقطـوه بنفس السهـولـة ، عندما صور لهم التقاءه معهم حول فكرة عدم البراءة فى تسريب هذه المعلومات ، ولكنـه استخـدم ذكـاءه فى أن يحصر التصـور بعدم البـراءة فى مفهوم آخـر يريح الشيوعيين ليبتلعوا الطعم ، وهو الأمر الواضح فيما حكـاه لهم ونشروه بيومية المهرجان على لسانه اذ يقول :

« فى بـدايـة السبـعينـات كـانت المعلـومات عن تصـرفات الـوكالـة قد تسربت بالفعـل ، وسببوا بهـا الذعـر للشعب الأمريكى ، حيث ظهرت الأخبار عن هذه الأعمال عبـر وكالات الأنبـاء الأمـريكية ذاتهـا .... وعلى كـل ، فإن الأسباب الفعلية وراء تقـارير وكـالات الأنباء هذه ، لا تعبر عن شفافية بريئة ، فقد قدمت التقارير عن هذه التصرفات ونوقشت باعتبارها حالات خاصة تدخل فى نطاق الصراعات والتنافسات داخل وكالة المخابرات المركزية ، وكأن لا صلة لهـا بطبيعة هـذه المؤسسة . ولم يعـد خافيا عـلى الشعب الأمريكى ، الـدور الذى تلعبه الـوكالـة فى سياسـة إدارة الخارجية الأمريكية ، وعلى سبيل المثال فـإن حرب فيتنـام لا يمكن أن تنسى ، وبسبب المأزق فى الداخل وفى الخارج ، برزت المطالبـات لا ستكشاف انشطـة الوكالة ، هذه المطـالبات التى أزدادت وتضخمت لـدرجة أن الكـونجرس قـد أنشأ لجنة لتقصى الحقائق ، وقد اقبلت على عملية تتبع ومراقبة شديـدة لمجمل تطـورات المسـألـة ، كمـا لاحظت أن الشـعب الأمـريكـى قـد بـدأ يحصر انتقاداته للوكالة فى المظاهر الأخلاقية ، مبتعدا بذلك عن الجوهـر .. أن طبيعة الوكالة لم تكن لترى من خـلال حقائق ظلت غامضة .. عنـدئذ كـرست نفسى للـدور المضـاد لاستـراتيجيـة حجب الحقائق فى تقارير وكالات الأنباء ، وأن أصل إلى قاع وعمق الصلات والعلاقات الحقيقيـة ، وقد عضـد أهـداف هـذه مواجهة بعض رؤساء وكالة المخابـرات للجنة الكـونجـرس الخـاصـة بتقصى الحقائق ، فقد أحس هؤلاء الناس بأنهم حوصروا ، ومن ثم فقد أختاروا مواجهة الخطر . إن الحاحهم على تبرئة أنفسهم جعل السنتهم تنفلت . » .

وبدا واضحا لنا أن الشيوعيـين قد أراحـوا أنفسهم وأقتنعوا بـأن الحاح هؤلاء المسئولين على تبرئة أنفسهم هو فقط الذى جعل السنتهم تنفلت ، وكأن هـذا الحشـد منهم كـان يجلس أمـام الكاميرا ، كل فى دوره ، وقد تم تخديرهم لتنفلت السنتهم .. هكذا كلهم !

أما من الناحية الأخرى فقد استطاع فرانكوفيتش أن ينفـذ أيضا بتجـربته المتضمنـة لما يهـدف إليه عـلى الجانب الأمريكى ، فهكذا هو نفسه يشرحها : « لقـد تـم عـرض الفيلم حتـى الآن (١٩٨٠) ، مـرتـين فى التليفـزيـون الأمريكى ، وانى لا أعتقد أنه قد نقـل مفهوما جديدا للكثـير من المتفرجـين ، وإذا ما كان الأمر كذلـك ، فإن الفيلم يكـون قد حقق واجبـه .. صحيح أنـه لا يمكن لفيلم واحد أن يغير من الرؤى السيـاسيـة فى الـولايـات المتحـدة الأمريكية ، لكن عـلى المرء أن يعتبـره عنصـرا فى عمليـة نمـو الضمـير الأمريكى ، كما أن المعلومات عن طبيعة الوكالة ، وخلفية انشطتها ، لكفيلة بأن تكثف سرعة هذه العملية .. وبالمقابل فـإنـه يصعب القـول متى ستتـرجم المعلومات إلى وقائع سياسية »

انتصر السينمـائى فـرانكـوفيتش إذن ، منتصبا بساقيه على الضفتـين ، دون أن يعنيـه إلا انجـاز تجـربتـه السينمائية (انتاجا وعرضا) فى الأطار الصحيح لمفهوم الفيلم / الفن ، والذى يستهدف من تعاملـه مع « التـاريخ » اقتنـاص « الحقيقـة » ليحقـق بـهـا فرانكوفيتش ما تأكدنا نحن من كـونه امكـانية ، الا وهـو « الانقلاب العقـلى بالسينما » .

وعلى وجه الأجمال فقد انتهى فرانكوفيتش إلى تقديم فيلم أمريكى مثير حول التاريخ السياسى المعاصر ، ولكن أن ينجح فرانكوفيتش فى اقتحام عميق لأسرار المخابرات الأمريكية من ناحية ، وأن يبتلع الشيوعيون طعم فرانكوفيتش من ناحية أخرى ، فليست هذه التجربة فى ذاتها الا تجربة واقعة تاريخية لها كل الأبعاد التى تسم أى واقعة مما يصنع التاريخ السياسى المعاصر الذى يعالجه نفس الفيلم ، عبر محاولته النفاذ بأدواته السينمائية لانجاز التعامل بالكاميرا ويمونتاج شرائطها مع الحقيقة فى هذا التاريخ ذاته ، ولتتم العروض السينمائية للشريط النهائى ، محققة بالأنقلاب العقلى رأيا عاما غيره قبل الدخول إلى صالة العرض ، باعتبار ذلك أيضا تتمة للتجربة / الواقعة فى ذات التاريخ .

ومن هنا فاذا كانت الكيفية الفنية التى كان يفترض - مجرد افتراض صورى - أن تكون هى سبب فوز اعترافات المخابرات الأمريكية بجائزة لجنة التحكيم الدولية فى مهرجان سينمائى ، هى موضوع فنى ، فلأنها من المفترض أن تكون كذلك فعلا فى نهاية الأمر ، حيث لابد أن تستوقف المهتمين بالسينما ولكنها أيضا يجب أن تستوقف المهتمين - بل المشتغلين - بالسياسة وبالتاريخ وبالتأريخ ، إذ من خلال تحقق هذه التجربة الفيلمية وفهم ملابسات تحققها سوف يستفرئون العمل الأمريكى الذى كان يستهدفه « التحضير النفسى » بمثل هذا الفيلم ، وذلك فيما آلت اليه السنون من تحول عالمى مذهل شهدناه ونعيشه مع نهايات هذا القرن العشرين ، الا أن تحديد كنه ، ومجريات تفاصيله أو قراءته القراءة الصحيحة فهو ما لايدخل فى نطاق سطورنا ، بل هو مهمة هؤلاء المحللين السياسيين والمؤرخين ، إذ لا يعدو ما نطرحه هنا كونه جزءا من المادة التى يقرأون بها تاريخ عالمنا المعاصر ، بينما تبقى سطورنا مجرد كتابات فى السينما لدى تعاملها الفيلمى مع التاريخ ، وأما ما يؤدى إلى أجبارها أن تكون ضمن هذا التاريخ ، فهو ما يتمثل فى متطلبات انجازها واخراجها إلى حيز الوجود ، طالما أن السينما ليست كقصيدة الشعر مثلا يمكن أنجازها وتداولها بطرق سهلة كثيرة ، فانجاز فيلم يحتاج إلى عمليات معقدة فى انتاجه وتمويله ، كما يحتاج لجواز مرور فى عروضه التى لا تمكن أن تمر فى سرية أو سهولة .

ربما اذن كانت هذه السطور بمثابة وقفة سينمائية ، وربما كانت أيضا وقفة مع واحدة من الوقائع التاريخية ، ولكنها فى الحقيقة كليهما معا ، ومن هذا التزاوج تبرز لنا علاقة الفن / السينما بالتاريخ فى أعلى وأوثق صورها ، لتقدم لنا نموذجا سينمائيا فريدا فى نوعه ، عندما تلتحم تجربة انجاز الفيلم بذات الموضوع الذى يؤرخ له مباشرة ، فاذا بهذه الممارسة وقد اجبرته بأن تصبح عملية الانجاز السينمائى فى ذاتها واقعة تاريخية ، وتلك هى معجزة المعادلة الصعبة فى مجال « السينما والتاريخ » وأن كانت هى ذاتها المعادلة التى سوف تفسر لنا التجارب الفذة فى مدارس فنية عديدة أقدمت على حلها فى اطار تعامل الفن مع لحظة تاريخية بعينها ، مثل العديد من تجارب الاتجاهات التسجيلية أو الوثائقية فى المسرح أو فى السينما ، والتى نلتقى على قمتها باتجاه « سينما الحقيقة » . هذا الا ان التعرف على تجارب أو نظريات اى من هذه الأتجاهات ، أمر يختلف عن الوقوف على تجربة متفردة تبرع فى التعامل مع التاريخ بابداع وقدرة نفاذ خلاقتين ، وهذا هو ما دفعنا إلى أختيار هذه الوقفة مع الفيلم الأمريكى « بتكليف من الشركة » ، لنبحث فى سخونته باعتباره واقعة سينمائية جرى انجازها فى التاريخ ، وليتم بحثها عبر الملابسات التى اقترن بها إنتاج وعرض الفيلم ، سواء فى بلده « أمريكا » أو خارجها ، وذلك باعتباره فيلم أنتج فى بلد على قمة النظام الراسمالى فى العالم ، وهى قائدته احتكارا وتوجيها ، ومع هذا يحصل الفيلم على جائزة صارخة ، لأنها الذهبية ، اى الأولى والأعلى فى أكبر مهرجان للسينما التسجيلية بين الدول الشيوعية . بينما لم يصرفنا هذا عن بحث الخصوصية الفنية التى عولج بها تحقيق هذه الواقعة السينمائية ، اى خصوصية تعاملها الفنى مع التاريخ ، فأحادية النظرة عبر أى من الجانبين وحده مضللة للفهم الحقيقى .

وعند هذا الحد يمكننا رصد هذه الخاصية لعملية الانجاز السينمائى حال تعامله الابداعى مع السياسة والتاريخ .. ومع ذلك فاننا لا نطرح فهمنا لهذه الخاصية بالمصادرة ، إذ يظل هذا الرصد واستخلاصاته رهن التمحيص والنقاش العلمى الدارس لمثل هذه الظواهر الفنية ، اثراء للتنوير الحقيقى بما جرى ويجرى حولنا فى أرجاء العالم ، شرقه وغربه ، بلا نزعة انعزالية ، وبلا توقف فى نظرة أحادية ضيقة ، طالما ظلل المثقف العربى ينبض حياة■

الهوامش

(١) حضر كاتب السطور المهرجان بصفة رسمية كرئيس لوفد مصر ، وباعتباره مخرج فيلم « على ارض سيناء » الذى اختير ليمثل مصر فى هذا المهرجان مع فيلم « حديث الحجر » لخيرى بشاره

(٢) جميع اقوال المخرج الامريكى آلان فرانكوفيتش الواردة فى هذا المقال ، مترجمة عن احاديثه المنشورة بيوميات المهرجان

النمـــط والأنمـــوذج فـــى التجــــربة

محيى الدين محمد

فيحدد (جاك ماريتان) عناصر الجمال فى العمل الفنى بهذه المفاهيم الثلاثة [الكمال ـ الاتساق ـ الوضوح] ، ويشرح ذلك فى مؤلفه (الحدس الخلاّق فى الفن والشعر) بالعبارة التالية : « (الكمال) لأن العقل يُسَرّ باكتمال الأشياء ، و(الاتساق) لأن العقل يسعد بالنظام والوحدة ، و(الوضوح) لأن العقل يسرّ بالضياء[1] » .

وهو يستعير تعبيرا (لتوما الأكوينى) يقول فيه إن« الجميل هو الذى يُسَرّ من يراه »[2] ، ويحاول أن يقيم تفرقة غريبة فى علم الجمال إذ يؤكد أن « الفن يناضل لتخطّى التفرقة بين ما يصفه بالجمال الفنى ، وما يسميه بالجمال المتعالى » ويقول (ماريتان) « إن جميع أنواع الشعر العظيم توقظ فينا بشكل أو آخر ، الحسّ بهويتنا الغامضة ، وتدفعنا نحو منابع الوجود » ...

بينما يحدد (**هولدرلين**) تجربته بقوله « وفى الشعر ، يركز الإنسان على أعمق أعماق الحقيقة الانسانية . وهناك يستبطن عن طريق السكينة ، وهى ليست سكينة الوهم السلبية ، أو الفراغ الفكرى ، بل هى السكينة المطلقة التى تتحرك فيها كل الطاقات والعلاقات »[3] .

ولا شك أن النقد الأدبى لا يزال يشعر بالارتباك حتى بعد أن أعلن (ريتشاردز) رفضه لوجود نوع مميز من النشاط العقلى فى التجارب الجمالية ، ويقول « أن الذى يمنح التراجيديا طابعها المميز هو العلاقة بين هاتين المجموعتين من الدوافع ، الشفقة والخوف ، ومن هذه العلاقة ينشأ التوازن الخاص الذى يوجد فى التجربة التراجيدية » ويقول « إن هذا التوازن الذى تتصف به التراجيديا ، والذى يرجع ثباته إلى قدرتها على الشمول ، وليس إلى قدرتها على الاستبعاد لا تتميز به التراجيديا وحدها .

إنه إحدى الصفات العامة التى تميز جميع التجارب الفنية ذات القيمة العظمى »[4] . ويصل (ريتشاردز) إلى «أن التوازن لا يوجد فى بناء الشىء المنبّه ، وإنما يوجد فى الاستجابة ذاتها » مؤكدا « أن التجارب الجمالية ليست نوعا جديدا فريدا من التجارب ، بل هى تشبه غيرها إلى حد بعيد ، وأهم ما يميزها عن التجارب الأخرى هو أنها أدق منها تركيبا ، وأكثر نظاما »[5] .

. تأكيد على أن الشعر العظيم لا يدعو قارئه لأن يكون « مثاليا » بل هو يكشف عن المثالى داخله .

الإنسجام الذى يشيعه الإيقاع والقافية فى الشعر ليس إلا المدخل الخارجى لإدراك الجانب الأهم : المضمون .

وهكذا نجد أمامنا اتجاهين يحاولان تفسير عملية الخلق الفنى فى الشعر ، يحاول الأول منهما (وهو الذى يحظى بتأييد معظم نقاد الأدب) تفسير ذلك بأنه أمر يدخل فى إطار المطلق ، أو بتعبير (ماريتان) « ... إن الشعر بوحٌ بالدرجة الأولى ، ودفعٌ للخلق المتحرر للروح ، وليس للشعر هدف جمالى محدد ، فهو ليس شيئا يُصنع ، أو شيئا يُدرك ، إنما هو تلازم متعال » !

وكما هو المتوقع من مثل هذه التعبيرات الغامضة ، نجد أنفسنا فى مأزق حقيقى ، فالكلمات من نوع

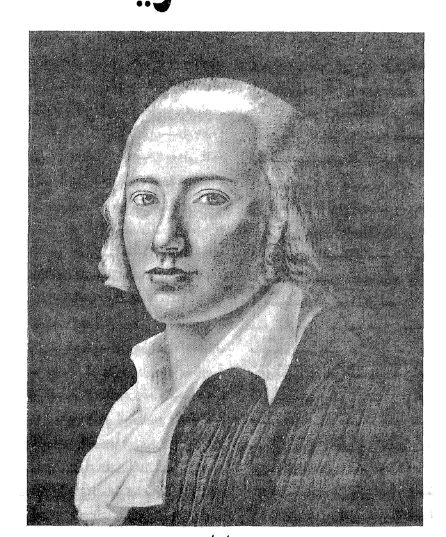
« التلازم المتعالى » أو « يوقظ فينا الحس بهويتنا الغامضة ، ويدفعنا نحو منابع الوجود » تكاد تكون كالشعر ، فهى مجرد عبارات جميلة ، ولكنها تختلف حتى عن الشعر بأنه لا معنى لها .. »

وما الذى يفرق بين ما يسميه بعض النقاد المحدثين ، وبينهم (**ماريتان**) « بالحدس الخلاّق » ـ وهى عبارة سبق أن استخدمها برجسون كذلك ـ وبين السحر والطلاسم والشعوذة ؟

أما عن ذلك الاتجاه الذى يصف التجربة الشعرية بأنها لا تختلف عن تجارب ألحياة الأخرى ، فهو بحاجة إلى إقناع عقلى ، وحجج أبلغ من تلك التى ساقها ريتشاردز لتوضيح نظريته .(٦)

فلا يعقل أن تكون استجابتنا ونحن نقرأ (المتنبى) أو (أبا العلاء) مماثلة تماما لاستجابتنا ونحن نمشط شعرنا أو نرتدى ملابسنا ، فالقول بذلك يدخل فى حدود المغامرة غير المحسوبة ، فذلك الشعور الأولى بالرغبة فى الاستمتاع بشىء خاص ، ووقوع اختيارنا على شاعر بعينه ، والتهيؤ للقراءة ، ثم الاستسلام لعالم الشاعر الآسر ، والاحساس العميق بالتلاؤم مع العالم والأشياء ، بل

الشـــعريـــة



هولدرلن

الشعور بالغبطة واللذة ، والرغبة فى إضفاء ونقل هذا الشعور للآخرين ..

إن هذه العملية العسيرة ليست مجرد نشاط عادى ينتهى أثره بانتهاء الزمن المخصص له ، لملء ساعة الجدار ، أو إعداد طبق سلاطة إنها تمنحنا شعورا خاصا متميزا ، وتصقل وجداننا ، وترهف أحاسيسنا ، بحيث نكون بعد هذه التجرة أكثر إنسانية ، وأقل توحشا .

وهى فى بعض جوانبها تكاد تكون الرباط الذى يجمع بين الفنون العظمى بما تثيره من لذة كاملة ، وبعض القيم العليا التى لا يجوز لى فى هذه المرحلة من الدراسة ان أطلق عليها (الأخلاق) .

فالفن العظيم ليس هو الذى يدعوك إلى أن تكون مثالياً ، بل هو الذى يكشف لك عن المثالى فيك ..

إن معايشتنا للشعر الجيد تنقى احساساتنا ، وتسمو بعواطفنا وعقولنا . وكذلك مشاهدتنا لمعرض للصور ، أو استماعنا للموسيقى ، ولوكانت تجربة تذوقنا للفنون تعادل أية تجربة أخرى ، لظللنا كما نحن بدون تغيير داخلى بعد فراغنا من تذوق التجربة الفنية ..

ولا شك أن قراءة الشعر تجربة فريدة من نوعها ، فهذا العالم المتخم بالصور واللغة الخاصة ، والرموز وشحنتى الموسيقى الخارجية والداخلية والوجدان والأفكار ، تسهم جميعاً فى خلق وضع خاص متميز يعيشه المتذوق ، ويعزله حتى عن تيارات الواقع حوله .

وللشعر والموسيقى هذه الخاصة المميزة ، وربما كان النغم والقافية مسئولين عن ذلك ، فهما يفعلان فعل المخدر أو التلاوة المشعوذة للسحر ،

والتى تبطل إلى حدٍ ما عمل العقل المنطقى الواقعى الرياضى .

وهذا الانسجام الذى يشيعه النغم فى الموسيقى ، والقافية فى الشعر ليس الا المدخل الخارجى لإدراك أحد الجوانب الأساسية فى الشعر ، وهو مضامينه .

فالموسيقى مادتها ومضمونها هو الصوت ، أما الشعر فهو صوت ومعنى ، ورغم اننا نقرأ أحياناً أشعاراً بالأسبانية والايطاليه ونستمتع بجمالها دون أن تكون لدينا معرفة بهاتين اللغتين ، إلا ان استمتاعنا كان سيتضاعف بدون أدنى شك لو أدركنا معنى ما نقرأ .

وهناك تجربة أقدم عليها (شيلى) عندما ترجم شعراً قصيدتى « كافا لاكانتى » و « أوجو للينو ديللا جيراردسكا »[7] من (جحيم دانتى) ، فلم يوفق رغم شاعريته العظيمة فى بلوغ كمال الأصل الايطالى . فتجربة (دانتى) ولغته وانفعاله بالقضيتين كانت أسخن بكثير من نقل (شيلى) المبدع ، ولكن الفاتر للقصيدتين إلى اللغة الانجليزية .

ولست أتحدث هنا عن استحالة ترجمه الشعر ، فهذه قضية معروفة ، ولكننى أشير إلى الانفعالات العظيمة التى يعانيها كبار الشعراء ، وهم فى مرحلة مخاض خلق القصيدة ، باختيار الكلمات ، والصور التى تأتى عفو الخاطر أو بالتبصر الشديد ، والرموز والأفكار والإيحاءات ، والتحايل لبلوغ المعنى وفق الموسيقى والقوافى ، وعسر الوصول أحيانا ويسره .. ثم (انزياح الهمّ أخيراً) كما يقول (إليوت) والفراغ من العمل ..

(هذا الحشد الهائل من العاطفة والانفعال والتفكير ، هذا التهيؤ والاستعداد للاستقبال ، ينبغى أن يكون طريقاً أمام المتذوق لولوج هذا العالم السحرى ، والرغبة فى استكشاف ذلك السرّ المكنون الذى تتضمنه قصيدة ، كلماتها مما يعرف ، وألفاظها مما يتقن ، ولكنها مع ذلك غامضة ، غير مفهومة ، وكأنها كتبت بقلم انسان تجرد من ادراكه العقلى .. إن شخصيات فنية مثل (هاملت) أو (جوزيف . ك) أو (الدون كيخوته) لا تحمل من مقومات الحياة الواقعية ، لأى انسان حى . انها شخصيات تكاد تكون مناقضة لمفهومنا عن الانسان ذى السلوك المحدد ، والذى يمكننا أن نفسر ما يصنع نتيجة لموقف خارجى مفروض عليه كالبيئة أو الميراث الخ . أى أن سلوك هذه الشخصيات يكاد يكون سلوكاً غير واقعى ، وكأنما قدمت من كوكب آخر لا يمت للأرض بصلة . إن ادراكها للواقع غير واقعى ، وسلوكها ازاء هذا الواقع سلوك غير مفهوم .

ولا يمكن الادعاء بأن سلوك هؤلاء الأبطال مرضى فى أساسه ، بمعنى انهم يواجهون عالماً متوازناً بنفوس مريضة ، أو أن ردود أفعالهم تتماثل فى وحدتها برفض هذا العالم المتوازن ، وإقامة عالم موازٍ ومستحيل . فالشخصيات المذكورة تتفق فى إنها تمثل شخصيات عاقلة ، عميقة الثقافة والادراك ، وتعرف تماماً أسباب المشكلات التى تواجهها .. فكيف يتحول سلوك هؤلاء الأبطال إلى ما يشبه أن يكون أعمالاً سقيمة أو طفولية أو عبثية رغم مالديهم من وعى وفهم عميق للواقع وللمشكلة وأسبابها ونتائجها ؟ !

ان مناجاة العبث والمستحيل جزء من الفن الموازى للعالم كما هو ، واقامة عالم لا يشبه ما نعرف ، ولا تؤدى فيه المقدمات المفهومة إلى نتائج مفهومة ، بل تؤدى (فى الفنون العظيمة) وعلى الدوام إلى مواقف مستحيلة أو مناقضة لكل ما نبنى عليه نحن نتائجنا فى عالمنا الواقعى الصرف .

فالفنان يدرك واعياً ، الوحدة الكامنة فى جزئيات العالم ، وهو يقوم بتفكيك هذه الوحدة وإعادة تركيب جزئياتها لتبدو كما لو كانت أحداثاً أرضية حقيقية .. ولا تتم هذه العملية بوعى مباشر من الفنان ، لأنها نتيجة تداخل وامتزاج عمليات عقلية وشعورية ولا شعورية لا يمكن حصرها ، ونتيجة تاريخ طويل من الملاحظة والاطلاع والوعى والكبت والاحساس .

ولابد لهذه العمليات أن تكون ما يمكن تسميته بالتجربة الخاصة لكل فنان ، فرغم ان هذا العالم أسير وحدته ونظامه الخاصين ، إلا أن كل تجربة بشرية ، انما هى نسيج وحدها ، لا تتكرر ولاتتشابه ، ولا يمكن أن تكون هناك تجربتان متماثلتان حتى لو أخضعنا شخصين لنمط واحد من تجارب الحياة منذ الطفولة وحتى الكهولة ..

فانعكاس هذه التجارب الموحدة ـ افتراضاً ـ على نفسية ومشاعر كل منهما ستكون مختلفة تماماً ، لأن هناك عوامل أخرى داخلية تشكل الاستجابات الخاصة لكل منهما إزاء كل مثير خارجى ، وتمنع ظهور مايسمى بالنمط الإسبرطى ..

والنتائج التى تترتب على هذه الاستجابات يمكن أن تبرز فى صورة قيمة معينة ، أو مفهوم معين تشكل جميعاً المنظور الخاص للفنان ، وهو الإطار العام الذى يحكم أعماله .

إننا نستطيع أن نفرق بين (النمط) و (الانموذج) بالقول ، إن (النمط) هو الشخصية التى نتوقع منها أن

تتصرف على نحو معين متأثرة بعوامل البيئة والتربية والظروف الخاصة النفسية والاجتماعيه الخ . واذا اخترنا حالة فردة ، كحالة (حلاق) على سبيل المثال ، فإننا نتوقع أن يمارس هذا الفرد ذلك السلوك المتوقع بالضبط من نمط مثله ، لا يستطيع الخروج عن مفهوم وظيفته وطبقته ومستواه العقلى وأدائه المعروف فى الواقع ..

أما (الأنموذج) فهو الفرد الذى يخرج عن إطار الطبقة والبيئة والتربية إلخ . ففى العمل الفنى لا يمكن أن نخضع (الحلاق) للنمطية ، وإلا كنا كمن ينسخ عن الواقع ، ولابد لهذا الانموذج فى العمل الفنى أن يحمل امكانات تجاوز طبيعته ، أى لا ينبغى أن تحكمه الظروف الخارجية التى جعلت منه هذا الانسان المحكوم بمواصفات الطبقة والبيئة ومحدودية الادراك ، رغم أهمية هذه المواصفات بالطبع .. وما أود الالحاح عليه هو ملاحظة الطبيعة غير المتوقعة فى (الانموذج) الفنى . ففى الحياة العادية ربما لا يكون (الحلاق) إلا (حلاقاً) بكل المقاييس المحددة لوظيفته فى الحياة ، لكنه فى الفن لابد أن يكون مفتوح الامكانات وقابلاً حتى لكى يصبح بطلاً أخيلياً ..

إن تحطيم النسق المألوف للحياة ، هو فيما أزعم صلب عملية الخلق الفنى ، وتتضمن إعادة تصميم للعالم وفق استجابة الفنان لموقفه ومشاعره من هذا العالم ..

وهكذا ، لابد عند قراءة قصيدة شعر ، أن نخرج عن مألوف عاداتنا . وأن نتوقع شيئاً آخر غير نمطى ، أن ندرك أن هذا العمل ربما يحمل أبعاداً أخرى غير ما نعرف ، ويصل إلى أعماق أخرى غير ما نقدر .. وعلينا بكثير من اليقظة أن نتعلم كيف نلج عالم القصيدة الغامض .

استمع إلى ناقدنا الكلاسيكى (عبد القاهر الجرجانى) وهو يشرح هذه الأبيات الجميلة :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالاركان من هو ماسح
وشدت على دهم المهارى رحالنا
ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
اخذنا باطراف الاحاديث بيننا
وسالت باعناق المطى الاباطح

يقول الجرجانى[8] : « ... وذلك أن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر انه قال (ولما قضينا من منى كل حاجة) فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها ، من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ ، وهو طريقة العموم ، ثم نبه بقوله (ومسح بالأركان من هو ما سح) على طواف الوداع الذى هو آخر الأمر ، ودليل المسير الذى هو مقصوده من الشعر . ثم قال (أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا) فوصل بذكر مسح الأركان ماوليه من زم الركاب وركوب الركبان ، ثم دلّ بلفظة (الأطراف) على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر ، من التصرف فى فنون القول وشجون الحديث ، أو ما هو عادة المتطرفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء ، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس ، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط ، كما توجيه ألفة الأصحاب ، وأنسة الأحباب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حسن الإياب ، وتنسم روائح الأحبة والأوطان ، واستماع التهانى والتحايا من الخلان والاخوان ، ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه ، وأفاد كثيراً من الفوائد بلطف الوحى والتنبيه ، فصرح أولاً بما أو مأ إليه فى الأخذ بأطراف الاحاديث ، من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ، وفى حال التوجه إلى المنازل وأخبر بعد بسرعة السير ووطاءة الظهر ، إذ جعل سلاسة سيرها بهم فالماء تسيل به الأباطح ، وكان فى ذلك ما يؤكد ما قبله ، لأن الظهور إذا كانت وطيئة وكان سيرها السير السهل السريع ، زاد ذلك فى نشاط الركبان ، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيبا .. » الخ ..

ولقد أطلت الاقتباس من الجرجانى حتى تتضح صورة الناقد الذى يقيم عملاً فنياً لشرح عمل آخر ، وهى آفة لاتزال حتى الآن تشكل ملمحاً أساسياً فى عمل النقاد المحدثين . ولسنا نجد ما يدعو إلى ايراد أمثلة دالة ، فهى متوافرة فى كتب النقد المعاصرة ومجلاتنا الأدبية ..

لم يفعل الجرجانى شيئاً ، سوى أنه قام بنثر الشعر ، وأفرده مطولاً ، وأضاف من عندياته « فضل الاغتباط .. وكما توجيه ألفة الأصحاب وأنسة . إلخ .. »

ولايمكن أن نخرج من هذا الكلام بما يشبه التحليل النقدى للقصيدة ، إنما هو وصف انفعالى آخر لتجربة الشاعر الأصلية ..

زعمنا ان الشاعر يقيم عالماً موازياً للعالم الواقعى ، لاتماثل جزئياته الواقع كما هو ، ومن هذا (الموزاييك) المختلط يحشد الفنان مادته وينتقيها ، وعندما يقوم الرسام على سبيل المثال بتصوير السماء باللون الأحمر او الأسود لا يقوم بعملية خداع أو مداراة ، إنما هو يقيم عالمه الموازى .. فاللون تعبير عن

حالة نفسية أو عقلية أو لا شعورية ، يتم من خلالها تحطيم معنى الأشياء ومفهومها الواقعى الدقيق . ودخول ذلك العالم الآخر حيث تكون العلاقات والمفاهيم والأشياء منسوجة من نسيج آخر غير واقعى ..

فلنلاحظ هذه الظاهرة فى مقتطفات قصيرة من رواية (يابنات اسكندرية) لإدوار الخراط : « .. كانت البذاءة الصراح قد وصلت إلى منتهاها حتى هزمت نفسها ، فلم تعد تقريباً ، تمس نفوراً ، أو تستثير غضباً ، أو حتى تستدعى ضحك الحرج والتأثم . بل أصبحت البذاءة سحراً ملتبساً له قوة غير مفهومة وغير مبررة . وكان حس الذكورة يملأ الحارة كلها ويطؤها ، وكانت الظهيرة محتشدة بها ، وقد عادت إلى براءة أولية صراح . » ص ١٥ .

« .. وسرت على الرمل المبلول متوجهاً إلى هذا القبر الطامى بكتل الماء الضخمة السوداء ، حتى وصلت إلى الشط ، وكان تصميمى ثابتاً وكأننى فى غيبوبة ، وكانت أمامى خطوة واحدة . وقلت إننى عندئذ بالضبط وجدت التنين صغيراً وخائفاً بين أعشاب البحر اللزجة ، وأخذته إلى حضنى وأدفأته وعدت به إلى حجرتى ، وكبر التنين وتضخمت زعانفه وضرب بها جدران بيتى ونمت له أسنان كثيرة حادة أنشبها فى روحى ، ومازالت كلما انتزعت منها جيلاً ، نبت له جيل ، مرة أخيرة بعد مرة أولى بعد مرة .. » ص ١٨٤ .

يبدو الأمر للوهلة الأولى كما لو كان مجرد بلاغة جارفة متصلة ، وابداعات قلم عذب متمرس ـ وهو كذلك حقاً ـ ولكن التأمل حتى فى العبارات يضعنا وجهاً لوجه أمام (السماء الحمراء أو السوداء) للرسام . انظر إلى عبارة « .. أصبحت البذاءة سحراً ملتبساً له قوة غير مفهومة » ثم إلى صورة التنين التى ابنثقت فى خاطر إنسان على قيد خطوة من الانتحار ..

وهاهى نماذج أخرى من الشعر الإنجليزى المعاصر . « أمام ألسنة الأبقار المطاطية ، وأيدى الرجال التى تشبه المغارف ، تثقب الأشواك هواء الصيف ، أو تطقطق تحت وطأة ضغط أزرق مسود . كل شوكة هى انبثاق ثأرى منتقم ، قبضة من نثار أسلحة وجليد ايسلندى مقتحم .. »[9]

ثم انظر تعبير (د . هـ . لورانس) فى وصفه حيوان (الكنغر) (كما لو كان قطرة من سائل) ، ونماذج أخرى لشعراء آخرين « أحمر كمصباح الحارس ، يقوم القمر بالتفتيش على الأشجار » « الانفجارات الصغيرة لأسماك من الكريستال » « أضفرى ضوء الشمس فى شعرك »[9]

لا ينبغى لنا أن نتوقع البناء الخارجى للصورة فى تجربة تذوق الشعر ، فلن نتبين مغزاها إلا بعد المرور فى مخاض يشبه مخاض تجربة الخلق والتأليف ، أى التحشد الشعورى والفكرى ، والاستعداد لتلقى صدمة بكارة الصور أو بداهتها ..

وينبثق مفهوم بعض الصور الشعرية عفو الخاطر ، ويتمثل أمامنا بكل مافيه من اضواء وظلال كصورة « الانفجارات الصغيرة لأسماك من الكريستال » بسبب ما يمكن تسميته بالصورة المجسمة أو الطابع التشكيلى للصورة ، ويعتمد هذا اللون على البداهة الخاطفة أو اللمحة التعبيرية السريعة ، وتحويل الشكل الخارجى المتوثب الحى إلى حركة مجمدة ، تماماً تصوره (قطرة السائل) بدقة أعلاها ، وثقل أسفلها ، وصفاً لحيوان (الكنغر) الجالس ، انها حركة تجمدت .

كما ان هناك أنماطاً أخرى من الصور تختلف عن هذا المفهوم : (وسالت بأعناق المطى الأباطح) وهى صورة متحركة إلا أنها نتيجة مراقبة مطولة ، وملاحظة متصلة ، ولاتتعلق بالبداهة أو اللمحة الخاطفة ..

البناء الخارجى للصورة الشعرية مفاجىء وغامض وملتو ، وهو يختلف عن التشبيه فى أن الأخير متوقع وممكن ، ويكاد يكون حتى فى أبعد صوره عن مجال المشبه به ، أمراً يقينياً وإن كان مدهشاً .

ويبقى المعجز فيه ، هو تساؤلنا : كيف لم يخطر لنا هذا التشبيه على بال ؟

كان مثار النقع فوق رؤوسنا

وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه ..

آه من الفل الذى يعبق فى واجهة الدار

من الضوء الذى يشع كالماسات فى مفارق النخل

تشابيه بديعة ، ومختلفة وجديدة ، لكنها مقبولة ومفهومة ، رغم إعجازها البادى ، وليست كذلك الصورة الشعرية[10] ، إذ أنها تركيب غير متسق يتحرك فى أبعاد شروطها غير مستوفاة ، وبنيتها غير مدركة ، وهى تماثل (الأنموذج) الذى حددنا شروطه من قبل فى أنه لا يخضع لتوقعاتنا ، بل يتأبى عليها ، وكثيراً ما يقف نقيضاً لها .. فهى نسج وتأليف وإعادة تركيب لموزاييك الواقع المختلط غير المتجانس ..

الأشواك « قبضته من نثار أسلحة ، وجليد أيسلندى مقتحم .. » .

زمن واقف[11]

يتعامد فوق مدى الزمن الأفقى

وينأى عن المعدن المتدفق

فى الطرقات المضيئة

كيف يحسب وقت الرحيل

ت . س. إليوت



بعيداً عن الشمس واللحظات الدفيئة
زمن كالشتاء
وكان دجاج الطفولة ينقرنى فى الصباح الندى
على باحة فرشت بالبقايا
التى ذبلت من ثمار الفصول » .

بلاغة لفظية ؟ كلا .. إنها الصورة الغامضة الملتوية والمفتوحة الامكانات فى الوقت نفسه . العالم هنا ليس (النمط) أو الواقع المعاش الذى يجرى فيه الزمن جريانه المعتاد . انه عالم تجمد فى لحظة استعادة الذكرى ، وعاد فيه الشاعر إلى طفولته ، وسط مدينة باردة غير مألوفة . الزمن خامد لا يتحرك ، والحركة الوحيدة أفقية ، وهى لسيارات تجرى مسرعة فى الطرقات . ويصبح الرحيل إلى دفء الوطن هو الحلم الوحيد . والشاعر يقول « زمن كالشتاء » ولا يقول « إن الزمن هو الشتاء » معبراً بذلك عن الانتظار الطويل الممض حتى تحين ساعة الرحيل .

ولكن دجاج الطفولة الذى (ينقر) الشاعر فى الصباح الندى ، ليس صورة مبدعة ، كما أن لفظة « ينقر » ذاتها منفرة ، وتثير من التداعيات غير الجميلة ما لايستوجب وضعها هنا للمقارنة بين جمال الماضى ، وبؤس أو جمود الحاضر .. فالمفروض أن الشاعر يحلم بأفضل ما فى الوطن . ولا أعتقد أن (نقر) الدجاج له فى الصباح أو فى المساء يساعد على تهيئة مشاعر القارىء لقبول هذه المقارنة ..

ورغم أن هذا العالم السحرى تلونه تجربة الشاعر الخاصة ، إلا أنه مع ذلك مفتوح أمام المتذوق ، بصورة يتدخل فيها [الإمكان] ، وهو بضعة احتمالات تتفق مجملها مع المفهوم العام للقصيدة .

إذ لابد لتجربة الشاعر الخاصة أن تكون - على استغلاقها - مفتوحة ومتاحة أمام التعدد ، لا الاختلاف . والتعدد يعنى جملة من التجارب المتقاربة ، يوصل كل منها بطريقته الخاصة إلى ادراك مضمون تجربة الشاعر أو ما يقاربها . وقد تؤدى بعض الصور الغامضة إلى خلق انطباعات متباعدة ، ولكنها لا ينبغى أن تؤدى إلى تناقضات حادة بين متذوق وآخر ، وإلا كان العمل الشعرى مستغلقاً تماماً ، أو بعبارة أخرى رديئاً ..

والنمطية فى الشعر تعنى الاستسلام للواقعى والمبتذل والمعاد ، ويسقط فيها أحياناً كثير من كبار الشعراء ، لأسباب بعضها معروف ، ومعظمها لايمكن فهمه ، إلا أن يكون ذلك متصلاً بالغياب المؤقت لحس المراقبة الداخلى .

والنمطية نتاج عاطفة مهوسة وغامضة ، ووجدان مغلق أو تجربة لم تكتمل ، تظهر فى صورة شكل جامد مستعار مباشرة من حس خارجى متصنع ، أو مجموعة من الصيغ التى تستدعى إحداها وبصورة ميكانيكية ، صيغة أخرى متوقعة ، أو النقل الحرفى عن الواقع كما هو :

أنا عملاق هذى الأرض
لن أرضى لها غيرى
أنا جبار دجلتها
ورب فراتها السحرى
وذا البترول بترولى
وتبر مناجمى تبرى
أنا أقسمت
أن أرجع وكر النسر للنسر[١٢] ..

ومن (أبى تمام) مادحاً (أبا الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمى)[١٣]

غارت صدوع الفلايه فلقد
صح اديم الفضاء من جلبه
قد جلبته الجنوب فالدين والدنيا
وصافى الحياة من جلبه :

....

دع عنك هذا إذا انتقلت إلى المدح
وشب سهله فمقتضبه*

إنى لذو ميسم يلوح على
صعود هذا الكلام اوصبه

يتضح من المقطع الأول (لتوفيق زياد) ميكانيكية الصور والعبارات الخطابية المتبدلة والصيغ الواقعية المباشرة التى تحطم العالم الشعرى تحطيماً . لاجديد فيما يقول ، إنه المكرر المعاد المألوف .. مجرد كلمات صاخبة رصعت بقدر من الموسيقى وكأنها الشعر ، وهى لا تملك من الشعر ، أدنى مقوماته ..

أما المقطع الثانى (لأبى تمام) فنلاحظ غياب التجربة الشعرية ، وظهور التصنع والتكلف الشديد ، وهو آفة أخرى من آفات المدائح فى أشعارنا الكلاسيكية ..

المقطعان يدخلان فى إطار ما أسميته بالنمطية فى الشعر ، أى الاستسلام للصيغ الواقعية العادية ، حيث تستدعى الجملة جملة أخرى مماثلة ، فيسقط الشاعر فى أحابيل الصنعة الخارجية المتكلفة ، وحيث تدخل التعبيرات فى لغو الحديث المباشر والمرتجل والمبتذل .

ونلمس ذلك كثيراً فى قصائدنا الكلاسيكية التى تبدأ عادة بالغزل أو التشبيب أو الوقوف على الطلل ، وبعد عدة أبيات تطول أو تقصر ، ينتقل الشاعر فجأة إلى المديح ، فيسمى ممدوحه أو يكنيه ، وتسقط القصيدة فى مشكلات التصنع والتعمد .

ووسط هذا التكلف الكامل الذى يمارسه الشاعر أملاً فى جائزة أو طلبا لجارية ، تنجاب الغشاوة عنه فجأة ، ويلمع بيت أو بيتان يصبحان من عيون الشعر العربى ..

ويبدو أن الاستغراق فى صنع قصائد المدح ، يفجر أحياناً طاقات الإبداع والوجدان لدى الفنان المقتدر ، كالرسام يلعب بريشته لعباً ، وإذا بفكرة نيرة تسطع من بين هذا الركام المختلط من أنقاض من الألوان ، وتنبثق لوحة بديعة لم تكن متوقعة ..

انظر على سبيل المثال مديح (المتنبى) لمحمد بن سيار التميمى)[١٤] وهى من قصيدته التى تبدأ .

اقلُّ فعالى بَلْهَ اكثَرَهُ مَجْدُ
وذا الجِدُّ فيه نلتُ ام لم انل جدُّ

وتمضى القصيدة جميلة وبعيدة المرامى ، ومنها أبياتها الشهيرة

اذمّ إلى هذا الزمان اهيله
فأعلمهم فدم واحزمهم وغد
ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى
عدواً له ما من صداقته بد

ثم ينتقل (المتنبى) العظيم بعد عدة أبيات إلى غرضه

ويمنعنى ممن سوى ابن محمد
اياد له عندى تضيق بها عنُد

وتسقط هذه القصيدة بعد ذلك حطاماً ، فبقيتها مما هو معروف ومفهوم ومبتذل ، وكأن الشاعر يكتب فى الحقيقة قصيدتين ، إحداهما وهى المطلع دائماً ، تمثل مشاعره ووجدانه وتصل بعمله أحياناً إلى حد الاعجاز ، والثانية بادية التكلف والتصنع ، لأنها دخلت حسبما أزعم فى مجال النمطية .

الصورة (الانموذجية) تحطم النسق المألوف للحياة ، وتقيم أنساقاً أخرى غريبة أو غامضة أو موازية أو مناقضة للواقع ، ومن هذا التوازى أو التناقض تكتسب قيمتها الفنية وملامحها الابداعية ..

وكما زعمنا من قبل ، فالغموض والتوازى والتناقض لا ينبغى أن تعنى بالنسبة للفن جيد التوصيل استغلاق التجربة الشعرية أمام المتذوق أو تعاليها ، إنما تعنى لا تلاؤمها وحسب مع الواقع المعاش بصورته الحسية المباشرة ..

ولكن ، كيف يلج المتذوق هذا العالم الغامض للشاعر ؟ إن اللغة ، وهى الأداة التى يستخدمها الشاعر والمتذوق ، والعصر الذى يعيشه الاثنان وفق وسائل الاتصال المتعددة ، وأنماط الحديث والنكات والنشاطات العقلية والارتباط بكل مافى المجتمع من أحداث كالجرائم ومباريات كرة القدم وكاريكاتير الصحف والاعلانات المبوبة الخ الخ كل ذلك يقربّ إلى حد كبير بين تجربتى الرجلين العملية ـ داخل الواقع ـ ويسهل نقل تجربة الشاعر الفنية ـ وهى نتاج هذا الواقع إلى تجربة المتذوق الحساس الذى يعيش الواقع بوجدانه وعقله ولا شعوره ، وربما لهذا السبب ، أى لبعد العصر عنا ، مازلنا نستغرب أن يكون (الوقوف على الاطلال) أساساً من الأسس القليلة التى اعتمدت عليها مطالع معظم قصائدنا الكلاسيكية القديمة .

فنحن لا نعرف ولاندرك القيمة العميقة لمايمثله الوقوف على الطلل بالنسبة للشاعر أو المغنى الجاهلى ، كما نجهل تماماً آلاف الأسماء التى أطلقها على مختلف أجزاء وشعر البعير ، كشعر

الرقبة ، وشعر المنخرين ، وشعر الأذنين .. ولكل منها اسم كان معروفاً لدى الجاهلى شاعراً أو رجل قبيلة عادياً ..

وربما كان الفقر المعيشى المدقع والعزلة الصحراوية سبباً فى ابتكار عشرات المصطلحات لتسمية حيوانات الصحراء المألوفة كالأسد والذئب ، والأدوات المستخدمة فى الحروب والغزوات كالسيف والرمح الخ ..

هذا الامتزاج فى حياة المجتمع ، يخلق فى العادة لغة كودية CODE تبسط نقل المتعارف عليه ، حتى لو وضع فى صورة جديدة غير تقليدية ، وتسهل على الآخر ادراكه وفهمه ..

ولكل عصر لغته ومفاهيمه ورموزه واصطلاحاته ، وصوره ومباذله والهاماته ومكدراته ، ولعل هذه الخواص المشتركة بين أبناء العصر الواحد ، لعلها تكون من أبلغ صور التوصيل المباشر وغير المباشر بين الفنان والجمهور..

ولعل تعقد حياتنا المعاصرة ، ينسجم تمام الإنسجام مع تعقد وتطور وسائل الاتصال ، بحيث أدى التلازم بين التعقيدين إلى تسهيل التعامل بين الشاعر والمتذوق بلغة الصور الفنية ، غامضة كانت أو غير مألوفة ، وأقول (تسهيل) ولا أجرؤ على قول (توضيح) فبالرغم من هذه الأدوات المشتركة بين الرجلين ، تظل التجربة الشعرية الجيدة عصيّة على الادراك ، حتى يتمكن القارىء المزود بالمعرفة والاطلاع وحدة المشاعر من إختراق حدودها . ■

الهوامش

(١ ـ ٢ ـ ٣) ص ١٢٢ و١٢٣ و١٧٨ من (JACQUES MARITAIN) Creative intuition in Art and poetry Meridian Books 1955.

(٤ ـ ٥) من مبادىء النقد الأدبى (إ . ا . ريتشاردز) ترجمة وتقديم الدكتور مصطفى بدوى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . (ص ٣١٧ ـ ص ١٤)

(٦) يقول ريتشاردز (ص ١٦٢) المصدر السابق « .. إن الفروق بين التجارب العادية والتجارب التى تثيرها الاعمال الفنية ليست إلا حالات خاصة من الفرق العام بين التجارب التى تتألف من عدد محدود من الدوافع التى ينبغى تناسقها وتضافرها ، وبين تلك التجارب التى تتكون من عدد أكبر من هذه الدوافع .. »

والمعروف أن ريتشاردز يهتم أساسا بالتنظير ، وعندما يتحول إلى النقد التطبيقى ، يسقط فى أخطاء تحليلية جسيمة .

أنظر الدراسة المهمة التى قام بها (F. W. Bateson) « وظيفة النقد الراهنة » فى فصيلة Essays in Criticism العدد الثالث يناير ١٩٥٣ أوكسفورد . ومن اهم سقطاته محاولة تحديد شخصية (بيبيت Pipit) فى قصيدة إليوت الشهيرة (A cooking Egg) بأنها وصيفة الفنان القديمة ، رغم أن الأبيات اللاحقة تشير إلى فتاة غضة مغرمة بالرقص .

كذلك ملاحظات (ريتشاردز) فى كتابه (العلم والشعر) حول قصيدة (الأرض الخراب) لإليوت ، والتى وصفها بأنها تمثل «قطيعة كاملة بين قصائده ، وشتى أنواع الايمان » ..

(٧) ٧٧٠/٧٧١ Complete poems of keats and shelley the modern library New York.

(٨) أسرار البلاغة فى علم البيان ص ١٦/ ١٧

دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان

(٩) ص ٣٣٤/٥٩٢ تيدهيوز ـ روى كامبيل The Oxfor Book of twentieth centrury engush verse clarendon press oxford 1973.

(١٠) التشابيه صور ايضا ، ولكنها تبدأ دائما بـ (ك) أو مثل إلخ ، أما الصورة التى أعنيها فهى غالبا صورة عقلية لا ترد إلى مشبه به ، إنما إلى موقف أو تجربة .

(١١) ص ٩ ـ ١٠٨ كائنات مملكة الليل ـ أحمد عبد المعطى حجازى .

(١٢) ص ٤٥ قصيدة ١٤ تموز ديوان توفيق زياد

(١٣) ص ٥٤ ديوان أبى تمام دار الكتب العلميةّ .

(*) مقتضبة (المرتجل) .

(١٤) ص ٩١ الجزء الاول (شرح ديوان المتنبى) وصفه عبد الرحمن البرقوقى دار الكتاب العربى ـ بيروت لبنان

سيد البحراوى

مدرس الأدب العربى بكلية الآداب جامعة القاهرة ، ومؤلف كتاب « البحث عن لؤلؤة المستحيل » عن شعر أمل دنقل .

فنا لا تتحقق فنية الفن إلا بالتلقى . هذه مقولة نقدية قديمة ، أصبحت الآن مسلمة أولى فى بعض النظريات التى تعتبر القارىء هو مبدع العمل ، لأنه هو الذى يعيد إنتاجه حسبما يريد ويستطيع . ومع مبالغة هذه النظريات فى نفى الوجود الموضوعى للعمل الفنى ذاته هذا الوجود الذى يفرض على المتلقى أن يتلقاه ويكمله فى اتجاه بعينه ، أو على الأقل يصارع ميول المتلقى للسيطرة الكاملة عليه ، مع ذلك أقول إن هذه المسلمة شديدة الأهمية لأنها تنفى هيمنة بعض التيارات الفنية التى تتجاهل الجمهور والمتلقى تماماً . الذين يعملون على تحقيق التواصل مع الجمهور أيضاً يضعون نصب أعينهم جمهور الاقتناء وليس جمهور المشاهدين المستمتعين . وهكذا فإنه يبدو أن أزمة العزلة التى تعيشها الفنون التشكيلية تتجه نحو الحل ، فإنها فى العمق ـ تزداد رسوخاً واستقراراً بل وازدياداً ، مما يدفعنا إلى إعادة النظر إليها ، بفرض فهمها فهما أعمق ، فربما يكون هذا بداية لطريق آخر للحل . من منظور المتلقى العادى ، من أمثال كاتب السطور .

ينطلق هذا المنظور من أن فنون التشكيل هى أكثر الفنون حقاً فى الحياة

عزلة الفن التشكيلى

مقاربة تستهدف تبيان موقف المتلقى العادى للفنون التشكيلية من منظور يرى أن الفنون التشكيلية هى أكثر الفنون عالمية .

ظاهرتان مصريتان تبدوان من الخارج مبشرتين هى زيادة قاعات العرض ، وتخلى الفنانين عن بعض خصائص الغموض فى أعمالهم .

ولعل محبى الفنون الجميلة ـ فى مصر ـ يسعدون بازدياد ظاهرتين هامتين ، ترتبطان بعلاقة هذه الفنون بالجمهور . الأولى هى ازدياد عدد قاعات العرض خلال السنوات القليلة السابقة ـ والثانية هى تخلى عدد من كبار الفنانين عن بعض خصائص الغموض فى أعمالهم ، لكى يحدث تواصل أكبر مع المتلقين .

وقد كان يمكن للظاهرتين أن تكونا ـ بالفعل ـ مما يسعد محبى الفنون بصفة عامة ، لولا أنهما معاً يسيران نحو جمهور معين ، ليس هو الجمهور الذى يؤمل أن يتواصل حقاً مع الفن . ونقصد بهذا الجمهور ، جمهور القادرين على شراء الأعمال الفنية أو اقتنائها . فقاعات العرض الجديدة التى تنشأ ، ينشئها أفراد من محبى الفنون ـ دون شك ، ولكنهم يسيرون فى اتجاه التجارة . فهى أقرب الى قاعات البيع وليس العرض هدفها الأول . والفنانون

وفى الوصول إلى البشر ، لأن هذه الفنون تعتمد فى إدراكها . على أكثر الحواس البشرية نشاطاً وهى العين .

فالإنسان لا يستطيع أن يكف عينه عن العمل طالما كان فى حالة يقظة ، فى حين أنه يستطيع أن يكف لسانه أو يده أو أنفه أو سمعه عن العمل أحياناً ، أما العين فطالما أنها مفتوحة ، فلابد أنها ترى ، بل يمكن القول بأن هذه العين تعمل أيضاً فى بعض فترات النوم التى يحلم فيها الإنسان أو يتخيل وهو مغمض العينين ، فالخيالات ، والأحلام ، إنما تتراءى عبر صور ومبصرات باطنة ، سبق للعين أن اختزنتها أو تصورتها عبر الذاكرة ، الفردية أو الجماعية .

يمكن القول إذن ـ أن المبصرات ، هى أكثر ما يتعامل معه الإنسان فى حياته ، ومن هنا تأتى أهميتها ـ الصامتة ـ فى التأثير على الإنسان وأجهزته وملكاته . فإذا كانت هذه

المبصـرات فى المنـزل ، فى الملبس ، فى الشارع ، فى القريـة ، فى المدينـة ، فى الأرض فى السماء، حيثما وقع البصر ، مؤهلة لأن تساعد هذا الإنسان على أن يتلقـاها تلقيـاً جميـلاً ، أى إذا كـانت منسقة ومنظمة ومرتبة ، فإنها تسـاعد المشاهد ـ شأن كل عمل فنى ـ على أن ينسجـم داخليـاً وتتنـاسـق وتنتظـم ملكاته ، ويصبح أكثر فعـالية ونشـاطاً وقـدرة على الخلق والإبـداع ..أما إذا كانت فى حالة فوضى وقبح وشتات ـ كما هـو الحال لـدينا ـ تحـول التأثـير إلى النقيض ، واصبـح منطقيـاً أن تـعم الفـوضى ويسود الشتـات سلوك البشر وأفعـالهم وإنتـاجهم البشـرى بصفـة عامة .

ولا شـك أن العـين ليست مجـرد مشاهد ، أوراصد سلبى لما تبصره ، بل يمكن القـول أن العـين هى التى تخلق مـا تـود أن تـراه ، وهـذا هـو معنى الحضـارة البشريـة عامـة ، أى قدرة البشر على السيطرة على الطبيعة لإعادة تنظيمها وترتيبهـا بما يـرضى مصالـح البشر بما فيها احتيـاجاتهم الجمـالية والبصرية من بينها . وهذا يؤدى إلى أن تنظيم الفضاء أو الفراغ هو مسئوليـة الجماعة أو العين الجماعية غير أن هذه العين الجماعية ليست واحدة متوحدة .

فـــــى مصـــــر



فثمة أعين بعدد طبقات الشعب وفئاته وبيئاته المختلفـة ، بل وأحيـانـاً يصـل التعـدد إلى حد الأسر والأفـراد . ومع ذلك ، فإنه يمكن القول أن هنـاك عينـاً مسيطرة أو سائدة ، تفرض مـا تراه ـ قصـداً أو دون قصـد ـ عـلى الأعـين الأخرى

على هذا الأساس ، لا نستطيع إنكار مسئولية النظـام الاجتمـاعى [وليس السلطـة القائمـة فحسب] عن الفوضى السائدة فى فراغنا ، فى نظام الملابس ، فى نظام العمارة (داخل المبنى وخارجه) وفى نظام الشوارع والميادين فى العلاقة بين القرية والمدينة ، فى العلاقة بين العاصمة والأقاليم .. الخ الخ

إن الجذر العميق لهذا الخلل ، يكمن فى خلـل القيم التى تحكم الجمـاعـة البشرية فى وطننا ، وهى أزمة تاريخية ، ولكن تبلورها المعاصر يصل إلى الذروة التى لا أتصـور أنها حـدثت من قبـل (اللهم فى عصر المماليك !) . وجذر الخلل يكمن فى عدم القدرة على إنتاج نسق قيم نابع من واقعنا الحى والوقوع فريسـة شتـات بـين مـاض متحكم ونمـوذج مستقبـل نتطلع اليـه دون أن نستطيع تحقيقه ، وهو النموذج الأوربى كما هو معـروف ، وهـذا الخلـل يحكم القيم المهيمنة فى المؤسسات المختلفـة ، ومن بينهـا التعليم والإعـلام والمؤسسـات الدينية .. الخ .

إن المؤسسة التعليمية ، سـواء على المستوى الجامعى أو مـا قبله وسـواء التعليم العـام أو المتخصص ، لا تهمل فقط فى تعليم المواد الفنية ، وإنمـا هى عاجزة أساساً عن تقديم نسق من القيم التى تضمن لـلإنسـان إنسـانيتـه أى قـدرته عـلى الخلق والإبداع ، وتكـون النتيجة هى أنها تجعل من الإنسان خلقا مشـوهاً مشتتـاً قـابـلاً لأى نسق قيم

يفرض عليه حتى وإن كان مزيفاً ومعادياً . وهذا ما تقوم به أجهزة الإعلام ، وخاصة التلفزيون ، عبر انماط الترفيه والتسلية الاستهلاكية المقدمة فى المسلسلات الأجنبية الرديئة والاعلانات وغيرها من البرامج . وفى المقابل فإن المؤسسة الدينية ، وخاصة المسجد ، يقف معزولاً فى خطبه ومواعظه البعيدة عن حياة الناس ، بل والقامعة - هى الأخرى - لكل إبداع ولكل حرية .

إن خلل القيم المنعكس فى أداء هذه المؤسسات ليس منفصلاً فى الحقيقة - عن مصالح جماعات اجتماعية متحكمة ، تحكمها قيمة الثروة وتسعى إلى الحصول عليها أياً كان المصدر ، وأيا كانت الوسيلة ، والثروة هنا قيمة فردية ، فإذا تعارضت هذه القيمة الفردية مع المصالح الجماعية ، فإن الغلبة تكون لهذه القيمة الفردية لأن المسيطر هو الجماعات حاملة هذه القيمة . ولعل النمط العمرانى السائد هو خير مثال يوضح ذلك . فرغم وجود قوانين ومؤسسات لتنظيم المدن وتحقيق التناسق بين المبانى والارتفاعات والمساحات إلخ ، نجد المدينة مليئة بالتشوهات الناتجة عن مخالفة القوانين ، ولكن بمعرفة ورضا المسئولين عن تنفيذ هذه القوانين . وهذه التشوهات ناتجة عن اختلاط أنسق القيم (أو غيابها) التى تحكم كل فرد صاحب مشروع فى اختياره المعمارى ، بدءا من الأنماط الأوربية المختلفة ومروراً بالنمط الذى يسمونه بالإسلامى وانتهاء بالنمط الفرعونى . هذا طبعاً فيما يختص بقلب المدينة . أما حواشيها حيث العشش الخشبية والصفيح والمساكن العشوائية غير الآدمية سواء من الناحية النفعية أو الجمالية ، فحدث ولا حرج . ومن ثم ؛ فإننا نستطيع أن نتحدث - دون حرج - عن غياب الفائدتين النفعية ، والجمالية ، سواء فى قلب المدينة ، أو حواشيها ، لأن المبانى الأوربية العالية غير الملائمة للقيم الجمالية الأليفة بالنسبة للمواطنين المصريين ، أيضاً لا تنفع هؤلاء المصريين ، لأن أثمانها أعلى بكثير من قدرات الأغلبية الساحقة من المواطنين . ومن ثم فإن ثمة عدداً هائلاً من العمارات المكتملة منذ سنوات لا يسكنها أحد ، فى حين أن الملايين يبحثون عن جحر يأوون اليه دون جدوى منذ عقود لا سنوات . وفى مقابل النفع نجد المتحقق - إذن هو الضرر سواء من الناحيتين العملية أو الجمالية (وهما وظيفتان ينبغى أن يتحققا معا فى مثل تلك الفنون التطبيقية) بحيث نستطيع أن نخلص إلى أن كل ما تراه العين وكل ما يتعلمه العقل معادٍ للجمال ، بقدر ما هو معادٍ للإبداع والحرية .

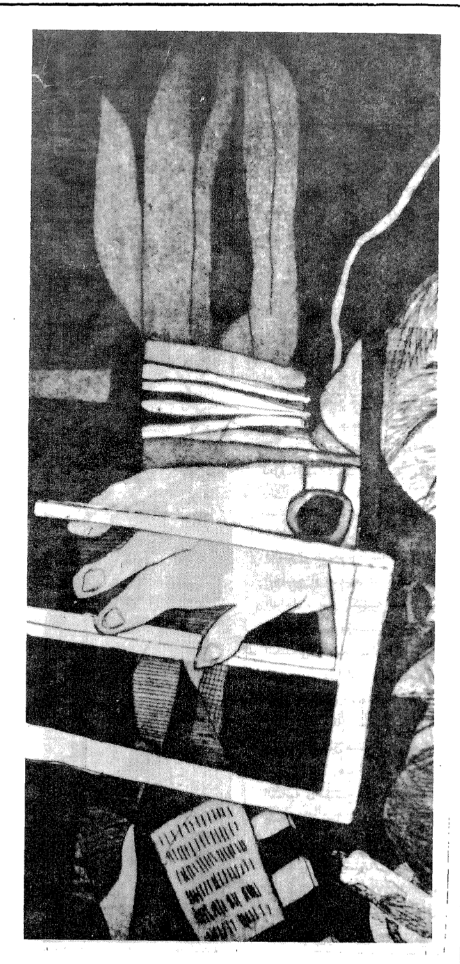
فإذا انتقلنا من هذا الميدان الواسع الذى ينبغى أن يعلم العين الجمال ، إلى الجمال المتحقق بالفعل فى فنوننا التشكيلية التصوير والرسم والنحت والحفر .. إلخ ، وجدنا أن هناك عدداً لا بأس به من فنانينا عبر العصور ، سواء القديمة أو الحديثة ، بعضهم - دون شك - فنانون كبار بكل المقاييس ، غير أنه نتيجة لما سبق رصده ، يمكن القول أنهم وأعمالهم مسجونون فى المتاحف والمعارض ، ولا تتاح لهم الفرصة لأن يقيموا علاقة حقيقية - مباشرة - مع المتلقين . فالمسافة الأوسع من الفراغ العمرانى خالية تماماً من الأعمال الفنية ، والمساحة الضيقة المشغولة بهذه الأعمال يخل تنظيمها بقيمها الجمالية ، إذا كانت أعمالاً جميلة فعلاً ، بالإضافة إلى أن الأعمال المعروضة بالفعل ليست - دون شك . هى أفضل الأعمال المتحققة بالفعل لدى فنانينا

وإذا كانت الفنون المختلفة والآداب التى تحقق مستوى حقيقياً من الإبداع تعانى حجراً واضحاً من قبل أجهزة النشر والإعلام والتعليم ، فإن الفنون التشكيلية هى أكثر الفنون معاناة ، حتى من الموسيقى . ولنا أن نبحث عن المسافة التى تعطى لهذه الفنون سواء فى التلفزيون أو الصحف أو الراديو أو فى المجلات المتخصصة أو غير المتخصصة . فلن نجد إلا أقل القليل - ولنا أن نبحث فى الوسائل التعليمية التى تقدم للتلاميذ - دون أى اهتمام فعلى - فلن نجد سوى كتاب ردىء الشكل محدود القيمة العلمية ، وبالطبع مدرسين محدودى الطاقة والإبداع .

لا يبقى - أمام الفن التشكيلى إذن - سوى السجن فى المتاحف والمعارض ، وهى - كما نعرف محدودة إلى أقصى درجة - ونحن نعرف أن النحت لا يعرض غالباً ، إلا فى المتاحف أو فى بعض الميادين أو بعض المبانى المحدودة ، وكذلك الحفر . أما التصوير والرسم ، فإنهما أفضل حظاً لأن هناك قاعات عرض يصل عددها فى القاهرة مثلاً - إلى حوالى ثلاثين قاعة . أما الأقاليم ، فإنها تخلو من القاعات المجهزة ، وإن كان فى كل قصر ثقافة إمكانية لتجهيز معرض أحياناً . غير أن زوار هذه القاعات محدودو العدد إلى أقصى درجة ، ومعظمهم من الفنانين أنفسهم ومن طلاب المعاهد والكليات الفنية . وليس من أفراد الشعب العاديين الذين لا يعرفون شيئا عن هذه المعارض ، بل وربما لو عرفوا لما اهتموا لأنهم لم يتعلموا ولم تربَّ أذواقهم الكامنة ضمناً فى وجدانهم لكى يبحثوا عن الفن ويستمتعوا به .

وهنا نعود إلى ما بدأنا به وهو أن قاعات العرض حينما تزايدت فى الفترة الأخيرة ، فقد تزايدت فى اتجاه قاعات البيع وليس قاعات العرض . مما يقلص الجمهور الذى يرتاد هذه المعارض . لأن الهدف ليس العرض ، فإن الدعاية والإعلان توجه لمن يمتلكون القدرة الشرائية للاقتناء . وإذا عرفنا أن متوسط ثمن بيع اللوحة مثلاً حوالى خمسمائة جنيه ، تحددت لدينا الفئة الاجتماعية القادرة على امتلاك اللوحة ، ومن ثم القادرة على امتلاك الحق الكامل فى تلقيها تلقياً حقيقياً عبر التأمل والتمعن والمعايشة وإعادة الإنتاج حقاً . أقول أن هذا هو التلقى الفعال فى مقابل المشاهدة العابرة التى يمارسها زائر المعرض .

غير أن هذا التلقى الحقيقى أو الفعال ـ كما أسميته ـ لا يتحقق لدى كل مقتن للأعمال الفنية ـ فنحن نعرف أن كثيراً من مقتنى هذه الأعمال ـ عندنا وفى كل مكان فى العالم ـ سواء كانوا أفراداً أو مؤسسات ، لا يقتنون هذه الأعمال لذاتها (أو لقيمتها الاستعمالية أو الجمالية) وإنما لقيمتها النفعية (التبادلية) كحلية أو زينة أو سلعة كالذهب مضمونة القيمة ، ويمكن الاتجار بها . وإذا كان أمثال هؤلاء من المقتنين من الطبقة الوسطى ، الأوربية ، يحملون من الوعى التجارى والجمالى . ما يجعلهم يقدرون الأعمال حق قدرها ، ويميزون بين الغث والثمين ، فإن أمثالهم لدينا من الضحالة بحيث لا يمتلكون هذه القدرة ، ومثالهم مقاولو العمارات التى سبق أن أشرت إليها . وهم لا يحملون القيم الجمالية التى تؤهلهم للحكم ، كما أنهم لا يحملون الوعى التجارى بعيد النظر الذى يجعلهم يراهنون على المستقبل . هم



يريدون أن يحققوا أقصى مكسب فى أسرع وقت ممكن . وإذا أضفنا إلى هؤلاء حاملى أموال البترول أصبح الوضع كارثة .

إن العلاقات الاجتماعية تقوم فى المجتمع الرأسمالى على قيمة التبادل التى تحكمها قيمة المال كوسيط بين البشر وبعضهم البعض ، وبين البشر والسلع . فصاحب المصنع يشترى ساعات عمل محددة من العامل ، مقابل مبلغ محدد من المال . وكلاهما يشترى سلعة ـ هو منتجها ـ مقابل مبلغ محدد أيضا من المال . ورغم أن قيمة التبادل أقل أصالة من قيمة الاستعمال التى تقوم على احترام الانسان نفسه أو السلعة نفسها ، لا قيمتها المالية ، فإن قيمة التبادل هذه أكثر أصالة بكثير من قيم الريعية التى تحكم العلاقات الاجتماعية لدينا الآن .

لقد أصبح معروفاً منذ فترة طويلة ـ أن المصادر الأساسية للدخل القومى المصرى ـ على سبيل المثال ـ هى جميعاً مصادر خارجية ولا تعتمد على الانتاج . وهى أربعة : قناة السويس ، السياحة ، البترول ، تحويلات العاملين فى الخارج . ومعنى أن الدخل القومى يعتمد على مصادر غير ناتجة من إنتاج قومى يحدد موقف الإنسان من هذا الدخل . ويحدد من إحساسه بملكيته له ، ومن ثم فى كيفية انفاقه له .

وللتوضيح نعطى مثال أستاذ الجامعة الذى يعار للعمل فى جامعة خليجية . هذا الأستاذ يقوم بعمل فى تلك الجامعة يساوى العمل الذى كان يقوم به فى جامعته ولكنه يتقاضى مقابل هذا العمل أضعاف أضعاف ما كان يتقضاه فى جامعته . صحيح أنه عانى من ظروف العمل هناك أكثر بكثير مما يعانى فى وطنه ، ولكن ساعات العمل



متساوية . ويترتب على هذا أن نظرته إلى مجهوده من ناحية ، وإلى داخله من ناحية أخرى سوف تختل ، وخاصة حين يعود إلى عمله الأصلى ليتقاضى (الملاليم) التى كان يتقاضاها قبل أن يسافر .

فى مثال الفن التشكيلى ، مثل هذا المواطن ، مؤهل لأن يشترى العمل الفنى ، مهما غلا ثمنه ، شريطة أن يكون ـ هذا العمل ـ قادراً على أن يلبى له احتياجاته ، التى هى باختصار الرغبة فى التباهى بما جمع من مال . وهو الأمر الذى سافر من أجله فى الأصل . ومثل هذا المواطن يمكن أن يفضل شراء لوحة مرتفعة الثمن ـ حتى لو لم تكن جميلة (إذا كان يمتلك ذوقاً) بدلاً من لوحة جميلة قليلة الثمن . ويا حبذا لو اجتمعت القيمتان معاً : الجمال والقيمة المادية المرتفعة مع أننا نعرف أنهما ليستا متلازمتين بأى حال دائماً .

إن هذا المثال ينطبق على حاملى الأموال الريعية ، سواء عاشوا فى الخليج أو جاءتهم هذه الأموال إلى الداخل ، عبر الكتابة فى الصحف أو العمل مع مؤسسات الاستثمار الخليجى أو غير الخليجى ، ومن هنا يصبح مثل هذا النوع من جمهور الفن التشكيلى (وغيره وخاصة المسرح حيث المثل أكثر زعيقاً) . جمهوراً يتزايد حجمه ودوره فى تشكيل عملية التلقى أو تزييفها بمعنى أدق . وهذا يردنا إلى النقطة الثانية فى مفتتح هذه المقالة ، التى أشارت إلى تخلى بعض كبار فنانينا عن قيمهم الفنية ، لكى يتلاءموا مع ذوق الجمهور . والمقصود ـ بالطبع هذا الجمهور الذى يملك الأموال الريعية ، والذى تتحول الأعمال فى منازلهم إلى مجرد ديكور يتساوى تماماً ، مع ملء

مكتبة الصالون بأغلفة الكتب المذهبة دون الكتب نفسها .

وهكذا نصل أخيراً إلى أن تلقى الفن التشكيلى فى مصر ، هو محدود إلى أقصى درجة ، وفى نطاق أفراد قلائل ؛ وليس فى فئة أو طبقة ، ومن ثم يصبح الفنان التشكيلى أكثر إحساساً بالعزلة وعدم التحقق وانعدام الدور . فلا شعبه يعرفه ، ولا الدولة تقدره ولا المقتنين يحترمون فنه وإبداعه . ومن حق هذا الفنان الحقيقى أن يشعر بهذا دون شك ، وهو شعور خطير يؤثر تلقائياً ، وبالتدريج على دافعية هذا الفنان للإبداع واستمراره فيه ، وهو تأثير سلبى يقلل من محصلة الإبداع التشكيلى فى الوطن ككل .

غير أن عزلة الفن التشكيلى ليست مسألة ضارة بالفنان فحسب ، وإنما هى ضارة بالوطن ذاته فى المقام الأول . لأن المواطن المحروم من حقه فى الإبصار الجميل لا يمكن أن يكون مواطناً صالحاً وسليماً . لأن هذا الحرمان يفقده القدرة على التناسق والاتساق كما سبق القول ، وهذا يؤثر سلباً على إنسانيته ومن ثم على انتاجيته إذا كان مطلوباً منه أن يكون منتجاً بالفعل (!)

وإذا كنا حتى الآن ـ نلقى مسئولية هذه العزلة على النظام الاجتماعى كبنية اقتصادية ومؤسسات ، فإننا لا نستطيع أن نخلى أطراف العملية الفنية ذاتها من المسئولية ، وأقصد المتلقى والمبدع وحتى العمل الفنى ذاته . غير أن هذه المسئولية ليست من قبيل الاتهام الأخلاقى ، وإنما هى مسئولية عميقة لأن هذه الأطراف ليست إلا عناصر مندمجة فى النظام الاجتماعى ذاته ، وليست خارجة عنه ، وإن حملت خصوصيتها :

إن المتلقى العادى ، وأقصد هنا كل مواطن يملك عيناً ويحق له أن يرى بها أشياء جميلة) يمتلك ذوقاً جمالياً متدنياً لا يؤهله للإستمتاع بمنتجات الفن الراقى وهولا شك يشعر بمشكلة إزاء هذا الوضع ، لأنه لا يعرف أن هناك شيئاً اسمه الفن الراقى يمكن أن يهتم به وبمشاهدته . ومثل هذا المواطن الذى وضعه النظام الاجتماعى هذا الموضع يمكن أن يصل به الأمر إلى حد معاداة الفن التشكيلى وكل فن ، لأنه متروك لنسق قيم متخلف «يحرِّم» هذا الفن كما يحرم كل إبداع . ومن ثم فإن هؤلاء المواطنين يمكن ، أن يتحولوا إلى رعاع وغوغاء كما نعرفهم فى أدبيات بعض الفنانين (الصفوائيين) ولكن فى ذات الوقت ، يستطيع المراقب الحصيف أن يدرك أن هؤلاء الرعاع يمتلكون فنونهم الشعبية ويستمتعون بها ويستفيدون منها . ويتجلى هذا فى مختلف مظاهر حياة المواطنين ، وخاصة القائين عن تأثير الإعلام والعاصمة . يتجلى فى الملابس والأوانى والمبانى وغيرها . وهم لا يكفون عن الإبداع الفعلى حتى تقمعهم القيم (الجديدة) التى يفرضها عليهم النظام الاجتماعى وتطوراته عبر أجهزة الإعلام .

إن معنى الرصد السابق ، هو أن ابتعاد المواطنين عن الفنون التشكيلية وغيرها من الفنون ، هو أمر مفروض على هؤلاء المواطنين من قبل النظام الاجتماعى ، الذى أتصور أن الفنانين التشكيليين أنفسهم (وغيرهم من الفنانين والمثقفين) جزء منه ، ويتحملون جزءا مباشراً من مسئولية هذا الوضع ، لأن معظم هؤلاء الفنانين يكرسون فى أعمالهم أنساق قيم بعيدة تماماً عن الأنساق التى يتبناها المواطنون ، ويطمحون إليها ، بما فيها نسق القيم الجمالى الذى يحدد الاحتياجات الجمالية فى الفنون المختلفة .. هذا الذى أسميه محتوى الشكل .

إن الفنون التشكيلية هى أكثر الفنون قدرة على تحقيق المحتوى القومى / الوطنى / الشعبى للأشكال الفنية . وكما سبق القول ، فإن مادة الفنون التشكيلية هى كل عناصر الحياة اليومية ، هى كل ما يبصره الإنسان فى حياته ويومه . ومن ثم فإن تنظيم هذه العناصر وترتيبها ترتيباً جميلاً لا يمكن أن يتم عبر رؤى متنامية مع الاحتياجات الحقيقية للمواطنين الذين يعيشون على هذه الأرض . وهذا معنى آخر للقول الذى سبق ذكره من أن العين هى التى تخلق ما تحب أن تراه ، إذا تركت وشأنها ، دون أن يفرض عليها شىء من الخارج . فكل جماعة بشرية تحمل عبر تاريخها وجغرافيتها وتطورها السيكولوجى والاجتماعى نسقاً من القيم الجمالية الذى تبثه فى مفردات حياتها وسلوكها ونشاطها عامة ، بما فى ذلك تنظيم الفراغ والمبصرات . ويفترض أن الفنان التشكيلى هو فرد من أفراد هذه الجماعة ، يساهم فى هذا التنظيم ، حاملاً ذات النسق الجمالى الذى تحمله جماعته . ويفترض أيضاً أن هذا الانتماء لا يفقد الفنان خصوصيته وإبداعيته ، لأن الفنان حينما ينتمى إلى جماعته ، فإنما ينتمى كفنان أى كمبدع ، وكرافض أيضا للخلل الذى تعيشه هذه الجماعة . ومن ثم فإن دوره الذى لابد له أن يقوم به ، لكى يحقق ذاته وخصوصيته ، هو أن يرفض جماعته أحياناً ، ويرفض الخلل والقبح فى هذه الجماعة دائما ، ويعمل على إخراجها من هذا الوضع إلى وضع

أفضل غير أن الفنان إذ يمارس هذا الدور الإصلاحى ، أو التغييرى ، فإنما يمارسه من خلال ذات القيم الجماعية التى يرفضها ، أى أنه يغيرها من داخلها ، ولا يفرض عليها قيماً من خارجها أو معادية لها . أى أن مهمة الفنان هى تطوير نسق قيم جماعته وقيادتها إلى الأرقى والأفضل والأكثر إنسانية .

هذا الوضع هو الوضع الطبيعى لكل فنان ولكل جماعة ، وإن كانت هناك ، بالطبع درجات من الاختلاف فى كيفية تحقيق كل فنان لانتمائه لجماعته أو انفصاله عنها . وهذا هو نفس الوضع الحادث فى مجتمعنا فى مختلف الفنون . غير أن خللاً عميقاً أصاب العلاقة بين الفنان وجماعته منذ بداية العصر الحديث جعل الفنان ينفصل عن جماعته الأصلية (الجمهور الواسع) ويسعى للانتماء إلى جماعة أخرى (الطبقة الوسطى) هى فى الحقيقة غير قادرة - حتى الآن - على أن تكوّن جماعة أو طبقة أصيلة أو متجانسة . والسبب فى هذا راجع الى طبيعة علاقة هذه الجماعة بالسلطة من ناحية وبالنموذج الحضارى الغربى من ناحية أخرى .

لقد نشأت فئات الطبقة الوسطى المصرية المختلفة (المتعلمون / ملاك الأراضى / العسكريون / التجار / الصناعيون - إلخ) فى أحضان سلطات مختلفة منذ عصر محمد على وأولاده وأحفاده وحتى الاحتلال الانجليزى . ومن ثم فإن ولاءها الأساسى كان لهذه السلطات ، رغم محاولات الخروج المتكررة المحبطة على هذا الولاء . وهذه السلطات جميعها كانت سلطات أجنبية . ولم تكن مشاريعها موجهة لمصالح الشعب ، وحتى حينما كانت ترفع الشعارات المناسبة لهذه المصالح ، فإنها كانت تمارس الإصلاح من أعلى وبمنظورها هى ، الذى لا يتصور الإصلاح أو التحديث إلا على النموذج الغربى . ومن هنا فإن ولاء الفئات الوسطى (بما فيها المتعلمون الذين أصبحوا فيما بعد - المثقفين) للسلطة قد قادها تلقائيا إلى تبنى النموذج الغربى فى الحياة بما فيها الفن وأنساق القيم الجمالية . ورغم استمرار القيم التقليدية فى دواخل أبناء هذه الفئات (لأنه لم تحدث انتقالة حقيقية عميقة فى وعيهم أو حياتهم) ، فإن الفنانين منهم قد توجهوا إلى النموذج الغربى ، محاولين التعلم منه وتقليده أومحاكاته ، مهملين واقعهم ، أو فى أفضل الحالات ، متصورين أن ما يقدمونه من نقل للنموذج الغربى ، هو التطوير الممكن لواقعهم ، دون أن يعرفوا ما إذا كان أى نقل لأى نموذج يمكن أن يفيد أى واقع ، وما إذا كان هذا المنقول مناسباً بالفعل لواقعهم ، لانهم لم يعرفوا واقعهم العميق بقدر ما تصوروا أنهم يعرفونه ويسعون لجلب الدواء له من الخارج .

إن هذا السلوك هو الوضع السائد فى مختلف فنوننا ، وربما فى مختلف مظاهر حياتنا ، وإن كان بدرجات مختلفة من القوة أوالفجاجة. غير أنه فى الفنون التشكيلية يكاد يكون واضحاً تماماً .

فرغم أن الحضارة المصرية القديمة هى صاحبة أعرق نحت فى التاريخ ، فإن اكتشاف هذه الحضارة حديثاً قد تم على أيدى الأوربيين ، بحيث أن معرفتنا بماضينا ، قد التبست بالتصورات والمفاهيم الأوربية الحديثة ، بما يعنى قدراً من التزييف لهذه الحضارة وما نعرفه عنها . ومن هنا ، فإن لجوء رواد النحت العظام فى بداية القرن لنموذج النحت الفرعونى ، مع أهميته كطريق للبحث عن محتوى قومى للشكل النحتى ؛ كان ملتبساً بما تعلموه فى أوربا عن هذا النحت

إن هذه المحاولة للبحث عن هوية مصرية أو محتوى مصرى للتشكيل الفنى قد تكررت بطرق مختلفة فى النحت وفى غيره من هذه الفنون ولكن المشكلة أن الذى كان يحكمها طوال الوقت هو النموذج الغربى ، لأن معظم فنانينا قد تعلموا الفن طبقا للمعيار الجمالى الأوروبى ، ومازالت كليات ومعاهد الفنون لدينا تقوم على نفس المعيار ، أو المعايير المتتابعة . ومن هنا سنجد أن تقليد المدارس الفنية الأوربية (أو حتى الموضات) هو الأمر السائد فى تاريخ فننا الحديث كله ، وأؤكد ، مع استثناءات قليلة .

يبدو مسار الحديث حتى الآن متجاهلاً لمقولة أن الفن إنسانى عام ، كما أنه يبدو معادياً للنموذج الغربى ، وهذا صحيح . فالفن إنسانى عام فى حالة قدرته على أن يصل إلى أغوار الإنسان وأعماقه وهولا يستطيع أن يحقق ذلك - كما هو معروف - دون أن يصل إلى خصوصية هذا الإنسان ، أى محليته وتناقضاته العميقة المرتبطة بزمانه ومكانه ، أى وطنه . ومن هنا ، فإن الفنان مطالب أن يعرف كيف يستطيع الفنانون الآخرون ، فى أى زمان وفى أى مكان ، أن يصلوا إلى هذه الأعماق والأغوار ، ولكنه لا يمكن أن ينقل هذه الأعماق إلى عمله ؛ لأنه لن يكون فى هذه الحالة - فناناً وإنما ناسخ أو مقلد ، على الفنان أن يعرف أولاً إنسانه بعمق ، لكى يستطيع أن يقدم

هذا الإنسان بنفس الدرجة من العمق ، وهنا تكون الخبرة البشرية ، فى أوربا أو فى أثينا أو فى مصر القديمة .. إلخ معيناً للفنـان كى يقدم تجـربته الخـاصـة ، لا مصدرا للتجربة أو أصلاً لهـا تنقل عنه . ومن هنا عدائى لأى نموذج آخر يحتذيه فنانونا لأنه ضد الفن أى الإبداع والخصوصية .

القضيـة ـإذن ـ هى أن فنانينـا لم يتوجهوا إلى إنساننا وإنمـا إلى نموذج الإنسان كما قدمته الحضارة الأوربية ، ومن ثم فـإن محتـوى شكلهم لم يكن يخصنا ، ولا يستطيع متلقينـا العادى أن يتواصل معـه . وتقديـرى أن هذا يساهم فى تكريس عزلة الفن التشكيلى ، كما أنه نتـاج لها أيضـا ،ذلك أنـه لو أتيحت كل الظروف لكى يلتقى الفنّـان بالمتلقى الحقيقى مباشرة ، فلربما كان إعـراض المتلقى عن فنه ، دافعـاً لهذا الفنان كى يعيد النظر فى توجهـاته وفى عمله ، ولكى يبحث عن طريق للتواصل مـع محتـوى شكـل المتلقى العـادى لا المتلقى المزيف . وهذا ما حاولت أن أمثله فى هذه المقالة . أن أنقل للمبدعين وجهة نظر متلقٍ عادٍ.■



فتحي عبد الله

شاعر مصري ومحرر في مجلة القاهرة .

اشكالية الشعر

تتبع لمحاولات الشعر العربي في مصر للانعتاق من آليات وبنى الشعر العربي القديم للوصول إلى قصيدة مصرية .

مقاربة لخريطة المشهد الشعري في مصر وعرض للإشكاليات العامة التي حكمت مساره حتى التسعينيات .

فنتيجة لانقطاع الذاكرة المصرية المتكرر بفعل الغزو الخارجي الذي استطاع في النهاية أن يحسم الصراع اللغوي لصالح اللغة العربية ، بوصفها تعبيراً عن منظومة حضارية في مستواها الأعلى ، أو بوصفها وسيطاً يؤثر في طريقة التفكير ، وكذلك في كيفية التعبير ــ نتيجة لهذا الانقطاع وقع المبدع والمفكر المصري في ثنائية خطيرة تفرض عليه أولا اختيار النموذج وهو في الغالب ليس مصريا . تحت ظن أنه دخيل على ثقافة لها قانونها الخاص ، ومن هنا تأخر دور الإبداع المصري ، أو خرجت مصر من دائرة المشاركة الابداعية في كافة المجالات،فعلى الصعيد السياسي ظلت مصر ولاية إسلامية تابعة للمراكز الحضارية في تلك التجربة كدمشق أو بغداد أو استطنبول حتى العصر الحديث وإن ظلت بناها الاجتماعية بعيدة نسبياً عن الدمج والذوبان ، ويرجع ذلك إلى خصيصة هامة وهي مركزية الدولة في مصر الزراعية والتي ينحصر دورها بشكل أساسي في المحافظة على مياه النيل وجمع الضرائب أيا كان شكل هذه الحكومة .

وتحت حس الاغتراب اللغوي والتهميش المستمر لكل عناصر المكان الخاصة ، بدأت آليات الدفاع تبحث عن شكل خاص يحقق لها بعض الوجود المادي أو تظاهراته اللامعة حينا ، والخافية في الكثير من الأحيان . بدأوا بالخرق اللغوي فكسروا ــ على مستوى الكلام أولا ــ مفهوم الجملة ومنطقها وسعوا إلى إنشاء لغة خاصة داخل اللغة العربية . وبمرور الوقت أصبحت اللغة العربية المصرية تشكل حضوراً جوهرياً في الابداع . وتوالى المبدعون العظيام . وكان ابن عروس والشعراء المبتذلون اجتماعيا ، الهجاؤون والساخرون أول من أحدث إنحرافاً جماليا له خاصية مصرية . مع ملاحظة أن مصر لم تقدم إبداعاً شعرياً أو فكرياً منذ الفتح الاسلامي حتى عصر التنوير . ومع كثرة التبريرات القديمة والحديثة التي يرددها المثقفون إلا أنهم لم يذكروا محنة المبدع لانفصاله عن تراثه وإدخاله في حضارة أخرى ولغة أخرى لم يتكيف معها إلا بعد سنوات طويلة ــ هذا على مستوى الفعل اليومي ــ أما الإبداع فقد احتاج إلى مراحل عدة .

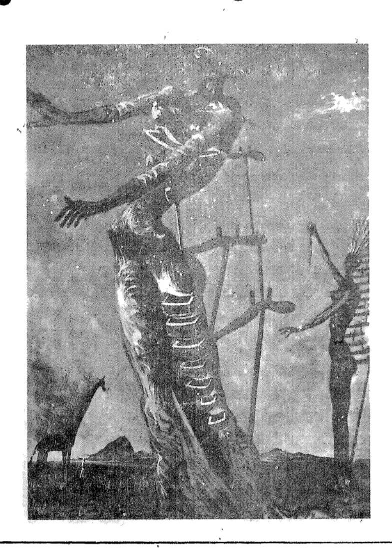
ومع بداية الاستقلال النسبي عن الخلافة العثمانية ، والرغبة في بناء مجتمع مدني تحكمه القوانين والتشريعات المدنية بدأت ملامح الابداع المصري في التكوين والنمو متأثرة في كل مراحلها بالابداعات العالمية ، ولكن في خصوصية شديدة لا غنى للإبداع الحقيقي عنها . وإن ظل مفهوم الشعر المكتوب باللغة الفصحى لدى المصريين تابعاً في معظم إنجازاتهم لآليات وبنى الشعر العربي حتى جاءت ثورة الشعر الرومانسي في مصر ، وقدَّم الشعراء قصيدة مصرية خالصة على مستوى إبداع الشعوب الأخرى بعد أن تخلصوا فيها من بناء البداوة ورؤيتها الخاصة للعالم ، وأسسوا بوعي أو بغير

وعى ، أول تجربة مصرية فى الشعر العربى . وتحولوا فيما بعد إلى مركز حضارى مؤثر داخل المنظومة العربية .

ورغم هذه التجربة الناجحة لم يتخلص الشعراء المصريون من الخجل والارتباك وظلوا بعيدين عن المغامرة غير المحسوبة .

قدموا شعراء كبارا فى قصيدة التفعيلة كصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى ومحمد عفيفى مطر . أما الهامش الجرىء وصاحب الاختبار التاريخى ومقياس الاضطراب الخلاق فظل باطنا ومختفيا ، فلم تظهر قصيدة النثر ــ كأداة اختبار للشعرية المصرية ــ كشكل فنى له حضوره الطاغى إلا فى تسعينيات هذا القرن . ربما تعكس هذه الاشكالية انفصال الشعراء المصريين وخاصة السبعينيين منهم عن الإرث الروحى لهذا الشعب واستجابتهم العدمية لاغواء اللغة ، وإن دخل بعضهم هذا الاختبار القاسى . فحلمى سالم رغم تميزه الشعرى وعدم وقوعه فريسة لتجارب الآخرين واجترائه لهذا الشكل فى وقت مبكر فى ديوانه [نثريات الصيف ذى الوطء] إلا أنه بقى متردداً بين أشكال شعرية كل منها ينفى الآخر ، وهذا التردد كان يُحسم دائما لصالح التقليدى فيه وتهميش هذا الانحياز القليل .

فــــــى مصــــــر



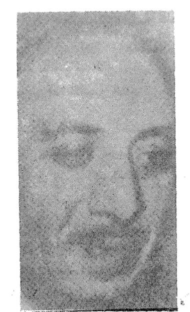
فتجاورت الألعاب الصوتية ذات الايقاع الصاخب والفارغة الدلالة تحت هواجس الاختلاف والتجاوز ، مع الاقتراب الحميم من اليومى ، إلا أنه ظل مولعاً بالتناقضات اللغوية ، ولم يلتفت إلى التناقض الجوهرى وغرائبية الواقع التى تصل إلى حدِّ العبث . ومن هنا ظلت التجربة دون تطور ومن غير عمق وأن كانت متعددة السياقات .

أما انحياز « رفعت سلام » لقصيدة النثر فى تجربة « إشراقات » فيثير كثيراً من التساؤل : أولا لأنها مكتوبة بقوانين ورؤية قصيدة التفعيلة ، وعليك أن تكشف العلاقة بين هذه التجربة وتجربة محمد عفيفى مطر فى ديوان « النهريليس الاقنعة » كلاهما يعتمد على مزج السياسى المباشر مع الاشراقات والتطوحات الصوفية أما بناء هذا الديوان وهيكلته فهو قديم قدم تجربة (ورقة البهاء) لمحمد بنيس .

ثانيا : سيطرة المجاز التفعيلى وسطوته فى بناء الجملة والخيارات اللغوية والتى أصبحت جاهزة مئة فى المئة مهما كانت قدرة الشاعر التخيلية

لهذين السببين لا نرى أن تجربة (إشراقات) ضمن سياق قصيدة النثر .

بقيت بعض الأصوات من هذا الجيل يمكن الرهان عليها فى تأسيس قصيدة نثر مصرية منهم محمد صالح بقلقه الزائد وشفافيته اللغوية المكثفة للحظات شعرية غاية فى الأصالة والارتباط الروحى بهذا المكان . وأحمد طه



صلاح عبد الصبور

بتجربته البسيطة وخياله المدنى المتحضر وعكوفه الدائم على سيرته الذاتية متمثلة فى تاريخ فكرته ورموزها الفاعلة إلا أن هذه التجربة أخذت تتكرر بشكل دائم معلنة عن تحبويتها ومثاقفتها المستمرة ، وهذا أخطر ما يهدد هذه التجربة النابضة .

أما تجربة محمد عيد فواقعة فى تناقض حادٍ وملموسٍ فهى فى بعض القصائد متعمدة (مصنوعة) خالية من الالتزام الانسانى،فالمفردات والجمل كأنها قطع رمزية لا تشير إلى شىء ، إلا إلى وجودها الخاص ، وهو مفصول عن أى سياق ثقافى أو اجتماعى يعطيه بعض الدلائل .

وفى القليل من القصائد تشى بنعومة فاضحة لم يستطع محمد عيد تتبعها واستقصاء حالاتها النادرة . ويظل الرهان على هذا الهش والبسيط والمخجل

فى أحيان كثيرة دون اللجوء إلى الصناعة التى تفقد الشعر شعريته .

ويصل الاشكال إلى ذروته ، حيث تتوالى الهزات السياسية العنيفة وتتداخل الهياكل الاجتماعية بشكل عشوائى مما أثار ريبة المبدعين والمفكرين فى مصر . الشعراء الثمانينيون بوجه خاص تخلصوا من عقدة الأيديولوجيا بأشكالها المتعددة بين ماركسية حالمة وقومية مشكوك فيها لا بفعل الثقافة والاختبار ، ولكن بفعل عدم الاحتياج . فهم لم يشاركوا فى الفعل السياسى المباشر ولا انضموا إلى تنظيمات سياسية .

هم إذن أبناء شرعيون لهذا الخراب تلمس فى بعضهم انحيازاً عاماً لكل ما هو إنسانى (والمقصود هنا غربى) وأغلب هؤلاء متأثرون بالشعر الغربى ونماذجه المترجمة وخاصة الشعر الفرنسى . وبعضهم متأثر أو مقلد لآليات الثقافة الغربية الحديثة ونقل معضلاتها الخاصة إلى الثقافة المصرية وربما ينحصر دور هؤلاء فى تنشيط المتن الشعرى فى مصر . دون التأسيس أو المشاركة . وربما يكونون من أصحاب الفعل الحقيقى .

وبقى فى مصر تيار ضعيف الحضور وغير ممثل فى المؤسسات الثقافية سواء الرسمية منها أو غير الرسمية .

هذا التيار يحتفى بالمخيلة المصرية بدءاً من النص الفرعونى ومروراً بكافة الثقافات الغازية محاولا تنقية هذه الإشارات والإيماءات الغامضة وتكثيفها فى لحظة آنية بحثا عن قصيدة نثر لا نتورع أن نسميها قصيدة نثر زراعية أو قصيدة نثر مصرية ، هكذا يبدو المشهد الشعرى فى مصر بكل اشكالاته ، والأمر مطروح للنقاش . ■



بدر شاكر السياب



محمد بنيس

أدونيس

الإيقاعات والرؤى



بورتريه نهائى لأنور كامل

أحمد طه

● أنور كامل يوسع منفاه :

ثلاثون عاماً
كنت وحيداً فى منفاك
ونحن نحبو
ونصيح
ونلبس الكاكى
وكنت تعلم
أن طريقنا يمر من هنا
فكنت توسع منفاك
تبنى بين ضريحك والعسكر حصناً
من أسماء
فهذا جورج حنين
يخرج من تحت إبطيه الخرائط
ليختار أين يولد
واين يضيع
وهذا تروتسكى
منحنياً على الكتاب
يشير إلى أوجاع القلب
وهذا رمسيس يونان
يرسم بلدة من الوهم والأحلام
ويغيب فى دروبها
وهذا بشير السباعى
يكتب اعتذاراً رومانتيكياً
لتخلفه عن الموت فى ١٨٤٨
وهذا أحمد طه
يقيم حوله الشراك والحفر
مطارداً طفولته
التى هربت منه
وهذه قاهرتك
ليس هناك حرف يمكنه اختراقها
ليشى بشوارعها التى ترقد فى أركانها الأزمنة
كعجائز مشردين
وتتحاور فيها الآلهة
كندماء فى مقهى
وهذه شبرا
جسد يمتد كمقبرة
تسع الجميع
ولا تتسع لأحد
تخجل من اهتراء صدرها
فتنحنى
يتساقط الموتى



أنور كامل
واحد من المثقفين البارزين ، له عدة مؤلفات ، كان عضواً بارزاً فى جماعتى « الخبز والحرية » و« الفن والحرية » ورئيس تحرير مجلة « التطور » ، توفى فى ١٩٩١/١٠/٧

والجياع

والأطفال

ولا بسات السواد

كما يتساقط اللبن الدافىء

وتبقى جيوش الأمن المركزى

وعربات الترام الخاوية

وجبَّانة القطارات على طرفها العلوى

ويبقى

عيال بلون التراب

رجال تهمهم فى الليل

تصرخ فى النهار

نسوة يبكين — كما يضحكن .

تحت أزواجهن

وخلف نعوشهم

نسوة ينتفخن بأنفاس الرجال اللاهثة

فتسعى تحت جلابيبهن العيال

حكـــــاية

كنت تحكى عن موتك الأول

مغرقاً فى الضحك

« كنت ميتاً محترفاً

لكنى كدت أقهقه حين رأيت الكاكيين

كانوا يبكون بحرقة أم ثكلى

فقد أفلت التلمسانى

وجورج حنين

ورمسيس يونان

وأنا الآن آخر الناجين

ثلاثون عاماً

كنت أردد موعظتى

كيلا أنساها

أتسلق أسوار هليوبوليس

فأراكم تقتتلون وحولكم العسكر والاعراب

يرمون إليكم بقصاع الأصوات الموزونة

بينما يتبادلون الطلقات

كأوراق اللعب

كالعناق

كالمضاجعة

لا دم يسيل

ولا عروق تنتفض

ولا جنين يتكون » .

● أنور كامل يموت موتاً ربَّانيًّاً :

دائماً

كنت أراك ملقىً فى الطريق

وحولك تتزاحم الرصاصات
كأسراب الذباب
بينما معطفك الرمادى مفتوح
على مصراعيه
وبجانبك ذلك الطائر الداكن
العارى من الريش
الذى كان منذ لحظات حقيبتك الجلدية
قبل انتزاع أوراقها
لكنك مت ميتة عادية
تشبه هروبك الأخير
تشبه ذلك الموت الكريه
الموت القاهرى
الحجازى
النجدى
الدمشقى
جوعاً
وتخمة
وضحكاً
وكآبة
ذلك الموت المعبأ
الذى انتهت صلاحيته
ولم يعد يجلب سوى
القىء
والصداع
ذلك الموت الذى تهزمه
أقراص الاسبرين
وحبيبات الفاليوم
ولابد تشعر بالغيرة من موتنا السريالى
القادم من الصحراء
راكباً ناقته المموهة
وفى خُرْجه صواريخه الالكترونية
وفى المسافة بين رأسه وأصابعه
قصعة الثريد الباقى
من عشاء الأمس

● أنور كامل لا يقيم وطناً فى حقيبته :

ثلاثون عاماً
كنت وحيداً فى منفاك
وكنت تفكر « أين تنام القاهرة الأولى ،
وكيف امتدت تلك الثكنات
فطالت نافذتى »
وكنت تفكر « كيف يكون لجورج حنين الضائع



وطن
يتأبطه فى النزهات
ويجالسه فى المقهى
وقد يتحسس أعضاءه بعد الكأس
الثانى »
أما انت
فالوطن الجالس بجوارك لا يعرف
اسمك
حتى بعد الكأس العاشر..
قد يتمطى
وقد تدعك عينيك قليلاً
ثم يعاود رحلته اليومية
وتعاود رحلتك اليومية .
ليكن
ليس لك إلا هذا الصدر الخالى من الحلمات
بعد أن رحل الرفاق إلى الأبد
كفراشات هائمة
حيث تنمو الحلمات كالحشائش
على طاولات المقاهى
فى انتظار الشفاه الجافة
للنازحين من الشرق
ليكن
سوف تسلمهم جسدك
بغير أثر يشير إلى احتراف الموت
لثلاثين عاماً
فليدفنوه فى مقابر يوليو
ولتعد كما كنت
روحاً تهيم
فى أطلال هليوبوليس

● رقصة أخيرة مع أنور كامل :

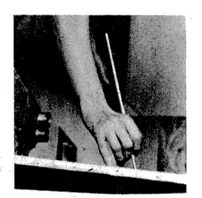
وكالعادة
سوف أختلف معك قليلاً
فيمن يجب أن يموت أولاً
ماركس
أم زوج المرأة التى أضاجعها
الجنرال الذى يلبس الكاكى
أم الجنرال الذى يلبس الجينز
لكننا قبل آخر الليل
سوف نتفق على أن يموت الجميع
وسوف نتفق على ترتيب كل شىء
عندما يتسع الوقت
فى المساء التالى
لرحيلك النهائى

حكـــــــاية :

« لكنك إذا أجلت موتك لأيام ، وعبرت
المتوسط ، فلا تتوقف إلا بعد عبور تلك القارة العاهرة ،
لا تقل إن هناك بعض الصحاب ورفاق الطريق ، فكلهم
ماتوا أو قتلوا ، واعلم انك ستعانى الكثير حتى تعبر
ذلك البحر المحيط ، وحينئذ سترى البنت البكر لتلك
العاهرة ، ستسألها وستعلم أنها بجانب انشغالها
بمستحضرات التجميل ، وأرخص الوسائل للوصول
إلى الأورجازم ، مشغولة أيضاً بالبحث عن
آبائها المجهولين ، لا تتورط بإعلان اشمئزازك
لأول وهلة ، لأنك لن تسلم من ألسنة وأيدى .
وطلقات عشقاها الذين يتزايدون كلما عجزت
الكيمياء أمام تعرجات الأم الشمطاء ،
والتى أصبحت كطريق جبلى عبرتها جحافل
مذعورة من الأيائل .

فإذا ما تجولت فى المستوطنة التى
أجاورها ، فسوف تدهشك تلك الديدان
السمينة الشرهة ، والتى لا تفتقد الرشاقة ،
فهى تزحف بأسرع مما تعدو الصراصير ، وهى
لا تصدم ببعضها رغم سمنتها ، بل وتتسلق تلك
الناطحات بأسرع مما تتسلقها فئراننا النحيلة ،

•



ستشعر مثلى بقيمة الحذاء العسكرى ، لا تبتئس ..
فإن حذاءك ذا اللونين سوف يستمتع أيضاً
بالتزحلق على أجسادهم المهروسة ، وسوف
تتماسك أيدينا كراقصين فى ساحة جليدية ،
يالها من متعة وأنت تنظر خلفك فترى الاسفلت
وقد فقد لونه ، ويالها من لذة ، عندما تلمح رأساً
يحاول الفكاك وقد ملأ جسده المسحوق نتوءات الشارع الاسفلتى .

من السذاجة أن تشعر بالذنب
كل ما يمكنك عمله ألّا تسمح بتكرار هذا ،
ولن يكلفك الامر سوى استبدال ذلك الحذاء ،
الرقيق الذى لم يعد له سوى لون واحد .
لا هو بالابيض ، ولا هو بالبنى
لابد من حذاء غليظ وقاس
لايعرف حضارة الشعر والموسيقى
ولا رقصة الفالس فى نهاية العام
يصل المحيطين بذلك العجين اللزج
وتلك الحشرجات القصيرة
والانتفاضات الواهنة
التى تسبق
أورجازم الفناء » .

● أنور كامل يحتفل بالرابع عشر من يوليو :

لا تقل إن الهزائم لوّنتنى بذلك اللون

الواحد

الذى لا يبين فى الظلام

ذلك هو لونى منذ البداية

كما هو لونك الآن

سمّه ما شئت

لكنك لا تملك الآن سواه

فليس هناك نصف موت

تموته

وليس هناك نصف لون

أعيشه

لذا

فسوف أبقى إرهابياً كما خُلقت

أحشو رأسى بأولئك الأطفال المحتضرين

ذوى البطون المنتفخة

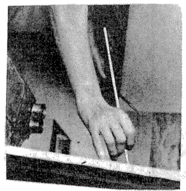
وأتربص بتلك الديدان الشقراء

كعنكبوت متخم

لن أمتص دماءهم اللزجة

سأرتبهم فى دفاترى العتيقة

وفى صدر كل منهم رمح غائر ●

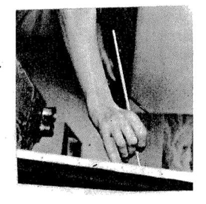


سأعيد قرونهم التى وضعوها فى أروقة المتاحف
وعيونهم التى ألصقت برؤوس الأسماك
وربما رقصت حول جثثهم المصطفة
بغير توابيت لامعة
وربما حشوت ضلوعهم بكلماتى
التى لا تعرف روسو ولا فولتير
ولا تحفل بالرابع عشر من يوليو
ولا تشبه تلك الكلمات الثلاث
التى تتساقط من صفحات الكتب
كأجنة فى شهرها الثالث
وتتعلق بمؤخرات المدافع
كصئبان العامة
لكننى أحتفل كل لحظة بذلك النصل اللامع
الذى يهوى كإله منقض
ليضع رؤوس الملوك والعاهرات ومنشدى
الشعر والمثقفين الثوريين والجنرالات والنساء
الجميلات ورجال الله
فى سلة واحدة
ليتنى كنت هناك
إذن ، لزاحمت أولئك النسوة اللواتى يقشرن
الخضراوات
وجلست خلف السلة مباشرة

أبلل ريشتى بذلك الدم الطازج
واكتب كل يوم قصيدة حب
فى رأس حبيبتى .

● كيف سألت الآلهة عن ضريح أنور كامل :

ولا بد من عالم داكن
تتعثر فيه الآلهة التى صنعته
وهى تبحث فى حطام المدن الدارسة
عن أثر واحد
يعود إلى الماضى
سوف أقودهم كالعميان بين الخرائب
التى تعرفها قدماى
مشيراً إلى ما تبقى
من الفولاذ
والبلاستيك
والأعضاء الجنسية المعلبة
وسأكذب عليهم ما استطعت
كما يفعل المرشدون السياحيون
للعجائز الباحثين عن الخلود
سأشير إلى جمجمة باريس وأقول :
هنا ولد أنور كامل



وإلى رأس لندن المغطى بالشعر الرمادى :

هنا انحشرت رؤوس ثورات العالم الثالث الوطنية

وإلى مؤخرة واشنطن :

هنا أصبح ضباط العالم الثالث زعماء

وإلى ثدى موسكو الذى ينز اللبن الحامض :

وهنا تحول الزعماء إلى فلاسفة

وحين يهمون بالعودة إلى سماواتهم البعيدة

وهم يحملون آثارهم المزيفة

سيسألنى كبيرهم بصوته الوقور :

ماذا تريد أيها العبد الحى ؟

سأركع تحت ركبتيه

وأنا أكتم قهقهاتى

وأرتل بصوت خاشع :

المزيد من المدن العامرة

المزيد من الـ تى . إن . تى

والمزيد من القاليوم .

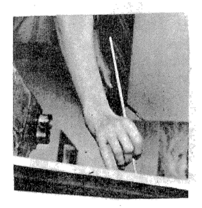
● حكاية لأنور كامل قبل الموت :

وفى ذلك المساء الخريفى

وقبل أن يأخذك الموت

كنت انحنى جوارك

مثل جدة عجوز
وأنا أمرر أصابعى المليئة بالخواتم القديمة
والمدهونة بالحناء
بين رأسك وأذنيك
كنت أحكى لك تلك الحكاية التى لم تنته
ابداً
وأنت تسمع مبهور الانفاس
وقد تلاشت غرغرات الموت ، بعد أن
هششت ذلك الملاك العنيد مثل
قط جائع :
وفى تلك الرحلة
سوف أصحب معى شبرا
أينما ذهبت
لن أخجل من غطاء رأسها الأسود
ولا أقدامها المتورمة
سأحمل عنها صرتها المليئة بالعيال
ولابسات السواد
وكلما رأيت عاشقين قذفتهما بصرخة
من صغارها
وكلما لمحت ابتسامة أخمدتها بآهة من لابسات السواد
وكارهابى عريق
ودون أن ترتعش أصابعى



سأزرع ما تبقى من اليأس والخراب
فى الحدائق
والميادين
والشوارع الضاحكة
وحين يلمحوننى
سأبتسم لهم كراهب طيب
وأنا أدارى بيرقى الذى تنبعث منه
رائحة الموت والعيال
وفى اللحظة الحاسمة
سأرفعه صائحاً صيحة الحرب
وسأجرى من مدينة لمدينة
وخلفى ذلك الجيش الذى خبأته
فى صدرى طويلاً
لا شجر حى
ولا قطط تلعق أصابعها
ولا كلاب تهز ذيولها
ولا بشر يسمعون الموسيقى
ولا رهبان يبشرون بالخراب
لابد من هدوء شامل
بعد فناء الجميع
ونوم عميق على الأراجيح المربوطة فى أعناقهم
المجدولة من أحشاء أولئك الأطفال

الذين لم يعرفوا قتال الشوارع

ولا الموت فى الطرقات

ولا الرقاد بين الأرجل

وفى الغروب التالى

سوف نهز أجسادنا برتابة

ونحن ندخن الكليوباترا ، فوق مقاعدنا

الطرية (ذات اللون البرونزى الذى

يخترقه مثلث من الوردى الباهت)

التى كانت من قبل مؤخرات تلك النساء

اللواتى لم تعرف خدودهن الاتكاء

على الكفوف ، بعد أن ينام الصغار

متشابكى الاذرع والسيقان

كلغز غير قابل للحل ،

● أنور كامل لاينوى أن يكون قديساً

والآن

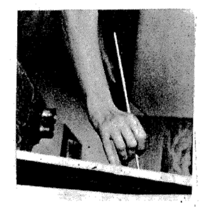
ها هم الرفاق

الديسمبريون

والاكتوبريون

والكتبة الرومانتيكيون القتلة

يوحدون موتهم



ويجثيون

بنفس وجوههم التى تتدلى منها اللحى المشعثة

والغلايين المشتعلة

فيملأون الأرض بالبصاق

والهواء بالسعال

والسماء بشىء داكن

يشبه الدخان

وبين زفيرهم المتقطع

تنبعث أصواتهم الدامعة

وهم يرتلون كتب الاسلاف

الذين لبوا نداء الرب

فسالت دماؤهم على أبواب بيته

وهم يحتضنون صلبانهم

ذات الرؤوس المدببة

وأنت لا تعود

وهاهم الرفاق

يرفعون البيارق البيضاء

ذات الخطوط المدماة

وبثور الجدرى التى تشبه النجوم

وينشدون سفر الجامعة

وانت لا تعود

وها هم الرفاق

تهتزّ أقدامهم برتابة

وهم يصلون إلى الخروج

فتهدأ موسيقى الجاز

وتبدأ المزامير

حينئذ

تتحرر أجسادهم من جليد ديسمبر

ويبدأون العهد الجديد

بأقدام تتطاير فى الهواء

ولحى تتلامس فى نشوة

وتأوهات تكاد تعلو ضجيج

الروك

أمام مشهد الفداء .

وأنت لا تعود

ربما تكتب الورقة الأخيرة

بادئاً بالتحية

منتهياً بالاعتذار

ليس لاحتراف الموت لثلاثين عاماً

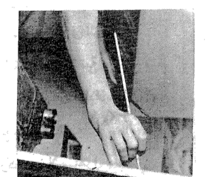
وليس للهروب من زمن العسكر والاعراب

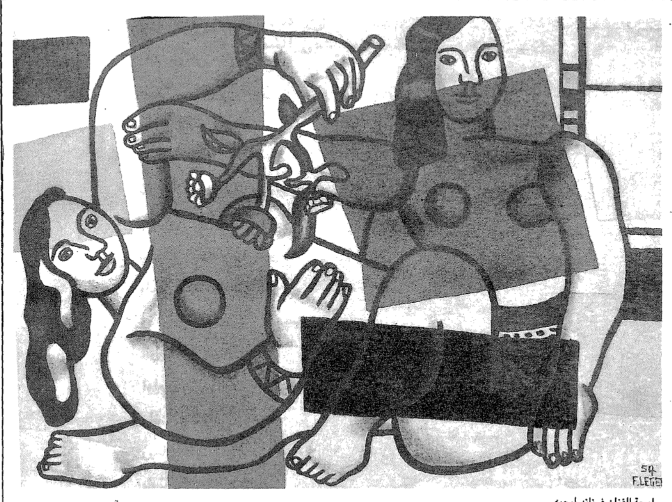
ولا للرحيل مع الطيور فى الخريف

ولكن

لانك لن تعود مثلها

فى الربيع القادم■





لوحة للفنان فرناند ليجيه

١ ــ العتبة

ذهب هذه الكأس

لكن ما ظل من خمرتى لا يليق بها

خمرتى لا تليق بكأسى

أحطمها

وأريق دمى للرمال الجديدة

فى ظلال النخيل البعيدة

خلف نار الذين

يكنزون عذاب الشعوب وحزن

العرب

ودم المؤمنين

والذهب

خمرتى لا تليق بكأسى

أحطمها

وبموتى المهين

أسم الكانزين

بمكاوى الغضب

أنذا ناذر جسدى للهب ..

أنذا تابع طفلة ثانية

تحت نخلتها تلد البادية

تابع لحظة من نعاس

ادركت رجلا ساهرا

شبحا من رخام وماس

ادركته فمات

أنذا صيحة من رفات :

بيننا لن يرف جناحا ملاك

فاحتجب .. سأراك

واحتجب .. سأراك

لمحة من هنا ومضة من هناك

بيننا لن يطول السبات

سأراك أراك أراك

أنت تبصرنى

وأنا الآن لا أبصرك

لن تضاهينى

أنا يا سيدى أقهرك

الربذى*

«سميح القاسم»

كتاب الوداع

وهو ثانى سبعة ، أولها « كتاب المنفى » وثالثها « كتاب البرج الثالث عشر » .

سميح القاسم



* تسمية اطلقها سميح القاسم على الصحابى ابى ذر الغفارى الذى اختار المنفى فى موقع الرُبَذة الصحراوى حين وصلت الخلافات بينه وبين السلطة ممثلة فى الخليفة عثمان بن عفان درجة لا مخرج منها ومكث فى الرَّبذة حتى مات . وكان ابو ذر من احب الصحابيين إلى الرسول (ص) وقد قال فيه « ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء أصدق من أبى ذرّ » وخاطبه ذات يوم: « يا أبا ذر ، تمشى وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك » .

وأنا أبصرك
واحدا لا أحد
غير ضيف ثقيل يسمى الأبد .
وهنا رائع شجر الليل لكننى خائف
خائف أن يعود النهار
لأرى شجرا يابسا عابسا
لا طيور وما من ثمار
والقميص الذى أرتديه
يتباهى علىَّ
ولكننى لست فيه
وهنا ، لم تمل لترى أصلها
السنبلة

رأسها فارغ
وهنا أصلها فارغ لم يمل رأسها
ليرى التربة المهملة
وهنا تتعرى السماء
يشتهيها الجديد القديم
ويصير السديم
مولد الأنبياء ...
وهنا ، خمرتى لا تليق بكأسى
أحطمها
ويسير النبى الرجيم
ظهره للنجوم
وعلى وجهه قمر من رماد الجحيم

ويسير القتيل
خطوة خطوة
ويغيب الرسول
فى خبايا الفصول
حاملا سره المستحيل ..
وهنا .. ههنا المفترق
خطوة .. للردى
خطوة .. للقلق
وهنا أيها الغائبون
تبلغون المدى
وهنا تدركون
أنه كان لا مثلما تشتهون

كتاب الوداع

كان

كى لا يكون ..

٢ ــ السبيل

وداعا ..

انا ذاهب فى اجازة

فلا تؤنسوا وحشتى أيها الفقهاء

البهائم

لا تقتلونى

بشبه البروق والرعود وشبه

الأغانى

المراثى

أنا فى إجازة

فلا تقربونى

ولا تلمسونى

اقركما تشتهون بأن وفاتى مكافأة

للضريح

الجميل

ولكننى لا اقر طقوس الجنازة

أنا انتفى

ولا أختفى

ولا أكتفى بالقليل القليل

وأرفض كل الطقوس المجازة

سمعت الفتاوى .. وآمين .. آمين

فاستمتعوا يا لصوص المآتم

وافرنقعوا

إننى فى إجازة ..

ولا . ليس لى أن أعيد الحساب

القديم

أصابع كفى تخدعنى فى الحساب

وها هيذى سقطت أصبعا أصبعا

فى أسيد العذاب

ولا . ليس لى أن أعيد الحساب ..

وفى شظف الموت بحبوحة للتمنى .

كلام كثير يراق على خشبات

المنابر ،

ماء يصب على أصص الزنبق

المعدنى

وحبر مريض يصيب المطابع

بالدوخة المرضية . فى شظف الموت

تأتون بالنذر من شهقات الانيميا .

جياعا موائدكم عامرة بما تشتهى

الدول الجائرة

وسيدكم صائم فى هزال التقاويم .

غايته الله . هل عندكم غاية فى وهاد

الجحيم

اظهروا مرة يا عبيد العبيد اظهروا

مرة ، واذكروا أن دنياكم الآخرة .

وسيدكم (لست منكم . ياليتنى

لست منكم ..) سيدنا يرجم

الآصرة ..

مريضاً بربطة عنق رمادية

البطالة يصفق سيدنا باب منزله

الجبلى

ويهبط ادراجه نحو باب الجحيم .

يدق وتفتح سيدة فى الثلاثين .

أرمله من حروب اليهود . تراه

ويغمى عليها

يتاخم سيدنا موته العبثى

المباغت . يهمس فى سره : « قلت

يا لعنة الله كل الذى كان لى أن

أقول .. وماذا أذن ؟ باطل كل

ما قلته .

وبيارق حزنى مهلهلة فى الرياح

الغريبة .

يا لعنة الله آخيتنى فى رحيلى

الطويل الى شجر غرسته يداى

قديما . على جبل كان لى . أنت

أغريتنى بقطاف الأغانى الجديدة

بالدمع والدم .. أغريتنى بغد لن

يكون » ..

يــودع سيدنــا صــوتــه المتهـدج
باليأس من ثمر لن يكون على جبل
لن يكون . ويقفل
محتقنا بالرماد إلى امرأة وسدتـه
تهاليلها
فاستعاد البكاء القديم وأغفى على
ركبتيها ..
إلى أين يــا رجـل الثلــج والملـح
يا شبح
الذكريات المكائد ؟ لا أنت ولا نحن
نحن . إلى أين يـا ظل سيـدنـا ؟
خدعتك
الـدروب وخاتلـك الافق يا خـاتم
الشهداء
وداعــا . فهــا أنت تخــرج منهـا
سجينا لتأتى حرا اليها
وها أنت تأفل فى أبويـك وها هى
تمضى بلا أبويها ..
وجسمك ليلكة فى يديها !
وروحـك تفاحـة أغدقت مـا يشاء
الوجود على شفتيها
لأن الخلود صغير عليها
يقـولون . سيـدنا ليس يصغى .
وسيـدنا يشتهى أن يمـوت بكـل

احتشام الهزائم .
سيدنا ميت فى أغانى الاذاعات فى
خطب السادة الرؤساء وفى نفجة
الامراء الصدى
إن سيـدنا ميت فى طـلاء الملـوك
الصغار
وفى خبز أطفاله ميت .
أن سيدنا ليس يصغى لغـير بكاء
الشهيد
عـلى دمه العبثى . لغـير النحيب
الخفى
المخبـأ فى زور زغرودة الأم حـين
يزف
الشهيد إلى بيتها ثم يمضى المعزون
كل إلى بطن زوجته . ليس يصغى
لغير انكسار
العصــافــير فى طلقــات الغــزاة
السعيدة
سيـدنا ميت يـا كلاب الـزمان .
وسيدنا ميت
أيهـا الميتون الحثـالات . سيدنـا
ميت لا يموت
وأغنية لا تموت
وسريسة لا تموت

ألا فاسمعوا موته الحى فى نبضات
القلوب
ألا واشهدوا موته الحى فى شرفات
البيوت
شعاع ضئيل يحاور صوانة الليل
بعض المشاهد تودع اسماءها فى
الشعاع
وتهـوى إلى القاع . قـاع الظلام
البهيم
وتــزفـر أحشــاءهــا صيحــة فى
السديم :
خذوا نضرة الغار من مطلع النبع
وانتظروا
المـوكب الملكى . أجـدلـوا للـولى
أكاليله
يــا عصــاة الــزمـان ادخلـوا فى
أساطيركم
واغربوا عن دمى البدوى القديم
ألا واعلموا أن سخطى عليكم مطل
صراطكم المستقيم
ألا واعلمـوا أنكم ذاهبـون هبـاء
وأنى المقيم
المقيم
الا واذكروا نضرة الغار فى مطلع

كتاب
الوداع

النبع
واستذكروا ما غرستم من الورد فى
شرفات الجحيم .
نثار سمن الملح والفلفل الحار فى
الجرح ،
فى الجرح نار . وسخط بلا رحمة فى
شقوق ء
المنازل . رعد قديم علاه الصدأ
وها نحن أيدى سبأ
وما من سبأ ..
بعيدا عن العين والقلب . حرا يحل
رموز
عبودية لا تحل اواصرها . وبعيدا
عن القلب والعين . يحشو بريش
جناحيه بعض
الأرائك للسادة القادمين إلى قبر
والده كى
يبولوا عذابا وفودكا .. ووالده رجل
فاضل
من شيوخ البلاد القدامى ..
مضيف يكرم
زواره القادمين إلى موته كى
يريحوا
مثاناتهم . رجل طيب وشجاع ..

ولكنه ميت
من قديم الزمان (أبى ..
يا أبى .. ليتنى كنت
قبرك واستر سرك لأحمى ظهرك
بعيدا عن العين والقلب سيدنا
يتشظى
ويدفن اشلاءه بين أشلائه ويصلى
ويضحك
ثم يصلى ويبكى ويرقص . سيدنا
أدرك الآن
ما ليس يدرك !
تكسر ! تهافت ! تناثر !
الا أيها الالم الصلد . فولاذ
دبابة . أنت ؟ لا
ورد فى أرضك البور . يا أيها الالم
الصلد مثل
فمى . أزدريك وأمقت ربك . دعنى
وشأنى الا
أيها الالم الصلد خذ ما تشاء من
الدم
واللحم شايلوك !
الا أيها الألم الصلد تابوت أمى
رشوة هذا
التراب القديم وفى مسك هذا

الختام
التعيس . اشتبهت قديما بوقع
خطاك
الخرافى فى ساحة البيت . حاذرت
حاورت . داورت . لم تجدنى فيك
من حيلة
أيها الوغد دعنى وشأنى
الا أيها الألم الوحش لن تستطيع
افتراس
الاغانى
وحسبك أنك منتصر بافتراس
المغنى
فخذنى .. ودعنى .
كما يشتهى الثلج كانت خطاه على
الثلج .
أشرقت الشمس ثانية . واستعاد
الطريق
القديم خطا العابرين القدامى كما
يشتهى
الثلج ضاعت خطاه.تألم سيدنا
واستدار
على عقبيه إلى المبتدأ
تألم سيدنا وانطفأ
أذن ههنا نحن . ساقان فى الوحل

عينان
لليل . قلب يدق مع الطبل فى جثة
دفنت
جثــة دفنت جثــة دفنت جثــة .
مقرىء مرهق
قال احشاءه وانكفأ
أذن هـهنا نحن . ما من هنا . نحن
لا نحن .
ها نحن أيدى سبأ
وما من سبأ
مزورة فى الميادين كل التماثيـل .
أقنعة لا ،
وجوه . دموع من النفط . ألسنة
من دخان
الحـرائـق . أيـد مـن القش
والخيزران . وأطقم
أسنـان موتى . عصى تـدب عـلى
طرقات
الرماد ، خراب يلوح للباحثين عن
الرزق ،
رعب بلا غاية . ونكاح على اليأس
والجوع .
صيحات خوف صفوف المدارس .
من أين

هـذى الطوابـير ؟ من قـال هـذا
الكلام الرهيب
؟ إلى أين يرجع عمال وردية الليل ؟
كيف
سيخمر هذا العجـين ؟ ومن أين
نستورد الآن
أغذية العلب التالفه ؟
ودولتنا خائفة ..
وعملتنا زائفه
وساعاتنا واقفه ؟
كما يشتهى الثلج كانت خطاه على
الثلج .
أشرقت الشمس ثانية فاعتذر
غريبا عن الخلق : حـز شرايينـه
بالوتر
بكى وجعا فى حجر
بكى غضبا وانفجر
بكى .. وانتحر ..
لسيدنا أن يغيب قليلا . له أن ينام
ليرتاح
من وسخ اليقظة السافله
له أن يضيق قليلا بضوضاء وردته
الـذابله ويفـزع للبيـد من شـره
الظل . من عفن الزحمة القاحله

لسيـدنا أن يعيش بـلا كفن . أن
يموت بلا
وطن . أن يعـود عـلى عقبيـه إلى
فجوة البرق
فى روحه الذاهله
له أن يجاهر بالكفر باللغة الناصله
لسيدنا أن يكون كما يشتهى عدم
النجمة
الآفله
له أن يتم رسالتـه قبل أن تكمـل
الجملة
الكامله
وأن يولج النصل فى فاصله
لسيدنا أن يضن بما ظل من جهله
الابدي
على الامة الجاهلة !
لسيدنا القبر : منفى وزلفى
نقوش لشاهـدة القبر . لا يحمـل
الميتون بما
كتب القاتل
ولا تحفل الريح لو غضب الشجر
المائل
نقوش لشاهـدة القبر . جغـرافيا

كتاب الوداع

للواعجنا يوم
يقبل سيدنا الراحل
لمقدمه الصلوات . عليه السلام
على شفتيه المعانى التى لم يقلها
الكلام
نقوش لشاهدة القبر . كانت
« يبوس » ملاذ
اليبوسى حيا وميتا
قضى نحبه . لا نقوش لشاهدة
القبر . لا قبر .
ما من « يبوس »
وداعا تراب التراب وشمس
الشموس
وداعا
وينطفى الحلم . لا حلم . لا نجم
يهدى
المجوس
وما من يبوس
ويرحل سيدنا . حاملا موته .
هازئا
بالطقوس
وما من فضاء جديد وما من نبى
جديد . وما
من طريق
وما من يبوس ..

٣ ــ البخار

بخار على النافذة
تزيح ستار الدموع بظاهر كفك
ترسم قلبا وسهما
تخربش فوق البخار فناءً صغيرا
وصورة طفلين ..
خمسون عاما تطارد سبابة فى
البخار
وخمسين عاما تأخر موعد طفلين
أجراسك المدرسية صامتة فى
البخار
بخار على القلب
ترسم وردتك الليلكية
ــ كيف يصير البخار المحايد
ليلكة ؟
ــ لن يصير
خسرت ،
خسرت الرهان الأخير .
وترفع موس الحلاقة ــ ما من
مرايا
مراياك ضائعة فى البخار
ولا وجه
موس الحلاق عالقة فى فضاء
البخار
ووجهك سر البخار
وموس الحلاقة ضائعة فى البخار
بخار أصابع كفك
دمعة روحك تمحو بخارا وتمحى
بخارا
وتلسع موس الحلاقة وجه البخار
دم وبخار ــ وشاح الحرير
يرف بخارا
يرف يخف يمور يطير
خسرت وشاح الحرير
خسرت ،
خسرت الرهان الاخير ..

*

بخار على السهل
تعطى البيوت مفاتيحها للبخار
وتنسى ملامح سكانها الأقدمين
بخار يغطى سفوح الجبال
ويمحو البساتين من شرفات
المنازل
تبكى وتصرخ :
« يا أيهذا البخار اتسع لى ولو
لحظة من بخار

لأخطو ما ظل من خطوتى فى
البخار المقيم
وأدخل وادى الجحيم
صحوت ،
فلا عدن لى فى البخار
انتبهت إلى غفلتى
أكتنفتنى جبال الظلام القديم
وأدركت أنى خسرت
خسرت الرهان الاخير »

*

بخار على ساعة الحائط الأثريه
على المزهريه
على السهرة العائليه
بخار سعلى شاشة التلفزيون
صوت المذيع بخار
ووجه المذيع
ونشرة انبائه ، من بخار البراكين
فى أول السخط
« يا لهذا البخار افترضنى كما
شئت
واترك تفاصيل روحى لبارئها
أيهذا البخار انتشر وانتشر فى بلاد
البخار
تخط الجماهير
جاوز ضواحى المدائن
واعبر اقاصى القفار
كلامك أنت الكلام الاخير
وصمتك انت القرار !

*

عصافير نيسان أبخرة فى فضاء
الحدائق
شمع البخار يزين مائدتى
والبخار رغيف وصحن وكأس
خيول البخار تحمحم فى لوحة
الزيت فوق
الجدار
وشمس البخار معلقة فى أعالى
النهار
ووجه يطل من النافذة
بخار على النافذة
على مشهد من بخار
على مشهد من بخار
يخف . يرف . يشف . يطير
خسرت وشاح الحرير
خسرت ،
خسرت الرهان الأخير ..

■

فـ إلى مائدة السمك امتدت الأيدى تتناول وهى تشوح بالحديث . سمك من أجناس وأحجام وأجيال . من أين كل هذا الشتات ؟

إنهـا الجُرّافـة . وهى الشباك التى يلضمهـا نفر من الصيـادين معا،يثبت طرفها فى الشـاطىء ، ويخرج القـارب بطرفها الآخر فى قوس بعيد بعيد . ليعود إلى الشاطىء ثانية بالطرف الآخر .

ثم يتفـرق الصيـادون نصفـين إلى الطرفين يجذبان الشباك ، حتى تخرج كلها إلى البر فى نقطة، ليخلصوا ما علق بها من سمك كيفما اتفق .

تعودنا كلما أردنا أن نأكل السمك ، أن نشترى الطرحة وهم يعدون الشباك للنـزول بهـا . وأنت وبختـك . وكـانت الطرحة فى ذلك الزمان لكل هؤلاء التسعة العاملين على الشباك بريال فضى فى حجم الشقفة ، كان له يومها القيمة والمكـانة وكـل الاعتبار . أيـام أن كـان للهمس أصـداء فى هوِّ هـذه القريـة البحريـة الكمشانة على نفسها فى ليلها الطويل .

فجـأة زعق المعلم يحيى من قعـور رجليه ، ووجهه الأحمر يبك الدم : أحيِّه أحيِّه ياولاد . (ثم وهو يسبل عينيـه) يمين بالله ، إياك ما اوعى أبلـع الفص دهو ، أو أقوم من مكـانى . السمك ده مجـرجض (مقـرقض أى قـاضم من تصـبيرة حشيش فى الماء) .

أما أبو شوقى ، فقد قـذف بالفص الذى أوشك أن يسلمه إلى فمه ، ثم اتكأ وقد راح منهم بعيدا .

وكان صادق أفنـدى أول المنتبهين . من خلال نظارتـه كعب الكوب ، تـأمل وجه أبى شوقى . انزلق وصعد مجهدا فى تضاريسه . وبالرغم من أن الـوجه لا ينبى عن شىء منذ كان كتلة قدّت من صخر ، فقد رسا فى خليج عينيه ، وأدرك حين رأى ماء العينـين يضطرم ، حتى يأخذ لون ماء الخليج الذى ألّب رمال القاع . أدرك أنه خرج عن كل طور .

قال له : خير يابو شوجى ؟

رد أبو شوقى : اتخرب بيتى . النوة قطمت وسطى . حشّتـه . السمـك ده واكل من التصبيرة بتاعتى .

ووقفت اللقم فى الأزوار .

(٢)

ما كدت أنـزل من الأتوبيس ، حتى نهض أبو شوقى من كرسيه فى الساحة المترامية أمام قهوته .

كانت فرشاة الخريف تلطخ صفحة السماء من خلفه بالدكنة ، فى ضربـات قوية واثقة صلبة ، كأنها ظله الممتد إلى السماء حين نهض .

مـد يده وتـأبط ذراعى ، فأسلمتـه زمامى عن طيب خاطر ، وهو لا يفعلها إلا فى العـزيز ومـع العزيـز العزيـز . وتـذكـرت قـولـه للسيـد القهـوجى : يا سيد ، لـو الأستاذ طلب منـك إيراد القهوة كله ، ادهوله . انت سامع ؟

وتجـاه لسان البـر بين البحـرين : الميت والحى ، مضينا نتمشى والصمت رفيقنا .

وتحينت الفرص لألمح عينه . كان المرفأ عكـرا داكنـا ، والسفينـة بـلا حـدود مرسومـة ورجراجـة ، وكان يجـرّ على ضروسه جميعا .

إذن الأمر جلل . شديد الخطورة .

مضينـا والصمت أرسـخ ، إلا من وَشِّ الهواجس عندى ـ وقد ابتلعت وش الأمواج من حولنا ـ وإلا من الرجم بما يضمر هذا الداهية الصامت .

كانت قلعة كوسا باشا تتباعد خلفنا ، والمـاءان أمامنـا يتقاربـان . وحينمـا أصبحنا فى حذاء مقـر الحجر الصحى القديم ، ثم مئذنـة الجامـع المعتكف ، إشرأب ونظر إلى بعيـد . ثم ضغط على عضدى قائـلا دون أن يديـر رأسه إلى وراء .

ـــ انت شايف برج كوسا باشا ؟

وسكت . ثم قال دون أن يمد بصره إلى يسار .

ـــ انت شايف مدنة الجامع ؟

وسكت . ثم قـال مستغنيا عن كـل إشارة

ـــ شد منهم خط دوغرى جوا المية .

وسكت وطـال سكوتـه . فلم أملـك إلا أن أقـول ، دون أن يكـون قـولى مستحثا ، وإن كان .

ـــ شديت .

قال بصوت أخفت وأصلب .

ـــ الليلة ، حتترمى « أمانة » ، وربك المِّرادى يسلِّم الجرَّة .

وأحسست بالزهو ، أن أسَرَّ إلىَّ هذا الداهية بسره الخطير . ولكنـه بادرنى من الفور .

ـــ مـا تستـغـربش . أصـل انا باستبشر .

التصـــــــــــــــــــبيـــرة

(٣)

الطبق لم يعد يحتمل المزيد . تكوَّمت القروش فيه كالتل . كان ليل الخريف قد أوغل كالوحش . وبرتيتة الكنكان منصوبة ككل ليل ، فى القاعة الداخلية من القهوة .

والطبق الشهى اللعين كعادته دائما فى آخر الليل ، يحرن ويركب رأسه ، فلا أحد يكسب مرتين متعاقبتين ليفرغه .

وعلى الباب ، وكالطيف المرسوم ، يقف « غزال » وينظر .

وأسترق النظر إلى أبى شوقى .

ليلتها لم تغادر السيجارة فمه ، طول الليل بلا توليع .

وحينما جاء الطيف ، مد يده وتناول من بعيد علبة كبريت أحدهم . أخرج عودا . أبقاه موقدا . وقرب النهاية أشعل به سيجارته التى طال بها انتظارها .

وذاب الطيف كما بدا ، دون أن يلحظه أحد آخر .

وبعد أقل من ساعة زمن ، رأينا من الشباك المطل ناحية البحر وهجا هائلا يملأ الأفق . والصريخ والصفير والصوات والهرج .

واندفعنا بعد التحفظ على الطبق بالطبع ، لنرى نيرانا مسعورة آتية من ناحية البحر .

إيه ؟ إيه ؟

أحد مخازن الكازينوهات حيث تكمر كل أدوات الصيف من الموائد والكراسى والدواليب الخاصة والشماسى ، والنار المسعورة تلتهم ، ثم تتحلى بالكازينو نفسه .

ومطافىء الاسكندرية ، ومطافىء كفر الدوار ، وأُخمد الحريق . وأويت إلى فراشى بأصداء حامية لكل هذا الضجيج واللهب .

وفى صفحة الفجر ابتدأ الوسَن يدب فى الأوصال مذيبا كل شىء .

إلا أن شاشة بيضاء صافية نُصبت فى صالة العرض من رأسى . ودخل أبو شوقى بسيجارته المطفأة . وجلس .

وومض الطيف محتلا فراغ الباب .

ثم أبو شوقى وهو يشعل العود والسيجارة والحريق الهائل .

وانجابت كل رموز الحلم .

« الأمانة » المصبرة تحت الماء بأثقال الرصاص . وأبو شوقى بين شقى الرحى : البحر بنوِّته ، وموعدها الغد . والبر بخفر السواحل فى طوارئهم القصوى ، وهم يمسكون بطرف خيط .

ماذا يفعل طارق بن زياد ، إلا أن يحرق كازينو الخواجة استاورويس ، ذلك الحريق الوهاج الذى اجتذب إليه كالفراش كل الأحياء ، وفى مقدمتهم الخفر للإنقاذ . وخلال الطريق للأمانة تخرج من مخبئها متهادية . وياله من داهية ■ .

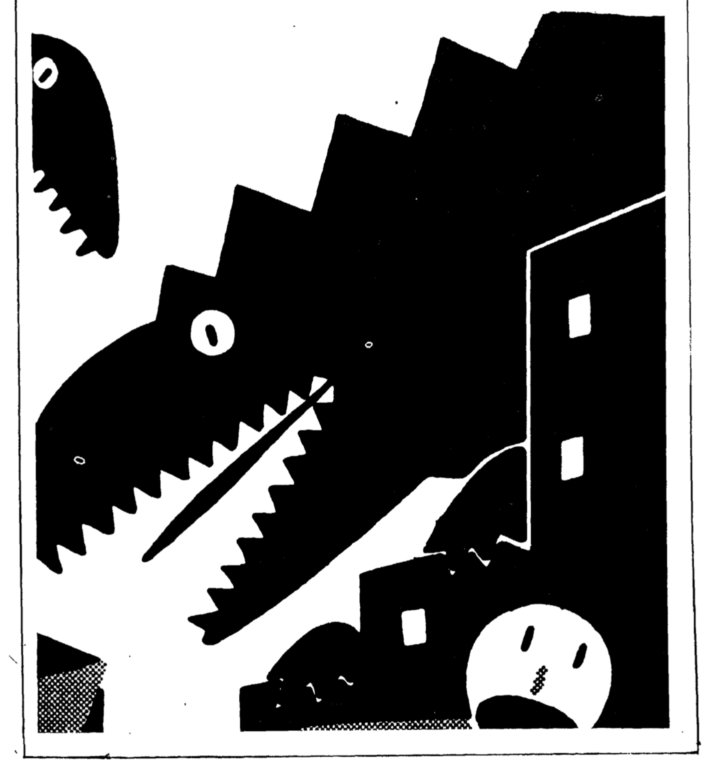
قصة

عبد الفتاح الجمل



عن لوحة للفنانة مديحة متولى

رقصـــــــات .. مـــرحـــة



بغـــــال البـــلديـــــة

قصـــة

محمد حافظ رجب

ها هو رجل تصدع كل شىء حوله هو الآخر تصدع ..

يلازم طاقته المفتوحة .. منذ سنوات لا يعرف عددها ـ آناء الليل والنهار .. بلا نوم بلا طعام .. يسند جداره الموشك على السقوط .. داخل جدران الطاقة .. كى لا تتبعثر أحجاره .. صار بعضا منه .. يتأمل ما يدور حوله فى غيبوبة الحجر ..

قالت له الجدة وقد مزقها القلق :

ـ حسب المقام .. حسب الفلوس .. يحصل قيام .. يحصل جلوس ..

ظل جزءاً من الجدار الموشك على الانهيار

عيناه تفران منه .. تقفزان إلى أسفل .. تتدحرجان فوق تراب (الصفا)

ها هو (الحاج أمين) يجلس فى دكان البقالة الفقير . بعد خروجه من الخدمة .. صلعته مضيئة .. جاذبة أسراب الذباب والناموس إليها .. خروفان مستكينان بجواره .. هو ثالثهما .. صندوق البرسيم بينهم .. كان حوذيا لعربة قمامة .. يجرها بغل البلدية .. دقق النظر فيه .. تمطى الحاج بداخله .. تدحرجت بعض الحجارة من هيكله .. أسرع يفك البغل عن العربة : تفضل يا سيدى بغل البلدية المحترم

.. زعق البغل :

تحيا بغال البلدية .. بغل الحاج أمين المغوار ..

... على الفور .. تناول البغل حزام الحاج .. حزم وسطه وهات يا رقص .. ووقف غجر غربال بالطبلة والصاجات يحيّون مرح البغل وصاحبه .

أسرعت (الجدة) تلتقط ابتسامته : تفحصها بدقة .. ارتد إلى الجدار مأواه مسرعاً .. دخل فيه صار بارداً ..

تذكرت الجدة مثلا اشتعل فى فؤداها .

ـ هنّنونى .. وبننّونى .. وعرفونى طريق اللى ولْدُونى .

... تحرك الرجل .. متصدع البنيان إلى الوراء قليلا .. ظهر عليه ألم معذب .. تحسس قضاة. وجد شيئا لزجاً .. تركه .. دخلت (الجدة) الجدار الذى يقبع فيه .. أمسكت دموعاً تسيل فوق قنوات خديه .. رصدت طريق الماء المنهمر : تسرب من شارع (اخوان الصفا) إلى (ترعة المحمودية) ..

فارت مياه الترعة .. انسكبت على الجانبين ورائحة شواء تتصاعد منها .. بكت الجدة هى الأخرى .

مات (أحمد البكار) مناضل ٥٦ .. أمسكَ به الملعون .. أفرجوا عن جثمانه لما عرفوا النهاية قريبة .. انتهى النضال .. كما بدأ غريبا .. انتهى غريبا .. منشورات الحزب تختفى فى حجرة الجدة .. تدثرها بغطاء ثقيل فى الصباح يحملها إلى بائع خبز خلف زقاق (عينو) : «الاتحاد القومى صنيع البرجوازية المصرية»

.. تساقطت بعض الحجارة من بنيانه على المارة .. رفعوا عيونهم إليه : ابتسموا،شىء عادى أن يمطر الجدار بعضا من أشيائه .

.. تحرك فى جلسته قليلا : الحاج أمين يمتطى بغله : يخترق به بيوت غربال .. يصيح : «أنالها .. أنالها» .. كش من اندفاعك المحموم يا بغل ..

كوخ خشبى.بيته فى الزمن الذى ضاع .. قناع فوق وجه المرأة زوجته : «عشانا عليك يارب» .. الآن ارتفعت فوق الكوخ عمارة ..

.. عيناه تمسكان به : العمدة .. مخمور فوق الرصيف مأواه بجوار دكان الحاج أمين فارس بغل البلدية الهمام .

تجشأ العمدة ـ أثر تجرعه لحفنة سبرتو حارة معربدة ـ شعر بحرارة مذاقها الكئيب الرجل المتصدع فى حلته :

ويل لك .. اتفعلها فى بقى .. وأنا لا أجيد فن الدفاع عن النفس الآن ... نهض العمدة مترنحاً من منقوع السبرتو الغارق فيه .. طلب من بائع الفول المدمس (واقف بعربته فى المنتصف يحرس بطون الجياع) رغيفا محشوا بالحبات القاهرة .. ترى ما هو مذاق الفول المعجون بماء السبرتو الحار الذى تهواه يا عمدة .. تزعق منتشياً .. تغنى منتشياً .. لا حدود لمسرات عالمك يا وغد تهرع الآن ابنة (أحمد سلامة) لص سراديب الجيوب . نحو العمدة ..

أحضرت كوز ماء .. لترتوى حرائق النار المشتعلة فى أحشائه : أولاد الغرابة نحن : لص الجيوب .. السكير .. المتصدع .

(نعيمة) تقطع عليه مسالك الطرق الحافلة : إلى أم على أختها ذاهبة : صغيرة سره فى داخله : ذات مرة فى زمن لا يعرفه . عانقها . ضاجعها عارية تلوت بين يديه .

... رجل فى الجدار المجاور يدق .. تهز الدقات جداره .. يهوى .. يسقط فى القيعان المجهولة .. كف يا أحمق عن عبثك هذا .. يدفعنى إلى النهاية الأخيرة سريعا ..

قالت (الجدة) بصوت مشروخ :

يا ظالمين .. يا ظالمين .. كفوا عن الدق فى جسم الرجل.مات موتته الأخيرة منذ زمن يطالعنى وجه (العمدة) - الآن - فى المنتصف - يدندن - لو كان مثله يدندن أمام أى مواجهة .. لتغير المصير .. صار من الحائط قطعة .. تتساقط ذراته فوق قارعة الطريق عند أول طرقة مطرقة فوق الظل ..

الملح عربة تاكسى تخترق حدود الصفا : موسم مولد النبى جاء : عرائس (غربال) فى خدورهن .. منتظرات بقلق عطايا الذكور ..

ها هى (نعيمة) تظهر عارية عند سور غربال العظيم .. فى أثرها يمر موكب من النساء العاريات يقهقهن بشدة .. اليوم .. يوم العاريات

.. كل شىء خلع قناعه وبان ..

تقترب (نعيمة) من (الحاج أمين) . تمسح عنق بغل البلدية .. ينهق فى غبطة .. منتشيا من مسحها الناعم على مساره .. يهمس فى أذنها :

- اعيدى .. اعيدى يا نعيمة .. كررى اللعبة .. المسح فوق العنق غبطة

... تركت (نعيمة) البغل يغلى ..



إستدارت قذفت ابنها بوعاء الجاز البلاستيك رفض أن يشترى لها وقود الموقد ..

كيف قبلت المضاجعة فى السر الغامض وهى تغزو كل مخلوقات النهار .... يدخن العمدة سيجارة : يأكل رماد لهيب النار .. بين كل نفس وآخر يرشف رشفة من الحليب الأحمر الملتهب ..

فارس بغله .. يقطع أرغفة الخبز قطعاً .. لتأكل الخراف الشاردة وأهل غربال اليتامى والعزب المجاورة والقرى والمدن وما وراء الأنهار والبحار والمحيطات والأرض وسكانها من الإنس والجن أجمعين ... يضع قطع الخبز فى حجره يشعر البغل بالغيرة .. يزيح أحد الخروفين :

- دعنى التقط رزقى معكما .. وللا إكمنّى على المعاش دلوقت ؟ يعنى راحت علىّ ؟

قالت الجدة :

ذبح الحاج خروفا .. كانوا ثلاثة .. ذبح أحدهم ليأكل هو وبغله حتى يشبعا (محمد رحاب) يخرج ثقيلا متباطئا .. خنزير برى شكله .. يعرفه كل المعرفة ما فائدة ذلك له الآن .. رأى صورته .. فى عين الطاقة المفتوحة .. حالما رآه .. انحنى (حتى يخرج من نطاق جاذبية شعاع عينيه) تظاهر بمساعدة فتاة تعبر الطريق بطاولة عيش ملتهب .. اعطاها نصف قرش ومضغ الرغيف بنهم .

إلى دكان (الحاج أمين) الهدف .. اشترى الأصلع القصير الحرك .. فاتن النساء مدبر المؤامرات .. فتى القعدات فى المقعد .. مخرنجى زخارى أيام زمان اشترى علبة سجائر وعاد إلى شقته .. دون أن ينظر إلى الرابض فوقه يراقبه هو الآخر ساهم فى هز الجدار الهرم ..

(العمدة) غائب عن المُلك .. يسبح فى بحر السبرتو : يدندن .. أنا ملك أنالك ولك على طول .. ملك الفول السودانى والدندنة الشجية .. مازالت عربات التاكسى تتوافد على (غربال) تحمل المواسم للمخطوبين والمخطوبات مثقلات البطون فى قادم الأيام والجيّات

مريم واختها وامها فى بلكونة الطابق العالى .. نزلت أخت مريم لتمسك بابن أخيها الشاكس .. انفلت منها . ولّى جاريا .. رجل بدراجة حضر اندفع ليمسك به .. الأطفال يجرون خلف رجل الدراجة .. أمسك بالطفل .. حمله فوق الدراجه .. نزلت أم مريم لتستلم الولد .

قال الطفل :

أمى .. أمى ياأولاد الكلب .

الليل يدخل ..

كئيب هو .. وهو يغطى غربال باشا الحزين ..

(الملح الجدة) تدخل .. وقفت تصلى : لو عرفته قبل أن أصير .. لعشت حياة رغدة رغم الكفاف .. لكنى عاندت .. صممت وعاندت .. فكان ما كان .. قابعون فى جحورهم أهل الجوار يدقون .. جثث كثيرة عفنة فى الشوارع لا تجد من يدفنها .. رائحة الموت تفوح من أرض الميعاد ...

اشاهد (حسين) بائع الملايات .. يصيح فى وجه أحمد سلامة اللص :

- هو أنا كل ما آجى لك تقول لى بكره .. بكره ؟

قال أحمد سلامة اللص الذى يخترق

أسوار الحصون وهو يتدلى من فوق سطح سجن الحضرة حيث يتشمس البردان :

أنت ح تستعبط علىّ ..

هنا محطة الاسترخاء اللذيذ يجلس الرجال والنساء مع بغل البلدية الشاب وعربة القمامة ملقاة ـ زمان ـ بلا عناية .. تخرج له لسانها :

ـ ما خلاص اتعدلت .

قال اللص أحمد سلامة .. لحسين بائع الملايات .. وهو يقفز من فوق شمس سطح سجن الحضرة :

انت لو عايز عشرين بريزة اديهم لك علىّ الحرام

من عبها الخفى .. أخرجت زوجة احمد البريزة .. أعطتها لحسين مخلوقات الجوار يتصاعد الهدير منهم متوحشا .. محمد يزعق .. أمه تزعق .. عبده خطيب (البنت سامية) يصفق ...

هل يمكنه أن يثور الآن .. مثل زمان ..عندماكان .. هو الآن جزء من جدار هرم دق مجنون فوق السقف .. أحفاد الرجال والنساء الغجر يلعبون الكرة .. (غربال) هائجة .. عبده يرابط فى الحجرة المجاورة .. ماذا يريد منها .. يضاجعها بنظراته .. هى جالسة بين لحم أهلها فى الجحر المكنون : المرأة زينب تشتعل فوزية ابنتها تشتعل .. عيده تشتعل .. النار فى الموقد تشتعل ..

كان من الممكن أن أذبح بعضهم .. ليتنى فعلت .. قبل أن أصير .. فات الأوان الآن ...

«محاكمة سريعة لسرحان بشارة قاتل كنيدى»

«التهديد بنسف سرحان فى سجنه»

«سلطات الأمن وضعت ٦ حراس مع سرحان فى زنزانته»

«انتشرت الدوريات المسلحة حول السجن وفى داخله وممراته»

اضرب .. اضرب يا سرحان .. لا تخف اضرب فى الغانية اللعوب أمريكا تصير جثة متفحمة ...

صاحت الجدة

حسب المقام .. حسب الفلوس .. يحصل قيام .. يحصل جلوس

.. لم يأخذن النوم منذ زمن أجهل أبعاده .. لن أغادر المكان إلاّ بحضور المهندس .. وشق الجدران ...

أحفاد الغجرى الكبير سلامة .. يقودون صبيان (الاحد) .. المباراة متأججة ..

... تحركت (نعيمة) فى حدقتى العين .. عارية المضاجعة السرية (التى لم تحدث)

اخترقت الملعب عارية .. كاسحة الأنوثة تقتحم الشباك ...

قال غجرى صغير لزميله :

دى واحدة ست اوعى تتكلم ..

قال غجرى صغير آخر :

بقالنا شهرين ماجناش نلعب هنا ...

(الديبة) العانس خرجت تعوى .. عوت عواء مخيفا ..

قال غجرى ثالث :

والله العظيم ما أنا جاى ألعب الكرة هنا تانى ..

... انسحبت فرقة الغجر الصغار ..

الجدة نامت وهى فى انتظار

كيف أغادر المكان .. صرت جزءاً من حائط الترقب .. ألمى يتبعثر فى الظلمات وضوء النهار .. قطع من الحجارة .. أسكبها على العابرين

لم يعد هناك من أتواصل معه . فقدت التواصل مع من سبقنى .. فقدت التواصل مع من جاء بعدى ..

صاحت الجدة صيحة هائلة وكرة القدم تجرى فى ساحة أذنى حامية .

متسول يعبر سقف الحجرة .. اختبأ فيه : يا ليل يا عينى .. يا عينى على البساطة ياعينى ع البساطة ..

تراتيل الشمامسة فى البيت المجاور تبدأ .. الأربعاء .. إقامة القداس فى بيت (أم منصور) شغال (منصور) فى شركة الغزل والنسيج بالبر الثانى .. وترزى ماهر على ماكينة سنجر فى البيت ..

الحاج أمين فى دكانه .. الخروفان راقدان فى غبطة كسول .. بغله والعربة معلقان فى سقف الدكان .. امرأة غجرية تفلى شعر ابنتها .. تصطاد حشرات القمل المختبئة فى المجاهل .. الحاج أمين يغادر المكان .. غادر بغله والعربة السقف دقات طبلة متفجرة .. الغجرية تقتل القمل بأسنانها .

احسب أن النهاية تقترب .. لا يمكننى رصد حركة الحياة وهى فى عنفوان سيرها .. كأننى المسئول الوحيد عنها .. الطبلة تدق دقاتها المتفجرة : تكتسح كل ما يقف أمام دقاتها : بائع يصيح بأربعة ابيض ياقته .. الطبلة يدق عليها صبى متوحش .. داخل أذنى الدقات الهادرة تركض كالبغال الجامحة .. ولد يغنى : ادلع يا رشيدى على وش الميه .. ادلع ورسينى على وش الميه . قطاع الطرق فى الطرقات يسدون عين الشمس .. ويل للجميع منهم .

●●●

فى الثالثة صباحا .. استيقظت (الجدة) بغتة من سباتها العميق .. شدها شىء غامض كل الغموض .. قبض على قلبها : عصره بقوة حتى نزف دماً خرجت للرجل المتصدع .. وجدته داخل الجدار شاحباً .. اقتربت منه .. لم يتحرك .. حملقت فى وجهه وجدته قطعة حجر باردة هزته .. ترنح .. هزته مرة ثانية .. ترنح .. فجأة سقط .. تهاوى فوق الجدار .. غطاه .. صرخت الجدة ... ■

- ١ -

فـ مثل كثير من قصور الاقطاعيين التى صادرتها الثورة كان القصر فى بلدتنا بعيدا عن البيوت ، ضخما مهيبا ، تمتد أمامه أشجار كافور عالية . واجهته عريضة بأعمدة ثقيلة تخنق الشرفة وزخرفة ناتئة لوجوه حيوانات ، وأربع درجات سلم خارجية من الرخام ، وقبة تغطى الردهة من الزجاج الملون .

حولته الثورة فى سنواتها الأولى إلى مركز للاتحاد . كان الأعضاء يأتون فى أيام الاجتماعات من العزب المجاورة ويتركون دوابهم بين الأشجار . يتمهلون قليلا بعد أن يصعدوا درجات السلم . ينفضون جلابيبهم ويخلعون نعالهم . ثمة رهبة لاتزال فى نفوسهم ، يتحركون فى حذر وكأنما يخشون أن يخدشوا الصمت العميق فى القاعة الواسعة بأضوائها الكثيرة الملونة ، وأرضيتها المكسوة بالخشب المصقول . هى سنة وأخرى ثم نقل الاتحاد إلى مبنى آخر متواضع فى وسط البلدة . وتم ترميم القصر وطلاؤه وبناء سور حوله ينتهى بأسياخ من الحديد مقوسة مدببة الأطراف ثم أغلق .

كانت قد مرت شهور حين ارتجت البيوت فى شدة ذات ليلة ، وطغى صوت مولد الكهرباء الذى جاءوا به على كل



الأصوات الأخرى . الأضواء كثيرة هناك ، تحيط بالقصر وتمتد بامتداد السور وبين فروع الأشجار .

يجذبنا الضوء القوى ، يلمس أطراف الزرع لمسافات طويلة ، وصوت الضحكات يترامى من هناك ، وغناء أم كلثوم . يبعدنا جنود الحراسة . نسير على الطريق الزراعى كما اعتدنا . نجلس على أكوام الطين الجاف ننظر إلى القصر والأضواء حوله .

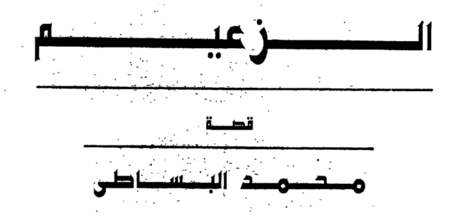
مع نهاية الليل يأتي بعض جنود الحراسة إلى المقهى ، لا يكلمون أحداً ، ولا أحد يكلمهم ينزوون فى ركن والسلاح بين سيقانهم ، يدخنون الجوزة فى صمت ونهم وعيونهم عالقة بوجوهنا يتابعون ثرثرتنا ، وحين يروننا نتأهب للخروج يمضون .

تستمر الأضواء ليلتين أو ثلاثا ، ثم يصمت المولد ، ويغلق القصر .

ـ ٢ ـ

كانوا هناك ينظفون القصر . جنود بزحافاتهم وسط الأشجار ، وآخرون تعلقوا بالنوافذ والشرفة . بعدها بأيام ارتجت البيوت مرة أخرى مع صوت المولد .

كان جنود الحراسة على غير العادة يلبسون ملابس بيضاء ، ويضعون شرائط ملونة على صدورهم . وجاءت سيارات سوداء توقفت بجانب القصر .



الزعيم

قصة

محمد البساطي

كنا ـ وقد رأينا الاستعدادات التى تجرى ـ قد زحفنا خلال الأحواض ، ولبدنا فى حوض الذرة القريب من أشجار القصر . هبط الرجل القصير أولا بملابس عسكرية داكنة اللون ، وعلى صدره الكثير من النياشين ؛ وعصا قصيرة تحت إبطه . سار متمهلا يتبعه الرجال ، وعندما بلغوا درجات السلم استدار إليهم . له ملامح آسيوية مألوفة . كنا قد رأينا صوره كثيرا فى الجرائد . كان زعيما فى بلاده . قاد الجيش فى معارك طويلة لاستقلالها . سلم على الرجال واحدا واحدا ، عادوا بعدها وانطلقوا فى سيارتين . ثمة خدم كانوا قد جاءوا من قبل ولم نرهم يقفون على جانبى المدخل . حياهم برأسه ودخل .

كنا على وشك العودة حين رأينا ثلاث فتيات يخرجن من القصر ويجرين وسط الأشجار ، يلبسن بنطلونات قصيرة ، شعورهن تتناثر بلون الذهب فى الضوء القوى حين يقفزن ليلمسن فروع الأشجار يضحكن فى صوت خافت ، ويتكلمن بلغة غريبة .

الخدم يمدون المائدة وسط الأشجار . مناضد صغيرة متجاورة وضعوا فوقها المفارش ودوارق الماء والأكواب ، وجاء الزعيم يلبس بنطلونا قصيرا أبيض وقميصا بدا لونه ورديا . شعر صدره كثيف ، وساقاه ممتلئتان مفتولتان ، يسير دون صوت نحوهن ، حين أحسسن به جرين نحوه . استقبلهن باسطا ذراعيه ، وساروا معا . يتحدث ويشير بيده إلى قمم الأشجار . بدا أنه مثلنا لا يفهم لغتهن . كن يستخدمن أيديهن فى اشارات كثيرة .

بعد العشاء ظلوا فى جلستهم يشربون . كان يضحك مستمتعا بطريقتهن فى الحديث بأيديهن وكن متحمسات للشرح له .

فى الليلة التالية خرج إلى البلدة . فوجئنا به بعد صلاة العشاء وبعد أن خفت القدم يسير فى شارع السوق وخلفه رجل وجنديان . لم تزعجه الكلاب الضالة التى تنبح كثيرا ، كان على ما يبدو يألفها ، وقد لوح فى وجهها بعصاه فابتعدت ، ولم يزعجه شخير الراقدين على المصاطب أمام الدكاكين المغلقة ، مد يده وغير من وضع رأس أحدهم فكف عن الشخير .

أوقف عم «سعيد مبيض النحاس» وكان عائدا من المقهى بعد أن أخذ نفسين من الجوزة ، وكعادته فى مثل هذه اللحظات كان يحس بالشارع يهرب منه . أخذ يرمش محدقا فى وجوههم ، ثم استقرت نظراته فجأة على ماسورتى البندقيتين خلف كتفى الجنديين . رفع ذيل جلبابه متأهبا للفرار حين أحس بمن يمسكه من ظهره .

ابتسم الزعيم وتحدث للرجل الذى جاء معه . وقال الرجل لعم سعيد :

ـ يقول لك لا تخف .

عم سعيد مائل بجذعه للوراء . مستندا بكتفيه إلى الجنديين : أومأ له الزعيم مبتسما.عصاه القصيرة تحت إبطه ورأسها المستدير الذهبى يتألق فى العتمة الخفيفة . تحدث الزعيم للرجل . وقال الرجل :

ـ يسألك إن كنت تعرفه ؟

عم سعيد لم يقرأ جريدة فى حياته . لم ينظر إلى الزعيم ، بل اتجه إلى الرجل :

ـ طبعا .

رمقه الرجل لحظة مترددا . فقد جاء الرد سريعا حاسما ، وكأنما غلبه الفضول سأل فى حذر :

ـ من ؟

ـ البك المأمور .

غير أن الرجل على ما يبدو قال شيئا آخر للزعيم الذى ابتسم فى مرح ولمس كتف عم سعيد بطرف عصاه ، وتحدث إلى الرجل . التقطت أذن عم سعيد اللغة الغريبة . فرد طوله وكأن الأمر صار فوق طاقته ، والتفت إلى الجنديين وكانا يخزانه فى ظهره . قال الرجل :

ـ يسألك كم جاموسة عندك ؟

ـ جاموس ؟

نظراته حائرة بينهم . بذل جهدا ليلم ذهنه المشتت . بدا أنه قد فهم الأمر أخيرا . مال على الرجل هامسا :

ـ أتجمعونها ؟

كان اللقاء محزنا . تركوه فى النهاية ومضوا بعد أن نال فى السر كفا على قفاه من أحد الجنديين . ظل واقفا ينظر إليهم حتى اختفوا ، وتمتم متابعا طريقه :

ـ أما حكاية !!

احسسنا به حين غادر البلدة فى الفجر ، ذلك السكون العميق الذى أعقب توقف المولد ورجرجة الحلل ، ورأينا صورته فى جرائد الصباح يقف على سلم الطائرة يلوح بعصاه مودعا . شعرنا بالفخر والاعتزاز وغفرنا له شغفه بالنساء ، وعموما كن اجنبيات لا يتكلمن لغتنا ، وحين لم تشر الجرائد إلى إقامته بيننا سكتنا .

ـ ٣ ـ

عاد الجنود بزحافاتهم مرة أخرى إلى الأشجار ، وتعلقوا بالنوافذ والشرفة ينفضون غبار السنوات التى مرت . لقد نال الإهمال كثيرا من القصر ، وسقط جانب كبير من طلائه ، ونمت الأعشاب طويلة بين الأشجار وتسلقت جانبى درجات السلم الرخامية . وحفرت الفئران جحورا امتدت إلى داخل الحجرات . فى هذه السنوات تغيرت

أشياء كثيرة ، اتسعت البلدة وزحفت البيوت فى كل اتجاه وتوقفت بعيدا عن القصر ، وشيدت قصور جميلة غير أنه ظل يتميز عنها بغموضه وزخارفه الضخمة الوحشية وما يحيط به من طابع مأساوى .

هذه المرة كان مجىء الضيف نكبة علينا . كان زعيما لبلدة مجاورة وكان لعهد قريب يظهر على شاشة التلفزيون متحدثا عن حبه لبلادنا . قاد فصيلتين من الجيش فى شبابه ، إحداهما اتجهت إلى مبنى الاذاعة فى بلده والأخرى إلى قصر الحاكم ، وفى خلال ساعة زمن تم له الاستيلاء على الحكم ، وفى اليوم التالى حملته طائرة هو وبعض أعوانه فى زيارة لعدة ساعات لبلادنا ، وظهر على شاشة التلفزيون بجوار زعيمنا . تبادل الاثنان الحديث عن طبيعة العصر الذى نعيشه ، والبؤس والاستغلال الذى عانت منه شعوبنا طويلا . كنا متجمعين فى المقهى مشدودين إلى التلفزيون . تبدو بلدتنا من خلال كلماتهما . وقد أطيح بها فى غمضة عين هى بلدة أخرى نراها . بيوت واسعة ، وحقول ومصانع وملابس نظيفة وأحذية ووجبات ثلاث . يومها خرجنا فى مظاهرات صاخبةتطوف شوارع البلدة نهتف بحياتهما . ولسبب ما تجمعت كافة المسيرات حول القصر تسلقنا الأشجار والشرفة ، واستمر هتافنا طويلاً وسط زغاريد النساء .

وبعد سنوات قام أحد أعوانه فى الجيش بانقلاب ضده ، وكاد الانقلاب ينجح فقد أمسكوا به ، وتحفظوا عليه فى غرفة بقصره لمحاكمته ولحين تصفية الموالين له ، غير أنه استطاع الهرب بعد ساعات من حبسه ، وقف فى مؤتمر صحفى يحكى مغامرته العجيبة حطمت الباب بكتفى . حارسان بالسلاح فى مواجهتى ضربت أحدهما لكمة أطاحت به . أمسكت بالآخر وهرسته فى الحائط . قفزت من فوق السور والتقطت عصا . جميعهم فى باحة القصر رموا السلاح.هم جنودى . وقفوا فى انتظار أوامرى .

فى المرة الثانية نجحوا فى الإطاحة به وكان فى زيارة قصيرة لبلادنا . ليلتها ظهر على شاشة التلفزيون بجسده الضخم المفتول ووجهه مشتعل بالغضب مهددا بقبضته معلنا أنه«فى الطريق إليهم » لابد أنهم هناك قد تملكهم الرعب ، فقد أعلنوا بدورهم عن إغلاق المجال الجوى لبلادهم وأن كافة المطارات قد زودت بأحدث المدافع المضادة للطائرات .

استقر به المقام هو وحاشيته فى القصر ببلدتنا . كان معه حرسه الخاص غير الحراسة التى زود بها القصر . نصبوا المدافع الرشاشة وسط الأشجار ، واجتثوا الزرع من الأحواض القريبة . وشكلت دوريات تجوب المنطقة ليل نهار .

تتلألأ الأضواء حول القصر فى الليل ، ويترامى إلينا صوت غناء لم نسمع مثله من قبل أشبه بتأوهات يتردد صداها من عمق سحيق ، تتحول إلى همس موجع ، وتأتى الموسيقى مثل صفير رياح بين أشجار بعيدة ثم تختفى ، ويختفى الغناء ، وترتفع دقات طبول فى إيقاع عنيف موحش وكأنها نداءات الحرب فى الزمن القديم . ونراها ـ الرائحة ـ موجات من الدخان تتلاحق فى أشعة الضوء فوق القصر ، مزيج من رائحة بخور وشعر وعظام تحترق . نجلس على عتبات البيوت وقد أوغل الليل ، لا يأتينا النعاس . ننصت وقد تملكنا حزن غامض ، والرائحة تنتشر ثقيلة وتربض داخل الحجرات . يبللنا العرق ، ونحس بالخواء . تتردد دقات الطبول فى رؤوسنا ونحن نيام . تتوقف قرب الفجر . نحدق فى العتمة الرقيقة والسكون العميق والرائحة التى خفت وطأتها ونعاود النوم .



بدأت نساؤنا تذهب فى الليل للاستحمام فى النهر . كن قد توقفن عن ذلك منذ دخلت مياه المواسير للبيوت . يخرجن فى مجموعات ، يغنين بصوت هامس فى الطريق . يقضين هناك وقتا طويلا ، ويعدن ناضرات ضاحكات والماء يقطر من شعورهن . أهى تلك الرائحة ، أم صوت الطبل العجيب ؟ نتساءل أهى موسيقى جاءوا بها معهم ؟ أم أن أحدهم يدق الطبل فوق سطح القصر . نجلس ـ نحن الرجال ـ مشدودين إليه . ننصت وننصت يرهقنا الصوت المكتوم ورنينه الأجوف ، والرائحة تنساب لزجة ، تعلق بنا وتلفنا . نشكو قلة الحيل ، ونضرب نساءنا ، يستمرئن الضربات ويضحكن فى غنج ، تزداد ضرباتنا عنفا ، ونرمى بأجسادنا مكدودين نحدق فى الظلمة . نحلم ونحن نسمع صوت الطبل . وقد صدقنا ما يرددونه ، فهو ـ الزعيم ـ سيأتى بملايينه التى هربها للخارج ويستثمرها فى بلادنا . هو يقيم بيننا نتخيل المشروع المناسب لبلدتنا قلنا هو مصنع زيت ذرة . فنحن نزرع الكثير

منهـا . وقلنا هـو مصنع نسيـج فنحن نزرع القطن والتيل . وتـ خيلنا أولادنا ـ هؤلاء الذين حصلوا على الشهادات منذ سنـوات ـ يعملـون أخيـرا ويفتحـون بيوتا .

فى الصباح الباكـر والشمس لاتزال قـرصـا أحمـر . يـأتى أربعـة جنـود بسلاحهم فى عربة نقل صغيرة تستطيع المـرور داخـل الحـوارى الضيقـة . يجمـعـون البيض والطيـور . وحـين وجدناهم يدفعون نصف ثمنها أخفيناها غـير أنهم كـانـوا يقتحـمون البيـوت وينبشـون الأفـران ، ويصعـدون إلى السطـوح ، وفى النهـايـة يكتشفـون المخبأ ، وعندما نفد البيض والطيور من بلدتنا استداروا إلى العزب المجـاورة . كانوا هنـاك فى القصر يأكلـون كثيرا . ويقـولون إنـه ـ الزعيم ـ كـان يشرب عشرين بيضة نيئة مخفوقة على الريق ، ويـأكل أكبـاد الدواجن بـدمها . ومـع المغـرب تخرج أكيـاس نفايـة ضخمـة يضعونها فى عربة نقل ويحرقونها خارج البلدة .

جـاء ذات ليلـة الى المقهى يتبعـه جنـديان . كـان ذلك بعـد شهرين من وصوله ، يلبس عباءة سوداء فوق جلبابه الأبيض ، الوقت متأخر ، وكنا قلـة على المقهى ، قفـزنـا من مقـاعـدنـا نبغى الخـروج . أشـار لنـا أن نبقى . كـان أضخم ممـا تخيلناه ، تـأملنـا بنظـرة سريعة من عينيه الحمراوين ثم جـذب مقعـدا إلى الخـارج وجلس فى العتمـة الخفيفة بجوار المدخل . دخل الجنديان المقهى ، أحدهما يعد الجوزة ، والآخر يصنـع الشـاى . تـرك لهمـا فـرغـلى «النصبة» وجلس معنا . كنا مشدودين إلى المقاعد وقد توقفنا عن اللعب وأغلقنا التلفـزيون . الجنـديان يتحـركان دون صوت ، والبندقيتان فى وضـع مائل على ظهريهما . الجندى الذى يعـد الجوزة رص ما يزيد على العشرين حجرا . سار بالجوزة إلى الزعيم الذى أمسك بطرف القصبـة ونظـر إلينـا أخـذ نفسـين قصيرين ، ثم سحب نفسا طويلا فطق الشرر واشتعلت النار فى الحجر . أبعد القصبة بملل . همس فرغلى :

ـ الأصلى !

عينـاه اللتان تـألقتا فجـأة تتبعان الجندى فى عودتـه إلى النصبة . زحف دون أن يشعر به أحد مقتربا من المدخل ولبد بجواره فـاتحا طـاقتى أنفه عـلى سعتهما ملتقطا سحابة الدخان قبل أن يبعثرها الهواء . التفت الزعيم وكـأنما رأى فأرا . تأمله لحظة :

ـ أتعمل هنا ؟

نهض فرغلى على إحدى ركبتيه :

ـ خادمك يابيه

التهبت عينا الزعيم كبـرق خاطف ، وتحركت ساقه قليلا كأنما سيركله :

ـ أتزرعون الخس ؟

ـ نزرعه .

ـ والطماطم ؟

ـ والطماطم .

كنا قلقين على فرغلى كان فى زحفه قد تخطى عتبة المدخـل مقتربـا من مقعد الزعيم .

انتهى من الاحجار سريعا ، وشرب الشاى والتفت نحونا :



ـ ماذا تفعلون ؟

تقهقرنا بمقاعدنا قليلا نحو الجدار . اتجهت عينـاه إلى أوراق اللـعب عـلى المنضدة ، ثم عاد ينظر إلينا . بدا من شروده أنه لم يعد يرانا . نهض وسار إلى النهر على بعد خطوات من المقهى ، وقف على ضفته ويداه وراءه . فى عودته مر بنا ولحق به الجنديان .

* * *

نساؤنا يذهبن إلى الحقول . الليـالى مقمـرة ، ودقـات الطبـل ، والـرائحـة النفاذة . نسمع صيحـاتهن ، يصفقن مـع دقات الطبـل الآتيـة من الجـانب الآخر . يتجاوب الاثنان معا . يرقصن حتى يسقطن اعيـاء ، ثم يـذهبن إلى النهر . نجلس نحن الرجال أمام عتبات البيـوت ونحلم . نقول لـو أنها أعتمت وهطـل المطر ، تـأتى النسـاء بعـد الاستحمـام وجـلابيبـهـن ملتصقـة بأجسادهن المبتلة ، يمشطن شعورهن فى الداخل ويضفرنها ، يطفئن المصابيح ويجلسن وراء الأبواب المواربة .

* * *

كان عبد اللطيف نـائما واستيقظ . أنصت لحظة لصوت دقات الطبل ، ثم انتبه لحركـة امرأتـه بجواره ولهـاثها المكتـوم ، أمسـك يـدهـا فصـرخت ، وحاولت أن تفلت منه ، غير أنه كان قد رأى الخيـارة فى يدهـا والتقطت أنفـه رائحتهـا ، دفع امـرأته فسقطت عـلى الأرض وتدحرجت الخيارة بعيدا وقـد علق بها التراب ونتف من القش المبعثر ، نظر إليها من فـوق الفراش ونظـر إلى الخيارة وقد التوى وجهه ، وعندما أراد أن يندفع إليها لم يتحرك وأخذ يعوى .

نحمله ونجلسه على العتبة ، ونضع المسند وراء ظهره . يظل ساكنا ممسكا كـوب الشاى بيـده السليمة . وعنـدما يلمح امرأته يخفض رأسه .

قالت امرأتى العجوز : «هو الخيار . الكثيرات منهن . حين يذهبن إلى النهر» .

* * *

كنا أمام عتبات البيوت ننصت لدقات الطبل ، ونساؤنا فى الداخل بعد أن منعناهن من الذهاب إلى النهر . نرمق سحب الرائحة بلونها الرمادى تنساب ناعمة فى الضوء ، نراها حين تبدأ موجاتها الأولى فى التدفق ، وكأنما ننتظرها ، نستلقى وقد استرخت أجسادنا ، هى لحظات وتصل إلينا ، تكاد تحرق أنفاسنا ، نلهث ويبللنا العرق ، ورغم عذوبتها التى أخذنا نحس بها إلا أننا لم نألفها أبدا .

دوى الانفجار فجأة هناك ، أعقبته طلقات الرصاص . دخلنا البيوت وأغلقنا الأبواب.صوت الرشاشات يقترب ويبتعد ثم حل الصمت .

انتظرنا قليلا وخرجنا . انطلق البعض منا إلى هناك . القصر شعلة من الأضواء . الكشافات القوية فوق سطحه تمسح الأحواض لمسافات طويلة . نرى فى ضوئها الفئران تجرى بين عيدان الذرة .

كانوا عشرة من أبناء وطنه ـ كما قالت جرائد الصباح ـ جاءوا من ناحية الحقول . الزعيم يقف وسط الأشجار بملابسه الداخلية . بيده مدفع . تسع جثث ملقاة بجانب درجات السلم . العاشر يقف بجوارها مترنحا . الذين ذهبوا منا وقفوا بعيدا متسترين بالحوارى الضيقة . عادوا مع الفجر . ما كدنا نغلق الأبواب حتى انطلقت دفعة من الرصاص ، ثم ساد الصمت .

* * *

كان قد مر ما يقرب من الشهر حين رأيناه قادما فى الليل إلى المقهى . كان يتبعه هذه المرة اثنان من حرسه الخاص . ابتسم لفرغلى القابع بجوار مقعده وأشار للجندى الذى يعد الجوزة أن يعطيه قطعة . أخرج الجندى من جيبه قالبا فى حجم الكف ملفوفا بورق لامع وقطع بأسنانه من طرفه . قال الزعيم :

ـ نهر صغير

قال فرغلى متشمما القطعة فى يده :

آه.صغير

ـ ويكفيكم ؟

ـ يكفى

تأمله الزعيم لحظة ثم نهض واتجه إلى النهر ، وقف على الضفة ويداه خلف ظهره . انتبهنا فجأة لاختفاء الحارسين ، وبدا أن الزعيم قد انتبه لذلك قبلنا ، فعندما اندفعنا خارجين كان يحدق فى عمق الشارع المعتم حيث تردد صوت خطواتهما مبتعدا.عدنا إلى المقهى ، وانزوينا بجانب فتحة الباب . هو هناك على الضفة ، تلفت حوله ثم وقف ساكنا .

ظهر الرجل قادما بمحاذاة الشاطىء . كان لا بداً طول الوقت بين أشجار على مرمى حجر ، يلف وجهه شال أبيض ، قال الزعيم :

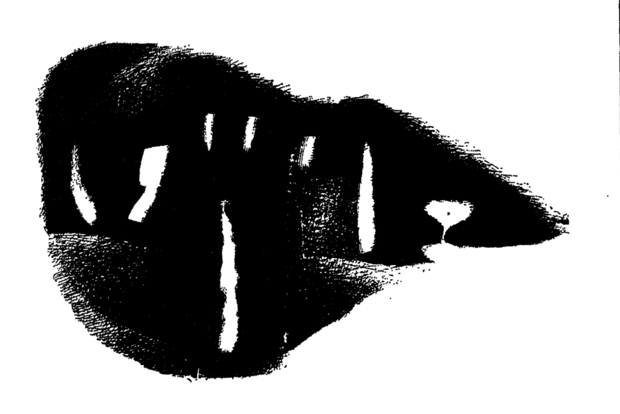
ـ ولِمَ تخفى وجهك ؟

انهمرت الطلقات فجأة . استقبلها واقفا . ظل صامدا حتى توقفت واستدار الرجل مبتعدا فخر على ركبتيه ، ثم سقط على جنبه .

قالت جرائد الصباح أنه كان يتنزه وحده على شاطىء النهر عندما فاجأه مجهول . لم يسألنا أحد عن شىء . وسكتنا .■

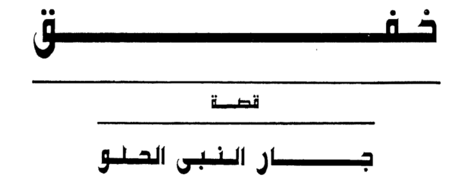


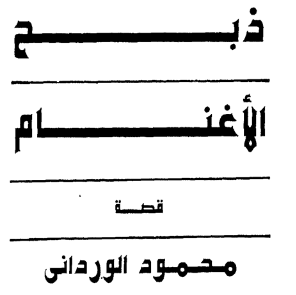
قـال الـرجـل إنهـا مِلكى ، وكان عجوزا جـدا ، وكنتُ أنا صبيا جدا ، بين يديها أغنى التواشيح فتنساب هى عطرا يدخل الدور ، يمكث فى قلبى مسكا لا يبرحـه ، فيما حـاول العجوز انتزاعه فأدمى قلبى ، وكنت أنا صبيا جدا أنط وأقفز وأعدو فتحسدنى العجائز على مهارة روحى ، ربتت عـلى رأسى وقبلتْ خدى فهدأ جنوحى . وركبنا السيارة التى تكدس كـرسيها الخلفى بـأوراق لم نفضها بعـد . كانت تقـود بسرعة فـائقة وتتكلم بسـرعة فـائقة ، وقلبى يرجف يرجف ، رأيت عينيهـا فى المـرآة الصغيرة ، لم تكن الحـرب قـد شخت المرآة ، ولم تكن قد تشرخ قلبها من حفرة فى باطن الأرض . ولم أكن بعد قد شخت وعلقتُ حزنى على فرعها الذى جف وأنَّ . أنست بعينيها الواسعتـين الحمـراوين . لعلها بكت أو كـانت على وشـك ، لكنى كنت أرتجـف من لـذة وجودها بجوارى ، تأملت بدقة رموشها وذقنها وأنفها ، وضعتُ يدى على ركبتها «لا تسـألى عنـى الطيـور .. فـإننـى أصبحت من نبـع الطيـور غيـورا» ثم رقصت أظفارها على الزجاج ، تترنم ، لم تكن قد ولولتْ هى «أيها الراقدون تحت الثرى . نهنهتُ ففردتْ ذراعها اليمنى وأخـذتنى تحت إبطهـا فشـدتنى تلـك الرائحة إلى ولع لم ينته . قالت سنصعد للجسر ، وننـزل خلـف الجسر حيـث البنات .. يمارسن تحققهن مع الصبيان تحت شجرة الرمان ، وطارت من فـوق الجسر ، هلعتُ وضحكتْ ، شالت يدها عن كتفى ، وضعتْ النظارة على وجهها النحيف . قلتُ لا تتركينى . شطت بنا السيـارة وجـرتهـا الجن إلى وهـدة فى صحراء ، فرأيت فيما بعد النخيل وقد جـزت رؤوسـه ، ورأيت فيمـا بعـد أن الجسر الذى حملنا كأجنة توأمين بيع فى صور ملونة مُدمراً . وقفتْ فوق الجسر وسـألتنى مـا رأيـك ؟ قلتُ لا بـأس ، فأجهشت ، وصرخت أتتركنى للعجوز ؟ لا بأس !! نزلتُ من السيارة بسرعـة ، وأخـذت تـردد بـأسى لا بـأس !! ثم اعترفتُ أننى لم أسمع كـل ما حكت ، لأننى شغلت بلون العينين واننى دهشت من جمال كثافة شعر حاجبيها ، وأننى ظللت طـول الـوقت أخمن لـون طـلاء



رسم للفنان محمود بقشيش

الشفاه . فضحكتْ وضحكتُ . أخذتها فى حضنى ، مرقت كل السيارات ، لم نـأبه . رموا إلينا الزهور والمناديل ورشونا بماء الورد وعلقوا الجعران الأزرق فى السماء من عين الحسود والعدو ، وطارت فوقنا النقود الورقية تحمل فى طياتها تذكار رائحتهم ، ورأيت فيما بعد كل هؤلاء وقد وقفوا مقطوعى الأيدى بجوار ملجأ للأطفال يشحذون ورقة نقدية واحدة أو كوبا من اللبن ، ورأيتنى لم أبخل عليهم بدموعى ، لأن حليبى قد سكبه الشيخ الأعمى حين ضرب بعصاه على يدىّ الضعيفتين . همستُ فى أذنها ، لن أتركك لهم ، فطارت بسيارتها بلا توقف فسكت المذياع عن هول ما يحدث وذكر فقط بأن أصابعنا تشابكت فى عنفوان محب ، وانفتحت الصحراء قلبا عطوفا .. أما حنونا ، ورأيتها فيما بعد جحيما تخرج غلها من طائرات وقنابل ، وناح الحمام على القبائل . صرختْ لن أقف بعد اليوم . رمت معطفها ونظارتها ، وأنا دعوتها للدخول فى الهواء وشق الفضاء ، وحين وصلنا سألتها : دمشق .. أم البصرة ؟ قالت وهى تعض على شفتها السفلى وتكتم ضحكة بالوجه : وصلت إلى قلبك مباشرة . وأرخت الحرب سدولها ولم يخرج عنترة ، وعرفتُ أنه كذب علىّ لأن نارا صارت الأرضُ وجحيما خيولنا . سحبتُ أصابعى من خصلات شعرها . انتبهتْ قالت انظر . كانت الأشلاء تفرش الرمال ، والرمال تلغ فى الدم ، والدم حار . تحسست جسدى لم أجد جرحا واحدا . ليس سوى آلاف الأحلام . القصص .. الحكايات تتقشر على جلدى . أخيرا دمعت عيناها وقالت : لا عليك .. سنرجع سيرا على أرواحهم . وبعد أن تعبنا تماما رأيت العجوز جدا يبكى كطفل فخلعتُ معطفها عليه . وسارت بجوارى عارية فسترتها ، وخرجت التواشيح مواويل ممسوخة ، وبكل ما أستطيع خبأت ابتسامتها المكسورة فى ذاكرتى للأبد . ■





فأعطتني ظهرها الخمرى فتحسست بأصابعى طرفى المشبك ، شبكت حمَّالة نهديها ، وراقبتها وهى تخطو على عجل تُدخل جسمها فى الجلباب السابغ . تمضى وأنا خلفها حتى خرجنا الى الممر . تقودنى رائحتها ، وألمح جسمها يضىء رويداً ، ويلمع سواد جلبابها . على أن الدوار أجبرنى على الجلوس على الفور على أحد جانبى البهو ، وسارعتْ هى بالجلوس إلى جانبى .

ابتسمتْ فى وجهى بعيونها السود الواسعة . وكانت قريبة منى ، وأنا أميّز نقوش الجلباب الأسود التى تملأ الصدر بالألوان الفرحة ، فأنصتُ إليها تردد :

«نقوم الآن حتى لا نتأخر..» .

ووجدتنى خائفاً ، ربما قبل أن أربط لها الحمالة ، وقبل أن تقودنى رائحتها فى الممر . ووجدتنى مرهقاً أيضاً والدوار يلفنى ، غير قادر على مغادرة مكانى . تابعتْ هى :

««إذا دخلنا من هنا .. لن نخرج أبداً» .

«لن نخرج ؟..»

«يعنى..»

«ولو بقينا هنا ؟» .

وانتبهتُ إلى ضجيج العربات والناس فى الميدان ، لكننى رأيت القهوة بمقاعدها المتناثرة ، يجلس عليها الناس يرتدون جلابيبهم ، ويشربون الشاى ويدخنون النارجيلة ، وعبق رائحة الحشيش يهب فجأة ، ثم الشارع الذى يقود إلى المقابر المنتشرة فى المدى . ومن خلفى كان الرعاة يحتلون بأغنامهم القبو الذى فشلتُ من قبل فى التسلل عبره واستخدامه بسبب مئات الأغنام المتراصة تثغو وتعطس فجاة ، وتهز رؤوسها بغضب قبل أن تمد خطومها نحوى . وأمامى مخازن مكدسة فوق البيوت وتحتها ، تضرب صفحة السماء وتكاد تخفى الأضرحة البعيدة .

قامتْ فقمتُ ، وسبقتنى منحرفة داخل الباب الشاهق الواسع ، وقد شكلّ جداره نصف دائرة على جانبيها عمودان رخاميان راسخان ، ومستسلمان لثقل المشربية العالية . وواجهنى خوف أن أفقدها من جراء تمهلى الذى لم أبرأ منه بعد ، وحاولت الإسراع وراءها .

هالنى الضوء الخفيف يغمر القبة العالية ، ونافذتان بينهما دائرة ودائرة ، والجميع من زجاج معشق ملون . تركتُ نفسى لألوان الزجاج وتشكيلاتها ومنمنماتها ، ملايين الأضواء بألوان ظلالها ودرجاتها تتهادى على البسط المفروشة ، وحين لبثتُ واقفاً تقدمتْ نحوى غارقة فى كل الألوان : أمسكتْ بكفى فقبضت على أصابعها أحدق فى عيونها الواسعة تلم كل ألوان الدنيا بين جفنيها ، وأدركتُ لماذا أنا قد أسلمت قيادى لها . على أننى لما تحولتُ إلى الشرق ، فقدت مقاومتى تماماً ، حين

وجدت نافذتين آخريين ودائرتين رصينتين بينهما تدفقان أضواء خابية ، فبدوت كما لو كنت فى بئر دافئة ، انتقلتُ منها إلى بئر باردة ، ثم تبينتُ فى أعلى القبة كتابة دائرية تكشف عن اسم سلطان فشلتُ فى لمِّ أحرفه ونطقها معاً ، بينما تقافزت العصافير تصوصو فى الأعلى .

نفق آخر قصير عبرنا منه ، وصعدنا الدرجات الثلاث ، ووجدتنى هناك فى الظلام ، أتحسسها باحثاً عنها بيدى . بعد برهة ، تبينت الضريح الرخامى الكبير بالكاد أمامنا ، واستدرت لأرى ضريحاً آخر أصغر منه خلفنا . هنا كان صوت العصافير أعلى ، فهى تهرع جميعها نحو القبة التى لا أكاد أرى نهايتها .. مشيت نحوها لأضع يدى على كتفها وهى مستندة بيدها اليمنى على طرف الضريح الأصغر ، كل هذا الفضاء المظلم المحيط بنا يحاصرنا فى أقصى تلك الزاوية ، فعدنا أدراجنا ، وأنا فى المقدمة ، عارفُ طريقى ، حتى توقفنا فى ذات النفق المغسول بضوء آخر النهار . همست لى :

«قلبى يقول لى إنه قريب .. أكاد أسمع بكاءه ...» .

لم أسمع شيئاً ، لكننى كنت موقناً من إحساسها على الرغم من أنه كثيراً ما خاننا فى الآونة الأخيرة حتى أننا لم نستطع اجتياز حاجز الأغنام ، وحوصر بحثنا فى المقابر المنتشرة . بعد أن نسرع من أمام القهوة ، وأنا أسمع بأذنى العبارات الجارحة تغازلها صريحة مبتذلة . ولم يكن فى وسعى إلا أن أصحبها ، ونقضى يومنا فى البحث فى البيوت القصيرة المحيطة بالمقابر ، أو فى المقابر التى تحولت إلى بيوت بعد أن سكنها الأحياء ، وأسمعها تصيح فى نهاية اليوم :

«نفسى أطمئن .. نفسى ..»

وها أنا قد عقدتُ العزم على خوض المحاولة الأخيرة ، لن تقوم قائمة لشكوكها وشكوكى ، وسوف يكون علينا أن نرحل ، ونعاود البحث فى مكان آخر . لا أنا ولا هى بوسعنا العودة دونه . كل يوم ، كنا ننتظر حتى تعبر هذه الجنازة أو تلك بالرجال الحاملين النعوش فى المقدمة ، ومن خلفهم الرجال الآخرون وفى أعقابهم النسوة ثم ننطلق حتى نصل إلى المكان الذى انتهينا إليه فى اليوم الفائت ، تطالعنا وجوه الناس واجمة ونحن نسألهم عن ابننا «مصطفى» .

أمامنا ممر آخر أصغر ، ثم وجدت أن الدرجات الحجرية تكاد تستبين ، فانتظرتُ حتى أحسست بجسمها فى أعقابى ، فصعدتُ وصعدتْ هى ورائى ، وجعلنا ندخل فى العتمة على مهل ، وأتحسس الدرجات الدائرية : لهاثها وحده كان يدفعنى لمواصلة الصعود .

على طول الطريق ، من «شبرا» إلى «الشرابية» إلى «باب الحديد» ثم «العتبة» و «الدراسة» حتى وصلنا إلى المقابر . سألنا وبحثنا وتتبعنا نصفُ



ابننا «مصطفى» سنه سبع سنوات ، يرتدى «مريلة» المدرسة «البيج» ، له غمازتا أمه وعيونها الواسعة ، وله نظرتى وتعلو وجهه ذات الكآبة التى تعلو وجهى لما أغضب ، وله ضحكتها وانفراجة أساريرها .

فاجأنى الهواء البارد والضوء يغسل الأرجاء ، وانتظرت حتى لمسنى جسمها . وقفنا معاً نتطلع مرة أخرى إلى مدن الموت المنتشرة فى المدى ، والقلعة القريبة بمآذنها التركية النحيلة . وخطوتُ قابضاً على كتفها متمهلاً حتى السور القصير ، ووقفنا فى مواجهة القبو ، ورأيت الحبال ممتدة تحمل غسيلها بعد أن أوشك النهار على الرحيل .

بيديّ الاثنتين جذبتها بسرعة لنحتمى بالسور لما سمعت الطلقة الأولى . وتحت القبة لمحتهم يتقدمون مواجهين الجنود . ملثمون يحملون أحجاراً فى قبضاتهم بعد أن أشعلوا النار فى إطارات السيارات ، وقد اعتلى بعضهم الأسطح يحملون الأعلام ملوحين ، والجنود يتقدمون نحوهم بثبات . وجسارة حتى أصاب أحدهم حجر ، فتدفقت الطلقات من كل مكان ، وأمامهم تساقط الأولاد الصغار وانفرجت أصابعهم عن حجارتهم . لصوت الرصاص ظلال وروائح وغبار ودم وصراخ بعيد غائم ، جعلها تنهض قليلاً وتهم برأسها عبر السور بجانبى .

وسرعان ما سيطروا على الموقف وانتهوا من الأطفال مسرعين ، ليحزموا البيوت بمتفجراتهم متعجلين ، قبل أن يركضوا بعيداً وتتطاير البيوت بيتا إثر بيت . وقلت لنفسى ؛ هاهم قد بدأوا فى دك مدينة أخرى . فلا يمر عام إلا وننتظر أن تفارقنا إحدى المدن ، حتى «مصطفى» فقدناه أخيراً ، وها نحن نشاهد عبر السور بقايا المدينة التى اقتلعت قبورها وطارت نحو القلعة السامقة بمآذنها . لم يبق مخيم واحد ، بل غبار وأحجار وهدوء يحل على مهل .

لمستْ كفى أصابعها . وتحولتُ نحوها لأجد وجهها وقد احمرّ وامتلأت عيناها بالدموع ، غير أن وشيش الموج عاجلنا لما طفا وتدفق ماء النهر يغمر الأرض ، وهم يفتحون الجسور على أولاد وبنات آخرين يهتفون ، فتميل الجسور وتميل مفتوحة وتلقى بهم يتساقطون هنا وهناك . ووجدتهاتنشج مرتجفة وقد اخفت وجهها فى صدرى ، لأنهم كانوا يقفون فى العراء صفين طويلين يمتدان من أمام «أوردى أبو زعبل»» وحتى الزنازين البعيدة ، والسجانون يدكونهم بالهراوات بلا هوادة ويصرخون فى المسجونين الراكضين بين الصفين ، ثم صرختْ لما رأتْ الرجل الطويل ينكفىء على وجهه وهم ينحنون عليه مواصلين الدك بعصى وكرابيج ، بينما توقفت الجياد براكبيها على مسافات متباعدة . أخذت أربت على ظهرها واحتضنها وأشم رائحة شعرها . وقلت لنفسى : لن تفرغ جعبتهم على أى حال ، ويمكنهم الاستمرار فى عروضهم أعواماً تلو أعوام .

نظرتُ خلفنا . وقررت أنه ليس أمامنا سوى الزحف محتمين بالسور لنعود أدراجنا ، انحنيت ودعوتها للانحناء ثم بدأتُ فى الزحف وهى بجوارى حتى وصلنا إلى الباب المفتوح على السلم . مددت يدى حين وقفتُ لتستند وتنهض هى أيضاً . دلفنا من الفتحة الصغيرة وسرنا خطوات قصيرة حتى أشرفنا على البهو الفسيح القليل الضوء . وهالتنى رائحة أشجار ورأيت الساقية الخشبية راقدة على الحجر النظيف ، تدور وتدور ، تجرها بقرة حمراء مغماة ، وصوت الماء يعلو تردد أصداءه الجدران . استدرت إليها فاحتضنتنى هامسة :

«كأننى أشم رائحته ..» .

قطعنا البهو وواجهنا شباك صغير فى الأعلى ، وتحته مدخل آخر أفضى بنا إلى سلالم . كدت أركض وهى ورائى تلامسنى متعجلة ، بينما راحت السلالم تضيق والظلام يتكاثف . وسرعان ما وجدتنى فى منحدر رطب موحل ، فقررت أن أبطىء حين أوشكتُ على السقوط منكباً على وجهى ، والتفتُ لأصيح : على مهلكِ ..

لم أر سوى أسنانها البيضاء ، وميزتُ لهاثها ، ورغبت فى أن أميل عليها لأقبلها ، غير أننى استدرت وعاودت الهبوط ، وأخذت أميز الأصوات البعيدة لموسيقى القرب . وقلت لنفسى : فلأتتبع صوت الموسيقى ، لأنه سيقودنا فى نهاية الأمر إلى الخارج ولأحافظ على توازنى لأننى لا أعرف إلاما تنتهى هذه الهاوية ، ولم يكن أمامى إلا مواصلة الانحدار ، وتلمس الأرض الموحلة بأطراف أقدامى ، وبين الحين والحين ، كنت أسمع نونوة قطط واصطفاق أجنحة خفافيش تحوم أمام وجهى . وكنت ألمح تألق العيون المفاجىء مصحوباً بفحيح زواحف تلمس جسومها الغائبة خشونة الجدران ؛ أكاد أحس بأنفاسها وأنا خائف من الركض قدر خوفى من الاضطرار للتمهل ومحاولة تثبيت أقدامى قبل أن أهوى ، وهى خلفى قابضة على قميصى أسمع بكاءها المرعوب تحبس صرخاتها فى دفقات تهز جسمها . جعلت أجبر قدميّ على التوسط قدر الإمكان ، فكتفى اليمنى يجب أن تبتعد عن الجدران ، واليسرى عليها التنبه للهاوية . وها أنا

أهبط وأهبط حتى ساورتنى الشكوك فى استمرار هبوطى واجبارى على المزيد من الهبوط إلى أن وجدتنى فى الخلاء والعتمة وأصوات موسيقى القرب تعلو ، بل وأمكننى أن أميز لحن «يا عشاق النبى»

تدفقت رائحة الدم حريفة تطغى وتتصاعد ، وفكرتُ أنها لابد أن تكون رائحة الأغنام التى احتلت القبو وأمامه وخلفه تثغو وتعطس وتهز رؤوسها . وخيل لى أننى رأيتها تذبح منذ قليل ، أو ربما هى رائحة الآخرين الذين نسفت بيوتهم وقتلوا قابضين على أحجارهم ، أو فتحت الجسور عليهم ، فكثير منا تزايد وأدهم فى السنين الأخيرة . ها هو الليل ندخله وأرى النجوم تومض وتفتح لها أماكن فى السماء الواسعة . وجدتها تسبقنى وصوت الموسيقى يعلو ، وانحرفنا ، واستطعت أن أتبعها ، وجل ما أبغيه أن أشم رائحة شجر أو برتقال أو مطر ، حتى انتهينا إلى الدرجات العريضة . ونزلتُ خلفها أمد يدى محاولاً الامساك بذراعها . على أننى لحتهم أخيراً يتحلقون فى الميدان ، فأسرعتُ وأسرعتُ حتى حاذيتها وأنا أرى الزحام واسمع الضجيج وصوت الزغاريد يشتد متجاوزًا صوت الموسيقى . ثم هبت رائحة الدم مرة أخرى ، ورحت أجهد فى محاولة تذكر الأغنام . هل شاهدتها تذبح بالفعل ؟..

ركضنا حتى الفناء ، ووجدنا لنفسينا مكاناً وسط الناس المتزاحمين ، واستقررنا على إحدى درجات السلم . إلى يميننا المقهى والطريق الذى يشق المقابر المترامية ، بينما كانت هى تترقب وتحرك رأسها محدقة فى كل اتجاه . كانت العربة المفتوحة قد توقفت فى الميدان يتألق فى مقدمتها العريس وعروسه . أمامها حصانان عاريان تلمع عضلاتهما البنية ويهتزان فترتجف أعناقهما ، تبين للحظة خاطفة سيور ممتدة وكلابات تقبض على الفكين ..

ذلكم مصور الفيديو يحمل على كتفه آلته ، وبجواره ولد يحمل كشافاً ساطعاً يكاد يجرح الوجوه الضاجة بالهتاف والغناء ، ونسوة لوّنَّ وجوههن وأطلقن شعورهن يحملن أطفالاً أو حائرات من وقوفهن خاليات . أولاد وبنات ثم أولئك القريبون من عربة العريس والعروس يوجهون كلامهم للمبتسمين السعيدين اللذين سيبدآن حياتهما الجديدة بعد لحظات . صرختْ هى :

««مصطفى .. قلبى لم يكذبنى .. ها هو مصطفى» ..

لم أر إلا الموسيقيين يرتدون قمصاناً مشجرة وسراويل سوداء لامعة وغطاء رأس أحمر . وجوههم يسيل عليها العرق ، وهم يخبطون دفوفهم ويدقون طبولهم وينفخون فى قربهم ، بينما واحد منهم يحمل طبلة يقود الغناء :

دى عروسة البيه

تعالوا لما نسندها له ..

وأخذت هى تشير لى وتذغدنى بكوعها لأتابع أصابعها ، فلم أر إلا الراقصتين الحافيتين بأردية الرقص الحاسرة عن جسمين لدنين وذراعين تتطايران فى الهواء ، ولما سلط عليهما من خلف ضوء كشاف الفيديو ، أدركتُ أنهما رجلان . كان لهما وجهان حليقان مصبوغان بالألوان وشعر رأس قصير ، وأفخاذ مشعرة ، وليونة فيها شبهة اصطناع . صحتُ فيها كى تتوقف قليلاً لكنها اندفعتْ صارخة :

«يا مصطفى .. يا مصطفى ..» .

وعاودتُ متابعة كشاف الفيديو ، وشاهدت النسوة والبنات يرششن الملح على العربة ، والقروش المعدنية تتألق فى الهواء قبل أن تتساقط حول الجوادين . خلفهم كانت صفوف الرجال والأطفال تتراص كأنها تمنع رائحة دم الأغنام المحوّمة ، بينما العريس يبتسم فى بدلته الكحلية الداكنة ، والمرأة الجالسة بجواره لا تكاد تحتمى بركن العربة المفتوحة ، غير مانحة نفسها فرصة أن تضطجع إلى الخلف .

علا صراخها ملتاثاً هذه المرة :

«يا مصطفى .. سأذهب أنا إليه ..»

وانفلتتْ منى فى لحظة ، فانقضضتُ على ذراعها وسحبتها ، فهم قد همّوا بالتحرك ، ولوى كل من الحصانين رقبته ، بل وتحرك الراقصان وعلت الزغاريد والصيحات والشهقات بقربى تماماً ، ملتصقة بى . شددتُ قبضتى على كتفها ، غير أنهم كانوا يضغطون علينا ويطبقون على جسمينا وأنفاسهم أحسها تلفحنى يرددون وراء الولد الذى اندفع يدق على طبلته بعنف ، ويلف حول نفسه طائراً نحو الراقصين اللذين تلقفا الإشارة ، لتنفتح أمامهما الأرض يقطعانها ويتلويان ويتقاربان ويتباعدان ، وملامحهما الذكورية ، رغم الألوان التى ساحت واختلطت من جراء العرق ، تنبض بالتشهى الفاضح ، حتى انفلتتْ هى منى ، وانتبهتُ أحاول رفع راسى ، والضغط من كل صوب يجبرنى على التقدم ، ولم أجد أمامى إلا أن اصيح أيضاً :

«مصطفى .. يا مصـ .. ط .. ف ..»

وخيل لى اننى أسمعها ، هى التى رأته ، ترد علىَّ صائحة :

«يا مصطفى .. مصـ .. طف ..» ■

قامت هى أولا . جلست ، أنزلت ساقيها نحو الأرض ، ثم مالت بجذعها ، ومدت ذراعها لتأخذ المنشفة الملقاة فوق المقعد . حجب جسدها ضوء « الأباجورة » الموضوعة على الأرض إلى جانب الفراش . بدا ظلها هائلا على سقف الحجرة ، ثم انتقل الظل ليسبقها إلى الخارج .

تلفتُ باحثا عن السجائر ، رأيتها فوق المقعد ، قمت فأخذت واحدة وأشعلتها ، ثم خرجتُ متجها إلى الحمام . ترددت لحظة فى الدخول ، لكن الباب المفتوح ، وصوتها الذى كان يسأل عما يضحكنى دفعانى إلى الدخول .

عادت تسألنى باستنكار :

ـــ هل أنت مبسوط إلى هذه الدرجة ؟

ابتسمتُ ، وقلت لها :

ـــ لا .

كانت تقف عارية فى حوض الاستحمام ، تعبث بقدميها فى الماء المتدفق من الصنبور ، بينما استندتُ أنا إلى الجدار البارد المكسو بالقيشانى .

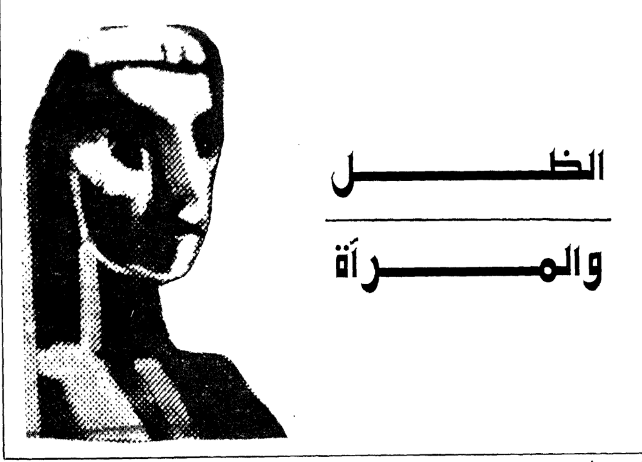
قالت وهى تضحك :

ـــ هل كنت تستحم مع أخواتك البنات عندما كنت طفلا ؟

ثم أخذتْ تبلل جسدها بالماء وهى مستغرقة فى ضحك طفولى . كانت تلك هى المرة الأولى التى أشاهد فيها لوحة معلقة إلى جدار حمام . على يمين الحوض ، إلى أعلا قليلا كانت هناك لوحة زيتية لقلعة من قلاع العصور الوسطى الأوربية ، وفى خلفيتها سحب رمادية ، وإلى اليسار ـ وعلى نفس المستوى ـ كان هناك صندوق زجاجى معلق إلى الحائط ، اصطف داخله عدد من زجاجات الصابون السائل ، والدواء المطهر . فى أقصى اليسار ، حول السخان كانت بعض قطع القيشانى المربعة قد سقطت من مكانها ، تاركة ما تحتها من البلاط الداكن ليصنع أشكالا هندسيةمع القيشانى الأبيض . كانت تبلل ما تحت ثدييها بالماء ، ورحت أنا أقارن بحياد بين شكلهما منفرطين ، وما يوحيان به وهما محبوسان تحت المشد المدبب .

خرجتْ من حوض الاستحمام ، وأمسكت بالمنشفة ، وقبل أن تبدأ فى تجفيف جسدها ، وبينما كنت أخطو نحو الحوض ، أوقفتنى وتحسست آثار الجرح الناتج عن استئصال المرارة ، وقالت إنها كانت تظن أنه أكبر من ذلك بكثير ، ثم قالت إن وزنى قد زاد كثيرا عن أيام الجامعة .

لفت المنشفة حول جسدها وخرجت ، رحت أنا أتذكر الملابسات التى أدت إلى ما حدث ، بينما المياه تغمر جسدى ،



الظل والمرأة

كدت أن أعود إلى الضحك لولا عودتها المباغتة إلى الحمام ـ كانت تلبس المشد فوق صدرها ، وفى فمها سيجارة مشتعلة . سألتنى :

ـ هل يمكن أن نخرج سويا .. نذهب إلى السينما ..... ؟

نظرت إلى عينيها ، محاولا فهم ما تعنيه

استدركت قائلة على الفور :

ـ بين الحين والحين .

أخذت السيجارة من فمها وأنا أقول لها :

ـ بالطبع .

خرجت ، وعادت بعد لحظة ، لتقدم لى منشفة جافة ، وقبل أن تعود إلى الخروج ، قالت إنها لن تصنع لى شايا لأن الوقت قد تأخر ، ولابد أن تعود إلى عملها .

عندما دخلت إلى الحجرة كانت قد أتمت ارتداء ملابسها ، تسوى شعرها وهى جالسة أمام المرآة . أخذت فى التقاط ثيابى المتناثرة فى أنحاء الحجرة . كانت بؤرة الضوء المنبعثة من الأباجورة تنعكس كذلك على المرآة ، وكانا سويا ـ الضوء والمرآة ـ يحولان فضاء الحجرة إلى عالم من الخيالات والظلال .

توقفت فجأة عن تمشيط شعرها ، حركت رأسها بحيث ترانى عبر المرآة . سألتنى وهى ممسكة بالمشط فى يدها اليمنى :

ـ .. ما هو السبب ؟

كان الاستحمام قد انعشنى ، وكنت افكر فى كيفية قضاء الوقت الباقى من اليوم . لم افهم السؤال فى البداية ، لكنى أدركت مغزاه ، بعد لحظة هززت كتفى قائلا :

ـ لاأدرى .

قامت واقفة ، استدارت ناظرة إلىّ ، وقالت :

ـ هل ضايقك ذلك ؟

لم أكن متضايقا ، كنت تقريبا غير مكترث بالأمر ، ولم أكن ـ كذلك ـ راغبا فى الاستمرار فى الحديث . وضعت ذراعى فى أكمام السترة دون أن أجيب .

خطت نحوى . رفعت كلتا يديها ، وأخذت فى تعديل وضع ياقة القميص ، قالت وهى تنظر إلى عينى :

ـ لايهم .. أليس كذلك .

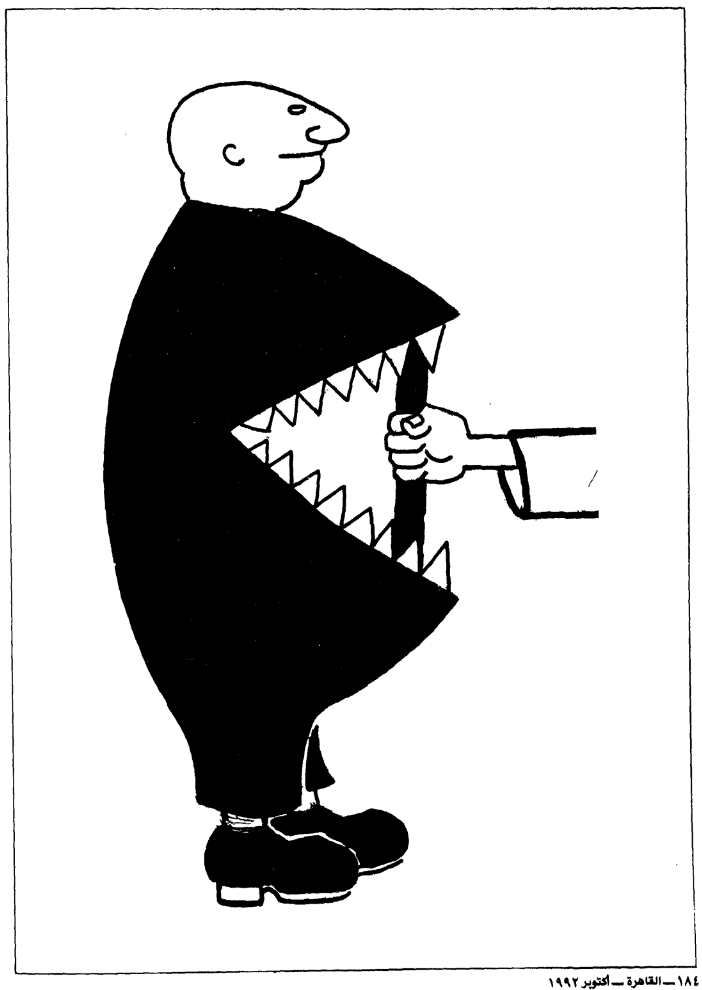
هززت رأسى موافقا .

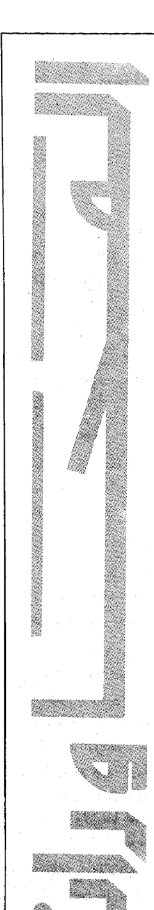
لم يكن الليل قد هبط فى الخارج . سرنا سويا حتى محطة الحافلة ، قالت إنها ستمضى فى الاتجاه المعاكس . صافحتنى ، وشدت أطراف سترتها حول صدرها وسارت . ظللت أتتبعها بعينى حتى صارت مجرد نقطة داكنة على البعد ■



قصة

اسماعيل العادلى





هــــذا البـــــاب

باب المناقشات او المحاورات حول خطط ومواد المجلة احد الابواب الرئيسية التى كنا قد خططنا له منذ اول لحظة من الإصدار الجديد لهذه المجلة .

لكن كان السؤال : متى يصدر هذا الباب ؟

هل نلجا إلى « ولادة » قيصرية ، مفتعلة ، ونذهب ، كما يفعل البعض ، لنستجدى الكتاب والقراء ردود فعلهم ؟ أم ننتظر حتى يولد ولادة طبيعية شرعية ؟

انحاز ت اسرة تحرير المجلة بكاملها للخيار الثانى

وها هو بابكم الجديد ، فاهلا بالحوار .



محاكمة إيزيس

منذ صدر العدد (١١٨) من هذه المجلة ، وعلى صفحاته « مسرواية » الدكتور لويس عوض « محاكمة إيزيس » وردود الفعل تتوالى علينا من كل اتجاه .

طبعا كنا نعرف مسبقا أن هذا سيحدث ، لأن لويس عوض لم يكن كاتبا عاديا ، ولا ناقدا عاديا ، ولا مفكرا عاديا ، ولا حتى مبدعا عاديا ، فالرجل كان ملء السمع والبصر طوال حياته ، خاض المعارك ، وشارك فى بناء ذاكرة هذا الوطن ، وترك ، علاوة على مؤلفاته العديدة ، تلامذة ومريدين ، ينتشرون فى كل مكان .

لم لم ينشر لويس عوض فى حياته هذا النص ؟

هذا هو السؤال المطروح الآن ، والذى تحاول الإجابة عنه دراستا « مجاهد عبد المنعم مجاهد » و « عبد الرحمن أبو عوف » وسننشرهما فى العدد المقبل .

ــ كيف نشرنا هذا النص ؟

بالرجوع إلى صاحب العرض الوحيد فى ذلك ؟ وهو أرملته السيدة (فرانس عوض) وننشر هنا نص هبة الدكتور لويس الذى يؤكد أنها صاحبة الحق الوحيد .

لكن ، وبدلا من المشاركة الإيجابية العاقلة فى هذا الاحتفاء الفكرى والثقافى بهذا النص ، الذى تركه لويس عوض للنشر بعد وفاته ، طلع علينا الدكتور رمسيس عوض (وهو بالمناسبة شقيق الدكتور لويس) فيما يشبه « البلاغ » غير المجدى ، من أى ناحية ، سوى إثارة اللغط حول اسمه ، بغيبة « التواجد » على حساب لويس عوض ، وعلى حساب الحقيقة التى يعلمها هو جيداً لأن لديه نسخة من وصية شقيقه ، التى يعمل على أساسها كل ناشرى تراث لويس عوض . ولأن « الحقيقة » كانت منذ اللحظة الأولى فى صفنا ، ولأن حا كمنا الوحيد هنا هو القارىء ، فإننا نضع بين يديه وثائق هذه القضية ليحكم بنفسه .

وحتى تكون الصورة كاملة وأمينة ننشر كلمة الدكتور رمسيس عوض التى جاءت على صفحات الأهرام (١٩٩٢/٩/٢٧) ثم رد الدكتور غالى شكرى عليها ، وأربع وثائق تدخل فى نطاق هذا الرد ، وفى المقدمة وصية الدكتور لويس عوض .

خطاب مفتوح إلى وزير الثقافة

السيد / وزير الثقافة

تحية طيبة وبعد ،

فقد فوجئت بنص مسرحى مجهول بعنوان « محاكمة إيزيس » منسوب إلى شقيقى المرحوم لويس عوض قام السيد الدكتور غالى شكرى بنشره فى مجلة القاهرة التى يرأس تحريرها . وذلك فى عددها رقم ١١٨ الصادر فى سبتمبر ١٩٩٢ فبادرت بالاتصال بسيادته لاستجلاء حقيقة الأمر . واتضحت من حديث سيادته معى عدة أمور تدعو إلى الانزعاج أوجزها فى النقاط التالية :

(أولا) أن سيادة الدكتور غالى شكرى لا يملك دليلا واحدا على أن المسرحية المشار اليها هى بالفعل من تأليف المرحوم لويس عوض.

(ثانيا) أن سيادته لا يملك دليلا واحدا على أن المرحوم لويس عوض أسند إليه مهمة نشر العمل المذكور بعد وفاته . (وهو طلب أشد ما يكون غرابة لأنه ليس هناك سبب مقنع يمنع الدكتور لويس عوض من نشر هذا العمل فى حياته) .

(ثالثا) يزعم الدكتور غالى شكرى أن حرصه على الاحتفال بالذكرى الثانية لوفاة شقيقى هو الدافع وراء نشره هذا العمل ويؤسفنى أن أقرر بوصفى

أمــــام الــــرأى العــــام

متخصصا فى الآداب أن النص المنسوب إلى أخى (بفرض صحته) لا يرقى من الناحية الفنية إلى المستوى الرفيع لانتاجه الأدبى فى فترة الأربعينيات . وهى من أخصب مراحل حياته الأدبية على الاطلاق .

(رابعا) أن سيادته بنشر هذا النص قد يدخل فى روع السذج من القراء أن لويس عوض أختاره ورثيا له من الناحيتين الفكرية والأدبية وهى مسألة لا يمكن أن نأخذها على عواهنها .

(خامسا) أن سيادته يتصرف على انه وريث المرحوم لويس عوض بالمعنى المادى أو الفيزيقى دون الرجوع إلى افراد أسرة راحلنا العظيم وأعتقد أن تصرفه ينطوى على التجاوز من الناحية القانونية .

سيدى وزير الثقافة

لهذه الأسباب جميعا آثرت أن أتوجه إلى سيادتكم بهذا الخطاب المفتوح راجيا منكم وضع الأمور فى نصابها وأن يصلنى الرد على استفساراتى من خلال اجهزة الثقافة والاعلام التى يستخدمها سيادته للدعاية لمجلته . ويدعونى إلى طلب هذا أن مجلة القاهرة التى يرأس الدكتور غالى شكرى تحريرها تصدر عن وزارة الثقافة التى تتشرف برئاستكم لها .

وتفضلوا سيادتكم بقبول فائق الاحترام

د . رمسيس عوض

هبــــة مالیــــة

إنه فى يوم السبت الموافق ٢ فبراير ١٩٨٠ بمدينة القاهرة أنا الموقع أدناه الدكتور لويس عوض (لويس حنا خليل عوض) ، الأستاذ السابق بكلية الآداب جامعة القاهرة ، والكاتب بجريدة الأهرام حاليا ، وعضو نقابة الصحفيين ، المصرى الجنسية والمقيم فى ٤٤ شارع القصر العينى شقة ١٦ - محافظة القاهرة (قسم قصر النيل) (٦٥ سنة) بعد إقرارى بأنى متمتع بكامل أهليتى القانونية وبكامل إرادتى الحرة وبموافقة السيدة زوجتى السيدة/فرانس عوض (بالميلاد فرانس جون بالانديه) المصرية الجنسية والمقيمة بنفس العنوان السابق (٥٩ سنة) والتى يعتبر توقيعها على هذه الهبة بمثابة موافقة منها على ما جاء بها :

وقد وهبت كلية الآداب جامعة القاهرة مع الاحتفاظ بحق الانتفاع لى وللسيدة زوجتى مدى حياتى وحياتها أيهما أطول ، وبالشروط التالية ، بالريع المترتب على حقوق التأليف والترجمة والنشر وحقوق الأداء العلنى لمؤلفاتى ومترجماتى ومصنفاتى الفنية وعددها حتى عام ١٩٨٠ خمسة وأربعون مؤلفا



لويس عوض

محاكمة إيزيس

أمام الرأى العام

ومترجما ، بحسب القائمة المرفقة ، غير ما يستجد على أن يكون لنا حق توقيع العقود الخاصة بها والمؤدية لهذا الانتفاع بالريع مدى حياتنا فى الحدود التى لا تزعزع ملكية كلية الآداب لهذه الأصول الاستثمارية .

وبعد وفاة كلينا تنتقل هذه الحقوق الاستثمارية وحق الانتفاع من ريعها كاملة ، بشرط عدم المساس بالنصوص ، إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة وذلك بقصد تخصيص هذا الريع حتى الأجل المحدد فى قانون حماية المصنفات الأدبية والفنية على النحو الآتى :-

أولاً : إنشاء جوائز متساوية القيمة للطلبة الحائزين على أعلى مجموع عام فى الدرجات فى امتحان الثانوية العامة او ما يعادلها ممن يلتحقون بكلية الآداب جامعة القاهرة

ثانيا : إنشاء جائزة خاصة لتشجيع دراسة الأدب الانجليزى على مستوى الدراسات العليا تسمى جائزة شيلى للشعر الانجليزى (والغنائى والمسرحى والملحمى)

ثالثا : إنشاء جائزة عامة تسمى جائزة رفاعة الطهطاوى للفكر السياسى والاجتماعى لأفضل بحث منشور فى تاريخ الفكر المصرى .

ويقرر مجلس كلية الآداب عدد هذه الجوائز للطلبة وقيمتها وموعدها وشروط الحصول عليها وأشخاص المحكمين فيها وطريقة قيامهم بمهمتهم كما يحدد ذلك بالنسبة للجائزتين الأخريين وفقا لما يتجمع لدى الكلية من ريع وما يراه المجلس أكثر نفعا فى تشجيع العلم والثقافة وللمجلس أن ينشىء ما يراه من جوائز أخرى .

وعميد كلية الآداب - بصفته - هو الحارس على هذه المهمة بعد وفاتنا كلينا ، وهو المنوط به توقيع كل ما يتصل بها من عقود ويمكن أن تحجب الجوائز فترة ما حتى يجتمع من ريعها الرصيد المناسب لتحقيق الغرض منها .

فإذا وافقتم سيادتكم على قبول هذه الهبة المالية بشروطها فأرجو التفضل بابلاغى بذلك حتى أقوم بالاجراءات القانونية الخاصة بتنفيذها ، علما بأن السيدة زوجتى لها حق التصرف نيابة عنى بموجب التوكيل العام والشامل الصادر لها منى .

وتفضلوا بقبول وافر الاحترام

لويس عوض

د. لويس عوض

الأستاذ السابق بكلية الآداب جامعة القاهرة

المستشار الثقافى لمؤسسة الأهرام حاليا

بطاقة عائلية رقم ١٠٥٢٤

(قصر النيل)

France Awad

(فرنسية بالجنسية)

بطاقة عائلية رقم ١٨٦١٠

صادرة فى ١٩٢٤/٢/٢

قصر النيل

شهود



محـــاكـمــة [محاكمة إيزيس]

طالعت الخطاب المفتوح الذى وجهه الدكتور رمسيس عوض إلى السيد وزير الثقافة شبه مستنجد به للتحقيق فى أمر مسـرواية « محـاكمـة إيـزيس » التى نشرتها مجلـة « القاهـرة » فى عددهـا الأخيـر (١١٨ منتصـف سبتمبـر ١٩٩٢) . ومن حيث الشكل ، فإن لى عـلى هذا الخطـاب بضع مـلاحظات : أولاها أن صاحب الخطاب يعتقد انـه بـإزاء مشكلة بيـروقراطيـة تستـوجب تـدخل المسئـول الأول عن المؤسسات الثقافية الحكومية ، ومن بينهـا الهيئة العامة للكتاب التى تصدر « القاهرة » بينما واقع الأمر اننا بإزاء قضية ادبية من الطراز الأول يجب أن يوجه الخطاب بشـأنهـا إلى الـرأى العـام الأدبـى والثقافى .

والملاحظة الثـانية هى أن صـاحب الخطـاب يعتقد أن كـل من نشر نصـا مجهـولا لأديب راحل يضـع نفسـه فى مرتبة « الوريث » الفكرى أو المادى لهذا الراحل . ولعلها مناسبة طيبة لأقول إن صداقتى للدكتور لويس عوض كانت من أغلى الصداقات التى أعتز بها إلى اليوم والغد ، ولكن هذه الصداقة لا علاقة لها بأى معنى من معانى الوراثة الفكرية أو المعنوية . لقد تعلمت شأن الكثيرين من أدب لويس عوض وفكـره وتجاربـه فى الحيـاة ، ولكنى اختلف عنـه ومـعـه اختلافات كبيـرة فى الافكار والمـواقف والـرؤى بحيث يستحيـل أن أكـون « وارثا » متميزا له . وإنما يمكن القول إن جيلا من الاجيال يرث من سبقوه ، أمـا فى مجال التخصيص فـإنى لست اعتبـر نفسى ـ كمـا تشهـد أعمـالى ـ امتـداداً للـويس عـوض بـالـرغم من احترامى العظيم له ولأعماله . وإنما أنا وجيلى امتداد للاجيال السابقة كلهـا ، وقـد اضـافت تجـاربنـا وظـروفنـا مالا يجعلنا نسخا من السابقـين . ولم يحدث قط أننى أوحيت بغيرذلك . ولكنى أعلم أن الاستاذ محمود شاكر هو أول من ربط بين سلامة موسى ولويس عوض وبينى لأسباب لا علاقة لها بالعلم ، وقد شاع هذا الربط بعدئذ فى المناخ الطائفى المـذمـوم . وهنـاك سبب آخـر ، لعلـه طبيعى ، هـو أن صـداقتى المستمـرة للويس عوض عـلى مدى ثـلاثة عقـود ونصف العقد لم تكن سراً عـلى أحد . وهى صداقة الحوار الموصول ، أولانى خلالها ثقته فى كرم ونبـل ، حتى خلال فترات البعد الجغرافى فإن رسائله التى ستنشر ذات يوم وزياراته لى فى الخارج تبرهن على عمق هذه الصداقـة والثقة التى لا أرغب الآن فى إبـراز أدلتهـا ، ولكن الكثيرين يعرفـونها وقـد عاشـوا بعضا من تفاصيلها وخصوصيتها .

اعتقد انه بـوحى من هذه الثقـة ـ وليس الثوريث ـ اعطانى لويس عوض نسخة مطبوعـة على الآلـة الكاتبـة من « محاكمة إيزيس » . ويدهشنى مبلـغ ابتعاد الدكتور رمسيس عوض ، لا عن شقيقه فحسب ، بل عن مجمل الحركة الأدبية المصريـة ، لأن أمر « محـاكمة إيزيس » لم يكن خافيا على بعض الرموز الثقـافية المعـروفة . بـل ان الاستـاذ صـلاح عيسى رئيس تحـريـر « كتـاب الأهالى » حين طلب منى كتابا عن لويس عوض وأخبرته بشأنها كان يظن أنهـا نشرت ، وإذ نفيت له ذلك قال : ربمـا ظهرت نسخ منهـا بالاستنسـل أو على الآلـة الكاتبـة . إلى هذا الحـد كـانت « محاكمة إيزيس » معروفة ، لأن لويس عـوض اشار إليهـا مراراً فى أحـاديثه الصحفيـة . وكانت شهـادته المسجلـة بصوته والتى نشرتها فى حيـاته مجلـة « أدب ونقـد (عـدد ٥٧ – مـايـو ١٩٩٠) هى الوثيقة الأخيرة التى قال فيهـا حرفيـا « فى هذه الفتـرة أيضـا ـ ١٩٤٦ ـ كتبت الرد على إنجلز وهو لم يـزل مخطـوطـا إلى اليـوم ... ومـن المخطـوطات التى لم تنشر ايضـاً للآن مسرحية محاكمة إيـزيس التى كتبتها عندما عين كريم ثابت مستشارا صحفياً للملك » (ص ٧٤) . وكان الناقد عبد الرحمن أبو عوف حاضراً أثناء تسجيل هذه الشهادة سواء فى « الأهرام » أو فى « نـادى السيـارات » . وكـان لـويس عوض حريصا ـ خارج التسجيل ـ أن يقول لى ويكرر القول أمام عبد الرحمن : فى حوزتك نسخة منها ، إياك أن تنشرها أو تقتطف منها الأ بعد رحيلى . ثم قال

كلاماً آخر أكثر خصوصية وحميمية لست فى حلّ من ذكره ، إلاّ إذا تقدم الشاهد الوحيد بشهادته . ومع ذلك فلست اعتبر الأمر توريثا من أى نوع ، بل نوعا من الثقة . وقبل ان توكل إلىّ الهيئة العامة للكتاب رئاسة تحرير « القاهرة » وفور وفاة الدكتور لويس عوض عرضتُ على الأستاذة فريدة النقاش أن تنشر « محاكمة إيزيس » فى سلسلة « كتاب أدب ونقد » ، وقد وافقت مشكورة على ذلك . ثم تكلمت مع المهندس فوزى حبشى ـ ابن عم لويس عوض ـ حول الاحتفال بالذكرى الثانية التى كان يعد لها ، واخبرته أننى سأنشر « محاكمة إيزيس » فى هذه الذكرى . كان فوزى حبشى هو الذى يمتلك نسخة وحيدة من « الرد على إنجلز » وقد استولى عليها رجال الأمن فى إحدى حملاتهم السياسية القديمة ، وكان يعلم أننى أملك نسخة من « محاكمة إيزيس » احتفظت بها دائماً فى فرنسا .

كيف حصلت عليها ؟ فى بداية الستينيات كنت وما زلت للآن مولعاً بفترة الأربعينيات الثقافية المصرية . وكنت صديقا للفنانين رمسيس يونان وفؤاد كامل وشقيقه الأكبر أنور كامل وغيرهم من « الشباب » الطليعى فى تلك الأيام . وقد امدونى جميعا بالكثير من الوثائق المخطوطة والمطبوعة النادرة وشبه المفقودة عن هذه المرحلة الخصبة فى تاريخنا الثقافى المعاصر . وكان لويس عوض هو الذى اعطانى « محاكمة إيزيس » كإحدى وثائق تلك المرحلة ، وحذرنى من نشرها او الاقتباس عنها طالما كان على قيد الحياة . ولم أفهم سببا لذلك . قرات النص عدة مرات ولم أصل إلى يقين . وحين كنت الح على لويس عوض أن يذكر لى سبب امتناعه عن نشرها كان أحيانا ينفعل لدرجة الغضب . وفى باريس أثناء اعدادى لرسالة الدكتوراه كنت محتاجا فى إعداد احد فصولها لوثائق الاربعينيات .

وطلبت من لويس عوض أن يأذن لى بأن اتعرض « لمحاكمة إيزيس » ، ولكنه رفض بإصرار . زادنى ذلك شوقاً لمعرفة السبب غير أن النص كان متعدد الاحتمالات السياسية والدينية . هل كان لويس عوض يشير بالرمز إلى اشخاص بعينهم ، ولذلك ربط فى شهادته بين تاريخ الكتابة وتعيين كريم ثابت مستشارا للملك ؟ لماذا لم ينشر النص اذن بعد ١٩٥٢ ؟ ام أن الترادف بين إيزيس والعذراء مريم هو السبب ؟ ام أن حاسة الناقد فى لويس عوض لم تكن راضية تمام الرضا عن مستوى النّص ؟ لا ادرى . وحتى الآن لا أدرى لذلك وجدت من الأمانة والتكريم للويس عوض أن انشر هذا النص فى « القاهرة » بعد أن ارتفع الحظر بوفاة الكاتب الكبير . وهى ليست أمانة فى عنقى نحو لويس عوض وحده ، بل نحو التاريخ الأدبى أولاً . وفى « القاهرة » قدمت النصّ بدعوة مفتوحة للنقاد ومؤرخى الأدب أن يقولوا كلمتهم . هذا واجبى ، بغض النظر عن الصداقة الشخصية ، فلم يكن معقولاً أن « أخفى » هذا النص للابد . لقد استطعت الحفاظ عليه حوالى ثلاثين عاماً تنقلت خلالها تنقلات اضطرارية واخرى اختيارية داخل الوطن وخارجه ، وكان من الممكن أن يضيع هنا أو هناك او ان يصل فى إحدى اللحظات إلى أيد غير أمينة أو جاهلة ، تقوم باعدامه أو بنسبته إلى غير صاحبه .

هذه شهادتى للتاريخ . ويبقى سؤال : لماذا لم استأذن الدكتور رمسيس عوض فى امر النشر ؟ والجواب ببساطة أن لويس عوض قد أوصى بمؤلفاته للسيدة زوجته ، فهى الوارث القانونى الوحيد لاعماله ، ومن ثم فهى صاحبة الحقوق المادية المعترف بها عن نشر هذه الاعمال . وفى حوزتى نسخة من هذه الوصية الموقع عليها من صلاح عبد الصبور ومحمود فهمى حجازى بتاريخ ٢ فبراير ١٩٨٠ .

والسبب الثانى هو أن لويس عوض لو اراد أن يعطى شقيقه نسخة من « محاكمة إيزيس » لفعل . ولكن الدكتور عوض كان له راى واضح ومحدد فى هذا الشقيق الأصغر اثبته فى سيرته الذاتية « أوراق العمر » حين قال فى ص ١٠٨ ما نصّه « ذكاؤه فوق المتوسط ولكن لا حدّة فيه ولا إبداع » ثم قال فى ص ١١١ حرفيا « وقد كنت فى آونة كثيرة ، بعد أن خرج رمسيس عوض من قوقعة الجامعات الاكاديمية

وبدأ يخاطب القراء أى منذ الستينيات ، أحس بأنه يغار منى فى سريرته ويحسن إخفاء هذه الغيرة تحت قناع هـدوئه . كان يغار منى لشعوره بأنه مهما حاول فلن يصيب ربع ما اصبته من تأثير فى المثقفين وفى الرأى العام سواء بالقبول أو بالرفض (...) ولكنه كرجل عاقل كان دائما يحاول أن يضبط هذه الغيرة لأنه يعلم ـ بغض النظر عن اختلاف المواهب ودرجـات الـعلم ـ أن هـذا الـتـأثـير الإيجابى أو السلبى القوى لا يُكتسب إلاّ بالنضال والتضحيات ولا يمكن أن يحصله أحد وهو يمشى مثله دائماً بحذاء الحائط » .

واكتفى بهذا القدر ليدرك الدكتـور رمسيس عوض لماذا لم استأذنه فى نشر « محاكمة إيزيس » .

غالى شكرى

الأهرام ٤ – ١٠ – ١٩٩٢



نعـــم كان نص [محاكمة إيزيس] لدى غـالى شكرى

فقد اعتقـد ومن واقـع صـداقتى ومعايشتى ومعرفتى وتلمـذتى للناقد والمؤرخ والفنان الشامـخ لويس عوض .. أن لدىّ ما اقوله وارد به على رسـالـة شقيقـه د . رمسيس عـوض والموجهة للسيد وزير الثقافة والمنشورة بالأهرام فى ٢٧/٩/٩٢ والمتعلقة بنشر د . غالى شكرى لنص مجهـول للويس عوض بمجلة القاهرة بعنوان (محاكمة إيزيس) .

أولا : فيما يتعلق بنسبة هذا النص للويس عوض فقد عرفت منه فى أكثر من حـوار أن لديـه بعض نصوص أدبيـة وشعرية كتبها فى الفترة من ٤١ ـ ٤٦ وهى التى عانى فيها لويس عوض أزمات حياتية وفكرية وسياسية خصبة فى إطار ازمـة مصر فى سنـوات القلق والعنف والمظاهرات والتى بلغت ذروتها فى عام ٤٦ بتـأليف لجنـة الطلبـة والعمـال واعتقـالات صـدقى ضـد الحـركـة الديمقراطية التقدمية وهى الفترة التى كتب فيها ديوان (بلـوتلانـد) ورواية (العنقاء) و (مذكرات طالب بعثـة) وأكد لى أن ثمة نصاً لم ينشره ويفضل نشره بعد وفاته . ولم يبدلى الأسباب ، وهذا النص هو (محاكمة إيزيس) وان صورة من المخطوط موجودة لـدى د . غالى شكرى مصحـوبة بـوصية عـدم نشرها إلا بعد وفاته .

واشـهـد أنى مـن قـراءتى للنص ودراستى له أجده يعبر عن رؤية لويس عوض الفكرية والجماليـة وتفسيراتـه للمثولوجية المصرية وأسطورة أوزوريس والبعث وهى تتفق مع دراسته عن أصول المسـرح المصرى والمنشـورة فى كتابـه (دراسات عن أدبنا الحـديث) وفيها خصائص لغته الشعرية وآليات خطابه الإبـداعى واستخدامـاته لـلاسـاطـير والرموز ، واعتقد أنه لم يكن راضيا عن صـورتها الأولى بجـانب أن الحمـلات والهجوم السلفى الرجعى الذى تعرض له لويس عوض اقنعه بالخوف من سوء تفسير النص خاصة لشدة هذه الحملة بعد كتابه عن أبو العلاء ورسالة الغفران وكتـابه عن الافغـانى .. ثم أن النص يستجيب لواقع السياسة والصراعات فى الاربعينيـات غير أنـه يتفق مع تصـور لـويس عوض لسر تكـوين الشخصيـة المصرية وأسرارها .

ثانيا : اننى أشهد انه فى آخر زيارة له بالأهرام وكنا نلتقى به كل يوم خميس وبعد حوار حـزين شعرنـا بأن لـويس عوض يودعنا .. امسك بذراعى ونظر لى بحدة وهو يشير للدكتـور غالى شكـرى قائلا : (انه المسئول الآن فقد اوصيته

بكل شيء وقلت له كل شيء .. فهو المسئول) .

ولقد تاثر د . غالى شكرى بهذا الكلام وظل يستفسر منى عن معنى هذا الكلام فقلت له لعله يقصد نص « محاكمة إيزيس » الموجود لديك كذلك بعض القصائد بجانب مواصلة طريق لويس عوض النقدى والفكرى التنويرى .

وانا أعرف مدى علاقة لويس عوض بغالى شكرى وثقته به وقربه منه مما يجعلنى وانا مرتاح الضمير أدلى بهذه الشهادة .

عبد الرحمن أبو عوف

الأهرام ١١ - ١٠ - ١٩٩٢



[محاكمة إيزيس] شهادة للتاريخ

فوجئت بالخطاب المفتوح الذى ارسله الدكتور رمسيس عوض إلى وزير الثقافة على صفحات الأهرام بتارخ ٢٧/٩/١٩٩٢ وزعم فيه أن الدكتور غالى شكرى قام بنشر نص مسرحى مجهول بعنوان « محاكمة إيزيس » منسوب إلى شقيقه المرحوم لويس عوض ، فى حين أن الدكتور غالى شكرى لا يملك دليلا واحداً على أن المسرحية المشار إليها هى بالفعل من تأليف لويس عوض . وواصل الدكتور رمسيس عوض توجيه أتهاماته للدكتور غالى شكرى ، وهى اتهامات أستطيع ان أفندها لأننى كنت شاهداً على هذا الموضوع مع حضور اثنين من الأصدقاء أحدهما الناقد عبد الرحمن أبو عوف والآخر محسن عبد الخالق الذى نال درجة الماجستير تحت اشراق فى موضوع « المنهج النقدى عند لويس عوض » .

فقبل رحيل الدكتور لويس عوض بما يقرب من عامين دعانى لتناول الغداء معه فى كافيتريا الأهرام ومناقشة اللمسات النهائية فى رسالة الماجستير المقدمة عن منهجه النقدى . وكالعادة مع استاذنا الدكتور لويس عوض كان الحديث ذا شجون بحيث أخبرنا أنه كتب مسرحية بعنوان « محاكمة إيزيس » ذات مضمون شائك إلى حد ما ، ولذلك آثر الا تنشر الا بعد رحيله برغم أنه كتبها فى أواخر الأربعينيات . وحاولت أنا ومحسن عبد الخالق الحصول عليها للاستفادة بها فى رسالة الماجستير ، خاصة وأن الرسالة بطبيعتها عمل علمى غير منشور ، واذا كان من نصيبها النشر فسنحصل على أذنه أولا . لكنه أصر على اعتذاره بل وأضاف أن المخطوطة ليست فى حوزته ، وأنه أوكل بها للدكتور غالى شكرى بعد أن أوصاه بنشرها بعد رحيله ، اذا وجد أنه من المناسب أو من المفيد نشرها .

ولم أحاول أن أتصل بالدكتور غالى شكرى فى ذلك الوقت بخصوص هذا الموضوع حتى لا أسبب له أى أحراج بعد أن رفض صاحب الشأن الاطلاع على المخطوطة . ومع ذلك أصررت على التنويه فى رسالة الماجستير بالمسرحية مع أسف الباحث لعجزه عن الحصول على نصها الخطى . والرسالة موجودة بمكتبة المعهد العالى للنقد الفنى وبالمكتبة العامة لأكاديمية الفنون لمن يهمه التثبت من هذه الحقيقة ولذلك لم يكن نشر الدكتور غالى شكرى لمسرحية « محاكمة إيزيس » فى مجلة « القاهرة » التى يرأس تحريرها ، فى عددها رقم ١١٨ الصادر فى سبتمبر ١٩٩٢ ، يشكل

محاكمة إيزيس

أمام الرأى العام

أية مفاجأة لى أو للباحث محسن عبد الخالق .

لكن المفاجأة الحقيقية بالنسبة لى كانت هذا الخطاب المفتوح إلى وزير الثقافة والذى دل على أن أخوة الدكتور رمسيس عوض للدكتور لويس عوض ليست شرطا لاستيعاب منهجه النقدى وانجازه الإبداعى . بل إن كلامه عن أخيه ، الذى نجله جميعا ، لا يحمل فى طياته هذا الإجلال ، فلم يذكر فى خطابه المفتوح من القاب لويس عوض غير لقب المرحوم ، وتجاهل ألقاب الناقد والكاتب المسرحى والشاعر والأستاذ الجامعى ! ! وغير ذلك من صفاته الريادية !!

كما زعم الدكتور رمسيس عوض أن الدكتور غالى شكرى يدخل فى روع السُّذَّج من القراء أنه ورث لويس عوض من الناحيتين الفكرية والأدبية ، وهذا ليس عيبا بأية حال من الأحوال لأن كل مثقفى ومفكرى وأدباء جيلنا - وليس غالى شكرى فقط - قد ورثوا لويس عوض الذى ساهم بقسط وافر فى تشكيل وجداننا وصياغة فكرنا . أما بالنسبة لميراث لويس عوض بالمعنى المادى أو الفيزيقى على حد قول رمسيس عوض فهو مقصور - طبقا للقانون - على الأموال والعقارات ، وهو حق لا جدال فيه لأفراد أسرة الراحل العظيم ، لكن يظل تراث لويس عوض ملكا لكل الاجيال . ويبدو أن رمسيس عوض قد خلط بين مفهومى الميراث والتراث !! برغم تخصصه فى دراسة الآداب !

وهكذا بعد أن ثبت لنا بالدليل القاطع أن الدكتور غالى شكرى لم يفعل شيئا سوى أنه حفظ نصا مسرحيا لكاتب جليل من الاندثار تحت وطأة أقدام الزمن ، وبذلك أدى خدمة جليلة لتراث هذا الكاتب دون أى مطمح شخصى هو فى غنى عنه يظل يلح على أذهاننا سؤال مثير يقول : لماذا اختص الدكتور لويس عوض الدكتور غالى شكرى بهذا النص المسرحى ولم يختص أخاه الدكتور رمسيس عوض بوصفه متخصصا فى الآداب على حد قوله فى خطابه المفتوح إلى وزير الثقافة ؟ ! الإجابة عن هذا السؤال قد تكون عند الدكتور رمسيس عوض أو عند الدكتور غالى شكرى أو بين صفحات كتاب « أوراق العمر » الذى ألفه لويس عوض كسيرة ذاتية له !

أما إقحام السلطة واستعداؤها على الكتاب والمفكرين فقد مضى زمانه ، ويكفى الفنان فاروق حسنى القيام بمشروعاته الثقافية القومية التى تستهلك كل وقت وزارته وجهودها ، وواجب علينا أن نشد أزره لا أن نحمله ما لاطاقة له به وما لا جدوى منه .

نبيل راغب

عميد معهد النقد الفنى بأكاديمية الفنون .

الأهرام ١١ - ١٠ - ١٩٩٢

رسالة

الأستاذ الكبير

تحية محب :

قرأت بضيق شديد ما كتبه اليوم الدكتور رمسيس عوض ، إنها كلمات خالية من الحقيقة تماماً ، إلى جانب أنها تفتقد أناقة النقد التى ينبغى أن تكون السمة المميزة لأسلوب أستاذ جامعى يدرس لتلاميذه أصول النقد ، ولياقة الناقد .

أشهد أننى طرف فى هذا الموضوع فقد حاولت أن أضم فى رسالتى فصلا يتضمن تحليلاً لهذه المسرحية التى ألفها لويس عوض وصرح لى بأنها فى حوزتك ، لكن لم أتمكن لحساسية موضوعها كما ذكر لى الدكتور لويس عوض أن أتعرض لها . وقال لى ستنشر بعد وفاتى وهى مع الدكتور غالى شكرى ..

محسن عبد الخالق

١٩٩٢/٩/٢٧

مــــاذا يقـــــول لويس عوض ؟

تفـريـغ الجـزء الخـاص عـن « محاكمة إيزيس » من شريط مسجل بين د . لويس عوض و د . غالى شكرى فى ١٩٨٥/١١/٨.

د . غـالى : طب عـلى فكـرة بـالنسبـة للمخطـوطات ، أنت عنـدك حاجات كثيرة مخطوطة لم تنشر ... فمثـلا هنـاك مخطـوطـة مسـرحيـة هى « محـاكمـة إيـزيس » دى كتبتها سنة كام يا دكتور .

د . لويس : كتبتها ايام ما عملوا كريم ثابت مستشار صحفى .. شوف بقى سنة كام .

د . غالى : يمكن ١٩٤٢ . تقريبا كده .

د . لويس : معرفش ..

أنا فاكر كانت عملية تعقيب على تعيين كريم ثابت مستشار صحفى .

د . غالى : غريب قوى لأنى تصورتهـا الحقيقـة انها منـاظرة مـع تــوفيق الحكيم .. تــوفيـق الحكيم فى ذلك الوقت كـان بيكتـب مسـرح بطـريقـة معينـة ، ووجـدتـك هنـا باستلهامك للتراث وإسقاطك عـلى أحـداث معـاصـرة .. طريقة مختلفة يعنى ..

د . لويس : على العمـوم حقك بـرضه تـعمـلى « نسخـة » مـن البتـاعـه دى عشـان أنـا معنديش

د . غالى : ضاعت ؟ .

د . لويس : آه ضاعت .

د . غالى : دى عندى .. اعترف تسجيلا انها عندى .

د . لويس : تصورهالى .

د . غالى : لا حاضر ابعتها ..

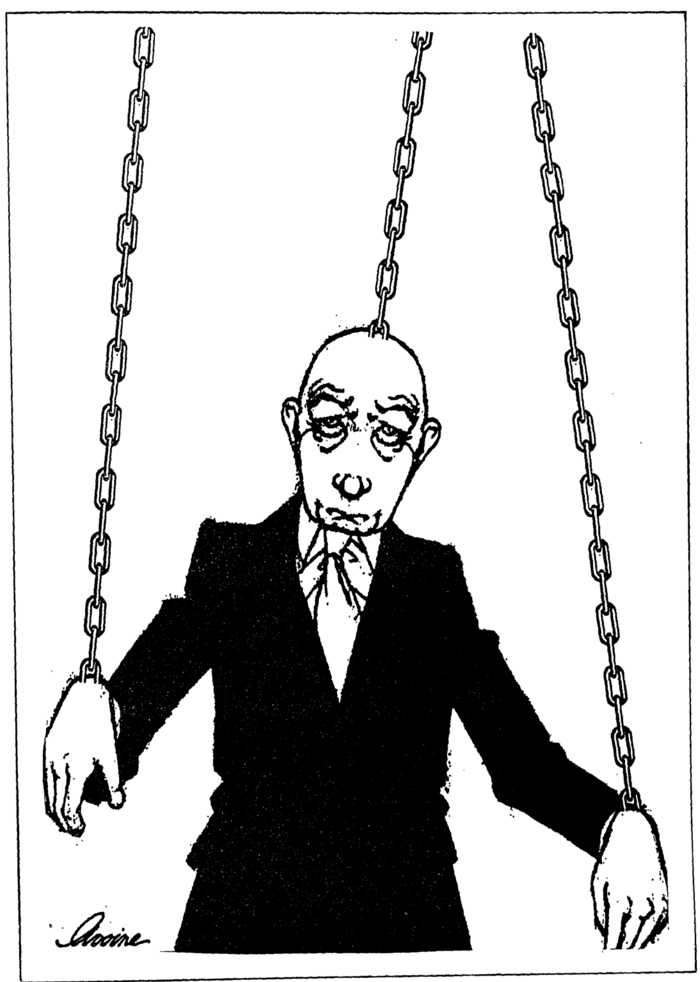


فى العـدد المقـبل

الخطايا العشر الأدبية : مجاهد عبد المنعم مجاهد

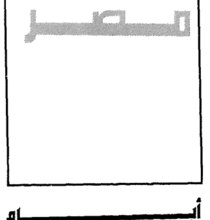
نبـــوءة لويـس عــوض : عبد الرحمن أبو عــوف

نعتذر للقـارىء عن الخطـا الذى وقـع فى العـدد الماضى حيـث جـاءت صفحـة ١٥٨ مكان ١٥٩


Accine

الاشارات والتنبيهات

١٩٨ **مصر** ـ أيام الهلال / محمد الشاذلى . تجريبية المسرح التجريبى / هنا. عبد الفتاح . **الجزائر** ـ بناء الشخصية فى مسرح الفريد فرج / نبيل فرج . **لبنان** ـ خليل حاوى ، قيامة بيروت / مهدى محمد مصطفى . **إيطاليا** / إعادة اكتشاف عصر النهضة احمد المغربى. **فرنسا** / فرنسا تشكو نقص الرواية / ت : منى سعفان .



أيام الهلال

ربما يكون ابرز ما في إحتفالات مئوية الهلال والتي استغرقت شهر سبتمبر باكمله ، انها جاءت بمثابة إحتفاء خالص بالثقافة ، ومع الاهتمام الإعلامي بهذه المناسبة والذى اخرجها من دوائر النخبة ، ترددت بين الناس اسئلة النهضة والتنوير والإحياء والمجتمع المدنى والإبداع وحقوق الإنسان . كما انه باستضافة شاعر عربى كبير هو محمد مهدى الجواهرى ، الذى قرر الإقامة في مصر ...

بالضبط كما كان يحدث في اواخر القرن الماضى حين انطلقت دار الهلال ، وعندما حطت فيها طيور العطاء من جميع الحواضر العربية بلا تمييز ، واتخذ كبار مثقفى الشرق خصوصاً من القاهرة مستقراً ومقاماً . بينما فاجا اوبريت «هلال مصر» الجميع بعرض تاريخى حى وذاكرة بصرية مجيدة عن مائة عام من «النضال» الثقافي . في الوقت الذى حاولت الندوة العلمية الرفيعة التى اقامتها دار الهلال تقديم كشف حساب ختامى لمائة سنة من عمر الأمة ، اتسم بالكشافة ونقد الذات . اما حى السيدة زينب الذى يحتضن دار الهلال فقد كانت «المئوية» مناسبة لإعادة إعمار شاملة وخدمات ثقافية اخرى . ■

هيئة تحضيرية للمئوية

وتبلورت الخطوط العريضة للاحتفال بمئوية «الهلال» خلال اجتماع موسع عقد في مطلع هذا العام بدار الهلال وضم مثقفين كبارا ، ومساهمين من رجال المال والأعمال . واقترح رئيس مجلس إدارة دار الهلال مكرم محمد احمد ثلاث نقاط رئيسية تحققت كلها : الا يكون الاحتفال مصرياً فقط وإنما عربياً ، استثمار نخبة الكتاب العرب التى ستدعى للاحتفال لنقاش ثقافي جاد ، واحتفال كبير في دار الأوبرا المصرية ، بالإضافة إلى إحتفال مواز على مستوى شعبى تعيشه السيدة زينب . وعرض رئيس تحرير مجلة «الهلال» مصطفى نبيل الفكرة الأساسية في الاحتفال وهى إقامة مؤتمر للمثقفين العرب لدراسة الثقافة في مئة عام واستشراف المستقبل . وطالب الكاتب الصحفى كامل زهيرى باحتفال كبير مصرى وعربى ، على مستوى الدولة .



مكرم محمد احمد

اما الناقد رجاء النقاش فقدم مقترحات محددة منها إعادة إصدار الأعداد الخاصة التى صدرت من « الهلال » طوال تاريخها ، ومجلد لاحسن الصور التى نشرتها ، وكتاب « مختارات الهلال » يجمع ما نشرته الهلال لكاتب واحد لمدة طويلة . وموسوعة الهلال للشخصيات ، وندوة ثقافية . ورأى الناقد محمود امين العالم ضرورة نقد «الهلال» وتحليلها .

رئيس تحرير جريدة الجمهورية محفوظ الأنصارى طالب بعدم الغرق في التراث وتقديم رؤية جدديدة لعصر جديد . وطرح الشاعر احمد عبد المعطى حجازى عدة اسئلة تدور حول فشل مشروع التنوير، وضرورة الموقف النقدى من تاريخنا لننطلق من جديد .

وبعد ذلك الأجتماع الموسع بدات الاستعدادات الجادة للاحتفال بمئوية الهلال . ثقافياً بتحضير الندوة ، وفنياً بإعداد الأوبريت ، وشعبياً بانقلاب في حى السيدة زينب . وعمل دؤوب ليل نهار لتجديد الحى ، ومساهمات مالية لخدمات صحية وثقافية فيه ، ثم إضافة طابقين للمبنى الحالى لدار الهلال ، الذى خضع في الوقت نفسه لعملية تجديد شاملة .

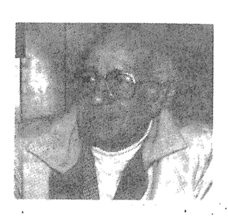
مئة عام من التنوير ..

الندوة العلمية التى اقامتها دار الهلال بقاعة المسرح الصغير بالأوبريت تحت عنوان « مائة عام من التنوير والتحديث » من ١٤ - ١٦ سبتمبر تميزت بالجدية والتنظيم اللذين اتاحا للمشاركين فيها من المثقفين المصريين والعرب فرصة تناول القضايا الهامة المطروحة .

الاشارات والتنبيهات

وكانت أمانة الندوة أعدت ورقة عمل من أربع صفحات أعادت فيها قراءة الهموم والأسئلة الرئيسية التى عبرت عنها الثقافة العربية طوال هذه السنوات المائة ، للإنطلاق إلى استشراف آفاق الحاضر والمستقبل والتصدى لما تثيره من تحديات وأسئلة جديدة ، وما تفرضه من مسئوليات وواجبات ملحة . ولاحظت « ورقة العمل » أن أغلب الأسئلة التى فجرها رجال عصر النهضة منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وماتزال فى الجوهر هى نفس الأسئلة التى تحتدم بها الثقافة العربية فى أيامنا هذه ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين . وعددت « ورقة العمل » هذه الأسئلة المعلقة . قضية الدولة المدنية والدولة الدينية الدعوة إلى الاصلاح والتجديد الدينى ، قضية الوحدة العربية ، قضية التنمية الاقتصادية - الاجتماعية الشاملة . العلاقة بين التراث والعصر ، وبين الأنا القومى والآخر الغربى ، قضايا الحرية والديمقراطية والاستنارة العقلية وحقوق الانسان ، والموقف من المرأة . وتساءلت « ورقة العمل » هل نستطيع أن نجعل من احتفالنا بهذه السنوات المائة من حياة مجلة «الهلال» ومن حياة تجارب التنوير والتحديث فى ثقافتنا العربية ، وقفة لتامل هذه الأسئلة تاملاً « نقديا » شاملاً فى ضوء خبرة الماضى ، ومتطلبات واقعنا العربى الراهن ، وفى إطار عالم اليوم الزاخر بالتحولات الكبرى ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين وهل نستطيع أن نجعل من هذا الاحتفال نقطة إنطلاق ثقافية نحو مائة عام جديدة من التنوير والتحديث ؟

وكان من المداخلات الهامة فى الندوة



محمود أمين العالم

تعليق الدكتور مصطفى الفقى على البحث مستعرضاً روح التسامح الدينى وازدهار الفكر القومى وهى «روح تكاد تضيع منا» وحين يؤسس دار الهلال جرجى زيدان وهو عربى مسيحى من طبقة بيروتية فقيرة ، ويقدم إسهاماته فى الرواية التاريخية الإسلامية ، فإن هذا يؤكد غياب روح التعصب الدينى فى مشروع النهضة العربية الحديثة ، ويوضح مفهوم المشاركة التزواج بين الفكر القومى والتراث الإسلامى العام . وتحدث الدكتور الفقى عن عروبة النهضة التى لا تمثل بالضرورة علمانية النهضة . « فالتداخل بين العروبة والإسلام يمثل واحداً من ابرز دعامات مشروع النهضة حيث تقف جهود الأزهر التنويرية جنباً إلى جنب مع جهود المدارس المسيحية وإسهامات العناصر العربية غير المسلمة الوافدة إلى القاهرة فى القرنين الأخيرين . وأشار الدكتور الفقى إلى العلاقة بين مصر وما نطلق عليه تعبير « الشام » ككيان سياسى ، و «هى علاقة تتجاوز حدود التضامن السياسى والعسكرى عبر التاريخ لتكون دائماً محوراً ثقافياً للتيار القومى الذى واكب النهضة العربية الحديثة واتخذ من مصر ركيزة له» .

وتساءل الدكتور محمد سعيد العطار لماذا لم نستمر بعد النهضة والبداية الممتازة من مفكرين عرب فى بداية القرن العشرين ؟ لماذا لم تستمر هذه الحركة بل فقدت قدرتها وتلاشت وتأخرت ؟ .

وهو مااختلف عليه مع الدكتور عبدالله مناع حيث قال : لم يفشل مشروع التنوير فى المائة الأولى ، بل حقق فى أوقات قياسية ما تعجز عن تحقيقه كثير من الأمم والشعوب ، وما قد نعجز عن تحقيقه الآن فى مواجهة إنتكاساتنا وتنكبنا الطريق وتحدياته الجديدة . وهذه مصر الحبيبة وطن مشروع التنوير ونقطة إنطلاقه . تعالوا لنرى بعين العقل والأنصاف اين كانت وكيف أصبحت عبر هذه المائة عام ؟! لقد خرجت من الأستعمار إلى الاستقلال ، ومن الاستسلام للنضال ، ومن الأوتوقراطية وحكم الفرد إلى الديمقراطية والتعددية ومن الزراعة للصناعة ومن الترجمة للإبداع . وأخذ الدكتور عبد الله مناع على الأمة العربية التى اعتراها غير قليل من الفتور وربما اليأس ، فعادت الأسئلة تطرح نفسها من جديد .

وبينما ركز الروائى حنا مينا على ضرورة مكافحة الأمية فى العالم العربى ، تناول الشاعر احمد عبد المعطى حجازى حيرة المثقفين العرب أمام المصطلح المناسب للنهضة منذ ما يقرب من مائة عام او أكثر «ولم نهتد إلى المصطلح المناسب حتى الآن» حيث قال البعض بالتنوير أو «الإحياء» أو «البعث» . وعلق الشاعر حجازى على ما قاله الدكتور مصطفى الفقى من أن المشروع القومى ليس بالضرورة علمانياً . فتدخل الدكتور مصطفى الفقى بانه لا يوجد تناقض بين المشروع القومى العربى وبين الإسلام .

وان المشروع القومى لا يركز على الدين كعامل وحيد ، وإنما يستوعبه ضمن عوامل اخرى .

الغرب .. جرائمه وعطاياه ..

وكان موضوع الجلسة الثانية « نحن والغرب» وقد رفض الدكتور حسن حنفى ما توصل إليه الدكتور فؤاد زكريا بخصوص الفصل بين الغرب العلمى والغرب الاستعمارى وقال إن هذا الفصل غير وارد . وتساءل الدكتور حسن حنفى : من أعطى الغرب إطلاقية فى مفهوم العلم ؟. «إن هناك مداً وجزراً فى مفهوم العلم وحالياً توجد ازمة فى العلم الغربى منهجاً وتحليلاً» .

ويبدو أن الدكتور محمد عبده يمانى اتفق مع الدكتور فؤاد زكريا ، حيث عقب على بحثه قائلاً : إننا نفضل الانفعال على التفاعل . فاليابان عندما جلسوا مع الغرب جلسوا فى موقع التلاميذ ، اما نحن فعندما نجلس معهم نجلس على مقاعد الزبائن . نحن فى حاجة إلى ان ندرك حين نتعامل مع الغرب اننا فى حاجة إلى الكثير من العلوم التى عنده ، وننتبه إلى اننا حضارة وقيم .

وعقب الدكتور اسامة الباز رئيس الجلسة قائلاً : السادة المتحدثون ركزوا فى كلماتهم على مصر كنموذج للصراع بين العرب والغرب . وكنا نود ان يشمل الحديث نماذج عربية اخرى حتى تكون لدينا رؤية عربية شاملة لهذه القضية فهى قضية قومية وليست محلية .

وتحدث الدكتور مصطفى صفوان عن الفصل بين الدنيا والدين فى المسيحية وصراع الكنيسة بين الملوك والنبلاء والامبراطورية ، وفى هذا المعترك ظهر ما يمكن تسميته بالشعب ، فئات لها حقوقها ، وقوى لها مصالحها ، وقال : إن فكرة الجمع بين الدنيا والدين فكرة ليست المسيحية بريئة منها . وأضاف أن الفرق الحقيقى والمؤثر بين مقولة الأمة والجماعة فى الشرق والتى تحتاج دائماً إلى قائد ، ومقولة الصراع فى الغرب ، أن الصراع يؤدى إلى التناوب على الحكم ، وهذه هى الديمقراطية الحقيقية .

عودة الحريم ...

الجلسة الثالثة من الندوة العلمية كانت بعنوان « المراة وحقوق الإنسان » ، وادارها الدكتور على الراعى الذى افتتحها قائلاً إن قضية المراة وتحريرها تتعرض فى الآونة الأخيرة لانتكاسة كبيرة تحاول ان تنال من مكتسبات المراة المصرية التى نالتها عبر قرن كامل من بداية التنوير مثل حق العمل والتعليم ونشهد حالياً من يطالب بعودة المراة للبيت والمطبخ وعودة الحرملك والحجاب . وبدأت الدكتورة رضوى عاشور تستعرض بحثها «المراة ومشروع النهضة» وتساءلت : إلى اين أوصل مشروع النهضة نساء مصر وكيف انعكس تعثره عليهن ؟. إن


الجواهرى

مشروع النهضة حقق للمراة المصرية مكاسب هائلة خاصة فى مجال التعليم والمشاركة السياسية . ولاحظت الدكتورة رضوى عاشور أن بعض عناصر طبقة البورجوازية المصرية تصدت لقيادة معارك النهضة ، ثم أسهمت هذه العناصر مع غيرها فى إنتكاسة مشروع التحرير .

وتطرقت الدكتورة رضوى عاشور إلى قضية الحجاب وقالت إن الحجاب لا يمثل خطورة ولا يمكن تصنيف النساء بناء على إلتزامهن بالحجاب او رفضهن له . إن مكمن الخطر ليس الحجاب ولكن فى التخبط النفسى والعقلى والسلوكى بين قيم متضاربة واهتزاز قيم ترسخت مثل قيمة التعليم والعمل وحتى الوطنية . إن السياسات الإعلامية والتعليمية تساهم فى تغييب العقل وإنكار الأختلاف والاجتهاد بجانب ان المد الإسلامى المتنامى فى مصر كان له إنعكاساته السلبية على وضع المراة وبالتالى فالمشهد شديد الكآبة على المستوى المحلى بل اكثر قتامة فى ظل النظام العالمى الجديد . وأن التعثر الحالى لمشروع النهضة سوف تشهد السنوات القادمة المزيد منه رغم أن مشروع النهضة قائم ومتصل .

واتفقت الدكتورة لطيفة الزيات مع ما قالته الدكتورة رضوى عاشور ، ولكن مصر رغم كل إنجازات المراة العظيمة فى ١٠٠ عام لم تشهد حركة نسائية بالمعنى المتعارف عليه الآن فى أوروبا وامريكا وعدد من البلدان الأخرى . وقالت إنه ليست قضية الحجاب هى الخطر وإنما ازدياد المناخ السلفى والتغييب هو الأخطر ، لذا فمشروع النهضة قد تعثر إن لم يفشل ..

وانتقد نقيب الصحفيين السوريين صابر



اسماعيل صبرى عبد الله وعلى يساره شكرى عياد ومصطفى الفقى وسعيد العطار ومن اليمين عصمت عبد المجيد ومصطفى نبيل فى الندوة الأولى .

فلحوظ بحث الدكتورة رضوى عاشور لغياب الاحصائيات والاكتفاء بوضعية المراة المصرية دون المراة العربية وإغفال دور المنظمات الشعبية وأثر الاستعمار على الحركة النسائية والقوانين والعادات التى تعرقل تقدم المراة وقالت أستاذة الاجتماع بجامعة الزقازيق الدكتورة هدى زكريا بعد ان استعرضت اوضاع المراة الريفية إن مشروع النهضة لن يقوم إلا بحشد المراة فى ريف مصر ومدنها . بينما عاب الدكتور محمد برادة على البحث إغفاله الإشارة إلى الخطاب النسائى بدءاً من هدى شعراوى وحتى الآن . واختلفت الدكتورة نادية رمسيس معتبرة ما حدث فى مصر مشروع «تحديث» وليس «نهضة» . فنسبة العمالة النسائية فى مصر ما بين ٦ ـ ٩ ٪ من حجم العمالة ونسبة الأمية ٧٠ ٪ ولذا فمشروع التحديث منذ بداية القرن للمراة لم يكن إلا مشروعاً سطحياً ووهمياً ولا ينفذ إلى اعماق اوضاع المراة المصرية . وطالبت فريدة العلقامى بالربط بين وضع النساء والديمقراطية والأمن العربى . وتساءل الدكتور محمد الرميحى : ماذا نعنى بالنهضة ؟ . واتفق مع مقولة إن الحجاب نتيجة وليس سبباً لأنه لا يهم شكل الحجاب وإنما مدلولة .

واعتبرت زينب رضوان أن حقوق المراة التى اكتسبتها خلال قرن كامل أعطاها لها الإسلام منذ فترة طويلة مثل التعليم والميراث والاستقلالية المالية . وهى حقوق لم تحصل عليها المراة الغربية إلا مؤخراً وأكدت الدكتورة فريال حسن أن مشروع النهضة فشل ، وتساءلت : هل نحن لدينا تقاليد النهضة ؟ الاجدى ان نثير قضية التحرر الاجتماعى ، اى قضية التحرر بالمعنى العام لأن قضية المراة وحقوق الإنسان فرع .

وحدد « الطاهر وطار » ثلاث فئات ترتدى الحجاب فى الجزائر ، الأولى فتيات لصد مضايقات الشباب . والثانية فتيات للهروب من سطوة الأب والاخ ، والثالثة غطاء فقط ، لذا فالحجاب هو نتيجة وليس سبباً . ودافعت الدكتورة رضوى عاشور عن بحثها بانها لا تستطيع الحديث عن المراة العربية لانها تعيش واقع المراة المصرية . وأن ما نعيشه هو تعثر لمشروع النهضة وليس فشله ، والحجاب ليس القضية لأن هناك من ترتديه ولديها الوعى والثقافة الكافية .

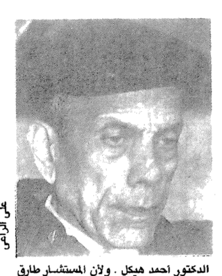
وفى الجلسة الرابعة قام المفكر اللبنانى

منح الصلح متحدثاً عن الشقة بين النخب العربية وإسلام الجماهير وانها عطلت مسيرة المجتمع . واتفق مع الدكتور الجابرى فى ضرورة الديمقراطية والمجتمع المدنى . كما عقب الدكتور حسن حنفى قائلاً إن المجتمع المدنى تعثر فى العالم العربى بعد تعثر الثورات العربية وإنشاء دولة الحزب الواحد . واننا نعيش نظامين ، نظاماً ينتسب إلى قريش والثانى إلى الجيش ، ولاحظ الدكتور مصطفى صفوان أنه لو كانت هناك دولة مطلقة لما أمكن ظهور مجتمع مدنى لأن كل سلطة مفسدة .

ولم يوافق الأستاذ غسان توينى على التمييز بين تاريخنا الشرقى والتاريخ العربى وقال إنه فى المجتمعات الغربية لا يوجد ميراث كاف من الديمقراطية . واعتبر الدكتور ميلاد حنا أن جمهور النخبة المثقفة وقع تحت الأبتزاز فتخلى عن العلمانية . بينما أعتبر الأستاذ شوقى بغدادى ورقة الدكتور الجابرى وثيقة تاريخية . فيما ذهب الدكتور حسام عيسى إلى أن مفهوم المجتمع المدنى غامض فى ورقة الدكتور الجابرى مشيراً إلى ان الدولة يتم تصفيتها اليوم تحت شعارات الديمقراطية وان الديمقراطية مطروحة كعملية مقايضة . وتمنت الأستاذة فريدة العلاقى وضع تفسير محدد لمصطلح «المجتمع المدنى» ورفض الدكتور نصر حامد أبو زيد وضع المجتمع المدنى فى مقابل الدولة ، فالدولة المدنية مطلب وليست هى للقضاء على الدولة بل لحمايتها .

الإسلام والعصر ..

وكانت الجلسة الخامسة مخصصة لموضوع « الإسلام والعصر » ورأس الجلسة



الدكتور احمد هيكل . ولأن المستشار طارق البشرى صاحب الورقة الرئيسية فى الجلسة أعتذر فقد ألقتها . نيابة عنه الكاتبة الصحفية الدكتورة سلوى أبو سعدة ، الورقة جاءت تحت عنوان «الاسلام والعصر ملامح فكرية وتاريخية» . وجاء فيها إن الإسلام هو الأحكام المنزلة من الله ونصوصها ليست تاريخية أما الفقه الإسلامى فهو اجتهادات البشر وتقبل الصواب والخطأ ، وأن عصر تنزيل الرسالة فريد فى ذاته . وأضاف بأن محاولة إضعاف الإسلام فى نفوس المسلمين خلال القرن الماضى لم تتخذ شكل محاربة الإسلام كعقيدة أو كنظام للحياة وإنما جرى ذلك بتغيير الأوضاع الأجتماعية وانماط العلاقات بين الناس بطريقة جعلتها قائمة على تعارض مع تصورات الشريعة واحكامها . وبهذا حوصر الفقه بين بديلين ، إما الإتهام بالجمود والتخلف عن الواقع والعجز عن ملاحقة التطور ، أو الأعتراف بهذه الاساليب والأوضاع المستحدثة . وقال إن لدينا واجبات ثلاثة : أن نحفظ الأوضاع الاجتماعية التى تناسب رسوخها وبقاءها . وأن ندرك الأوضاع الاجتمعية والتاريخية التى لابست اجتهادات الفقهاء السابقين ، وأن يدرك الفقه الحديث وجوه التحديات الحقيقية التى تواجه الجماعة . ويعمل اجتهاداته بما يحقق الاستجابة السليمة لهذه التحديات لصالح الأمة . واستعراض موجات الإصلاح الدينى منذ نهاية القرن الثامن عشر وعلى مدى القرن التاسع عشر ، ثم النصف الأول من القرن العشرين وكيف حدث الصدام بين حركتى الاستقلال العلمانية والإسلامية . وصولاً إلى الموقف القتالى» يواجه به التيار الإسلامى ما رآه أو ظنه من إقصاء للإسلامية السياسية . وقال : إن الوصف الحقيقى الذى يقوم به واقع الجماعة الإسلامية فى الزمان الحاضر هو وصف التبعية والتجزئة ليس المشكل فى فهمنا للإسلام ، ولكن المشكل فى فهمنا للعصر ، وليس فى قراءتنا للنص ولكن فى رؤيتنا للواقع .

واختلف الدكتور نصر حامد نصر أبو زيد مع ورقة المستشار طارق البشرى . فى مفهوم التاريخية حيث يرى كثير من الكتاب الأسلاميين أن النصوص الدينية لا تاريخية . مؤكداً تاريخية الدين وإنسانية الوحى . ورفض الدكتور أبو زيد الربط بين العلمانية والألحاد . وتساءل : هل كان مشروع النظام الناصرى فى مصر يتعارض مع الإسلام ؟ واجاب أن التعارض كان بين الحكم وجماعة سياسية وليس مع الإسلام . وقال إن ورقة المستشار طارق البشرى تهدر إشكالية النهضة والصدام بين العقل الإسلامى والمجتمع ، الإسلام فرع من تراث هذا المجتمع ولكن ليس كل تراثه . وأكد الدكتور أبو زيد انه لن يكون للفكر دور ولا للثقافة إلا بأن تشيع وتنتشر روح العلم .

وعقب الطاهر وطار بأن العصر الحالى هو عصر أنعدام الدولة الوطنية ، عصر تسود فيه الدولة المالكة للتكنولوجيا كل العالم ، نمو حضارى يرفض كل ما يكون عالقاً فى طريقه .

أزمة إبداع .

أما الجلسة السادسة فعنوانها «دور الإبداع فى مشروع النهضة وأدارها الدكتور مصطفى سويف وقدم الورقة الرئيسية فيها الناقد محمود أمين العالم واقتصر فيها على النموذج المصرى . تحدث العالم عن «المشروعات» التى لدينا : المشروع التوفيقى الذى يجمع بين التقليد والاجتهاد ـ المشروع الإسلامى السلفى ـ المشروع القومى ـ المشروع الليبرالى ـ والمشروع العقلانى . ولم ينجح من هذه المشروعات إلا المشروع التحديثى الخارجى الذى يعبر عنه التيار الليبرالى الوضعى ذو التوجه الإسلامى الرسمى الذى أقام سلطته المتمثلة فى النموذج الناصرى فى مصر ، إلا انه لم يلبث أن فشل فى الاحتفاظ بالسلطة لتعود السيطرة ثانية إلى المشروع الليبرالى الوضعى . ورفض العالم المقارنة بين مشروع محمد على العلوى المفروض من الخارج الأستبدادى والمشروع الناصرى الذى توج مختلف «موجات التمرد والثورة على التحديث التابع فى تاريخنا الحديث كله» . وخلص العالم إلى «اننا نعانى من قصور فى الإبداع» بسبب تخلفنا عن تحقيق تنمية إنتاجية صناعية نابعة من الذات .

واحتج الروائى السورى حنامينا قائلاً : ليس صحيحاً أن هناك قصوراً وأزمة إبداع . وحذر الأستاذ غسان توينى من فكرة الأستراتيجية الشاملة لانها عادة تقتل الحرية وتقضى على الإبداع . كما أنتقده الدكتور مصطفى صفوان والدكتور فؤاد زكريا على رفضه الأستعانة بخبرات الخارج المتقدم . واعتبر الدكتور سمير امين أن الأخذ عن الغرب وارد ويمكن أن تتحقق النهضة من الخارج أو الداخل والمشكلة أن فهمنا للإبداع مرتبط بالثقافة السائدة وهى ثقافة «راسمالية مبتورة» بينما رفض الدكتور حسن حنفى سخرية محمود أمين العالم من «التوفيقية» وقالت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد إن الذاتية الحضارية لا تعنى القطيعة مع الغرب . واقترح الكاتب الصحفى صلاح عيسى قيام تجمع نخبوى يرفع شعار الحرية ويوقظ الأغلبية الصامتة . ودافع الدكتور محمد برادة عن الإبداع الأدبى ، واتهم الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى الأستاذ العالم بالأزدواجية .

وعقب العالم على منتقديه قائلاً إنه لا ينكر المبادرات الفردية فى الإبداع واكد أن الخصوصية الذاتية لا تعنى الانغلاق وأن التوفيقية لا تعنى مجرد التجاور بين شيئين وما قدمه التوفيقيون العرب ينطوى على نزعات نقدية وعقلانية .


رجاء النقاش

هل نعمل للمستقبل ؟..

وفى الجلسة السابعة والأخيرة كان الحديث عن المستقبل . وهى الجلسة التى أدارها الدكتور على الدين هلال الذى تساءل عما إذا كنا نستطيع التعامل مع حقائق الغد بما ورثناه عن قرن مضى . وتحدث الدكتور محمد القصاص مؤكداً اننا لا نملك دخول القرن الواحد والعشرين بأدوات استخدمناها فى القرن العشرين . فالمصرى لا يضيف للناتج القومى اكثر من ٦٧٠ دولاراً فى السنة بينما اليابانى يضيف ٢٥ الف دولار , فيما يصل إنفاق المصرى فى السنة ١٥٠٠ دولار . وهذا يعنى اننا نعانى مأزقاً حقيقياً . والسبيل إلى تجاوزه أن ناخذ أمورنا بالعلم . والعلم الذى أقصده ليس كيمياء أو فيزياء وإنما علم إدارة شئون الأمة . ولاحظ الدكتور اسامة الخولى ظاهرتى الأنكماش والبطالة فى الغرب ، واننا «فى حاجة إلى التفكير الثانى» وتمحيص مفاهيم السيادة الوطنية والعالمية بعد نشاة كثير من جماعات الضغط [المصارف ، اوبك ,.C.N.N.B.B.C ، جرين بيس] . وطالب الدكتور حازم الببلاوى بأن نصب اهتمامنا مستقبلاً على الجوانب غير المادية . لأنها الرموز المحركة للتقدم . وقال الأستاذ منح الصلح إن فكرة العروبة لم تتجمد بعد ، مؤكداً أن خيارنا كمجتمع ودولة وافراد يجب أن يكون الدين والوطن والعلم ، حتى نكون قادرين على المنافسة واعرب الدكتور عدنان شهاب الدين عن اعتقاده باستحالة التنبؤ بالمستقبل . وعقب الدكتور مصطفى صفوان مستفسراً عن تعدى مؤسسات السيادة الوطنية وزيادة العصبيات . واكد الأستاذ غسان توينى انه لا شىء يمنع من أن يصل الذاهب الى الفضاء

الاشارات والتنبيهات

ولكن الدين لن يوصل الإنسان إلى الفضاء . وحذر الدكتور سمير أمين من أننا قد نصبح ضمن إطار العالم الرابع . وقال الشاعر احمد عبد المعطى حجازى إنه لا يرى الوضع العالمى بهذا السواد ، فهناك بشائر حرية وازدهار لحقوق الإنسان .

ونادى الشاعر سميح القاسم بأن نخرج من حالة «الهايدبارك» العربى إلى العمل . ولاحظ الدكتور محمد الرميحى باننا ما ضويون وأن هناك خللاً فى تفكيرنا كمثقفين . وتساءل محمود أمين العالم عن العلاقة بين التخلف البشع والعلم . وعقب الدكتور على الدين هلال مطالباً بالتحلى بقدر أكبر من التواضع والتعلم من الواقع واستمرار التواصل لمعرفة ما يحدث .

الجواهرى .. مضيئاً ..

وكان نجم الاحتفالات بالمئوية أو كبيرها هو الشاعر العراقى محمد مهدى الجواهرى الذى أقيمت له على هامش الاحتفالات أمسية بدار الأوبرا المصرية ، وندوة جمعت معه رموز الثقافة المصرية فى قاعة الاجتماعات بدار الهلال .

أما أمسية الأوبرا التى قدمه فيها الشاعر الفلسطينى سميح القاسم ، فقد ألقى فيها الجواهرى قصيدة « هلال الفكر » تحية للمناسبة ومطلعها :

يا هلال الفكر فى العيد السعيد
هكذا ظل مضيئاً ألف عيد ..

كان تقديم سميح القاسم للجواهرى رائعاً إذ قال :

لا يقدم التلميذ الفنى استاذه الشيخ ولا يمهد المريد للمرائد والرائد المارد .. كل ما هنالك صداقة ومحبة لوجه الشعر والنضال جمعتنى بشاعر العراق والعروبة الأكبر منذ ربع قرن . كان العراق آنذاك رازحاً تحت محنة باهظة من القتل والسحل . ما أشبه الليلة بالبارحة ولا غالب إلا الله .. لا بأس ولا يأس .. وها نحن تحت عباءة أبى الفرات نجدد العهد ونردد القسم .. لا بديل لشهوة الحرية العارمة ولا محيد عن صراط الوحدة المستقيم ولا نكوص عن درب النور والشعر والتقدم الحضارى . دربنا الواحد المعبد بشواهد الشهداء وسواعد المناضلين ، جنساً لن ينقرض وأمة لن تموت وحلماً لن يذهب سدى .

وتقدم الجواهرى وقال : ساعة من العمر ولا أزيد .. لى كلمة تكفينى عن الإطالة .. دائماً أقول إن القافية أكلت لسانى ، فأصعب ما يكون على وقد حرمت حتى من القراءة والكتابة ـ الارتجال وصاحب الكلمة مسئول عنها . أنا مدين لمجلة الهلال ولمؤسسة دار الهلال ، للمجلة بالذات . هذه المجلة العظيمة التى أعتقد أن كل عربى فى كل بلد عربى يكاد يكون مديناً لها فيما أثارت من همم وما حفزت من قوى المتطلعين والأجيال الصاعدة طيلة مائة عام وما هذا بالقليل .

ثم ألقى الجواهرى قصيدته « هلال الفكر » ومختارات من أشعاره .

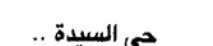
هلال مصر

وتوجت الاحتفالات باوبريت «هلال مصر» على المسرح الكبير بدار الأوبرا المصرية والذى حضره السيد رئيس الجمهورية حسنى مبارك وكبار رجال الدولة . وتناول الأوبريت الذى كتبه عبد السلام أمين وأخرجه محمد فاضل ، رحلة مائة عام من التنوير . مرتبطة بما أثارته «مجلة الهلال» من قضايا ، ثبت فيها أن الهلال كان مشاركاً بانتظام وبرؤية ثاقبة ومنحازة للتقدم فى جميع القضايا العلامات التى مرت بمصر خلال مائة عام . وخصص الأوبريت مشاهد لهذه القضايا أعادت سخونتها إلى الذاكرة : تأسيس جرجى زيدان للهلال فى بلاد النهر الفيلسوف والأرض التى احتضنت عبد الله النديم ومحمد عبده ، ثم معركة طه حسين بسبب كتاب «فى الشعر الجاهلى» ، ومعركة كتاب « الإسلام وأصول الحكم » لعلى عبد الرزق ، ضياع فلسطين فى نكبة ٤٨ ، ومعارك تحرير المرأة وقاسم أمين ، ومطبعة الهلال ، وحى السيدة . جاء الأوبريت موجزاً دون إخلال ، وبسيطاً ومدهشاً . فاجأت فيه الحاضرين مجموعة المطربين المصريين بمستوى غنائى وتمثيل رائع .

إلا أنه وقبل عرض الأوبريت التقى الرئيس مبارك فى الأوبرا برؤساء تحرير الهلال السابقين وحياهم ، وبوزراء الأعلام العرب الذين حضروا الأوبريت كما ألقيت كلمات قبل العرض . حيث تحدث رئيس مجلس إدارة دار الهلال مكرم محمد أحمد عن إنشاء جرجى زيدان للهلال وعن الكتاب الذين نشروا فيها أفكارهم وإبداعاتهم . ثم تناول مكرم محمد أحمد رعاية الرئيس مبارك للثقافة ومؤازرته لمئوية الهلال ، ووجه الشكر للذين ساهموا فى الاحتفالات مادياً وأدبياً من الدولة ومن رجال المال والأعمال . وشكر الرئيس على المطبعة الحديثة التى أهداها لدار الهلال ، والشيخ زايد رئيس الأمارات ، ودولة الكويت .

وتحدث الرئيس مجلس الشورى الدكتور مصطفى كمال حلمى مشيداً بمرحلة متميزة

من الممارسة الديمقراطية تعيشها مصر اليوم . والقى الأستاذ منح الصلح كلمة المثقفين العرب والتى صور فيها دور القاهرة الثقافى وقيادتها مسيرة الفكر العربى . والقى الدكتور على الراعى كلمة المثقفين المصريين وتحدث فيها عن حفاوة الدولة ورعايتها للكتاب والفنانين . واعرب عن رغبة المثقفين المخلصين فى ازدياد اتساع افق الحرية التى تظلهم الآن .



حى السيدة ..

الأحتفال طال الجيران .. فحى السيدة زينب اشرك كبند اصيل فى المئوية باعتباره يحتضن مبنى الدار . حيث تم إجراء عملية تحديث وتجديد شاملة للحى كله . فجددت واجهات مسجد السيدة زينب ، وازيل من حوله العشش والاكشاك والتعديات التى كانت تمنع المتعة البصرية للقادمين إلى المسجد ، وتدفن روعته المعمارية تحت تشويه انشطة غريبة من البيع والشراء والتشرد والتسول أتخذت من أعتاب المسجد مكانا مفضلاً عبر سنوات طويلة . وجددت واجهات سبيل السلطان مصطفى ، وبدأ العمل فى إعادة الحياة إلى بيت السنارى . وتجديد المدرسة السنية الثانوية للبنات . وقدمت خدمات ثقافية وصحية للحى بتحريض من مسئولى دار الهلال .

اما دار الهلال نفسها فقد اضافت لمبناها طابقين جديدين ، ودخلتها ثلاث مطابع جديدة ، وأعيد تأثيثها من الداخل ، وازيلت من فوق مبناها الخارجى الأتربة والغبار

محمد الشاذلى



سعد أردش

حول تجريبية التجريب

السؤال المطروح فى هذا المهرجان الدولى الرابع للمسرح التجريبى دار فى معظمه ـ ايا ما كانت صيغته ـ حول « معنى التجريب » ، سواء انصب هذا فى المفهوم الشكلى أو الرسمى ، أو اتخذ مفهوماً فنيا خالصا ، أو ارتبط معنى التجريب بمنطق ايديولوجى بحت ، أو سعى سعيا حثيثا نحو تواصل مع الجمهور بصرف النظر عن الآثار المترتبة عن هذا التواصل وكيفيتها .

لقد طرح البرنامج الثقافى الذى يتكون من الندوات واللقاءات تحت مظلة مهرجان القاهرة الأخير الذى انعقد فى ١ ـ ١٠ سبتمبر هذه القضايا بشكل مباشر أو غير مباشر ـ تعد ـ فى رايى ـ من اهم إنجازاته ، عدا الانجاز الفنى الهام : « الورشة البولندية » التى شاهدنا فيها أعمال المجربين البولنديين فى العالم : جروتومسكى ـ كانتور ـ شاينا . وكان حضور المخرج البولندى الكبير شاينا فى المهرجان ضيفاً شرفيا ، وعضوا فى لجنة التحكيم الدولية تتويجا لهذه الورشة المسرحية المتميزة .

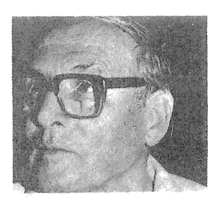
بدأ اول هذه اللقاءات تحت عنوان « قضايا التجريب فى المسرح » . ناقش المشاركون فى الندوة المحور الأول منها وهو « واقع التجريب بين التنظير والتطبيق » ، وقد ادار الندوة الأستاذ/سعد أردش ، وكان المحور الثانى حول دور النقد فى التجريب وقد أدار الندوة الدكتور غالى شكرى ، ثم المحور الثالث حول مستقبل التجريب فى مصر والعالم العربى ، وقد ادار الندوة الاستاذ/سعد اردش بدلاً من رائد التجريب العربى/الطيب الصديقى . ثم ندوة تالية للمائدة المستديرة حول « غايات التجريب » ، بالاضافة إلى ندوات أخرى لرجال المسرح الأوروبى : « يوزيف شاينا » ، تحت عنوان « المسرح التجريبى فى العالم .. وتجربتى » ، والناقد المسرحى الإيطالى فرانكو موادرى عن « المسرح بين التقليد والتجديد فى إيطاليا » .

شارك فى هذه الندوات رجال المسرح العربى والأوروبى ، وكانت لهم إسهاماتهم الهامة فى محاولة وضع اللبنات الرئيسية فى صرح « التجريب المسرحى » ، ذلك المفهوم النزق ، الذى ادار رؤوس المشتركين والمساهمين جميعا . وبين الفينة والفينة نكتشف فى احدى الندوات صراخا يقبض بيد من حديد على كل من يحاول ان «يجرِّب» فى المسرح ، دون أن يضع فى اعتباره النص المسرحى كاساس ، وكان الصارخون ، هم بعض المؤلفين المسرحيين العرب ، واضعين فى الاعتبار ان النص هو الجوهر فى تكوين

العمل المسرحي ، ومن بينهم من أراد البحث عن « فورم » مسرحي عربي ، يعتمد اعتمادا اساسيا على التقاليد والتراث العربيين ، يختلف اختلافا بينا عن « الفورم » الأجنبي المستورد ؛ واصحاب هذا التيار هم بعض المُقننين والمُنظرين العرب ، ومنهم من أراد ان يكون اتجاه التجريب نحو الجمهور والتواصل معه في لغة مشتركة ، وكان بعض المخرجين المسرحيين يسيرون حثيثا نحو هذا الاتجاه . بل ان البعض قد جعل من نفسه وصيا يقف بالمرصاد ضد اى تيار تجريبي آخر لا يضع في اعتباره هذا العنصر في المرتبة الأولى ، واخيرا كانت هناك موجة ترى في التجريب هدفا لذاته بصرف النظر عن النتائج والمحصلات النهائية . وكان اصحاب هذه الموجة يؤمنون إيمانا لا حدود له بان الفنان حُرٌ في ان يمارس تجربته دون وصاية ، ودون قيود لصالح التجريب ذاته .

المصيدة

إننا نقع في نفس احبولة القوانين واللوائح التى تدفع بالتجريب في الوقوع في مصيدة التعريفات والتحديدات المباشرة ، متناسين دائماً ان التجريب يعنى ببساطة محاولتنا - كرجال مسرح - ان نهدم في كل تجربة مسرحية جديدة المُتعارف عليه التقليديُ ، ذلك الذى اصبح خالياً من التعبير الدافء او المعنى الذى يُقرب انفسنا ، للوصول إلى ذلك المجهول المخترق لحجب الواقع وجموده ، والذى يتواءم ليس فقط مع طبيعة المتفرج المركبة ، بل قبل كل شىء مع روح المبدع الخلاّق . هذا القول كفيل بان يثير الزوابع والعواصف باننا



المخرج البولندى شاينا

نلوى عنق التجريب بهدف الوصول إلى التهويمات الضبابية واللا وضوح والغيبوبة والعبثية غير المفهومة .

ومهما يكن من امر ، فلابد لنا من وقفة مع انفسنا ، علينا ان نؤمن بقضية مُسَلَّمه ، وهى انة إذا لم يكن الفنان على قناعة وإيمان بما يقوم بالتجريب فيه ، فإن التجريب يفقد برمته دلالة تجريبيته ، ويصبح خاويا من المحتوى والهدف ، وفي رايي ان المعيار الحقيقي للتجريب نفسه في ان يكون موظفا داخل إطاره ، وداخل مفردات لغة العرض ، بحيث يكون له إطار مقنع ، ومحتوى يعكس شكلا لا يتنافر مع بعضه البعض ، في سياق متزامن يقدم صدق الحالة الذهنية والوجدانية والرؤية الابداعية التى يقدمها لنا المبدع فوق الخشبة .

التنظير

طرحتْ الندوة الأولى « واقع التجريب بين التنظير والتطبيق » عدة تساؤلات حاولت أن تجد لها إجابات فوق افواه المتحدثين والمشاركين والجمهور « عن معنى التجريب » .. لعل اهمها على الاطلاق :

● هل قام التنظير بحل مشكلة مصطلح « معنى التجريب » بحيث تكون له معايير واضحة ؛ فلا يقع في فوضى السلوكيات الذاتية بعيدا عن المضمون وعن الموضوع ؟ !

● إذا كان تاريخ المسرح قد سجل تراكمات هامة من خلال إبداعات الفنانين ، فهل يبدأ التاريخ الحديث من استرجاع هذه التراكمات ، ام يبدأ من فراغ ؟ !

● هل هناك نظرية عامة للتجريب ام أنّ البيئة الجغرافية والاقتصادية تفرض مقومات خاصة « للتجريب » ؟ !

التطبيق

● يظل الصراع محتدما بين الكلمة / اللغة ، والكلمة / الحركة بوجه خاص في العمل التجريبي . الا ينذر هذا بضمور اللغة معين الأدب والفكر ؟ !

● التيار التجريبي الحديث فقد الاهتمام بالقضية الاجتماعية ، واستغرق في الشكل . فهل معنى هذا أنّ المسرح على وشك أنْ يفقد وظيفته الاجتماعية ؟

كانت هذه هى الموضوعات الأساسية التى اقترحت كمحاور للمناقشة .

الحوار

« انا لا اريد ان تستغرقنا عملية التعريف ، لانني لا ارى فرْقاً بين التجريب ، والعملية المسرحية الإبداعية في جد ذاتها » - كان المخرج المصرى الكبير كرم مطاوع من اوائل المتحاورين ، وقد حاول ان يلخص رؤيته حول معنى التجريب في جمل قصيرة اشبه بالشعارات المستنيرة :

- التجريب حالة من حالات الإبداع المسرحى .

- التجريب رغبة فى التطوير كحالة ثقافية وسياسية وفنية .

- المسرح التجريبى هو محاولة للتحلق فوق الواقع ، وصولا إلى تحقيق حلم التطور الفنى الذى هو - فى الوقت نفسه - ليس منفصلا عن حلم الإنسان الذى يهدف الوصول لحالة افضل .

فالتجريب - فى رأيه - يعتمد على رصد الواقع ، فهو محاولة لاحتواء مشاكل الواقع ، وهناك شىء من النبوءة تربط ما بين الواقع والمستقبل ، ويؤكد كرم مطاوع على ان التجريب مرتبط بحالة إبداع مستقبلية ، وهذا لا يتاح إلا من خلال القدرة على التعبير عن الذات . فقضية التجريب بهذا المعنى ليس بمعزل عن تطور المسرح ، ولا ينبغى ان يُنظر للتجريب على انه حالة هلامية لا ترتبط بمضمون ، اى ان التجريب لا يجب ان ينظر إليه بمعزل عن الواقع الثقافى السياسى . أما التطبيق أو ما أطلق عليه كرم مطاوع التجريب والمسرح ، فطالما انه مرتبط ارتباطا عضويا بعملية التطوير المسرحى ، فلابد - إذن - أن يكون التطبيق فى روح التطوير لمفردات العرض المسرحى اساسا : أولاً : النص المسرحى ثم أدوات الممثل ثم التقنيات . وتفرض هذه العناصر الثلاثة علينا بالفعل فكرا متطورا يفرض نفسه . كما يفرض النص والممثل .

وبلاشك أن التجريب بهذا المفهوم يحتاج بالضرورة لحرية التعبير . وان الحركة التطبيقية فى المسرح - كما يؤكد سعد أردش معلقا على حوار كرم مطاوع . هى فى نفس الوقت حركة دائبة .

التجريب فى أسبانيا

ويؤكد الخبير المسرحى جيير مواراسى الأسبانى أن الحديث الطويل عن معنى التجريب افقده دلالته ومعناه عندما ارتبط فقط بمجموعة من الفنانين التشكيليين . ويؤكد بانه بدأ - الآن - يستغل فى أشياء اكثر اتساعا من المفهوم التشكيلى ، ولعل « مسرح الخيال » الذى يبحث فى مجال اعرض داخل نطاق من التجريب أصبح رافدا هاما من روافد التجريب المسرحى .

« [...] ان معنى التجريب فى بلدى أسبانيا - يستطرد الخبير الأسبانى - يستلهم إطاره ومحتواه من بعض « الأشكال الشبحية » ، ويقال عن هذه الأشكال بانها غريبة وغير مألوفة ، ولكنه عالم حى ثرى يعطى للفنان امكانيات هائلة للتجريب ! ! » .

إن الشىء الجوهرى - فى رأيه الشخصى - ليس الوصول لمعنى التجريب ، بقدر ما هى محاولة واعية للعمل الفعلى التجريبى وممارسته . ولذلك فإن بعض النقاد يقدرون الشكل المسرحى الذى يقدم بدون الكلمة المسرحية لامكانية الاقتراب من روح التجريب لذاته . وربما يظهر لنا ذلك



المخرج الإيطالى فرانكو كوادرى

الصراع التقليدى بين الكلمة المنطوقة فوق خشبة المسرح والصورة المرئية المعروضة فوق ذات الخشبة .

إنه لكى نصل إلى شكل جديد من اشكال المسرح لابد من البحث عن شكل من الأشكال الجمالية لا تبحث فقط فى الشكل ، ولا يسيطر عليها من خلال « الموضة » ، بل ينبغى ان يكون نابعا من تطور الحركة الاجتماعية الموجودة . أن سيطرة « الفيديو / تيب » تؤثر بشكل واضح على الوصول إلى تصور غير درامى للشكل الدرامى . ويرى أن الحل فى هذا ، يرجع للمسرح التقليدى ، الذى يمكن استغلال وسائل تقنيته فى توظيفه داخل المسرح التجريبى . إن المسرح التجريبى فى رأى الخبير المسرحى تحتاج للمزج بين عمل النقاد والاكاديميين (المنظرين) والممارسين . وهذا ما يفتقد فى المسرح الاسبانى .

التنظير فى الوطن العربى لم ينجح

يرى الدكتور سليمان الحزامى - الكاتب المسرحى الكويتى - بأن التنظير فى الوطن العربى لم ينجح فى وضع مفاهيم للمسرح التجريبى . فالحركات التى خضعت لفنون التجريب فى المسرح والفنون الأخرى - فى رايه - ناجحة أكثر فى الخارج من نجاحها فى الوطن العربى . ويدلل الكاتب المسرحى على رايه بان التطبيق يحتاج لمخرج وفريق عمل فنى متكامل يستطيع ان يأخذ هذا العمل ، الذى هو نص مكتوب يدفع به إلى المسرح ، ونتوصل من خلاله إلى النجاح من فشله .

مشكلة الأجيال

ويحاول الدكتور محسن مصيلحى أن

يعقد مقارنة ما بين التجريب على المستوى العالمي والتجريب في مصر . ويؤكد انه من خلال مشاهداته ، يرى ان التجريب هو ما لم يتم التنظير له بعد .. بل إنَّ معظم المُنَظِّرين ـ من وجهة نظره ـ من كبار السن ، وقد استنفدوا الوسائل الممكنة لخلق التواصل بين خشبة المسرح والجمهور . ويجزم الناقد المصرى الشاب بان ثمة فجوة بين الاجيال القديمة والاجيال الشابة . فالمنظرون لم يقوموا بتقديم تجاربهم للاجيال الشابة ، لهذا حدثت الفجوة بين اجيال الستينيات والأجيال الشابة . والتنظير ـ في رايه ـ يتم بعد التجربة ، ثم يتجه الفنان الشاب للتجريب ، إما لمواصلة البحث الذى طرحه مجرب سابق او لمعارضة هذه التجارب .

بهذا المعنى يضيف الناقد إضافتين ، الاولى هى ان التجريب هو ذلك الذى لم يتم التنظير له . والثانية انه توجد فوضى في التجريب على الأرض التطبيقية وسببها هى تلك الفجوة بين الجيل القديم والجيل الجديد .

ويتفق المخرج المسرحى رافت الدويرى مع الناقد المسرحي محسن مصيلحى بان المسرحيين يتفاوتون في تعريفهم للتجريب ، ويرى انه لا تعريف محدداً للتجريب ، فلا نهاية لعمل المجربين وبالتالى فإن تعريف التجريب مستحيل .

المفارقة بين التنظير والتطبيق

من أهم النقاط التى يسلط عليها الناقد المصرى الدكتور/ اسامة ابو طالب الضوء على علاقة التجريب بالتنظير ، وهو ينطلق من ان التجريب / التطبيق ظاهرة ملازمة للإبداع ، وان قضية التنظير والممارسة تفقد معناها إن سلمنا أن التجريب ملازم لعملية الابداع منذ الشاعر الإغريقى والمخرج الأول المسرحى الإنسانى /ثيسبس حتى الآن . إنَّ النقطة الاخيرة التى حاول فيها الدكتور اسامه بلورة فكرته الاساسية هى ارتباط الفكرة بالكلمة، وعدم التفريق بينهما في الممارسة التجريبية . وفي رايه ان قيام مهرجان تجريبى في مصر ليس معناه صرف النظر عن حركة الابداع القديم والموجودة في الابداع المسرحى .

مصادرة أم مناورة ؟ !

يعتقد الكاتب والناقد المصرى الدكتور/صبرى حافظ أن ثمة مصادرة تقدم التنظير على التجريب . وأن هناك مناورة تتصور التجريب نشاطا مطروحا في حقل من الثنائيات المتناقضة للتجريب الحق ، يعصف بكل التطبيقات . ويجزم صبرى حافظ ان الفن المسرحى هو نشاط ترميزى يتكون من « شفرات » اللغة والحركة والاشارة ، وبذلك فإن كل تجريب لا ينجح في تاسيس شبكة شفراته ونظامه النسقى ، فليس إلاَّ خروج على السائد والمالوف . ويشترط للتجريب : ان يكون داعيا بالآليات الفاعلة في التقاليد الفنية التى يطمع بالتمرد عليها . في أن يتسلح بجسارة التحرر ، فليس ثمة تجريب بلا حرية . وان يستوعب التجريب شروط الواقع الاجتماعى وامتلاك تصور متكامل لاحتمال تطوره . وواعيا بالخبرة والثقافة . فليس ثمة تجريب لا يعى الأثار القومية او يستوعب كل ما ترسب في ذاكرتها التاريخية والثقافية . عليه ان يتخلص من الروتينية الثقافية والتحرر من التبعية للآخر . ولا يكفى تحقق هذه الشروط ، بل يؤكد صبرى حافظ على اهمية ووجوب حث المبدعين على وجود رؤى جديدة للواقع .

التجريب بين المصطلح والتعريف

ويؤكد الباحث الدكتور/محمد شيحه بأن التعامل مع مصطلح التجريب يكشف ان هناك محاولات لتعريف التجريب . لكنَّ هذه المحاولات لم تضع تعريفا مانعا جامعا للتجريب . وفي حالة غيبة التعريف هناك محاولة البحث عن تعريف إجرائى يحدد العناصر الأساسية في الممارسات (التطبيقات المسرحية) التى يمكن ان نطلق عليها تجارب ثم نخرج بتعريف إجرائى يحدد ماهية التجريب . « يجب كذلك ان نقوم بدراسة التجريب من خلال تطور المسرح والدراما على امتداد التاريخ ـ يستطرد محمد شيحه ـ فهناك فارق بين التجريب في الدراما الذى نشا نتيجة للعلاقة الديالكتيكية التابعة بين الشكل والمضمون وكذلك في المسرح ، فقد بدا التجريب في عشرينيات هذا القرن على نحو متواتر كمحصلة لتحول مفهوم المخرج من انه موصل إلى انه مبدع » .

فيما يتعلق بمسالة التنظير يرى محمد شيحه انه علينا ان نربط بين التنظير والتطبيق ، لأن التجارب كثيرة في العالم ، وقد يحدث ان نسمع عنها ولا نراها ، بل أن كثيراً من الجمهور العربى لم يشاهدها ـ في رأيه ـ يجب أن تكون هذه التجارب موثقة ليمكن الاطلاع عليها والاستفادة بها .

لكل تجريب منهجه واسلوبه

يرى الناقد الإيطالى فرانكو كوادري بان

لكل موقع ولكل بلد أسلوبا خاصا للتعبير عن الذات ،ولكل بلد منهجا يتفق مع نقاط التفكير الاجتماعية والسياسية ، لكل بلد نقاط التقاء فى الافكار تتماشى وتنسجم مع مفهوم كل بيئة وكل بلد على وجه التحديد . قد يفكر مبدع فى تجريب نوع من المسرح يعتمد على احتياج محدد مرتبط بالكلمة ، وقد يفكر آخر فى الشكل ،لذلك يصعب وجود تحديدات لكلمة التجريب . ارتبط التجريب فى إيطاليا بداية بمصطلح « الافاند جارد » اى « الطليعية » ؛ ثم ارتبط بالممارسة التجريبية نفسها . « فالطليعية » ترتبط بالبحث فى المطلق ، اما بالنسبة للتجريب فسيكون ثمة تعميق لقوانين لغة التقنية واطرها . [...] أريد أن اعقد مقارنة ـ يستطرد كوادرى ـ بين فنىّ التصوير (الرسم) والتصوير الفوتوغرافى . يحاول فن التصوير (الرسم) تجاوز الواقع المطروح الذى تسجله عدسة الكاميرا الفوتوغرافية ، بالتقاط اى شىء جديد وتثبيته فى اللوحة يزيد من عمق الواقع وشاعريته . يحاول فنان المسرح ان يتساوى فى فنه مع إمكانيات الفن السينمائى وذلك بالبحث لنفسه عن اشكال ورؤى مسرحية جديدة يتواصل بها فى البشر ، كما يبحث لنفسه فى الوقت نفسه عن هوية خاصة به ، تربطه رباطا وثيقا بوشائج المستقبل » .

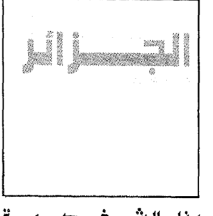
إن النقاش قد اثير وتطور مع قوة الطرح والتأثير بالنسبة للآخرين . التجريب دوما فى حركة دائمة ، التجريب يستهلك نفسه وربما ينتهى فى النهاية إلى ان يموت ـ كما يقول كوادرى . ومن يجرب ، يغير من لغة التعبير ، وربما يتناقض هذا التغيير مع المسرح ذاته . وبهذا يصبح التجريب حقيقيا وليس لعبة .

وما يزال التجريب يبحث له فى وطننا العربى عن معنى ، ليس فقط على مستوى التنظير ، ولكن على مستوى التطبيق . فنحن فى حاجة إلى ممارسة التجربة المسرحية المستمرة التى تصبح لنا كالخبز اليومى فى حياتنا ، ليكون بمقدورنا ممارسة التجريب بشجاعة .

نحن فى أمسّ الحاجة إلى مسرح يناطح مغامراتنا ، ويسعى للدفاع عن المنا ليدفع به فى مواجهتنا . لا يدغدغ مشاعرنا ، بل يدفعنا إلى التفكير والسعى إلى تغييرنا اىْ تغيير مجتمعنا . فالمسرح قرين الإنسان : ظله حاضره ، وجوده موته ، ضياعه ثباته . لذلك كانت ممارسته هى بمثابة ممارسة الحياة نفسها ، ولا يمكن ان يحدث تماثل من قبيل هذا ، إلاّ إذا تم التواصل واللقاء الحميمىّ بين الطرفين : المسرح ومبدعه ، قبل سعينا للبحث عن تجريبية لتجريبنا بين المسرح ومبدعه من جديد !

●●●

هناء عبد الفتاح



بناء الشخصية فى مسرح ألفريد فرج

نوقشت فى معهد الآداب واللغة العربية بجامعة باتنة الجزائرية ، فى آخر ابريل الماضى ، رسالة الماجستير التى تقدم بها صالح لمباركية فى شعبة الأدب الحديث عن « بناء الشخصية » فى مسرح ألفريد فرج وحصلت على تقدير « مشرف جدا » .

تتألف الرسالة من مدخل وخمسة فصول وخاتمة . يتناول المدخل الحركة المسرحية الحديثة فى مصر منذ بدايتها فى القرن التاسع عشر على يد الشاميين ، تقليدا او اقتباسا من المسرح الأوربى .

وهذه البدايات التى اخذت صبغة التعريب او التمصير ، وكانت اقرب إلى الاحتفالية التلقائية التى تنسج خيوطها من البيئة المحلية ، هى التى وضعت حجر الأساس للمسرح فى وطننا ، وحددت اتجاهه لسنوات طويلة تالية ، ان لم يكن إلى الآن .

ولو تتبع الباحث هذا الاتجاه فى صيرورته ، لتيسر له فهم المسرح المصرى

الاشارات والتنبيهات

المعاصر الذى ارتبط بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فهماً أعمق من مجرد السرد الذى يرد فى الرسالة ، منبت الصلة بالبداية ، ودون أن ياخذ فى الاعتبار حاجة المجتمع المصرى بعد الثورة الى الحوار بين الافكار .

ويتناول الفصل الأول من الرسالة مفهوم الشخصية عند علماء النفس والاجتماع ، والفصل الثانى اختلاف وجهات نظر الباحثين حول الشخصية المسرحية ، بين الكلاسيكيين والمحدثين . اما الفصل الثالث فدراسة تطبيقية لبعض النصوص المسرحية لألفريد فرج ، تستلهم شخصيات من التراث ، بينما تنصب دراسة الفصل الرابع على الشخصيات المستوحاة من التاريخ ، والفصل الخامس للشخصيات الواقعية .

وتجمل الخاتمة نتائج البحث عن بناء الشخصية ما بين التراث والتاريخ والواقع ، وصلتها بالقضايا العربية التى يعبر عنها هذا المسرح .

وعلى هامش هذه الدراسة التى استغرقت منذ تسجيلها فى ١٩٨٢ ، عشر سنين ، عقد الباحث مجموعة من الحوارات مع ألفريد فرج ، فى الجزائر والقاهرة ولندن ، تحدث فيها الكاتب عن فنه المسرحى ، واستعان بها صالح لمباركية فى وضع رسالته ، ثم اعدها بمقدمة لتصدر فى كتاب مستقل عنوانه « فن المسرحية » لألفريد فرج » .

والاسطر التالية تطرح اهم الآراء والاعترافات والأسس الفكرية والفنية التى اعتمد عليها الباحث الجزائرى فى رسالته ، ويضمها الكتاب .

يرى ألفريد فرج أن المسرحية فى كل الآداب ـ ولعله يقصد الفنون المختلفة كلها ـ عبارة عن مسعى نحو تحقيق هدف وبذلك


الفريد فرج

تخرج من نطاق الاستاتيكية (الثبات) الى مجال الديناميكية (الحركة) .

وفى مجتمع فى حالة انتقال ، لا يتوقف عن التغير والتطور ، تصبح هذه القيمة الاجتماعية الاخلاقية صفة فنية وفكرية فى آن واحد .

وتصبح الشخصية المسرحية الفعالة فى مختلف اطوار حياتها ، كما تصبح المعانى الايجابية للتجمع والتكتل والتوحيد وغيرها . رسالة ضرورية لا غنى عنها . فى مرحلة استعادة الشخصية القومية بكل ابعادها النفسية والمدنية وبكل ما تطمح إليه من عدل وحرية .

والمسرح عند ألفريد فرج ، كما طالعه فى الآداب القديمة والحديثة ـ فيما عدا اللامعقول والعبث ـ له وظيفة تنويرية تتمثل فى أن يطالع الانسان فيه نفسه او ذاته ، ويعى قضاياه الغائبة التى لا يدركها على وجهها الصحيح ، بالقدرة التى يمتلكها الفن على كشف أعماق الروح والعالم ، فيخرج الفرد عن ذاته ، ويتسلح بالمعرفة المكتسبة ، والمتعة الراقية .

وألفريد فرج فى هذه الحوارات لا ينفى تاثره بالمسرح الغربى الفرنسى والانجليزى (واضيف مسرح بريخت الألمانى) وهذا امر طبيعى لكاتب معاصر لا غنى له عن الاحاطة بثقافة العصر ، ومن آثار دراسته فى قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب جامعة الاسكندرية

ولكنه فى نفس الوقت يذكر عرضا تاثره بتوفيق الحكيم ، ربما بسبب الفروق الأيديولجية بينهما . ثم يذكر ما شاهده فى شبابه المبكر من مسرحيات لنجيب الريحانى ويوسف وهبى والمسرح الشعبى المتجول فى الاقاليم والأرياف ، وكانت آخر فرقه فرقة مسرح المسيرى ومسرح العطار ومسارح الموالد والسيرك والسامر .

ومع هذا فإنه يؤكد دائما ان تاثير البيئة والمجتمع عليه ، كان اقوى فى تكوينه وفى تحديد اتجاهه من كل هذه المؤثرات الفنية التى لم يحصرها حصرا شاملا .

وعن المسرح والتراث يتفق ألفريد فرج مع يوسف إدريس وتوفيق الحكيم فى ان المسرح العربى ليس وافداً من الغرب وإنما هناك تجارب شتى فى القرن الماضى تثبت اصالته ، نبعت من التراث القومى ، وقامت بتطويعه لشكل وصيغة ومعمار المسرح الاوربى .

ولا شك ان ما يقال فى هذه القضية ـ عن المسرح فى خطواته الاولى ، ينطبق بصورة او بأخرى على القصة والرواية . حين اتخذت مادتها من الحياة والتراث ، وكتبت على القالب الاوربى ، كما ورد إلينا من الغرب .

كما ان تجارب هذه الفنون التى تبحث فى الجذور فى مصر ، ولم تعرف القطيعة مع الماضى مثلما لم تعرفها مع العصر الحديث ، لها نظائر عديدة فى الاقطار العربية ، فى المشرق والمغرب .

والارتباط او استلهام التراث ، كان الارتباط واستلهام التاريخ لا يعنى نقله بحذافيره . لعرض صفحة من صفحات الماضى المطوية ، وإنما يعنى اتخاذه مادة حية لرؤى عصرية ، نقدية ، يحتدم فيها الصراع ، قد تكون بدعوتها للتحرير مناقضة لهذا التراث ، حتى تكون ملائمة للعصر الذى نعيش فيه ، كما فى شخصية « ابو الفضول » فى حلاق بغداد (١٩٦٤) ، التى بدت بفضولها الانسانى كرسول للعناية الإلهية يريد اصلاح العالم الفاسد من حوله ، الزاخر بصراع المصالح والسلطة وإقامة ميزان العدل ، غير مكترث بما يتعرض له من ضرر ، وهذه فضيلة تزدان . بها الشخصية ، يرجع الفضل فى الالتفات اليها الى المؤلف فى نص وصفه النقاد انه من ادب الثورة (وليس ادب الاصلاح) ، بينما تتبدى هذه الشخصية فى «الف ليلة وليلة» شخصية حشرية مغلوبة على امرها ، تدس انفها فيما لا يعنيها .

وهناك ايضا شخصية سليمان الحلبى (١٩٦٥) فى المسرحية التى تحمل اسمه وينظر إليه التاريخ كقاتل طعن بسكينه الجنرال كليبر قائد الجيش الفرنسى المحتل ، على حين انه يتجسد فى المسرحية شخصية عقلية فذة تبحث عن الحقيقة الى ان تهتدى اليها ، عبرت بجلاء عن الضمير الجمعى للامة فى حاضرها فى تحديها للاستعمار الخارجى ، وفى تطلعها للتحرر الوطنى .

كذلك فإن ما يقال عن انتساب سليمان الحلبى الى عصرنا ، يقال ايضا عن اخناتون فى ثورته المتعثرة بين المبدأ او التطبيق ، فى مسرحية سقوط فرعون (١٩٥٧) ، التى كتبها ألفريد فرج تحت تاثير انعقاد مؤتمر باندونج وصدور قراراته التاريخية ، ونادى فيها بالحياد الايجابى او بالسلام المسلح .

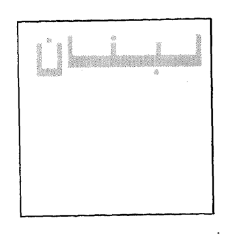
ان الشخصيات فى مسرح ألفريد فرج شخصيات انسانية حية لها وجودها وحقيقتها وحسها واحلامها ، وليست انماطا جامدة ، رسمت كما ترسم المعادلات الحسابية لخدمة موضوع المسرحية او مقولاتها .

وتتضمن الحوارات نظرات او لمحات نقدية كثيرة ، غير ما سبق ، يمكن أن نجدها فى كتابات ألفريد فرج الادبية ، وفى مقدمات مسرحياته .

ولعل اهمها ما يتصل باستخدامه المتنوع للغة . وفق مذاق العصر الذى يرحل اليه ، ووفق روح الشخصية التى يخلقها ، سواء كانت لغة عربية فصحى مستمدة من خصائص الأسلوب العربى ، تخلو من التكلف بقربها من العامية ، او كانت عامية مثقفة ، صفيت من كل الأوشاب التى تختلط بها فى التعامل المادى ، وذلك لاستكمال تاثيرها بجماليات مرهفة ليست ظاهرة او معلنة ، تكتفى بخلق الأجواء والسمات الواقعية او الخيالية ، التى تتحرك فيها الاحداث والشخصيات ، فى عالمها الفنى الخاص . ■

نبيل فرج

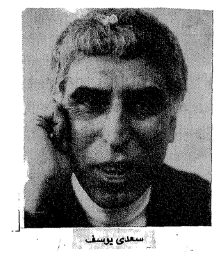




خليل حاوى
قيامة بيروت

فى ليلة الجنون التدميرى المبرمج ، غارات ، غارات قصف بحرى ، قصف برى ، غارات متواصلة منذ الصباح حتى هذا الليل الأسود ، ظلمات فوق ظلمات ، ليس من ضوء فى أى مكان سوى البروق الخاطفة المنطلقة من انفجارات الصواريخ والحرائق ، والقنابل المضيئة الهابطة من السماء ، المدينة تهتز من جذورها ، هكذا تحدث محمد دكروب فى مقال افتتاحى لمجلة الآداب البيروتية التى عادت إلى الصدور بقوة بعد فترة عدم انتظام : تحت عنوان « جماليات أيام الحصار » ذلك الحصار الذى استمر اكثر من شهرين لمدينة بيروت التى قاومت أكبر هجمة عسكرية منذ جانكيزخان ، واستطاعت أن تلفت انظار العالم كله ، لقد كانت أشبه بمدينة اشباح عظيمة ، تضيئها القنابل ، والصواريخ ، وبيروت التى كانت تحتضن فى قلبها جميع الكتاب العرب ، والصحف والمجلات . والمنتديات ، كانت فى الظاهر مدينة ملاهٍ ، وفى الباطن تختزن آلاف الحكايات ، وآلاف البطولات ، وكان حزيران ١٩٨٢ ، أشبه بحزيران ١٩٦٧ ، وكأن التاريخ يكرر نفسه ، وعقل الأمة من مفكرين وشعراء وروائيين تحت القصف المستمر ؛ كان هناك حسين مروة ، عصام محفوظ ، محمود درويش ، سعدى يوسف ، محمد دكروب ، أدونيس ، معين بسيسو ، حبيب صادق ، وخليل حاوى الذى وقف بصدره عارياً أمام جحافل الغزو ، يقرأ « نهر الرماد » و « بيادر الجوع » ويطير كالعنقاء فوق سماء بيروت .


محمود درويش


سعدى يوسف

هؤلاء الكتاب كانت لديهم طقوس كتابة قبل أن يجيء الغزو ويغير كل شيء ، وكانت الشموع هى الشيء الوحيد الذى يحتفى بعوالمهم تحت إيقاع الطائرات ، يقول سعدى يوسف : كنا نكتب تحت القصف فعلاً فى مبانٍ بلا ملاجيء ، وعلى ضوء الشموع !

ويقول أدونيس : إذن ، نحن الآن نجلس فى الملجأ ، كلا ، لا نجلس بل نتموج ، ثمة ما يزعزع تحتنا الاسمنت . وصرخ حسين مروة : أيها العالم !

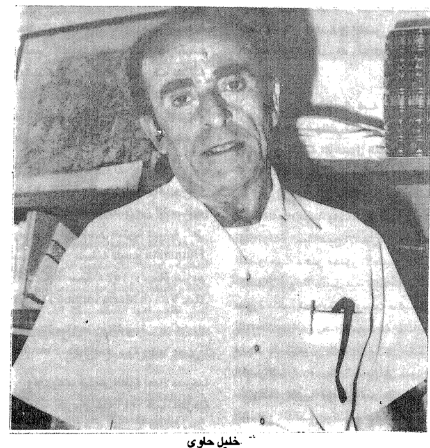
هل رأيت بيروت ؛ كيف وقفت طوال إحدى عشرة ساعة كاملة متواصلة ؟

وسط هذا الجحيم أطلق خليل حاوى قنبلة هزت العالم العربى ، انتحر ، خبر بثته الإذاعات ضمن الحدث الهائل ، الحرب ، فغطى على دوىّ الصواريخ ، انتحر احتجاجاً على غزو مدينة العرب الأولى ؛ « ست الدنيا » كما أطلق عليها الشاعر الكبير نزار قبانى ، لقد احتج على صمت وخنوع العالم العربى ، كان الخبر يعادل انفجار خمسين قنبلة مرة واحدة ، مازال صداها حتى الآن .

صار التاريخ يكتب هكذا : ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٨٢ ، خليل حاوى .

عشر سنوات مرت على الغزو ، وعلى انتحار خليل حاوى ، وها هى مجلة الآداب تستدعى تلك الذاكرة ، بعد أن جرت فى النهر مياه كثيرة ، وتغيرت أفكار ومواقف ، ومدائن وخرائط . يقول سهيل ادريس صاحب مجلة الآداب وأحد الذين حدثوا فى بنية العقل العربى : أستطيع أن أؤكد أن خليل حاوى كان ركناً متيناً من أركان مجلة « الآداب » منذ انشائها .

ايطاليا


خليل حاوى

قالوا عن خليل حاوى :

(١) غالباً ما يعتمد خليل على الرموز فى بناء معظم صوره الشعرية ، الجزئية والكلية - ميشال أبو نجم .

(٢) خليل حاوى هو الشاعر الوحيد الذى لفت نظرى فى العالم العربى ، إنه شاعر له قدّ وحد .. وهذا شىء نادر فى الوجود عند شعراء الشرق والغرب المعاصر - بيتر باخمان .

(٣) انطلق خليل حاوى فى شعره من موقف وجودى ، يسعى إلى اكتشاف مغزى الوجود ، وما هية الحياة ، وانتهى إلى موقف عبثى ، وإلى ما يشبه العدم - ريتا عوضى .

« صبية مكتهلة »

صبية مكتهلة
تمارس المضاجعة
و لاتبالى ، هاجعة
فى ظلمة « مبتلة » متصلة .
تمتد فى جوف اللهب .
تمتد فى جوف الصخب
تمتد فى جوف العصب ..
من قصيدة لم تنشر لخليل حاوى .

مهدى محمد مصطفى

اعادة اكتشاف [عصر النهضة]

قامت إحدى دور النشر الإيطالية هذا الشهر الأعمال الكاملة للأديب والشاعر الإيطالى بيترو اريتينو Pietro Aretino فى اربعة وعشرين جزءا وذلك فى إطار احتفال ثقافى ضخم بمناسبة مرور خمسمائة عام على مولده فى مدينة اريتزو Arezzo سنة ١٤٩٢ . (توفى سنة ١٥٥٦ فى البندقية) .

وهذا الاحتفال يعد بمثابة اكتشاف جديد للأعمال النثرية والشعرية لهذا الفنان المتعدد المواهب كما يعتبر ايضا اقرارا بالدور الهام الذى لعبه اريتينو فى إثراء الحياة الثقافية فى عصر النهضة والتأثير على الحركات والاشكال الادبية فيه لا سيما وان الآراء النقدية كانت حتى القرن الماضى شديدة التباين فى الحكم على اعماله ، وكان اغلبها يصم تلك الأعمال بالخلاعة والمجون ، ويضعها بالتالى فى مستوى لا يرقى للمستويات الأدبية المرتفعة .

كما يعد هذا الاحتفال مناسبة جيدة لإعادة قراءة واكتشاف مختلف الشخصيات والاعمال الادبية ، وفرصة لتصحيح العديد من المفاهيم السائدة التي تناولت عصر النهضة الذى مضى عليه خمسة قرون .



روبرتو ارتينيو

كتب اريتينو سنة ١٥١٢ أول أعماله الشعرية « العمل الجديد "opera Nova" وفيها يصف محبوبته ويتحدث عن كمالها وجمالها بلغة شعرية عذبة ورقيقة ، بعد ذلك كتب سنة ١٥١٧ « الباسكوينيات "Pas- quinate — وهى عبارة عن مجموعة من القصائد التى تسخر من رجال السياسة والدين . وفى سنة ١٥٢٥ كتب مسرحيتين كوميديتين تسخران بدورهما من حياة القصور ورجالها ونسائها . وعندما كتب سنة ١٥٢٦ مجموعة قصائده الملجنة "Sonetti iussuriosi" انقلب عليه رجال الدين ومن ثم اضطر إلى الهرب إلى مدينة البندقية ليعيش فى حماية صديق له ينتمى إلى إحدى الاسر الحاكمة آنذاك . فى هذه الفترة نجح اريتينو فى أن يجمع حوله مجموعة كبيرة من رجال الفن والأدب مثل تيتسيانو Tiziano وبيترو بيمبو Pietro Bembo ليشكل مركزا من اهم مراكز الثقافة فى ذلك الوقت .

استمر اريتينو فى تقديم اعماله دون أن يعبأ بتهديدات ومضايقات رجال السياسة والدين الذين كانوا يخشون مواجهته ويتحاشون الاحتكاك المباشر به لقدرته المتناهية فى السخرية والهجاء ولما كان يكتبه فيهم من اعمال تعدى فيها حدود الاشكال الهجائية المعروفة وحوّلها إلى اعمال تشهيرية يفضح فيها الجميع .

(فى الفترة ما بين سنة ١٥٣٣ وسنة ١٥٤٣ كتب مجموعتين من القصائد ومجموعة من الاعمال النثرية الدينية . على سبيل المثال : انسانية المسيح Humanita di Cristo سنة ١٥٣٥ « حياة مريم العذراء Vita di Maria vergine حياة حياة كاترينا العذراء الشهيدة vita di Cater- ina vergine e martire سنة ١٥٤٠ .

وكان يكتب فى نفس الفترة اعمالا مسرحية كوميدية أخرى فى سنة ١٥٤٦ كتب المسرحية التراجيدية « أوراتسيو orazio والتى يعتبرها الدارسون اهم تراجيديا كتبت فى عصر النهضة فى ايطاليا على الإطلاق .

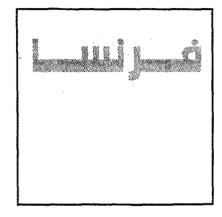
كما كتب أريتينو مجموعة ضخمة وهامة من الرسائل ، تم نشرها فى الفترة من سنة ١٥٣٨ حتى ١٥٥٧ يستعرض فيها قوة أسلوبه وتمكنه من أدواته الأدبية وقدرته على الكتابة فى اى من أشكال الأدب .

اما أشهر اعماله فهى « حديث وحوار Ragionamento e dialogo ١٥٣٤ و١٥٣٦ وهى عبارة عن مجموعة من الحوارات بين مجموعة من العاهرات فى احد بيوت الدعارة يتبادلن فيها مختلف النصائح والخبرات ، ويتناول فيها الكاتب بواقعية ساخرة حياة تلك العاهرات وتجاربهن الخاصة وأسرار مهنتهن كما يكشف عن خبايا الحياة الجنسية غير المعلنة فى القصور وفى بعض الأوساط الدينية الغارقة ـ آنذاك ـ فى الفسق والمجون .

تسيطر على اريتينو الرغبة الملحة التى سادت تلك الفترة والتى تمثلت فى البحث عن الكمال ومحاولة الوصول إليه من خلال الروح النقدية والدراسة المتانية والتامل الواقعى للأشياء ومن منطلق بعيد كل البعد عن المفاهيم الدينية والأخلاقية السابقة على تلك المرحلة . هنا أصبح الإنسان ـ فى صورته النموذجية ـ هو محور الاهتمام وقلب الأحداث . وكما تخيل بيتراركا Petrarca صورة مثالية لمحبوبته ، وبحث ماكيافللى Macchiavelli عن رجل السياسة المثالى ، وبحث كاستيليونى Castiglione عن سيدة القصر المثالية ، وبحث الجميع عن نموذج مثالى للغة الأدبية نجد أريتينو يتناول جل النماذج المثالية المذكورة ليضيف اليها نموذج المراة المثالية من وجهة نظر جنسية بحتة .

يقدم الأعمال الكاملة ويشرح لها مجموعة من نقاد الأدب والباحثين على راسهم جوفاننى اكويليكيا Giovanni Aquilecchia وأنجلو رومانو Angelo Romano وقد نجحوا جميعا فى عرض هذه الاعمال بدقة متناهية مستعينين بمجموعة كبيرة من الوثائق التاريخية لتلك المرحلة الهامة من تاريخ الأدب والفن لا فى ايطاليا فحسب بل فى العالم باسره .■

أحمد المغربى



فرنسا تشكو نقص الرواية

فـ« أوليفييه مونيجان » رئيس تحرير مجلة « إسبري » كان قد نشر في عدد ٣ يوليو من جريدة لوموند وجهة نظر تحت عنوان : « الهوية والادب : فرنسا تشكو نقص الرواية » ، وفي هذا المقال تبدو الرواية الفرنسية اليوم وكأنها مجرد « تقوقع داخل الذات » ، وإجترار لإرضاء النفس ، او « إحساس بالاغتراب عن التاريخ » ، في الوقت الذى تعيش فيه الرواية الأنجلو ـ سكسونية مرحلة من الانتعاش .

وقد نشرت لوموند في الرابع عشر من الشهر الماضى ردا لدانيال سالناف ، الباحث والناقد ، على « أوليفييه مونجان » طرح فيه السؤال التالى : « هل لنا أن ندين الرواية الفرنسية اليوم لأنها تمثل سيرة ذاتية مقنّعة ؟

وعلى هذا التساؤل يجيب دانيال سالناف بالحديث عن العلاقة الغامضة والتبادل السرى بين الحياة والعمل الادبى ، تلك العلاقة الحاضرة في كل مشروع روائى كبير !

ويضيف :

تقول « مارجريت » يورسونار « في ندوة اقيمت عن علاقة اعمالها بالسيرة الذاتية :

— السيرة الذاتية ؟ ، ولكننا لا نستطيع

ان نقول انه لا يوجد عمل من اعمالى يمكن ان نطلق عليه سيرة ذاتية . او ان نستطيع ان نطلق عليها « كلها » ذلك المسمى » .

وهنا تختفى الحدود الفاصلة بين السيرة الذاتية وغيرها ، تلك الحدود التى تبدو لأول وهلة واضحة في اعمال مارجريت يورسونار ، التى تظهر فيها الشخصيات التاريخية متحدثة بضمير الانا ـ مقيدة لحرية الكاتبة في ان تطلق العنان للخيال الروائى .

إن العلاقة بين الرواية والكتابة عن الذات هى ، بالطبيعة علاقة اكثر تركيبا وتعقيدا مما اشار إليه « أوليفييه مونجان » الذى يرى أن الرواية الفرنسية الحالية لا تقوم بوظيفتها ، لأنها تقتصر على ان تكون سيرة ذاتية مقنّعة ، ونستطيع ان نعطيه الحق في ذلك ، فقد مللنا تلك الروايات التى يترك فيها الكاتب نفسه للتعبير عن وجوده الفردى بطريقة متخفية ، ويتفادى كل مخاطرة لارتياد عوالم اخرى غير عالمه الشخصى الضيق .

والقارىء لا يستطيع تلقى تلك الأعمال بغير « إحساس ما » بعدم الارتياح الذى يتحول تدريجيا إلى ملل .

علاوة على أن هذه الإعترافات » المتخفية في صورة رواية) ليست من السيرة الذاتية في شىء ، فهى ليست عودة ورجوع إلى الذات ، وهى لا تواجه الحقيقة او الواقع . إنها تتجنب المخاطرة التى تحملها مغامرة السيرة الذاتية والتى هى : زعزعة البديهيات الأكثر استقرارا ، والتلاعب بحدود الأنا ، والدعوة إلى إعادة تفريغها .

كما ان هذه الأعمال لا تمثل الرواية بمعناها الحقيقى ، إنما ترتدى الثوب المريح للرواية ذات التقاليد الراسخة .

إنها تسمح فقط للكاتب بان يمارس نوعا من « النرجسية » ، نوعا من المتعة المندهشة امام صورته ، وتساعده على ان ينحتها في قالب له تراث كبير .

والرواية لا تكسب شيئا من وراء تلك الأعمال الخاضعة للتقليد ، والخالية من الإبداع .

فالرواية ليست اكثر من السيرة الذاتية خضوعا للواقع .

فالواقع في الرواية هو تحويل للتجربة المعاشة حقا .

اما تلك الأعمال فهى ليست إلا جهدا ضئيلا يقدمه الكاتب للناشر او للجمهور لتستمر عملية إنتاج واستهلاك الكتب .

ولكن فليطمئن كل منا : فتلك الأعمال ما هى إلا مجرد أعمال « ادبية » قليلة القيمة ، اما الأعمال الروائية العظيمة فإنها تخوض المغامرة وتقبل المخاطرة المصيرية .

إن أوليفييه مونجان يتحدث عن أعمال لا تستحق ان توصف بانها اعمال ادبية . إنها نتاج فترة زمنية محددة وسوف تزول بزوالها .

إنها اعمال لا تستطيع ان تبلغ عظمة الرواية او حتى السيرة الذاتية . ويجب

علينا الا نتوقف عندها لندين العصر كله ، او لنردد ما يقوله البعض من ان فرنسا ليست بلد الرواية العظيمة ، فلنترك اختبار هذه الأمثلة الضعيفة ونطرح للمناقشة العلاقة بين العمل الروائى والسيرة الذاتية .

فى الحقيقة ماذا يفيد فهمنا للادب من إقامة « تعارض » بين السيرة الذاتية « الحقيقية » ، والتى هى كتابة عن الذات وعودة إليها ، من جهة ، وبين الرواية الحقيقية ، التى هى إبداع وخيال خاص ـ من جهة أخرى ؟

الأجدى بنا فى الواقع ان نطرح تساؤلا آخر وهو : ماذا علينا ان نبتكره ونبدعه فى الرواية ؟ اليس كل شىء موجودًا بالفعل فى العالم وفى الكتب ، نراه من خلال خبراتنا به ؟

إن الجزء الخاص بالابتكار والإبداع فى الرواية هو جزء صغير ، اصغر مما نعتقد او نتصور ، فليست الرواية كلها ابتكارا واستحداثا ، هذا لا يعنى ان نبحث مثلا فى حياة نابوكوف عن الحوريات ، او عن تفاصيل المغامرات الفاشلة لهمبرت همبرت التى كتب عنها .

ولكن علينا ان ندرك ان كل مشروع روائى عظيم يحمل فى ثناياه « عقدا » ما (او معاهدة) غامضا وسريا مع الحياة ، من خلاله يتم التبادل بين العمل الروائى والحياة ، ومن خلال هذا الفهم لطبيعة العمل الروائى يمكن ان نخضع ادبنا كله لمراجعة شاملة بدلا من محاولة التصنيف احادية الجانب .

وهذا ما يوضحه ظهور انواع وسط بين نوعين . او ظهور المذكرات التى لا تكتفى بالكتابة عن التجربة ، ولكن تحاول الإمساك بلحظة الإبداع التى تتحول فيها التجربة إلى كتابة .

هذا ما توضحه ايضا الأعمال الادبية البالغة الإتقان ، بدءا بمرجريت دوراس ، إلى آنى آرتو ، ومن سولر او جيبار او كلافرت ، إلى لوكليزيو او هنرى توماس .

اعمالهم هى احيانا تاملات او « صور ذهنية » للحياة والتجربة الذاتية ، واحيانا اخرى هى إرادة الإمساك بالاشياء الواقعية وكانها لا تريد التدخل فى سريان الحياة .

وهكذا تبدو الكتابة فى حقيقتها نوعا من فن السيطرة على الآثار الخطيرة للعودة التى تصم الحياة ببصماتها .

فالكتابة عودة متفردة إلى الذات والواقع ؛ وتبدو حياة الكاتب منذ لحظة الكتابة وكانها خط حلزونى لا ينتهى إلا بالموت . خط يدعو دائما إلى حيث المغامرة المشتركة للحياة والكتابة معا . تلك التى تبدا كل يوم من جديد ، وكما يقول الكتاب المقدس : « من ياتى بعدى ياتى قبلى » هكذا يضطرب مبدأ « السببية » فى الوجود المعاش للكاتب .

وعلى رغم كل ما كتبه « بروست » ضد « سانت ـ بيفى » ممجدا الانا العميقة للكاتب ، يظل هناك التساؤل عن موقع الاختيار ؟ لنوضح ما نقصد بطريقة اكثر مباشرة : هل عاش بروست مغلقا على ذاته ليكتب « البحث عن الزمن الضائع » ام انه كتب العمل نفسه من اجل ان يعيش ذلك الانغلاق ؟ لايهما الاسبقية ؟

وإذا توقفنا امام اعمال لا تتسم بالذاتية المفرطة ، وتبدو بعيدة عن حياة كاتبها (كاعمال نابو كوف مثلا) فالسؤال المطروح يتغير ، ولكن يظل العمل الروائى مستحيل التحرر تماما من الحياة والتجربة الذاتية مهما كان الكاتب مقتنعا بتحرره منهما ، فإن عناصر واجزاء من الحياة لابد لها ان تغذى العمل الروائى ، ولكنها تظل متخفية وغير ظاهرة فى العمل .

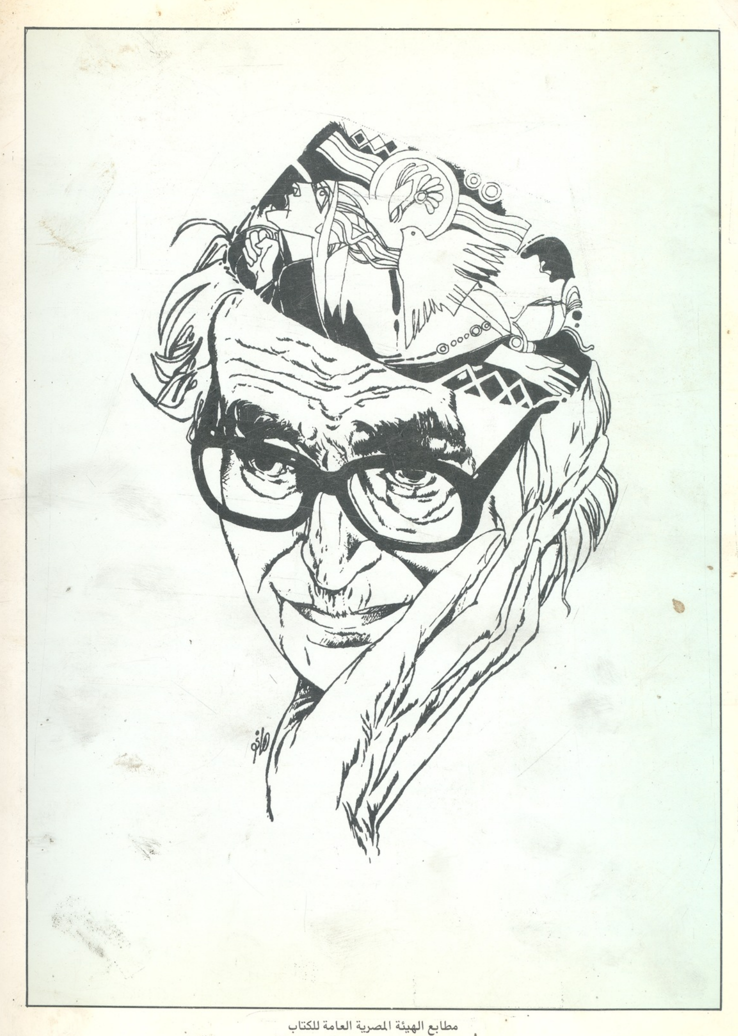
هناك تساؤل ميتافيزيقى يطرح نفسه هو : لماذا انتج الروائى هذا العمل الذى يبدو بعيدا عن حياته ؟

يبدو اننا سنجد الإجابة عن هذا السؤال فى هذا الهاجس المسيطر على المبدع لتحويل هذه المادة الاولية (الحياة) ، هذه المادة الفانية ، إلى شىء آخر خالد : « إننى انتزع العمل من حياتى حتى لا تفنى تماما .. » اى اننى لا اريد ان تصبح حياتى عملا روائيا ولذلك اكتب » ، هكذا يعلق دانيال سالناف مضيفا :

« لنفهم ذلك باى معنى نريد ، فهو دائما صواب » .

ترجمة : منى سعفان

على الغلاف الأخير
بروتريه للشاعر الكبير
محمد مهدى الجواهرى
للفنان المصرى ، هـــانى



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب